

تاريخ الأديان وفلسفتها

بقلم
العَمِيدُ الرُّكْنِ
طاهر الهاشمي

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

جميع الحقوق محفوظة



١٩٦٣/٨



تاريخ الاديان وفلسفتها

كلمة المؤلف

ان صلتى بدراسة تاريخ الاديان بدأت سنة ١٩٢٦ عندما كلفني المرحوم الاستاذ فهمي المدرس عميد جامعة آل البيت وقتئذ بتدريس هذا الموضوع في الشعبة العالية الدينية في الجامعة وقد ترددت في بادىء الامر في القبول لبعده الموضوع عن اختصاصي من جهة ، ولفقدان المراجع الكافية من جهة اخرى . على انه كان في مكنتي آنذاك بعض الكتب الاجنبية الباحثة عن معتقدات البادئين وعن دين اليونان والرومان ودين الهنود . ولكن لم تكن تلك الكتب وحدها لتكفي في تدريس تاريخ الاديان دراسة اصولية . وقد أشرت الى ذلك في العدد الاول من مجلة الجامعة الصادرة في ١٥ اذار سنة ١٩٢٦ وقلت :

« لما كلفت ان ادرس تاريخ الاديان في الشعبة العالية الدينية من

جامعة آل البيت طلبت الامهال ريثا اتعن في أعباء هذا التكليف . وان كنت من الحريصين على تدقيق منشأ الديانات وصور تطورها وعلاقة بعضها ببعض ، وقد قرأت قبل الحرب الكبرى من المؤلفات الاجنبية مباحث الاديان الهندية واليونانية والرومانية فزاد تعلقي بالموضوع ، غير ان الحرب العتيدة - التي كنت من جملة من خاض غمارها والالام الحرجة بعدها حالت دون امنيتي وهذا ما جعلني اتردد تارة واجنح تارة اخرى حتى دفعني الولوج بهذا البحث الى تبعة القبول .

وقد اعانني وشجعني على قبول الاضطلاع بتدريس هذا الموضوع ان عثرت على عدد من المراجع المهمة منها كتاب تاريخ الاديان كان الفه استاذ تركي في كلية الاهليات في جامعة استانبول في مكتبة الاستاذ المدرس وكتاب تاريخ الاديان للاستاذ (شانتي دي لاسو ساي) استاذ تاريخ الاديان في جامعة ليدن لدى الاستاذ ساطع الحصري . فهذا الكتاب الاخير على قدمه وخلوه من النظريات الحديثة عن منشأ الاديان كان يتضمن معلومات قيمة تساعد المدرس على تدريس الموضوع . وهكذا اتيح لي ان احاضر في تاريخ الاديان في الشعبة العالية الدينية في جامعة آل البيت نحواً من ثلاث سنوات . وان ائشر محاضراتي في مجلة الجامعة . وقد جمعت خلال تلك الفترة وبعدها عدداً من المراجع المهمة عن تاريخ الاديان نشر اكثرها بالانجليزية والافرنسية . ولم انقطع عن متابعة دراسة الموضوع رغم انقطاعي عن تدريسه بعد سد حاجة جامعة آل البيت . وفي سنة ١٩٥٥ طلب الي من جديد تدريس تاريخ الاديان في كلية الشريعة بعد ادخال الموضوع في منهج الدراسة في الكلية ، فلبيت الطلب هذه المرة بترحاب . وشرعت بالقاء المحاضرات في الصفين الثالث والرابع . وقد استمر تدريسي في الكلية ثلاث سنوات تدريسية درست خلالها

النظريات الشائعة عن منشأ الدين البدائي الاول كالروحية والطبيعية والطوطمية ، ونظرية التأليه الحديثة والوثنية ، واديان الشعوب المتوحشة ، ودين الصين واليابان ، ودين السومريين والبابليين والآشوريين والفينيقيين . ودين اسرائيل والاديان الهندية ودين الفرس ودين اليونان .

ولم يتيسر لي في فترة التدريس طبع المحاضرات لكثرة انشغالي آنذاك رغم الطلبات الملحة من الاساتذة والطلاب . ثم حانت لي الفرصة تفرغت خلالها لاعادة النظر في محاضرات تاريخ الاديان فنسقتها من جديد وتوسعت في بعض موضوعاتها وفصولها لاجراها بصورة كتاب لا محاضرات . وهذا هو الجزء الاول من ثلاثة اجزاء في تاريخ الاديان . وتعتبر المقدمة والبابان الاول والثاني من هذا الجزء بمثابة مدخل لتاريخ الاديان لانها تتضمن جميع النظريات عن منشأ الاديان قديمها وحديثها وتحتوي ما ينبغي معرفته من معلومات لدراسة اديان الشعوب المتوحشة الحالية في استراليا وجزر الاوقيانوس وفي افريقيا وفي امريكا . واعتمدت في ذلك على الدراسات الحديثة ولا سيما التي دونت في تاريخ الاديان العام الصادر بالفرنسية بخمس مجلدات (١) وتاريخ الاديان بالاطالية الصادر بمجلدين (٢) وسيرى القارئ ان طريقي في اخراج الكتاب تتلخص بجمع المعلومات من مظانها كما هي ، اكثر منها محاولة للتوفيق بينها كما هو المتعارف . وقد تكون هناك بعض المناقضات باختلاف آراء واستنتاجات

Histoire Generale des Religions sous la direction des M.M. - ١
Maxime Gorce et Raoul Mortier (Librairie Arstide Quillet Paris
1948)

Storia delle Religioni Petro Tacchi Venturi Turino 1949 - ٢

بإشراف بييرو تاكي فتوري وتعاون اساتذة عديدين .

الباحثين المتضلعين بهذا الامر. ولم احاول الترجيح وفضلت ان اوردها كما هي ليطلع القارئ على مختلف وجهات النظر . وقد اسهبت كثيراً في ذكر المعلومات التي لا بد من معرفتها لدراسة اديان الشعوب المتوحشة ، واستندت في ذلك الى الكتب المترجمة في مصر وكتب اخرى اشرت اليها في الهوامش . وعلى الرغم من صدور كتب عديدة في السنوات الاخيرة عن الاديان في العالم العربي فان الموضوع ما زال يفتقر الى كتاب جامع يبحث في تاريخ الاديان القديمة منها والحديثة ، والبدائية والتكاملة. وارجو ان يكون كتابي هذا محاولة متواضعة لسد هذا الفراغ .

ويشمل الجزء الاول من كتابي هذا على موضوعات تعتبر المدخل لدراسة تاريخ الاديان . اما الجزء الثاني فسيبحث دين الصين ودين اليابان والدين المصري ، واديان الاقوام السامية القديمة ، وما جاورها من الشعوب ودين اسرائيل . اما الجزء الثالث فسيتضمن اديان الاقوام الآرية كالهندية والفرس واليونان والرومان والمسيحية وارجو ان اوفق الى اخراج الاجزاء الثلاثة . واود بهذه المناسبة ان اشير الى ما بذله صديقي الدكتور عبد الرحمن الجليلي من جهد في مراجعته لمسودات الكتاب وتنبهه اياي الى كثير من النقاط التي غابت عني . اشكره على ذلك واعترف بانه كان له الاثر البالغ في تشجيعه اياي على اخراج الكتاب . وبعد فهذه اول محاولة متواضعة في البحث عن تاريخ الاديان ، فاذا سدت الفراغ في المكتبة العربية فانها خير مكافأة للجهد وهو حسبي ومن الله التوفيق .

طه الهاشمي

المقدمة

الدين مؤسسة اجتماعية لا تستغني عنها اية جمعية بشرية مهما كانت بدائية ، وفكرة الدين مندوجة بالانسان منذ اول نشأته . وقد دل التنقيب على ان البشر حتى في ادوار ما قبل التاريخ كان متأثراً بفكرة الدين . فبشر نندرتال مثلا الذي كان يعيش في الدور الحجري قبل نحو مائة الف سنة ظهر بين مخلفاته ما يدل على انه متأثر بالدين . وعثر علماء البشريات في انحاء اوربا الغربية والشمالية على اثار لمقابر دفن البشر الاول موتاه فيها ، وقد اقام حول القبور احجاراً كبيرة ووضع سقفا من حجرة ضخمة . ومن الاثار القديمة ما يدل على ان بشر ما قبل التاريخ كان يدفن موتاه باتجاه معين ، ويضع بجانبهم الادوات التي كانوا يستعملونها في حياتهم من اسلحة وطعام وغير ذلك . ويُجري في الدفن طقوساً تدل

على ان البشر كان يلتبس من ذلك الخير ويتقي الشر . وتدل هذه الاثار بوضوح على ان البشر الاول كان متأثراً بفكرة الدين في ادوار جاهليته الاولى حينما كان يلتجئ الى الكهف ويعيش على جمع الطعام وصيد الحيوان بادوات بدائية صنعها من الحجارة . ومن الجلي ان فكرة الدين هذه كانت ساذجة تتصف بالخوف والرجاء ، الخوف من مظاهر الطبيعة الخيفة والرجاء من مظاهرها الخيرة .

وليس بين المؤسسات الاجتماعية مؤسسة تضاهي سلطان الدين في سيطرته على الافراد وزجرهم وكبح جماح غرائزهم سواء اكان الفرد بدائياً او متمدناً . والاديان البدائية على سذجها تقسم الاشياء الى مجموعتين : مجموعة حرمتها ومجموعة أحلتها ، والحرام ما لا يجوز مسه او التقرب منه او اكله . ويعتقد الفرد بأنه اذا خالف هذا التحريم يعاقب عليه عقاباً غيبياً . اذا درسنا الاديان المتكاملة لدى الاقوام القديمة والاقوام الحالية على اختلاف اوضاعها وأحكامها نرى ان للدين اوامر ونواهي يمنع بعضها افعالاً معينة . ويأمر بعضها الاخر بالقيام باعمال اخرى . ومن يعنى النظر في هذه الاوامر والنواهي يرى ان كثيراً منها جاء في مصلحة الجمعية البشرية . اما الاديان السماوية فواضح ان نواهيها لخير البشر ، وتتفق على كثير منها كقتل النفس والزنا والسرقه وغير ذلك . ولا يخفى ان للدين نواحي نفسية تشجع الانسان على احتمال المصائب والصمود في النكبات وتساعد على ان يكون متفائلاً .

ولا جدال في ان موقف الملحد الذي ينكر الدين ويزعم ان الطبيعة هي التي كونت الاكوان وتصرفت في شؤونها . فان موقفه حين تلم به مصيبة فيجزع لها ويضطرب ، يختلف عن موقف المؤمن الصابر الذي يرضى بقضاء الله لانه لا مرد لامر الله .

وإذا كان الدين ظاهرة وحاجة اجتماعية رافقت البشر منذ اول نشأته بحيث لم تخل جمعية بشرية من دين يلائم طباعها ويوافق بيئتها ، فمن الطبيعي ان يتجلى للباحث المقارن - من دراسة الآثار التي اكتشفها العلماء في الاطلال الدوارس التي لا يزال بعضها يتلبس حضارة الدور الحجري - ان فكرة الدين تطورت من حالة بدائية ساذجة الى حالة عالية متكاملة وان لرقى الفكر البشري نصيباً كبيراً من هذا التكامل وقد اشارت الاية الكريمة التي وصفت ايمان ابراهيم عليه السلام اشارة رمزية الى فكرة تطور الدين :

« وكذلك رأى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين . لما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا احب الافلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربي لاكون من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر لما أفلت قال يا قوم انى بريء مما تشركون . انى وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً وما انا من المشركين » .

وقد قضى البشر قروناً لم ينفك خلالها عن معرفة منشأه ومصيره وكان في طريقه الى هذه المعرفة يقف تارة حائراً ويهرول تارة مسرعاً متحمساً ويضل الطريق طوراً فيقع في الهاوية ويسعى الى الخروج منها . ويمشي اونة خائفاً وجلا يقدم رجلاً ويؤخر اخرى . وهو في كل حالاته هذه يتلهف الى معرفة بارئه والنظر في مصيره : من اين والى اين ؟ هذا هو السر الذي جعل البشر يتشوق الى تلك المعرفة ويحث السير اليها . ولم يتأثر البشر بادية امره بفكرة الدين مدفوعاً بدافع المعرفة ، لانه كان

قاصراً الادراك ، وانما دفعته ملاحظته لما يحيط به ، وحيرته أمام الاسرار التي يراها ولا يدرك كنهها ، الى التدين ليدفع عن نفسه الضر او يجلب لها الخير . فقد رأى قريبه يموت ولا يعلم ما حل به والعاصفة تهب وتقلع الشجرة التي كان يأوي تحت اغصانها ، والامطار تغمر الكهف الذي التجأ اليه والصاعقة تبرق فتحرق كوخه . ولتأخذ الموت مثلاً فقد حيره امره فان قريبه الميت ذهب وانقضى ولكنه يتراءى له في احلامه يلعب ويمرح كأنه ما زال حياً ، فيعجب لذلك . ويربط هذا بذلك ، فاذا به يتصور ان الانسان مكون من شيئين : شيء ظاهري يرى بالعين ويلمس باليد وهذا هو الجسد وشيء اخر خفي هو الروح . وامتد به الامر فوصل بين مظاهر الطبيعة الخفية كالرعد والصاعقة والفيضان والحريق وبين الميت ، وراح بعد ذلك يتقرب الى هذه المظاهر ليتقي شرها واستنجد بالميت ليأمن بطش روحه .

هكذا تطور التفكير الديني لدى الانسان الاول حتى اعتقد بقوة الروح . وآله مظاهر الطبيعة مما شاقه واستراح اليه كالشمس والنار والريبع ، وما خافه واضطرب منه كالظلام والعاصفة والرعد والصاعقة وهكذا اتخذ من هذه المظاهر الهة خير والهة شر ، ثم امسى وثنياً من في اعتقاده يعبد الاحجار والاشجار . ولما تدرج في سلم الرقي وسما ادراكه وفطن الى انه لا يجوز ان يكون للاحجار والاشجار الحول والطول اعرض عنها وعظم الروح التي توهمها فيها ، وزاد من شأنها ونسب اليها قدرة التصرف في الكائنات خيراً وشرأ ، ثم صار مشتركاً يعبد الهة متعددة ، يتقرب اليها بالصلوات ويتقي شرها بالاضاحي والندور ، بيد ان البشر لم يستمر على هذا الاعتقاد طويلاً ، بل لاحظ النظام الباهر الذي تسير عليه الأكوان ، وأخذ يتساءل عما إذا كان يجوز لهذه الالهة

المتعددة ان تتصرف في الكون بذلك النظام دون ان تكون خاضعة الى سلطة أعلى منها مقاماً وأعظم شأنًا . وكان يرى في نظام الحكم الذي يخضع اليه مثلاً لذلك . وهكذا وضع إلهاً أجلاً أعلاه فوق آلهته المتعددين ، تعمل بأوامره . وتطور هذا الاعتقاد عند البعض فرأى انه من الضلال أن يحتاج ذلك الإله الى مساعدة الآلهة الأخرى فأجله ونزهه عن الشركاء واعتقد بإله واحد أحد .

هكذا تدرج البشر من سلم الاعتقاد من معتقد ساذج الى معتقد تطور شيئاً فشيئاً من الوثنية والشرك فانتهى بالتوحيد . وكان البشر في طريق اعتقاده هذا مدفوعاً دوماً الى معرفة القوة الفاعلة المدبرة للكون ، والى الوقوف على السر الغامض ، سر المبدأ والمعاد . من أين وإلى أين ؟ وخلال تطوافه الطويل في تضليلاته وأوهامه أسره الكهنة والمنجمون ، وسلم للأسرار ، فحمل التائم ووضع الطقوس وظل يخبط في سيره لا يستقر على عقيدة حتى تنهافت أمامه مسرعة أو متباطئة الى أن جاء الانبياء والمرسلون فأنقذوه من الشك وهدوه السبيل . ووجد في الكتب المنزلة مفتاح السر المكنون الذي ضل في البحث عنه قروناً ، وآمن بخالق الكون وصار يتأهب للمعاد . ولم يكن البشر في طريقه الى معرفة الحقيقة مطمئن البال ، هادىء النفس ، إلا بعد إيمانه بتعاليم السحرة واعتقاده بطقوس الكهان ، واستسلامه أخيراً الى آيات الأنبياء ، وكلما ضعف إيمانه وتضعع بنيان معتقده ، كان يخنق للشك وينقاد الى الريب ، فيقلق باله وتضطرب نفسه ، فلا هو مؤمن بما فطر عليه ليلتجىء اليه عند الشدائد ، ولا بالغ الى الحقيقة فيستمسك بها عند المصائب . تجلى ذلك كله لمؤرخي الأديان وأحاط به علماء الاجتماع فوصلوا الى هذه النتيجة ، وهي : إن أحسن دور عاش فيه الناس هو دور الايمان ،

وان أهنأ أيام يقضيها الانسان هي ايام اعتقاده بتعاليم دينه فيتمسك بها وقت الشدائد ، لتكون له خير سلوان .

ان بحثنا هذا في موضوع تاريخ الاديان لا يتعرض الى بطلان الاديان التي نتناولها او صحتها وانما نعرضها كما يتطلب البحث الموضوعي وكما وصلت الينا . فالاديان القديمة تقوم على فكرة التحليل والتحريم ، والخوف والرجاء وعلى طقوس ومراسم جلب الخير او دفع الضرر . وقد تتفق مع الاديان السماوية المعروفة في بعض جوانبها وقد لا تتفق . ولكنها مهما كان حالها بالنسبة لمعتقداتنا فإنها عقيدة دينية انتظمت اقواماً في بعض ادوار التاريخ ونحن ندرسها على هذا الاساس . ان القارىء سيجد في صفحات الكتاب ان الشعوب المتوحشة آمنت بالكائن الاعلى على انفراد ، وآمنت بمبادئ واحكام متشابهة ، اذا امعنا النظر فيها وجدنا كثيراً منها تتشابه في قليل او في كثير مع الاديان السماوية ، الا ان الجهل والاساطير حرفا فيها وغيرا فبدت كما هي اليوم من الغرابة بمكان . ان هذا التشابه يعلل بالاية الكريمة : « وما من امة الا خلا فيها نذير » .

غير ان الخرافات والاساطير غلفت كثيراً من جوهر الاديان ولكنها مع ذلك لم تستطع ان تطفىء نور الله .

تاريخ الأديان وفلسفتها

- ١ -

ما من شك في ان موضوع تاريخ الاديان موضوع شائك ، وقد يضر بالطالب اذا لم يحسن دراسته لهذا يجب ان يتهيأ لدراسته ، وهذا يتطلب منه ان يلم اولا بامور دينه الماماً تاماً ، وان يكمل بعض الدراسات الاخرى التي من شأنها تفهم موضوع الاديان ، والا فقد يسيء ذلك الى معتقدات الطلاب . لذلك لا يمكن لدارسي تاريخ الاديان تفهم الغاية منه ما لم يكن لهم وقوف تام على احكام دينهم .

وكان علماء المسلمين الاقدمون يمنعون تدريس بعض المباحث في المدارس قبل ان يتهيأ لها الطلاب ، من ذلك منع بعضهم تدريس علم الكلام وعلم المنطق اعتقاداً منهم ان الدراسة المذكورة قد تضر الطالب المبتدئ قبل الاستعداد الكافي لها . وفي الغرب يدرس تاريخ الاديان عادة في كليات الالهيات وفي الكليات الدينية الخاصة بالمؤسسات الدينية ، ولا

ينتمي لهذه الكليات الا من اكمل الدراسة الدينية او الدراسات الخاصة التي تؤهله لدراسة تاريخ الاديان . ومن ذلك ان يكون الطالب ملماً بالجغرافية والتاريخ وعلم الاقوام وعلم الاجتماع وعلم النفس ، والاجدر به ان يكون صبوراً ينتظر نهاية البحث قبل ان يتبنى اراء خاطئة . كما ينبغي للطالب بعض الصفات لدراسة تاريخ الاديان ، فكذلك ينبغي للمدرس ان يكون خليقاً بتدريس تاريخ الاديان اذا كان الغرض من تاريخ الاديان هو الوقوف على منشأ الاديان ودرس شعائرها وطقوسها ومعرفة وجه الشبه او موضع الاختلاف بينها ، فالواجب على المدرس ان يكون محايداً اثناء الدرس لمعرفة الغاية من الدرس ، لا الانتصار لدين او التهجم على آخر . والاجدر بالمدرس ان يعمل بما قاله الفيلسوف الافرنسي (ديكارت) : « خليك بالباحث في الفلسفة ان ينسى جميع ما كان يعلمه ويشرع بالدرس من جديد » . ولا شك في ان الحياذ التام والتجرد من سلطان العواطف من الامور الصعبة لكن قد يساعد على ذلك سلوك الطريقة التي وضعها علم البحث في الاديان ، وهي تدريس الاديان من ثلاثة اوجه لا غير وهي : الوجة التاريخية والوجة القياسية والوجة النفسية . فاما الوجة التاريخية فهي تدقيق تاريخ دين ما بدون التطرق الى الاديان الاخرى ، واما الوجة القياسية فهي تدقيق الدين من حيث اتفاق احكامه مع الاديان الاخرى ، اي اجراء مقارنة بينه وبين الاديان الاخرى . وهذا ما يسمى بتاريخ الاديان المقارن ، واما الوجة النفسية فهي البحث عن مطابقة ذلك الدين لنفسية معتنقيه .

ويبحث علم الاديان عن منشأ الاديان وكيفية تطورها ، ويتشعب الى شعبتين : تاريخ الاديان وفلسفة الاديان ، اما تاريخ الاديان فانه يبحث عن تطور المعتقدات الدينية التي طرأت على البشر ، وفي ضمنها

معتقدات الشعوب المتوحشة وطقوسها الدينية تلك الشعوب التي لم يكن لها تاريخ ونظام سياسي . وفي الواقع لا يتيسر معرفة منشأ الأديان إلا بدراسة معتقدات الشعوب المتوحشة الغابرة منها والحالية . ويبحث تاريخ الأديان في الأكثر عن الأقاليم المتمدنة فيسبر غور دياناتها ويعقب سير تكاملها .

أما فلسفة الأديان فإنها تبحث في العلاقات بين الأسس التي تستند إليها الأديان المختلفة . إن تاريخ الأديان وفلسفة الأديان يؤلفان كلا لا انفصال لأحدهما عن الآخر . فعندما ندرس تاريخ الأديان الهندية تبدو لنا العلاقة بين تاريخ تلك الأديان وفلسفتها . وتبدو هذه العلاقة في الإسلام ، فالصوف مثلاً ينهل من معين فلسفة الدين الإسلامي . أما علم الكلام فله صلة وثقى بفلسفة الدين الإسلامي ، لهذا ليس لتاريخ الأديان غنى عن فلسفة الأديان . ولو فرضنا أن فلسفة الأديان لا تتناول المفاهيم الدينية والتنقيب عنه من دون الالتفات إلى مظاهر الدين وطقوسه لتقاصرت عن الإيصال إلى الغاية المطلوبة لأن لتلك المظاهر والطقوس علاقة وثيقة بروح ذلك الدين . فلكي نتوصل إذن إلى الغاية المطلوبة يجب أن نبحث عن مظاهر الأديان المختلفة وطقوسها ورسومها لنقف على ما بين تلك الأديان من صلوات ، ولا يتم ذلك إلا إذا استعان الباحثون في فلسفة الأديان بدراسة تاريخ الأديان .

وكما إن تاريخ الأديان يحتاج إلى درس فلسفة الأديان فكذلك إذا أردنا تصنيف الحوادث الدينية وتصويرها والوقوف على عللها وأسبابها نرى من الضروري أن نتعرض لمباحث الفلسفة الدينية . ولا يتسنى لتاريخ الأديان البحث عن ظواهر الدين وطقوسه وعن تكامله ما لم يعرف مفهوم ذلك الدين لأن الغرض من تاريخ الأديان معرفتها ، على أنه مع وجود

هذا الارتباط القوي بين تاريخ الاديان وفلسفتها فانها يفترقان في موضوعاتها وبحوثها ، فيدخل في فلسفة الاديان مبحث ما وراء الطبيعة وعلم الكلام والتصوف ، اما تاريخ الاديان فنكتفي فيه بتدقيق تطور صورها ، واذا اريد معرفة الاسباب المؤدية الى هذا التطور والتكامل وجدنا ذلك في فلسفة الاديان .

وتدقق الاديان من وجهتين : الوجهة التاريخية والوجهة القياسية ، ويتم التدقيق من الوجهة التاريخية بتجريد الدين عن الاديان الاخرى وبدرسه على حدة ، وذلك لمعرفة نشوئه ونهايته ويتم التدقيق من الوجهة القياسية بدراسة الصلة بين دين معين والاديان الاخرى ، فننقب عن الاسس التي تربط تلك الاديان والتي تفرق بينها . ولا يكتفي تاريخ الاديان بوصف وتمييز جميع الاديان المعروفة وترتيبها في نظام فحسب ، بل انه يهدف الى بيان كيفية تطور الدين على مر القرون لدى الشعوب على اختلافها ولدى أسرات الشعوب المختلفة .

تاريخ الاديان وتاريخ علم الاديان : يختلف تاريخ الدين عن تاريخ الاديان ، ويستهدف تاريخ الدين بصورة عامة اظهار وحدة الظواهر النفسانية (السيكولوجية) التي هي الدين . ويبحث الاسباب التي جعلت تلك الظواهر تبدو على اشكال واوضاع مختلفة على مر القرون عند الاجيال والاقوام المختلفة ويتضح مما ذكرنا ان تاريخ الدين نبحت عنه كوحدة تتجلى بظاهرة نفسانية لا غنى للدين عنها ، وبتجنب المقارنة بين الاديان . اما تاريخ علم الاديان فقد سبق ان بينا انه يبحث عن منشأ الاديان وتطوراتها وواجه الاختلاف او الاتفاق فيما بينها .

مختصر تاريخ علم الاديان

كان الدين في الازمنة القديمة منبع العلوم والفلسفة ولا يستطيع الباحث وقتئذ ان يجرد الدين عن الفلسفة او عن العلوم ، فمظاهر الكون والحادثات الطبيعية مرجعها الدين ، والدين وحده يفسرها ويعلل اسبابها لهذا كان الكهنة هم المعلمين والاساتذة في المدارس التي انشئت في المعابد . وكان الكاهن هو العالم والكاتب والساحر والمنجم ، ولا يجوز لمن يتخذ الكهنوت مسلكاً له ان يتعلم القراءة والكتابة وكان العلم والفلسفة من اختصاص رجال الدين وحدهم ، وليس من شك في ان فلاسفة اليونان عندما تهاوت امام منطقتهم الفلسفي الاساطير الدينية التي تفسر مظاهر الكون وتعلل اسباب الحادثات الطبيعية نحواً في تفكيرهم الفلسفي منحى متحرراً من الدين . فسقراط اجبر على شرب السم بقرار من المحكمة لانه خالف التقاليد الدينية الموروثة ، واثار الشكوك والريب في قدرة الالهة . وعلى الرغم من ان فلاسفة اليونان والرومان حاولوا ان يجردوا الدين عن الفلسفة ، واستطاع بعضهم ان يفكر تفكيراً فلسفياً ، مجرداً عن الدين الا ان مزج الفلسفة بالدين واعتبار الفلسفة من مباحث الدين ظل سائداً مسيطراً على تفكير رجال الكنيسة النصرانية في القرون الوسطى . ولم يكن يسمح لرجال الكنيسة ان يدققوا الدين من الناحية الفلسفية . وظلت العلوم متأثرة بهذا التفكير لأنها كانت محصورة بأيدي رجال الاكليروس ، كما كانت القراءة والكتابة من اختصاص القسس والرهبان .

اما المسؤولون فانهم شرعوا منذ القرون الاولى للهجرة بتدقيق الدين من الناحية الفلسفية فظهرت طائفة المعتزلة ونشأ علم الكلام . ولم يقدم الغرب على الخوض في مباحث الفلسفة الدينية الا بعد ما درس بعضهم العلوم في كليات الاندلس . ومن جملة الاسباب التي حملت بعض الجهات الدينية المسيحية على الانشقاق على كنيسة روما والتمرد على سلطة البابا وساقطها الى القيام بالاصلاحات الدينية هو التوغل في الفلسفة الدينية ومع ذلك لم تتعد هذه الفلسفة حدود العهد القديم والعهد الجديد ، اي اسفار التوراة والانجيل . وكان اول من درس الاديان من الناحية الميتافيزيكية اي من ناحية ما وراء الطبيعة ومن الناحية النفسانية والناحية التاريخية الفيلسوف الالماني (هجل Hegel) فبين المطابقة بين مفهوم الدين وبين مظاهره وطقوسه ، وبذلك كان اول من فصل الدين عن الفلسفة وجعله علماً مستقلاً . وكان لا بد من ان يتخلص الدين من سلطة الفلسفة ويستقل بابحاثه . وقد ساعد على ذلك تقدم علم التاريخ في القرنين الماضيين تقدماً محسوساً ، فتشعب منه تاريخ الحضارة وتاريخ السياسة ، وتاريخ الحرب . ورأى بعض المؤرخين والفلاسفة تدقيق الدين على حدة ، ودونوا تاريخ الاديان ، ولكن ما ان تجردت الفلسفة من الدين وتحرر العقل من مناقشاته ومحامياته الا ونشبت الكفاح بين الدين والعلم ، والدين الذي يستمد اكثر احكامه من العاطفة والعلم الذي لا يحكم الا العقل والتجربة . وكلما تقدمت العلوم وزاد الاهتمام بالتجربة اشتد الجدل والنقاش وكما ان الفلاسفة المتدينين حاولوا ان يوفقوا بين الدين والفلسفة كذلك حاول العلماء المتدينون والعلماء من رجال الدين التأليف بين الدين والعلم . وقد كتبوا في هذا الباب كتباً عديدة وما يزالون يكتبون . وراح العلماء والفلاسفة منذ قرنين يدرسون الدين من الناحية العلمية والناحية الفلسفية .

وينشرون آراءهم ومؤلفاتهم منذ القرن الماضي فتعددت الكتب عن
الاديان . ولما تقدم علم العاديات وصارت الاثار القديمة تستخرج من بطون
الارض ، رأى مؤرخو الاديان ان يدرسوا العلوم التي يتطلبها علم العاديات
كعلم اشتقاق اللغات وعلم الاقوام وعلم الاساطير ، فنشأت بذلك الصلة
بين تاريخ الاديان وبين العلوم المذكورة .

نشر الاستاذ (ماكس مولر - Max Muller) المستشرق الالماني
الاصل والانجليزي الموطن تأليفه القيم المسمى بالمدخل في اواخر القرن
التاسع عشر ، وبين فيه ما ينبغي سلوكه من الطرق في دراسة الاديان .
ونظراً لما لهذا الموضوع من اهمية علمية ولما لقي من عناية فقد عمدت
الكليات الادبية والدينية الى تدريس تاريخ الاديان في البلاد المتقدمة ،
فنشرت الفصول الضافية والكتب القيمة في هذا الموضوع ، ولم يهل القرن
العشرون الا وكان قد نشر في تاريخ الاديان مباحث كثيرة ومجلات شهرية
تصدر باللغات الانجليزية والالمانية والايطالية وكان اول من الف كتاباً
بعنوان تاريخ الاديان الاستاذ الهولندي (تيل Tielle) .

- ٣ -

علم الاديان عند المسلمين

ان علماء المسلمين هم اول من بحث في فلسفة الدين ، واول مدرسة
شرعت بتدريسها هي المدرسة التي اسسها حسن البصري في البصرة ،
واول من الف الكتب في هذا الموضوع تلميذه واصل بن عطاء ، ولما
تألفت جماعة المعتزلة اصبحت فلسفة الدين من المباحث الخطيرة التي تناول

البحث عنها كثير من العلماء . ونشأت الفرق الدينية من القدرية والصفاتية والخوارج الى غير ذلك . وبعد ان ترجمت الكتب الباحثة عن الاديان الشرقية في القرن الثالث الهجري الى العربية وانتشرت دراسة الفلسفة القديمة في عهد العباسيين ، ازدادت المؤلفات وكثر الاخذ والرد في الفلسفة الدينية ، فظهر علم الكلام ، وكان ابو الحسن الاشعري وابو منصور الماتريدي من الاساتذة المبرزين في هذا العلم .

ولما تغلغت الفلسفة اليونانية في نفوس بعض علماء المسلمين اخذوا ينقدون مدرسة الكلام ويحاولون الجمع بين فلسفة اليونان وبين الدين ، وبذلك تكونت فلسفة الاشراق (وحدة الوجود) . واحتدم الجدل واشتد النقد بين رجال علم الكلام وحكماء فلسفة الاشراق زمناً طويلاً . وكان فلاسفة المسلمون من امثال الكندي والفارابي وابن سينا من اكبر انصار مدرسة الاشراق . وعرب الكندي اكثر كتب الفلسفة اليونانية . ونشأت مدرسة اخرى خطيرة هي مدرسة التصوف . وكان لعلم الكلام والفلسفة نصيب كبير في نشأتها ثم تشعب علم التصوف الى ثلاث شعب : التصوف الروحي وهو الباحث عن تربية الروح مجردة عن الشهوات ومن اشهر رجال هذه الشعبة الجنيد البغدادي ، والتصوف النظري وهو المبني على ضرورة الاستفادة من جميع المذاهب الفلسفية واخذ الصالح منها ، ومن اشهر رجال هذه الشعبة الشيخ محي الدين بن عربي والثالثة هو التصوف الباطني الذي يرى اصحابه ان للشيء وجهاً باطنياً وظاهراً ، فيأخذون بالباطن منها ومؤسسه قرمط الفارسي .

وكان الامام الغزالي من اكبر انصار التصوف الروحي ، وقد ألف كتباً عديدة ، كما ألف في تفنيد التصوف الظاهري ثم ظهر في الاندلس ابن رشد فألف في فلسفة الدين كتباً مفيدة ، فرق فيها مباحث الفلسفة .

وهكذا يتضح لنا ان علماء المسلمين توغلوا في فلسفة الدين منذ القرن الاول للهجرة ودرسوا الحكمة الالهية وما وراء الطبيعة وعلم الكلام وعلم التصوف ، ومن اهم المواضيع التي توغل فيها العلماء المسلمون على اختلاف طوائفهم التوحيد والصفات والوجود والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والاسماء والاحكام والسمع والعقل والرؤية السعيدة والرسالة والامامة ، وقد تشعب من كل موضوع من هذه المواضيع قضايا مختلفة كان لكل منها مدافع ومهاجم .

ولم يتطرق علماء الدين الى فلسفة الدين فقط ، بل عنوا بتاريخ الاديان ايضاً ، وكان لا بد لهم ان يفعلوا ذلك لان بلاد المسلمين بعد الفتح العربي كان يسكنها اقوام وشعوب تدين باديان مختلفة وتنسب الى مذاهب متفرقة ، ومن هذه الاقوام من اسلم ولكنه لم يتخلص من سلطان معتقداته السابقة ، فنقل الى الاسلام بعض تلك المعتقدات عمداً او من دون قصد . ومنها من احتفظ بدينه في ديار الاسلام ومارسه بكل حرية لان الاسلام منح الذميين حرية العبادة . وقد ولد الاحتكاك بين المسلمين وغير المسلمين رغبة في نفوس علماء المسلمين في الاطلاع على الاديان والمذاهب المنتشرة في بلاد الاسلام كاليهودية والمسيحية والمجوسية ، وما تشعب من هذه الاديان من المذاهب والفرق . وكان بعض رجال تلك الاديان يتعمد الكيد للاسلام بما يبثه من آراء ملحدة وعقائد فاسدة ، لهذا رأى علماء المسلمين ضرورة دراسة تلك الاديان والمذاهب . وكان ابن المقفع اول من عربّ الكتب الفارسية الباحثة عن اديان فارس القديمة وعن اساطيرها كما عرب اساطير الهند ، واخذ المترجمون في العهد العباسي يترجمون الكتب الكلدانية والسريانية الباحثة عن اساطير الكلدان ، كما ان سعيد الفيومي عرب اسفار التوراة سنة ٣٢٠

هجرية ، وترجم بعده التامود ايضاً . ولم يغفلوا المذاهب النصرانية ، بل دققوها وكتبوا عنها فصولاً طويلاً . ولف المقدسي كتابه المسمى (البدء والتاريخ) ، بحث فيه الأديان الصينية والهندية والتورانية والارانية وعن اليهودية والنصرانية والصابئة . ولف ابو ريجان البيروني كتابه عن الهند وذكر فيه معتقدات الهنود . وكتب ابو منصور عبد القادر البغدادي في (الملل والنحل) ، ثم الف ابو محمد بن علي المعروف بابن حزم الاندلسي كتابه (الفصل بين الاهواء والنحل) ونشر بعده ابو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (كتاب الملل والنحل) . وكتب علماء آخرون في الملل والنحل والفرق كالمظفر بن طاهر بن محمد الاسفرايني والقاضي ابو بكر الباقلاني ، كما كتب احمد بن يحيى المرتضى مختصراً سماه الملل والنحل على مذهب الزيدية .

ويبدو لمن يدقق ما كتبه العلماء المسلمون في الأديان انهم اهتموا بأديان من جاورهم من الشعوب واهملوا البحث عن الأديان القديمة وعقائد الاولين ، وانقطع المتأخرون عن البحث . ثم ظهر اول كتاب عن الأديان فيما نعلم هو كتاب نوفل نعمة الله اللبناني . وهو كتاب مختصر في الأديان سماه (كتاب سوسنة سليمان في اصول العقائد والأديان) ، وترجم بعده الشيخ سليمان البستاني (الالياذه) لهوميروس شعراً شرح فيه اوصاف الآلهة اليونانية الوارد ذكرها في الالياذة وقبل منتصف القرن العشرين اخذ الاساتذة المصريون يترجمون الكتب الباحثة في الأديان ويؤلفون^(١) .

١ - ظهر كتاب ترجمة كتاب (المدينة العتيقة) تأليف فوستل دي كولانج ترجمه من الافرنسية الاستاذ عباس بيومي يتناول دراسة لعبادة الاغريق والرومان وشرعهم وانظمتهم ، وكتاب نشأة الدين الباحث عن النظريات عن منشأ الأديان الاولى للاستاذ علي سامي النشار ، وكتاب تاريخ التطور الديني للاستاذ احمد زكي بدوي ، وكتاب العقائد لاحد عنايت ، والديانات في افريقيا السوداء تأليف هيو برديشان وترجمة احمد صادق حمدي ، وعلم الاجتماع الديني لروجيه باستد ترجمه من الافرنسية الدكتور محمود قاسم ، والطوطمية تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي وتايلور تأليف الدكتور احمد ابو زيد يبحث عن آراء عالم الأديان البريطاني تايلور في منشأ الأديان ، ←

ماهية الدين - تصنيف الاديان

ما هو الدين؟ يلوح للباحث ان الاجابة على هذا السؤال بسيطة، ولكنه اذا اراد ان يعرف الدين تعريفاً عاماً يشمل الاديان الابتدائية والمتكاملة يشكل عليه الامر. والصعوبة الناشئة من تعريف الدين تعريفاً جامعاً هي ان لكل دين نواحي خاصة به سواء في الشعور او في الاعتقاد او في التعبد. فالاقوام البدائية تفهم الدين على وجه لا تفهمه الاقوام المتقدمة في الحضارة، واذا اردنا ان يكون التعريف منطبقاً على جميع الاديان تزداد

→ كتاب الله للاستاذ العقاد. وترجم الدكتور داود جلي الموصلي كتاب (الفندياد) من الافرنسية احد كتب الابستا المنسوبة الى زرادشت نبي الايرانيين القدماء، وترجم الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا فصل (ادونيس) من كتاب الغصن الذهبي لعالم الاديان البريطاني (جيمس فريرز)، وترجمة (الاوذيسه) باختصار و(طرواده) للاستاذ دريني خشبه، وترجمة الالياذه للاستاذ امين سلامة، وترجم الاستاذ وديع البستاني شعراً (مهراثا) الملحمة الهندية القديمة، وكتب الاستاذ طه باقر في كتابه مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة بحثاً مفيداً عن الاديان القديمة في العراق، كما ترجم الواح سومر تأليف الاستاذ (صموئيل كيريم) وفيها معلومات قيمة عن بعض الاساطير السومرية ومعتقدات السومريين. وترجم المرحوم عادل زعيتر من الافرنسية كتاب (تلك) تأليف فنلون، يبحث عن الاساطير اليونانية، وقد انفردت مجلة سومر التي تصدرها مديرية الآثار القديمة في العراق بنشر ترجمة الكتابات السومرية والبابلية الباحثة عن عقائد السومريين وشرائعهم واساطيرهم، وراحت المجلات العربية تنشر بوجوه عن الاديان القديمة.

وهناك كتب اخرى ترجمت لا غنى لأي باحث في منشأ الاديان وتطورها من مراجعتها ككتاب منبها اخلاق والدين تأليف الفيلسوف الافرنسي (برجسون)، والعقلية البدائية تأليف الاستاذ (ليفي بريل) وكتاب الشعوب البدائية تأليف (بيج)، وكتاب النظم الاجتماعية عند البدائيين ومقال عن الهدية وعلم النفس الديني، وكتاب محاضرات في النصرانية للاستاذ محمد ابو زهره، وكتاب الصابون في حاضرم وماضيهم تأليف الاستاذ عبد الرزاق الحسيني ولا بد ان تكون هناك كتب اخرى نشرت في العالم العربي ولم نطلع عليها.

الصعوبة ، لاننا لا نقصد الدين من حيث هو حق او باطل بل نريد مفهومه عند جميع الاقوام ، والطوائف بدائية كانت ، او التي بلغ فيها التطور الديني اعلى درجات الكمال . لاننا عندما نذكر كلمة الدين نمر بذاكرتنا جميع الاديان البائدة منها والحاضرة ، الاديان الساوية والمعتقدات الدينية الاخرى عند جميع الطوائف والشعوب على اختلاف معتقداتها ونزعاتها ومكانها في سلم الحضارة ، وما دام كل من هذه الطوائف والشعوب يختلف مفهوم الدين عندها ، لذلك يتعذر تعريفه بحيث ينطبق على مفاهيم جميع الاديان .

فبعض الاقوام يريد بالدين الانظمة والسيطرة والتقاليد الموروثة ، ويقصد به آخرون العبادة والطقوس ويطلقه البعض على الالهام والشعور وفوق هذا الاختلاف يدمج بعضهم الاساطير بمفهوم الدين لانهم وجدوا الاساطير المختلفة شيئاً من فكرة الدين . فلا يمكن البحث في دين الاغريق مثلاً ما لم يتطرق الى الهتهم وابطالهم ، والى الخوارق التي اسندتها اليهم الاساطير . وفي الحقيقة تختلف الاسطورة عن الدين ، ومن الجائز ان فكرة الدين وجدت عند البشر قبل اختلاق الاساطير ، وقد تكون وقائع تاريخية حرفها البشر وزاد عليها وعظمها ، وتكون رموزاً اخلاقية وعبراً اما الدين فهو الشعور الخفي الذي يجعل الانسان يؤمن بشيء فيعظمه ويرهبه ، ومع انه يتراءى للباحث ان الاديان البدائية التي تدين بها الاقوام المتوحشة الحالية متشابهة فانه حتى في هذه الاديان يتعذر التوصل الى تعريف عام شامل لها . ويرى (تايلور Taylor) مثلاً ان الدين لدى الاقوام البدائية هو الاعتقاد بعالم الارواح بينما هو كما يراه (فريزر Frazer) استرضاء القوى التي تتعالى على الانسان والتي يعتقد بانها تدير مجرى الطبيعة وتوجه حياة البشر . وهو عند الاغريق والرومان

الشيء المقدس أو المحرم الذي لا يجوز مسه أو مخالفته ، كما تدل على ذلك الكلمة اليونانية واللاتينية للدين ، ويطابق ذلك كلمة (تابو) الشائعة لدى الشعوب البوليزية في جزر الاوقيانوس وتعني المقدس والمحرم ايضاً . وتعتقد تلك الشعوب ان التعرض للتابو اي مخالفة المحرم يؤدي الى معاقبة المعترض او المخالف بمرض . ويظهر من ذلك ان مفهوم المقدس لدى الاقوام البدائية هو المحرم او السري او الخفي او الظاهر .

وذكر الاستاذ الافرنسي روجر باستد^(١) في كتابه (مبادئ علم الاجتماع الديني) في صدد الصعوبة التي يجابهها الباحث في تعريف الدين وقال :

اذا اردنا ان نهتدي الى الطريق القويم وسط الفوضى الشاملة وجب علينا ان ندرس على حدة كلا من التعاريف القائمة على التأمل الباطني ، والتعاريف القائمة على الحدس والتعاريف الموضوعية . فاذا تساءل الانسان عن الطبيعة العميقة للدين وحاول ان ينسى عقائد وطقوس دينه وان يذهب الى الامام والى ما وراء العقائد والطقوس لكي يعثر على النقطة الرئيسية فسوف يعرف الدين في هذه الحالة مثلاً :

بانه يسبح في خضم من الاسرار (رأي هربرت سبنسر) ، او بانه الشعور باللانهاي (رأي ماكس مولر) او بانه الخضوع لوجود لا يناله الادراك (رأي شلومارخر) ، واخيراً بانه الغريزة التي تدفعها نحو السعادة (رأي فورباخ) ، وتشترك جميع هذه التعاريف في الخطأ لأنها ذات طابع شخصي الى حد كبير وانها لا تنطبق بالتالي على كل ما تتصف به الظاهرة الدينية ، ومن الممكن ان تتخذ اساساً لمذهب فلسفي ولكن ليس من الممكن ان تتخذ اساساً لعلم من العلوم ثم يقول : فيجب ان

١ - مبادئ علم الاجتماع الديني - روجر باستد ترجمة - الدكتور محمد قاسم .

نقارن بين الديانات القديمة والحديثة والبدائية والمتحضرة ، والحية والميتة لكي نحدد عناصرها المشتركة ولكيلا نحتفظ الا بهذه العناصر . واذا سلك الانسان هذا المسلك انتهى بصفة عامة الى معرض التعاريف الشبيهة بتعريف فريزر الذي يرى ان الدين بدأ بظهور فكرة الالهة ، او على اكثر تقدير بظهور فكرة ارواح الافراد ، او ارواح الطبيعة الذي يتخللها المرء على غرار ارواح البشر . اما فيما يخص طقوس البدائيين التي تقوم على اساس الفكرة القائلة بوجود قوى غيبية وغير شخصية فانها ترجع الى السحر الحض ولا تنطوي على اي عنصر ديني بمعنى الكلمة .

« ثم يضيف قائلاً : » ولكن (دور كايم - Durkheim) اعترض على فريزر بوجود ديانات كبرى لا تحتوي على الالهة ولا على الارواح ، فليس بوذا الهاً (لانه لا يملك شيئاً من تغيير مجرى الحوادث الانسانية) ولا يتبع بحث اتباع بوذا عن النجاة بالصلوات والايان ، فهم لا يعتمدون الا على انفسهم لكي يدركوا هذه الغاية . ويقول دوركايم ان العنصر الوحيد الذي يشترك حقاً بين جميع الاديان هو معنى اكثر سعة ، اي معنى المقدس :

تقوم جميع العقائد الدينية المعروفة على اساس تصنيف الاشياء الى صنفين في نوعين متضادين يدل عليهما بوجه عام مصطلحان مختلفان ، وهما اللذان تعبر عنهما بدقة كافية كلمتا (قدسي) و (دنيوي) بمعنى يدنس (المقدس) . ويجب الا نفهم من الاشياء المقدسة مجرد هذه الكائنات الشخصية التي يطلق عليها اسم الالهة او الارواح وقد تكون صخرة او شجرة ما او منبع ما او مجرى ماء او قطعة ما من الخشب او منزل شيئاً قدسيا . وقد يكون لطقس من الطقوس هذا الطابع ، او في بعض الكلمات او الكلام او الصيغ .

وقد استعرض دور كاييم تعاريف كثيرة وقارن بينها وخلص الى ان الدين طريقة متساندة يتألف من معتقدات واعمال تسم اموراً مقدسة ، اي امور حدثت وامور اعتبرت ممنوحة . ان تلك المعتقدات والاعمال تجمع الذين تقبلوها من مجموعة تدعى بـ (الكنيسة) وقال ايضاً « واذا يتبادر الدين الى الازهان لا بد ان يتبادر المعبد الى الذهن » . ان المفهوم المقبول بصورة عامة هو مفهوم (ما فوق الطبيعة) اذ هو الذي يصنف كل شيء ديني ويميزه ، ويقصد بتعبير ما فوق الطبيعة عالم الاسرار اي العالم الذي لا سبيل الى فهمه ومعرفته . ولهذا يكون الدين عبارة عن بعض التصورات والملاحظات الخارجة عن نطاق العلم ، وبوجه عام الخارجة عن نطاق التفكير^(١).

ويعرف سيسر الدين بانه الاعتقاد بوجود كائن لا يدركه العقل ، موجود في كل مكان . اما ماكس مولر فيعرف الدين بانه : « السعي الى الادراك ما لا يدركه الادراك ، والتعبير عما لا سبيل للتعبير عنه والجنوح الى اللامتناهي » . اما الاستاذ الهولندي (ناثان سونربلوم - Nathan Sonirblom) فيقول ان الدين : يطلق بوجه عام على علاقة البشر بما يعتبره مقدساً ، وبالقوى فوق البشرية التي يؤمن بها لانه يشعر بانه خاضع لها . وتظهر هذه العلاقة باحاسيس خاصة (الرجاء والخوف) وبافكار (معتقدات) وبعمال خاصة (قرابين وطقوس اخرى كالصلاة واداء الاوامر الخلقية) (المعنوية)^(٢) ووضع العالم (موريس جاستروف - Morice Jastrof) ثلاثة قواعد لتعريف الدين وهي :

١ - الاشكال الاولية للحياة الدينية : Les formes primilinaires de la vie . Religieuse

٢ - مختصر تاريخ الاديان Manuel de l'Histoire des Religions

اولا - شعور الناس بوجود قوة او قوى متعددة اعظم منهم شأنًا وغير مسخرة لهم .

ثانياً - اعتقاد الناس بان لهم صلة بهذه القوى او القوة .

ثالثاً - سعى الناس الى ايجاد واسطة لتوثيق هذه الصلة .

وتتضمن هذه القواعد الشعور والاعتقاد والعبادة ، وهو يشمل جميع الاديان الاولية والمتكاملة والبائدة والحاضرة ، ولهذا نعرف الدين بانه : « اعتقاد البشر بقوة اعظم منه تقوده ولا تنقاد اليه » . وهذا التعريف ينطوي على الشعور والاعتقاد والعبادة ، وينشأ من هذا الاعتقاد والشعور ان البشر يشرع اولاً بوضع النظم الدينية ، ويثني بالاعمال الخاصة ثم يلتزم ببعض القيود لايجاد علاقة بينه وبين تلك القوة . ومن بين العناصر التي تؤلف الدين اي الشعور والمعتقدات والطقوس ، فان هذه الاخيرة (الطقوس) اكثرها ثباتاً .

- ٥ -

تصنيف الاديان

لقد بذلت محاولات عديدة لتصنيف الاديان بغية تسهيل دراستها ، ولكن هذا التصنيف لم ينل إلا نجاحاً جزئياً وذلك لان كل دين خليط ، متشابك مؤلف من عناصر كثيرة ليس فيها ملامح مميزة تتميز بها . ومن التصنيف القديمة للاديان تصنيف الفيلسوف الالماني (هجل) وهو اول من سعى لتصنيف الاديان حيث قسمها الى ثلاثة اصناف :
١ - الاديان الطبيعية (الفطرية) .

٢- الاديان الملهمه (الموحى بها) .

٣- الدين المطلق (الكامل) .

وجعل دين الصينيين والبرهمنيين ودين الفرس ودين المصريين القدماء في صنف الاديان الطبيعية . وجعل دين اليهود ودين اليونان ودين الرومان في صنف الاديان الموحى بها : اما المسيحية فجعلها الدين المطلق . وقسم الاديان الطبيعية الى الدين التلقائي (السحر) ، والاديان ذات الجوهر ، وجعل دين الصينيين والبرهمنيين والبوذيين منها . وعبر عن الدين الصيني بانه دين مقياس ودين البرهمنيين دين تخيل ، ودين البوذيين دين المراقبة الباطنية ، و اشار الى انتقال دين الطبيعة الى دين الحرية والى الكفاح من اجل الذاتية وكان من نتيجة ذلك ان اصبح دين الفرس دين الخير والنور ، وفي سورية دين الألم وفي مصر دين الاسرار . وقسم الصنف الثاني من الاديان الملهمه الى ثلاثة اديان : دين السمو لدى اليهود ودين الجمال لدى اليونان ودين المنفعة والعقل لدى الرومان . اما الصنف الثالث وهو الدين المطلق فقد وضع فيه المسيحية فقط .

وصنف (رتيل) الاديان الى صنفين : الاديان الطبيعية ومنها الطبيعية التي تمتاز بكثرة الحيوانات المعبودة ، والاديان التي تتجلى بكثرة الشياطين وبالسحر (اديان الاقوام المتوحشة) والاديان السحرية المطهرة او المنظمة التي تتجلى بالشرك . اما الصنف الثاني فالاديان الخلقية اي الاديان الملهمه الروحانية والاخلاقية ادخل فيها اولاً : التاعورية (مذهب لاعوت) والكنفوشية في الصين ، والبرهمنية والجينية في الهند والمزدكية في ايران والموسوية واليهودية . وثانياً : البوذية والمسيحية والاسلام بوصفها ادياناً عامة .

اما (سيبك - Siebeck) فيصنف الاديان الى اديان اخلاقية

واديان منقذة (فادية - مخلصه) ، ويرى ان الاديان التي تقدمت دور الحضارة كانت ادياناً تصدق خلقه الكون دون معان اخلاقية . اما الاديان الاخلاقية فمفتاوتة الدرجات كدين المكسيكيين والبرويين في اميركا ، ودين الاكديين في العراق ، ودين الصينيين والهندوس والجرمن والرومان . ويعتبر سيبك الدين اليوناني اسماها كما يعتبر اليهودية دين انتقال بين دين السلوك (الاخلاق) ودين الخلاص .

ويعتبر البوذية الدين المنقذ الحق وذلك لانكارها للعالم . اما المسيحية فيرى انها الدين المنقذ الايجابي ويرى في الاسلام عودة الى دين الاخلاق . واتجه مؤرخون آخرون الى تصنيف الاديان على اساس انساب الاقوام التي تدين بها واوضاعها واحكامها فقسموها من حيث الانساب الى قسمين: الاديان السامية اي اديان الاقوام التي تتكلم باللغة السامية ، فجعلوا دين البابليين ودين الاشوريين ودين الفينيقيين ودين اليهود والاسلام في صنف ؛ والاديان الآرية اي البرهمية والبوذية والزردشتية ودين اليونان والرومان وجعلوها في صنف آخر . بيد ان هذا التصنيف لا يساعد على دراسة الاديان وتدقيقها من حيث الغاية التي يرمي اليها التدقيق . واذا كانت الاقوام السامية تتكلم باللسنة تفرعت من اصل واحد فان بين اديانها بونا شاسعاً ولا يمكن بالتالي اعتبارها صنفاً واحداً ، وكذلك الحال بالنسبة للاديان الآرية . ومن مؤرخي الاديان من اراد ان يقسمها الى قسمين : دين التوحيد ودين الشرك ، غير ان الملحدون اي الذين ينكرون وجود الاله لا يدخلون في هذا التصنيف ، كما ان الثنويين اي الاقوام الذين يعتقدون بوجود قوتين تتحركان بالكون ، قوة الخير وقوة الشر لا يدخلون ايضاً في هذا التصنيف . ومنهم من صنف الاديان الى قبلية وقومية وعالمية فجعلوا البوذية والمسيحية والاسلام من الاديان العالمية

واليهودية والبرهمية من الاديان المحلية اي القومية . ورغم ان هذا التصنيف يجعل الحدود بين الاديان واضحة بحيث يمكن استخدامه بسهولة الا انه يُعترض عليه لانه غير منطبق على الواقع ، لان كثيراً من الاديان كانت في اول امرها ادياناً محلية (قومية) ثم انتشرت فاصبحت عالمية . يضاف الى ذلك انه لا يوجد فعلاً دين عالمي بالمعنى الصحيح . كما يمكن تصنيف الاديان استناداً الى مفهومها عن الرب ومفهومها للتقوى وعن المثل العليا التي تدعو لها ، ولكن التصنيف التي ورد ذكرها لا تتعدى ان تكون آراء ومقترحات صالحة للمناقشة ، الا انها لا يمكن ان تكون شاملة ونهائية .

تصنيف الاديان عند المسلمين : لم يصنف علماء الاسلام الاديان كما صنفا علماء الغرب بل صنفوها بالنظر الى تأثيرها الادبي ؛ فقد قسم المسلمون الاديان الى قسمين : الاديان الصحيحة والاديان الباطلة . وبتعبير آخر الى الاديان الموحى بها والاديان الطبيعية . فالاديان الصحيحة هي المؤسسة على الفضائل الاخلاقية والتي تطلب من معتقيها ان يعبدوا إلهاً واحداً لا إله غيره ، اما الاديان الباطلة فهي التي تخالف هذين الاساسين ، وسمى مؤرخو الاديان من المسلمين الامم التي تدين بالدين الصحيح اهل الملل ، اما معتنقو الاديان الباطلة فسموهم باهل النحل ، ومن هؤلاء الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) وابن حزم في كتابه (الفصل) واعتبر الشهرستاني الجوس واليهود والنصارى والمسلمين من الملل ، اما الصابئة والوثنيون وعبدة النجوم والبراهمة فاعتبرهم من النحل . ولا شك في ان تقسيم الدين بهذا الاسلوب يوافق مفهوم الدين اذا كانت الغاية منه الحكمة البالغة والاخلاق الفاضلة ، بيد ان هذا التصنيف لا يساعد الباحث في الاديان على الوقوف على منشئها وتطورها والعلاقات التي تربط بعضها ببعض .

كيف نشأت فكرة الدين - عالمية الدين - حاجة البشر الى الدين - هل تقوم الاخلاق مقام الدين ؟

كيف نشأت فكرة الدين ؟ ان آراء علماء الاديان في كيفية نشوء الدين متضاربة وعلّة ذلك ان اختلافهم في الاساس الذي استندوا اليه في البحث عن نشوء الدين . فالعلماء الذين جعلوا الاوضاع الاجتماعية للاقوام البدائية الحالية هي اساس ارتأوا رأياً في نشوء الدين يختلف عن العلماء الذين درسوا معتقدات الاقوام البدائية وتوغلوا في علم الاقوام المتوحشة وجعلوا تلك الدراسة الاساس الذي ينبغي ان يبنى عليه البحث . وسنفرد ببحثاً خاصة لكل من هذه الآراء المتضاربة عند البحث في الآراء الشائعة عن نشوء الدين لأول مرة .

وقبل ان نشرح كيفية نشوء الدين يجدر بنا ان نذكر مقام الدين من جميع الحضارات بدائية كانت او متقدمة ، وعند جميع الجماعات والشعوب والاقوام المتوحشة منها والمتحضرة . وكنا قد اشرنا في اول بحثنا الى ان الدين مؤسسة اجتماعية لا يستغني عنها اي مجتمع بشري . ان هذا البحث يجرنا الى موضوع يختلف فيه العلماء وهو عالمية الدين ، وبمعنى آخر هل ان فكرة الدين متأصلة في نفس البشر بحيث لم يقيم مجتمع بشري في العالم الا وهو متشعب بفكرة الدين ؟ وقد اشار علماء الاديان والاجتماع الى ذلك في كتاباتهم ومن بينهم ماكس مولر العالم في البحوث الدينية والمتبحر في اللغات الهندية الاوربية حيث قرر بعد بحث

طويل النتيجة الآتية : « ان " ين قوة من قوى النفس وخاصة من خواصها . وان البشر بتأثير القوة وبأسماء ورموز مختلفة متعددة تأهب لادراك الاسرار الممضة . » ويدعي هذا العالم ان فكرة التعبد من الغرائز البشرية التي فطر عليها الانسان منذ نشأته الاولى .

ولقد بدا للمؤرخين المحققين ان جميع الاقوام المتحضرة والبدوية كانت تؤمن بقوة وتعبدها وقال بنيامين كونستان احد مؤرخي الاديان : « ان الدين من العوامل التي سيطرت على البشر ، وان التحسس الديني من الخواص اللازمة لطبائعنا الراسخة . ومن المستحيل ان تصور ماهية الانسان دون ان تتبادر الى ذهننا فكرة الدين » . ويعتبر علماء الاجتماع الدين من اهم القواعد التي قام عليها بنيان المجتمع البشري .

ولم يذكر التاريخ أناساً عاشوا من دون ان يتدينوا بدين ، ومن دون ان ينقادوا الى رسوم وطقوس . لذلك نرى ان الفكرة الدينية منتشرة بين جميع الاقوام القديمة ، فالسومريون عبدوا (آنو وانليل) ، وعبد البابليون (بعل وعشتار) ، والاشوريون (اشور) ، وعبد المصريون (رع واوزيريس) ، والفينيقيون (أدونيس وعشتروت) ، واليونان (زفس) ، والرومان (جوبيتار) ، والفرس (اهور مزدا) ، والهنود (برهمه) ، والصينيون (تيشانج وشانج تي) والبرويون في امريكا الجنوبية (كمنكوباك) والمكسيكيون (نشلى بوشلى) . أما الشعوب البدائية المتوغلة في التوحش فلكل منها قوة غيبية تتقرب اليها وكائن أعلى تتضرع اليه . وعلى الرغم من ذلك فان بعض علماء الاديان يدعون ان هناك شعوباً وجماعات بشرية لا دين لها ، وبذلك يعارضون فكرة عالمية الدين . وقد أشار الى ذلك العالم الديني (تايلور) وتساءل هل توجد حقاً قبائل عريقة في التوحش أو اكتشفت وليس لها أقل

فكرة عن الدين؟ ويضيف قائلاً ان مسألة عالمية الدين تتوقف على هذا السؤال . وهذه المسألة بحث منذ قرون ، فأيدها البعض تأييداً قاطعاً بينما أنكرها البعض الآخر ، وذلك للتعارض بين البنيات التي تنقصها والتي تثبتها . ويؤيد تايلور ان الشعوب البدائية مهما انحط إدراكها فان لها شكلاً من دين . وبذلك أقر عالمية الدين ، وذكر انه عندما يراد دراسة اديان الشعوب المنحطة دراسة اصولية ، فان النقطة الاساسية التي ينبغي ملاحظتها تكن في تعريف الدين ، وثبت ما يفهمه الناس منه . وإذا قصد بالدين الاعتقاد بالله أعلى وبالحساب بعد الموت ، أو بعبادة الاوثان ونحر الاضاحي وتقديم القرابين ، أو الشعائر والطقوس المنتشرة ، تصبح حينئذ بعض الشعوب خارج نطاق العالم المتدين دون شك . ولكن هل يصح ان تضيق في نطاق الدين الى ذلك الحد ، واعتبار الجماعات والشعوب التي تعتقد بالله اعلى وبالحساب ولا تعبد الاوثان ولا تقدم القرابين جماعات وشعوباً لا دين لها؟ ان ذلك التضيق في نطاق الدين ناشىء من تعريف الدين ببعض تطوراته الخاصة ، بدلا من الرجوع الى المحرك الاول له وعنصره الحقي . لهذا من الافضل الرجوع الى المنبع الاصلي ، والقول بان التعريف الادنى للدين هو الاعتقاد بالكائنات الروحية . واذا عرضنا ما قيل عن الحالة الدينية لدى الشعوب المنحطة على مفهوم هذا التعريف نتوصل الى النتائج التالية :

لا يمكن التأكيد على اكثرية الشعوب والقبائل الموجودة التي لها علم بالكائنات الروحية لأن الظروف الخاصة لعدد كبير منها تجعلها لا نعلم عنها الا قليلا . كما ان من المجازفة الادعاء بان كافة الشعوب التي ذكرها التاريخ او التي كشف القناع عن بقاياها القديمة كانت تعلم بالضرورة الحد الادنى للدين (١) .

ومن العلماء الذين انكروا عالمية الدين الاستاذ (جونترتسمان) الذي نفى ان يكون للاقوام الاهلية في امريكا الجنوبية دين اعتقاداً على زيارة قام بها هناك . ان ادعاء تسمان كما ذكر الاب (تاكي فنتوري) يدعو الى كثير من التساؤل . وبالحقيقة ان تسمان قضى عشرة اشهر في بلاد اكبر من المانيا ، يعيش فيها خمسون شعباً منتشراً في انحاء مختلفة ، وقد استخدم في تدقيقاته مترجمين من الجنود الاهليين ، ووجه بواسطتهم اسئلة كثيرة الى الاهليين . ومن الواضح انه لا يمكن اجراء دراسة انتولوجية كافية في مدة قصيرة وبواسطة جنود اهليين للاطلاع على اساس الثقافة العقلية لتلك الشعوب (١) .

وجاء في كتاب تايلور ما يلي : « ولقد انزلت الكتاب الى انكار الدين على الشعوب البدائية متأثرين في ذلك بعدة عوامل متشابكة : فهناك اولا النزعة التطورية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر والتي كانت تقتضي منهم ان يفترضوا مرور البشرية بمرحلة لم تعرف فيها الدين حتى يكونوا بذلك منطبقين مع انفسهم ومع النظرية التي يتبعونها . كذلك يمكن ان يعزى بعض هذا الخطأ الى ضيق النظرة التي كان هؤلاء العلماء والمبشرون على الخصوص يفهمون بها الدين . وكان معظم الكتاب الاوائل يتجهون لدراسة الدين وفي اذهانهم فكرة سابقة عن العناصر الاساسية التي يجب توفرها حتى يمكن ان يسمى نظام العقائد والشعائر السائدة في مجتمع من المجتمعات ديناً . وكانوا يستمدون هذه العناصر من الاسس التي تقوم عليها الاديان العالمية الكبرى وخاصة الدين المسيحي (٢) .

١ - تاريخ الاديان : Tacchi Venturi Storia delle Religioni

٢ - كتاب تايلور : الدكتور احمد ابو زيد .

وتساءل الاستاذ سوندريلوم في كتابه مختصر تاريخ الاديان هل ان الدين قديم قدم البشرية ؟ او انه نشأ مع الزمن ؟ وذكر ان الابحاث التاريخية لم تستطع الاجابة على ذلك ، كما انها لم تستطع ايضاح منشأ الدين وجوهره . وكان السفسطائيون اليونان قد تساءلوا هل ان الدين جزء لا يتجزأ من الطبيعة البشرية او انه تأسس في مجرى التاريخ ؟ ان الذين ادعوا بوجود شعوب وقبائل لا تدين بدين انما استندوا في دعواهم الى ملاحظات غير صحيحة ، خالجهم سوء فهم لانه لم يعثر في اي مكان على قبيلة او شعب ليس له طقوس مقدسة ، او انه لم يؤمن بكائنات عليا . لذلك يجوز لنا ان نسمي الدين ظاهرة عامة تخص البشرية جمعاء (١) .

واشار الأب الايطالي فنتوري الى عالمية الدين والعناصر المكونة له وقال : يتبين من استعراض المواد الدينية وهي كثيرة ومتنوعة ان رأي بعض الكتاب الذين يدعون وجود شعوب محرومة من الفكرة الدينية ولا يشعرون بالحاجة الى الدين انما هو رأي لا اساس له . ويتجلى من الوثائق ما كان للدين من سلطان عند الاقوام المتحضرة القديمة كالسومريين والبابليين والهنود والصينيين . لهذا نرى ان الدين يؤلف جزءاً اساسياً من حياة الشعوب المتحضرة ، وهو ينظم علاقاتها ويصاحب البشر من يوم ولادتهم حتى مماتهم . ويكرس الناس اوقات جليلة من حياتهم لامور الدين يبدو ان العقيدة بالقدرة العظمى توصل اليها البشر على انها شيء يتسامى على كل القوى البشرية وانها مستقلة عنها . وهذه العقيدة تؤدي بالانسان لأن يشعر بخضوعه للاله ، وقد تم الاقتناع بإمكان تأسيس علاقة بين الانسان والاله (٢) .

١ - مختصر تاريخ الاديان .

٢ - تاريخ الاديان : تاكي فنتوري .

هل الخوف والرجاء ولدا لفكرة الدين ؟

وقبل انتشار نظرية التطور وتأثيرها على آراء العلماء بحث مؤرخو
الاديان عن الباحث لفكرة الدين ، فزعموا ان الخوف والرجاء دعامتا
فكرة الدين وذكروا ان البشر الاول عندما رأى للوهلة الاولى مظاهر
الطبيعة آنس لبعضها وخاف من البعض الاخر رأى البرق يلمع
في الظلام الحالك ، والعواصف تهب في الليالي المدهمة ، والزلازل تميد
بالارض والسيول تجرف الزرع والضرع ، والرعد يدوي في كبد السماء ...
رأى كل هذه المظاهر المختلفة فخاف منها ، والقى نفسه ضعيفاً امامها
فأخذ يخشاها ويتقرب اليها ويدعوها ويتوسل بها وينذر اليها النذور
ويقرب لها القرابين ، وهكذا وضع الطقوس وحفظ الادعية والتائم .
ولم تكن مظاهر الطبيعة جميعها خيفة ، بل ان فيها ما ارتاح لها
البشر وانس بروائها الجميل نظر الى السماء في الديجور فرأى
الكواكب والنجوم تشع بالاضواء فوق امامها وقفة الخاشع المختار ورأى
الشمس تطلع وتغرب يجهاها الساحر وجلالها الباهر ، ولحظ القمر يهمل
ويكبر فيبدر وينير الافق ، وشاهد الربيع يفرغ على الارض الواناً من
الحلل ويكسو الاشجار اثواباً نضرة مرصعة بعقود من الزهر واسماط
من الثمر اللينع مختلفة الاشكال والالوان رأى كل هذه المناظر
الرائعة فهام بها وامت بصلاته اليها لتقيه خطر العاصفة ودمدمة الزلازل

وزجرة الرعد ولمع البرق فبعدها وتوسل بها (١) .
ولكننا نتساءل هل ان الخوف والرجاء حقاً وحدهما الدافعان لنشوء
فكرة الدين ؟ أصحيح ان البشر في ادوار البهيمية الاولى وجه انظاره
الى مظاهر الطبيعة فأنس لبعضها وخاف من البعض الاخر فاتجه
شطر الدين ؟

اننا حين نبحث عن كيفية نشوء الدين نرجع الى تلك الازمنة
السحيقة في القدم التي عاش فيها البشر في جماعات ، حياة البهائم . وقد
دلت الحفريات على انه كانت لهذا البشر بعض الترسيمات الدينية مما
يستنتج منه تأثره بفكرة الدين . اننا مع اعترافنا بأن للخوف والرجاء
تأثيراً في بعث فكرة الدين ، لكننا لا نرى بانهما الباعث لها . ولو
كان الدين حقاً حصيلة الخوف والرجاء وحدهما لنبذ البشر الدين عندما
علم ماهية المظاهر الطبيعية وعرف انها تحدث كل يوم وفي اوقات
معينة ، كأنما هي مسخرة وليست مخيرة . بينما ظل البشر مع ذلك
لصيقا بفكرة الدين جيلا بعد جيل ، مع ان الطبيعة كشفت له القناع عن
بعض غوامضها فاطلع على ما فيها من الاسرار التي كان يراها فيتعبد لها .
وقد وصل (موريس جاستروف) بعد ان دقق فكرة الدين وبحث عن
مفهومه الى النتيجة التالية وهي : « ان الدين عبارة عن الايمان الفطري ،
اي حاجة الناس منذ اول نشأتهم الى معبود يتقربون اليه بعبادتهم (٢) ،

١ - لعل القارئ يلاحظ ان هذا الاسلوب في الكتابة ليس اسلوب المؤلف .
والحقيقة اني قبل اكثر من ثلاثين سنة حينما كتبت مسودات تاريخ الاديان لنشرها
في مجلة جامعة البيت كنت اقدمها الى الاستاذ المرحوم فهمني المدرس مدير الجامعة
المشرف على طبع المجلة ، فاسهم في هذا البحث يومئذ بتصحيح الاسلوب رحمه الله .

Study of Religion - ٢

وقال تعالى في كتابه المبين « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم »

حاجة البشر الى الدين : الدين هو نظام الهيئة الاجتماعية ليس للبشر غنى عنه . ولما كان قائماً على الحكم البالغة والتعاليم السامية فان الحاجة اليه اشد ، وكلما تعمقنا في نفسية الانسان تبينت لنا شدة حاجته الى الدين فقد قال الله تعالى في معرفة تمرد النفس واحتياجها الى ذارع : « قتل الانسان ما اكفره ... ان النفس لامارة بالسوء » .

ويقول الفيلسوف (شوبنهاور) ما معناه : ان الحياة عبارة عن رغبات واحتراصات ، وان جدال الناس جعلهم يؤثرون انفسهم على كل شيء ويريدون لها المنفعة ، وجبلوا على حب النفس . ولن يجتمعوا على السلم الا اذا جعلناهم يحبون لغيرهم ما يحبون لانفسهم ، فيخففون من غلوائهم وكبريائهم ويسلمون من شر احتراصاتهم فيزول التحاسد والتباغض ويسود السلام . واذا لم يكبح الفرد جماع شهواته ورغباته لا يعيش هادئاً في المجتمع . واذا كان البشر مفطوراً على حب نفسه وايثاره لها على الغير بكل وسيلة فلا بد وان يفضل رغباته ولا يرى بأساً في منفعة ذاته وان أضرت بالآخرين . واذا لم يكن له رادع من نفسه فلا عدل ولا سلام في مجتمع يتألف من هذا الانسان .

ومن الواضح ان الرادع الذي يردع الناس عما نوه به شوبنهاور ، هو الدين ولولاه لما استطاع المجتمع ان يضع القواعد الاخلاقية والحقوقية . انه يبعث في نفوس الناس المتفرقين شعوراً خفياً قدسياً ، ويضفي عليهم الاشتراك في كثير من مناحي الحياة ، انه يجمعهم ويكون لهم وجداناً مشتركاً ، ويقنطهم الى الفضائل والكمالات . واذا كانت احكام ذلك الدين مستنبطة من الفضائل الاخلاقية والعدالة العالية فأى تأثير وأي سحر له

في النفوس؟ وقال الفيلسوف الافرنسي برجسون : (فكيفها فسرنا الدين وسواء اكان اجتماعياً بالجوهر ام بالعرض ، فان ثمة ناحية لا سبيل الى الشك فيها ، وهي ان الدين قد قام دوماً بوظيفة اجتماعية ، وهذه الوظيفة معقدة اختلفت باختلاف الزمان والمكان . على انها في مجتمع كمجتمعاتنا هي العمل على تدعيم مطالب المجتمع ، وشد ازرها وقد لا نقف عند هذا الحد ، الا انها تبلغه على اقل تقدير . ان العقاب الذي يفرضه المجتمع قد يقع على بريء وقد ينجو منه مجرم ، ولما تثاب في المجتمع على العمل الطيب ، فنظر المجتمع ليس بمرهف وهو يرضى باليسير وليس ثمة قسطاس انساني يزن العقاب والثواب كما يجب ان يوزنا . وها هنا تبدو وظيفة الدين » . (١)

ويعتقد الفلاسفة المتأخرون بالاخلاق والفضائل التي تجعل الانسان يتصرف بحريته احسن تصرف ، فيكون علم الاخلاق عندهم علم السلوك ، أي حسن التصرف بالحرية الذاتية التي تستهدف عمل الخير ، فاذا كان الدين يقود الناس الى الفضائل ويعيدهم عن الرذائل ، فهو اقوى على صيانة الاخلاق والاحتفاظ بها . والدين اذ يكلف معتنقيه بواجبات تفرض عليهم حسن التصرف بحريتهم كأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، انما يلقي الناس الفضائل وعملهم عليها . ولما كان المجتمع لا يقوم ولا يدوم الا بالاخلاق ، والدين كما رأينا يستهدف تثبيت الفضائل بين الناس وتعليمهم حسن التصرف بحريتهم ، فالدين على هذه الصورة يكون ضرورياً لحياة المجتمع .

هل تكفي قواعد الاخلاق واحكام القانون لبناء المجتمع ؟ : يظن انصار الفلسفة المادية ان قواعد الاخلاق واحكام القانون كافيتان لدوام المجتمع

١ - منبعا الاخلاق والدين : برجسون .

ولكن البشر مفضون على حب نفسه وإيثاره الخير لها ، وقد لا يتحاشى الإضرار بالناس ما رأى نفسه بعيداً عن رقابة القانون ، وغير مقيد بقيود الاخلاق ، واذن فتلك القواعد والاحكام غير كافية لحفظ نظام المجتمع ، بل هو بحاجة الى رادع غيبي قدسي يشعر الناس معه ان سرائرهم وخواطرهم لا تخفى عليه ، اينما كانوا وحيثما وجدوا ، ولا رادع اقوى واقدس من الدين . وقد ذكرنا فيما سبق ان الدين ضروري للناس لبقاء المجتمع ودوامه ، ونذكر الآن ضرورته من جهة الفرد . ينتاب الانسان في حياته مصائب واهوال يود لو يتلقاها بالصبر والاستهانة . فاذا كان متديناً فانه يستطيع تحمل المصائب برباطة جأش ويقتمم الاخطار بالصبر والناة ، ويجد في الدين سلواناً وعوناً على مكابدة الارزاء واقتحام الصعاب اما الملحد الذي لا يعتقد بالدين وبتعاليمه فانه يتجه الى الطبيعة فيتنكر لها ويعتب على الحظ الذي خذله ، فيتضاعف ألمه ويشتد بلاؤه . واذا كان بعض انصار الفلسفة المادية قد ادعى بان لا حاجة بالناس الى الدين والاخلاق ، واذا كان آخرون يرون ضرورة وجود قواعد الاخلاق لبقاء المجتمع ويوصون بجعل وجدان الانسان كفيلاً بتحقيق غرض المجتمع وهم يحاولون الاستغناء عن الدين واقامة ما يلهمه الوجدان مقامه فان آخرين لا يؤيدون هذا الرأي . ويقول في ذلك هربرت سبنسر احد فلاسفة الانكليز : « ان قواعد الاخلاق التي ألهمنا اياها الدين وقدها الناس فيما مضى آخذة بالضمور والذبول ، ولا أشد وافدح من تضاؤل هذه القواعد والتعاليم » . ولما لوحظ ضمور سلطان الدين اراد ان يهون من المصاب فاستبدل بها الآداب الوجدانية بيد ان النتائج اسفرت عن فشل دعواه ودعوة من حذا حذوه .

يقولون : ان الدين ليس من ضروريات المجتمع ، وان المجتمع الملحد

يمكن ان يساس بقوانين اخلاقية تستمد من ثلاث قوى :
الاولى - الوجدان ، اي ان الانسان اذا قام بواجبه يرتاح ضميره
وينشرح فؤاده ، واذا قصر في ذلك يخالجه الندم ويعروه الكدر .
الثاني - السنن الطبيعية ، ان للطبيعة سنناً تقتاد الانسان فمن سار عليها
نجا ومن خالفها هلك .

الثالثة - سلطة المجتمع ، اي ان المجتمع هو سلطة قاهرة تجعل الانسان
يسير في الطريق الذي اختطه المجتمع وينقاد لاحكامه التي تثيب وتعاقب .
غير اننا بعد التدقيق في مدى أثر هذه القوى الثلاث لا نجد لها في
ذاتها كافية لتسد القوانين الاخلاقية وذلك للاسباب التالية :

اولاً - ان ارتياح الضمير عند اداء الواجب واطهار الندم عند اقرار
الذنب انما هما اثران من آثار الاندماج في مجتمع ديني ، متلبس باحكامه ،
متشرب بتعاليمه لأن تلك الاحكام وهذه التعاليم تتأصل في نفس الانسان
دون ان يفطن لها ، وتتمكن من تصرفاته ولا يستطيع التملص منها .
فاذا ندم من ذنب اقترفه فما ذلك الا انعكاس لاشمئزاز المتدينين الذين
نشأ بينهم مما فعل .

ثانياً - ان الطبيعة تعاقب من يخالف نواميسها ، ولكنها لا تعاقب من
يخالف قواعد الاخلاق ، فلو القى الانسان بنفسه من شاهق فانه يكون
قد خالف ناموس الطبيعة وعرض نفسه للعقاب الصارم (الهلاك) اما
الذين يخالفون قواعد الاخلاق كعقوقهم للوالدين وبخلهم على المساكين ،
وتقاعسهم عن مناصرة الضعفاء ... الخ فالطبيعة لا تعاقبهم على ذلك .

ثالثاً - ان المجتمع لا يعاقب كل من يتنكب عن شرائعه ويشذ عن
قوانينه . فكم من جناية تجرح وكم من مال ينهب ويغتصب وكم من إثم
يقترف والفاعلون يسرحون ويمرحون بين سمع الشرطة وبصر الحكام ،
وكم من مجرم افلت من يد العقاب بفصاحة محاميه واشتباك الظروف .

المصطلحات في تاريخ الاديان

من المعلوم ان لكل علم مصطلحات خاصة به . ولا يسهل فهم ذلك العلم الا بالتعرف الى مصطلحاته معرفة تامة . والمصطلحات التي سنذكرها فيما يلي توضح لنا العناصر الاساسية التي قامت عليها المعتقدات الدينية . ان المعتقد الديني الاساسي تدرج من الروحية والطبيعية والطوطمية (التي يزعم بعض علماء الاديان والاجتماع انها المعتقد الاول للاقوام البدائية) الى الوثنية فالالوهية .

١ - الروحية (الحيوية الحياتية) - Animism ان كلمة انيمسم مشتقة من كلمة (Anima) اللاتينية ومعناها حياة الحيوانات . وقد عرب بعض المترجمين انيمسم بالحيوية والحياتية ولكننا اثنا ان نعربها بالروحية لانها اقرب الى الفهم ، وذلك لأن الحياة لا تتجلى الا بالروح . ان الروحية او مذهب الروحية في علم الاديان هو الاعتقاد بان لجميع الموجودات روحاً ، وان شعور الانسان لهذا الحس هو الذي أنشا الدين لدى الاقوام البدائية وهي بذلك تختلف عن معنى الروحية في الفلسفة . فالروحية عند الفلاسفة هي المذهب الذي يستند الى ان الروح اصل في الحياة ، وهي المدبر الحقيقي والفاعل المختار في الجسد وتبقى خالدة بعد انفصالها عنه .

٢ - الطبيعية - Naturism : ان كلمة ناتوريسم مشتقة من كلمة (Natura) اللاتينية ، اي الطبيعية . والطبيعية او مذهب الطبيعة في تاريخ الاديان هو الاعتقاد بان مظاهر الطبيعة هي التي انشأت فكرة الدين لدى البشر الابتدائي الاول .

٣- الطوطمية Totemism : ان كلمة طوطمية مشتقة من كلمة (Totem) ، وهي في الاصل من كلمات سكان امريكا الاصليين وتدل في الاصطلاح على الشعارات التي اتخذتها بعض الاقوام في استراليا وجزر اوقيانوسيا وامريكا ، فقد اتخذت كل عشيرة طوطما لها اي شعاراً من الحيوان او النبات او الجماد ، زعمت ان لها صلة متينة بذلك الحيوان او النبات او الجماد . ومن العلماء من يرى ان فكرة الطوطم هي التي انشأت الدين لدى الجماعات البدائية .

٤- الوثنية Fetishism : ان كلمة فيتشيسم مشتقة من كلمة (Fetish) اللاتينية ومعناها الشيء الذي يحترم ويقدم ، وتعني الوثن اي المادة الجامدة من الحجر والخشب والعظم والقوقعة ... وغير ذلك التي اتخذتها الاقوام المتوحشة في افريقيا وثناً لها تقده وتعبده .

الالوهية Theism : ان كلمة ثيئسم مشتقة من كلمة Theos اليونانية اي الإله . ان مذهب الالوهية او التألّيه هو الاعتقاد بوجود الله . والالوهية او التألّيه في تاريخ الاديان تشمل عدة مذاهب وهي :

اولاً- وحدة الوجود او الحلول Pantheism : ان كلمة بانثيسم مشتقة من كلمة (Pan) اي اتحاد وكلمة (Theos) اي الإله ، ومعنى ذلك الاتحاد بالاله اي اتحاد الإله بالخلوقات وحلوله فيها . وهو مذهب يزعم ان الله حال في جميع المخلوقات . وقد اطلق على هذا المذهب الوجودية (وحدة الوجود) او الحلولية : اما الفلاسفة المسلمون فاطلقوا هذا التعبير على الاشراقيين الذين يعتقدون بان الله اشرق على كافة مخلوقاته وان الموجودات منه واليه .

ثانياً- الشرك او الاشراك - Polytheism : ان كلمة بولثيسم من كلمة (Poly) اليونانية ومعناها الكثير وكلمة (Theos) اي الإله ،

ويطلق هذا الاصطلاح على دين القائلين بتعدد الالهة اي مذهب الشرك . ويدخل في دين الشرك القائلون بوجود إلهين إله خير وإله شر ، ويسمى مذهبهم (الثنوية Dualism) والكلمة مشتقة من (Duo) اللاتينية اي الاثنيين . وتطلق في الفلسفة على القائلين بوجود قوتين تتنازعان الكون ، قوة الخير وقوة الشر . او قوة الروح وقوة المادة .

ثالثاً - التوحيد Monotheism : ان كلمة مونوثيسم مشتقة من كلمة (Mono) اللاتينية ، احد لا غير ، وكلمة (Theos) اليونانية اي الإله . ويطلق هذا الاصطلاح على دين الذين يعتقدون بوجود إله واحد لا شريك له .

رابعاً - التوحيد الكاذب Henotheism : مصطلح هنو ثيسم يعني الاعتقاد باله اعلى يسيطر على الالهة الآخرين ، يتصف بجميع صفاتها ويقوم مقامها . ان معتقدي هذا المذهب يقرون بوجود إله واحد متعال ولكنهم يعتقدون في الوقت نفسه بوجود الهة اخرى تعمل بارادة هذا الاله المتعال .

ان مذاهب الالهية او التأليه هذه تقرر جميعاً بوجود اله او الهة تدبر شؤون الكون ، فمن مشركين يؤمنون بالهة متعددين ومن ثنويين يعبدون الهين ومن موحدين يؤمنون باله واحد احد لا شريك له ، ومن هؤلاء جماعة زعموا ان الله الواحد الاحد حال في كافة الموجودات وهم وجوديون او حلوليون .^(١)

خامساً - اللاإلهية - Atheism : ان كلمة آئيثيسم مشتقة من حرف (A) اداة النفي اليونانية وكلمة (Theos) اي الاله ، فمعناها اللغوي اللاإلهية اي الذين ينكرون وجود الله ويطلق عليهم في كتب الكلام

١ - يطلق الكلاميون على الذين يعتقدون بوجود الله إلهيون .

(المنكرون والزنادقة والملاحدة او المعطلة) والقائلون بهذا المذهب هم الزنادقة والدهرية او المعطلة . ولما كان الدين يختلف مع الفلسفة في مفهوم اسم الله فمصطلح (آثيستم) يختلف ايضاً بالنظر الى الاديان والمذاهب الفلسفية . واذا اردنا ان نعرف هذا المصطلح بتعريف عام شامل نقول : « ان الزندقة هي انكار الموجود الازلي مبدأً وحدة الكون . ويدخل تاريخ الاديان فئة (المعطلة) من جملة اصحاب المذاهب الدينية ، لأن الملاحدة او المعطلة ينكرون وجود باري الكون لامور يزعمون بصحتها ، فانهم يجعلون (المادة) بدل الباري تعالى ويرون انها كونت الكون . وينتسب هؤلاء في الاصل الى دين من الاديان ، ثم يتطور الامر عندهم الى انكار إله او الهة ذلك الدين فلا يقولون بان خالق قديم ازلي حكيم متعال انما يزعمون المادة هي التي كونت الكون وابدعت في تصوير الموجودات .

ولا يجوز اطلاق كلمة آثة - Athe : اي منكر على الذين لا يدركون ذات الباري تعالى بكنهه وصفات كماله . اما الملحد الحقيقي والمنكر الجاحد فهو الذي ينكر الالهية بالكلية . واذا دققنا معتقدات الاقوام المتحضرة نراها جميعاً قائمة على الاعتقاد بالاله . ولم يظهر اللادينيون او المعطلة الا بعد ان انتشرت الفلسفة بين الناس فتمردوا على الخرافات واستهزأوا بالالهة والاساطير ، ثم تغالوا في التمرد ، فانكروا وجود الاله او الالهة . ويظهر من ذلك ان الانسان لا يكون منكراً بالفطرة .

البَابُ الأوَّل

14/12/2014

النظريات الشائعة عن الدين البدائي الأول

يقصد بالدين البدائي الاول الدين الذي كانت تعتنقه الجماعات البشرية في اول نشاتها اي حينما كان البشر يعيش في جماعات في حالة همجية . فالاديان القديمة التي وصلت الينا اخبارها المسطورة كدين السومريين ودين المصريين ما هي الا اديان اقوام عاشت في اوائل التاريخ ، اي في الدور الذي عرفت فيه الكتابة . وليس من شك في ان هذه الاديان طرأ عليها تبديل وانها تطورت من دين سابق . ان البحث عن الدين البدائي الاول امر عسير لان معتنقيه من جماعات البشر لم تترك لنا اثاراً مكتوبة . ولذا كان الدور التاريخي لا يرجع عهده الى اكثر من ثلاثة الاف سنة قبل الميلاد ، فان الجماعات البشرية التي عاشت قبل ذلك التاريخ بعشرات الاف السنين . ولم تخلف هذه الاقوام الغابرة الا ادوات حجرية كانت تستعملها في حياتها وقبوراً ومباني مهدمة يظن انها كانت معابد ، وهذا

وحده لا يكفي لمعرفة معتقدات تلك الاقوام . ولذلك ظن علماء
الاديان ان دراسة الاقوام المتوحشة التي تعيش في قارة اوستراليا واواسط
افريقيا وغابات صحارى امريكا تساعدهم على البحث والتوصل الى اسرار
الدين الاول . ولكن هذه الشعوب والقبائل التي تعيش في الجاهلية والتي
انعزلت عن العالم المتمدن وعاشت في مناطق نائية لم يكتشفها المتمدنون
الا مؤخراً . فهل احتفظت هذه الشعوب باوضاع الدين الفطري ، ام
ان دينها كان ارقى من حالته الحاضرة فاصابه الترددي بمرور السنين ، ام
انه تطور حتى بلغ المبلغ الذي شاهده العلماء الذين عاشوا بين
تلك الاقوام ؟

وقبل ان نبحث عن النظريات في منشأ الاديان من المفيد ان نذكر
المدارس التي بحثت في منشأ الدين منذ المنتصف الثاني للقرن الماضي .
ان اول مدرسة من هذه المدارس هي التي عنيت بدراسة اللغة الهندية
الاوربية اسسها (ادالبرتوكون - Adalberto Kuhn) وماكس مولر
وسميت بالمدرسة الفيولوجية لان تدقيقاتها تستند الى اشتقاق اللغات .
ان الوثائق التي اعتمدت عليها هذه المدرسة استخرجت كلها من منابع
ادبية . اي كتب الفيدا الهندية التي اعتبرت في حينه اقدم وثيقة
دينية . ووجدت في هذه الوثائق امثلة كافية لمفهوم ديني يميل الى تشخيص
المظاهر الطبيعية ويعزو اليها خصائص الهية . ومن بين انصار هذه
المدرسة من كان ينسب للشمس في تكوين الديانات اهمية عظمى ، ومنهم
آخرون ينسبون للكواكب والظواهر الجوية اثراً كبيراً .

وتاتي من بعدها المدرسة الانتروبولوجية - في انجلترا والمانيا -
وتستهدف دراسة البشر من نواحٍ مختلفة ومن هذه النواحي
الانتروبولوجيا الاجتماعية التي تهتم بالثقافات والمجتمعات الانسانية . وبينما

كانت المدرسة الفيولوجية تعتمد في نظرياتها على الوثائق الادبية فقط وترى ان عبادة الطبيعة هي المنشأ للدين ، فان المدرسة الانتروبولوجية مع استنادها الى وضع الاقوام التي تقدمت في الحضارة فانها تعتمد في دراستها الى تفسير معتقدات الاقوام المتوحشة التي جمعت عنها معلومات كثيرة . وقد توصل الاستاذ تايلور وهو من اعلام هذه المدرسة الى ان عبادة الروح هي المنشأ للدين . وكان المحرك لدراسات المدرستين المذكورتين نظرية التطور التي سيطرت على عقول العلماء في المنتصف الاخير للقرن الماضي والتي اسسها (داروين Darwin) مؤكداً بالدلائل ان الحياة تطورت من حالة بسيطة الى حالة مركبة فمعقدة ، وان الاصلح للحياة هو الذي يبقى وان غير الصالح يفنى ، وان الحياة نباتية كانت او حيوانية سلكت في الادوار الجيولوجية طريق التطور وما زالت تسلكه (١) .

ان من الطبيعي ان يتاثر علماء الاديان بهذه النظرية فيقولون بان الدين ايضاً سلك على مر القرون مسلك التطور فنشأ لأول مرة في حالة ساذجة ثم اخذ يتطور حتى بلغ بالاديان العامة مبلغه من الكمال . لهذا رأى اعلام مدرسة اشتقاق اللغة ان مظاهر الطبيعة هي التي ولدت

١ - ان التطور العظيم الذي بلغته العلوم الطبيعية مؤخراً أيد بصورة لا تقبل الجدل وحدة المادة ودفع بمفهوم التطور الى ابعاد نقاط الكون . واتجهت الانظار الى دراسة الاديان البدائية ومقارنتها بالاديان التي اتت من بعدها او الاديان القديمة . ان التطور من حيث الانواع وتبدل الحياة من البسيط الى المركب ، في علم الحياة طبق على دراسة المجتمعات البشرية البدائية . ومن برز في ذلك الميسدان جون لوبوك John Lebock و (هربرت سبنسر) وقد دفعت نظرية التطور الى ان يدعي لوبوك وتسمان الى لا دينية البدائيين . ويرى لوبوك وهو متأثر بالنظرية التطورية ان جميع الشعوب مرت بالمرحل التالية : لا دين فوثنية فعبادة الطبيعة او الطوطمية والاعتقاد بالهة متعالية اقوى قدرة من البشر ذات طبائع مختلفة فعبادة الاصنام ، ثم انشاق فكرة الاله الخلاق .

فكرة الدين ، ومن عبادة الطبيعة انتبه البشر الى عبادة الارواح والى الوثنية فالشرك فالتوحيد . بينا اعلام المدرسة الانثروبولوجية توصلوا في تدقيقاتهم الى ان الروح هي التي نبهت البشر الى الدين . فبدأ الدين بالروحية (عبادة الارواح) وتطور الى الوثنية ثم عبادة الاصنام والى عبادة الهة متعددة (الشرك) فالى عبادة الاله الاعلى .

وظهرت المدرسة الثالثة وهي المدرسة الاجتماعية التي اسسها العالم الاجتماعي (اوغست كونت) في فرنسا وانتشرت بسرعة بين علماء الاجتماع والباحثين في تاريخ الاديان . ونذكر فيما يلي خلاصة آراء هذه المدرسة في الاديان :

١- ان الدين فيه اعتقادات رصينة واعمال خاصة بالامور المقدسة للاعتقادات والاعمال في جمعية معنوية تسمى (كنيسة) لهذا يرون ان الدين حادثة اجتماعية تعمل على تنظيم الكنيسة .

٢- ان الدين والسحر شيان مختلفان كل الاختلاف . ان شعوب اوستراليا اكثر الشعوب بدائية ، لذلك ينبغي دراستها للبحث عن منشا الاديان .

٣- ان الدين والاخلاق من ابداع الجمعية البشرية . ولا قيمة للفرد في الجمعية البدائية . انما الجماعات هي المهمة . وكان اعلام المدرسة الاجتماعية وعلى رأسهم العالم الاجتماعي الافرنسي اميل دركهايم قد اعتبروا الطوطمية هي المنشا للدين الابتدائي .

ان دراسات تاريخ البدائين وتاريخ الاديان بصورة خاصة جرت في وقت كانت فيه الموضوعية والتطورية هما المبدأن المسيطران في المجال العلمي . ولقد استحقت المباحث التي جرت في هذا المجال التقدير والاعجاب ، لانها جمعت وثائق كثيرة وساهمت في تأسيس متاحف

الاثنولوجيا . ويمكن تلخيص الدراسات العلمية في اديان البدائيين بدراستين : الدراسة التطورية التي اشرنا اليها والدراسة التاريخية التي سنوجزها كما يلي :

لقد تناول هذه الدراسة كثير من العلماء ومن جملتهم الاب (اشمت Schmidt -) العالم الديني الشهير . يرى (غرينبر - Graebner) وهو من اعلام المدرسة ، ان عناصر المدرسة المذكورة تتكون من ثلاث مراحل : الاولى نقد لمصادر البحث التي تمدنا بالوسائل المتعددة للوقوف على الوثائق والحقائق المختلفة بكل حجة . والثانية التفسير اي اكتشاف المعنى الحقيقي لكل وقعة . والمرحلة الثالثة هي الربط وهي اهم المراحل الثلاث وادقها في تاريخ الاديان . وهي تعلمنا كيف نربط الوقائع بعضها ببعض ، متى تكون معروفة لنا بدقة ومفسرة احسن التفسير . وقد اضاف اعلام اخرون قواعد اخرى لهذه الدراسة بحيث مهدت السبيل للوصول الى نتائج معقولة حين البحث عن معتقدات الشعوب البدائية والتعرف الى اي منها سابق واي منها متأخر واي منها اصلي ، واي منها دخيل . وهناك نظرية (الترددي) ظهرت في القرن الماضي زعمت ان الاقوام التي تسمى متوحشة ما هي الا شعوب تدهورت حضارتها (نظرية الترددي) ، او اقوام توقف تطورهم (نظرية الركود) وكانت نظرية الترددي ذات مكانة في سنة ١٨٦٠ وما تزال ذات وجهة لدى اللغويين . وقد دلت الحفريات الاثرية في بعض الجهات على ترددي الحضارات ، فقد عثر على بقايا لبشرية تعود الى عهد ما قبل التاريخ ، وتبين من المواد التي كانت الى جانب اللقي ان اصحابها كانوا متقدمين في الحضارة ولكن تطورهم اصيب بالركود . وكذلك وجدت لدى البدائين آثار تدل على انهم كانوا فيما مضى ذوي حضارة متقدمة ثم ضاعت حضارتهم . وكان

للبيئة في هذا الصدد تأثير عظيم ، اذ من الثابت ان الحضارة في بيئة
صالحة تتقدم ، فاذا تغيرت ظروف البيئة حدث التردى . ومن الاسباب
التي اوقفت تقدم الحضارات او ادت الى جمودها الحروب بالاضافة الى
اسباب جغرافية واسباب ناشئة من البيئة ، كالجزر الصغيرة في المحيط
الهادىء التي تباعدت عن بعضها مسافات طويلة والجبال المنيعه والتربة
الفقيرة ، كالصحارى في آسيا وافريقيا والتندرا في شمال آسيا وامريكا
الشمالية والغابات الاستوائية الرطبة في افريقيا الوسطى وامريكا الجنوبية .
ان جميع هذه المناطق ظلت آهلة او انها بقيت الى وقت قصير مسكونة
من قبل بدائين او شعوب منحطة حضارياً .

اما العوامل التي ادت الى تقدم الحضارة وعدم ركودها فهي عوامل
مساعدة كسهولة المواصلات والمناطق الخصبة ، وعلى الاخص بلاد الرافدين
دجلة والفرات ونهر النيل ، والانهار في الهند وفي الصين .

الروحية - الطبيعية - الطوطمية

ولم يتفق علماء الاديان على طريقة واحدة لمعرفة نشأة الدين الاولى .
ففريق منهم تعمق في معتقدات الاقوام المذكورة وفي اساطيرها معتمداً
على الانثروبولوجيا ، وفريق اهتم بدراسة اوضاعها الاجتماعية وفريق ثالث
بحث في اوصاف آلهة الاقوام القديمة ولا سيما الاقوام الهندية - الاوربية معتمداً
على اشتقاق اللغة - الفيولوجيا - وكان لا بد لهذه الطرق في البحث ان تنتهي
الى نتائج مختلفة ، وقد تبين لعلماء الاديان والاجتماع - بصورة عامة في بحوثهم
عن اديان الشعوب القديمة ان الاديان التي يظن انها ابتدائية هي في ذاتها خلاصة
تطورات حدثت في اجيال . ولكي يتم الاطلاع على وضع الدين الابتدائي

يلبغى التعمق في بحث الاديان لأرجاع كل منها الى اصله حتى يتيسر الوصول الى الدين الاول ومعرفة ما اقتبسه من الاديان الاخرى ، وكيف انتهى وضعه المعروف . ولا يتم ذلك الا بدراسة الاديان والانتقال منها الى الاديان السماوية المتكاملة . وقبل ان ندرس الاديان البدائية يجب ان نعلم ايها اقدم اساساً وابطس اوضاعاً لنبدأ الحديث منها .

ويلوح للباحث ان الاديان الابتدائية تتشابه ولكنه اذا تعمق في البحث يجد بينها اختلافاً وهذا الاختلاف والاختلاف في طريقة البحث اديا الى تعدد النظريات في نشأة الدين الاول . فالعلماء الذين اعتمدوا على الانثروبولوجيا وعاشوا بين الاقوام المتوحشة ودرسوا معتقداتها واساطيرها وضعوا نظرية الروحية التي تقرر ان البشر الاول عبد الروح واعتقد ان لجميع الموجودات روحاً . اما العلماء الذين درسوا الاوضاع الاجتماعية لتلك الاقوام وحاولوا ان يكشفوا القوة الخفية التي اثرت في تكوين تلك الاوضاع فقد وضعوا نظرية (الطوطمية) اي ان الجماعات البشرية الاولى جعلت احد الموجودات حيواناً او نباتاً او جماداً - شعاراً مقدساً لها واجتمعت حوله واهتمت به . واما العلماء الذين حاولوا ان يتوصلوا الى الدين الاول عن طريق اشتقاق اللغة (الفيلولوجيا) والمقارنة بين اوصاف الالهة فقد وضعوا نظرية (الطبيعة) اي ان البشر الاول كان يعبد مظاهر الطبيعة . وكما ان الدين الروحي يرى في طيات الحفاء قوة قدسية مثل الارواح والجان والشياطين ، فيؤله ارواح البشر ، كذلك الدين الطبيعي يرى في مظاهر الطبيعة كالريح والنار والنجوم والشمس والقمر والاشجار والبحار قوة كامنة فيعبد بعضها . وقد سمينا تلك البحوث بالنظريات لأن العلماء لم يتوصلوا في بحوثهم الى الحقيقة . وقد لا يتيسر الوصول الى حقيقة منشأ الاديان لأن البحث عنها يقوم على فرضيات لا على عناصر علمية ثابتة .

عبادة مظاهر الروح

ذكرنا فيما سبق ان مصطلح انيميسم يعني الاعتقاد بان لجميع الموجودات روحاً تحيى به . وقد عرب بعض الكتاب مصطلح انيميسم بالحياتية او الحيوية ومن رأينا ان هذا التعريف لا يطابق المعنى المقصود من المصطلح لأن العالم الذي وضع هذه النظرية جعل المحور الذي تدور حوله هذه النظرية للروح التي تميز الحيوان من المخلوقات الاخرى . وقد بنى نظريته على شعور البدائي الى الشيء الذي يختلف عن الجسد وهذا الشيء نسميه الروح .

وضع هذه النظرية العالم الديني (تايلور) وتبناها العالم (هربرت سبنسر) وانتصر لها علماء اخرون . وقد شرح تايلور نظريته هذه من كتابه الحضارة البدائية ، فوضح كيف اتبته البشر الاول الى الروح واعتقد بان للموجودات الاخرى ، حيوان او نبات او جماد ، ارواحاً فعبد الروح ثم عبد ارواح الموتى فمظاهر الطبيعة بوصفها ذات ارواح ، ثم انتقل الى الوثنية فعبادة آلهة متعددة ... (١) .

ويذكر تايلور في كتابه المذكور : « ان النظرية الروحية تتناول اعتيادياً عقيدتين كبيرتين وهما جزآن لا ينفصلان والاولى تتعلق بالروح الفردية التي تتمكن من الاستمرار بعد الموت اي بعد انحلال الجسد، والثانية تتعلق بالارواح الاخرى بما في ذلك الالهة العليا ، وتعتبر الكائنات الروحية ذات تأثير وسيطرة على حوادث الكون المادية وعلى حياة الانسان في هذه الدنيا وفي الآخرة . وبما ان الاعتقاد بان تلك الكائنات تتصل بالناس وان الاعمال البشرية تسبب انشراحها وغضبها فان الايمان بوجودها يؤدي بطبيعة الحال عاجلاً او آجلاً الى استعفافها وعبادتها ، وهكذا تتضمن عقيدة الروحية في ازدهار تطورها الاعتقاد بالروح وبالحياة الاخرى فتصبح طوائف ومذاهب من نتائج العملية اعمال التعبد المختلفة (١)

ويقول تايلور بعد ذلك : ان القسم الاول من الموضوع الذي ندرسه هو طريقة الارواح سواء أكان روح الانسان ام الارواح الاخرى . ثم يتساءل ما هي الفكرة التي تتصور بها الشعوب المنحطة الروح ؟ ويجب ان نوسعنا ان نتبين هذه الفكرة بجلاء ، ذلك باعادة بناء تطور المذهب الروحي ويبدو ان العقل البشري وكان ما يزال في حالة متأخرة جداً من ناحية الثقافة - وقد اهتم خاصة بصنفين من القضايا الحياتية ، اولها قضية الاختلاف بين الجسد الحي والجسد الميت ، وسبب اليقظة والنوم والصرع والمرض والموت . والقضية الثانية ماهية الصورة البشرية التي تتراءى في الرؤيا وفي الخيال (الاحلام والرؤى) ويبدو ان فلاسفة المجتمعات المتوحشة بامعانهم النظر في هذين الامرين توصلوا من حيث المبدأ الى الاستدلال بان لكل انسان حياة وطيف وان لهذين العنصرين اتصالاً مباشراً بالجسد . ان الحياة تجعل الجسد يشعر ويفكر ويعمل . اما الطيف فانه صورته وتابعاً له ، وان الحياة والطيف يستطيعان الافتراق عن الجسد ، بمعنى ان الحياة قابلة للانسحاب من الجسد وتركه بلا شعور او ابتلائه بالموت . ويستطيع الطيف ان يتراءى لاشخاص بعينين عنه .

١ - الحضارة البدائية : الجزء الاول C.P.I :

ويستطرد تايلور متسائلا اذا كان الطيف والحياة تابعين للجسد فلماذا لا يتبع احدهما الاخر؟ لماذا لا يكونان علامتين لروح واحدة؟ هل ان الانسان يعتبرهما متحدين ويستنتج منه ذلك المفهوم المتعارف ، وهو المفهوم الذي يمكن تسميته بمذهب الروح الظاهرة او الروح الطيف. وهكذا كانت فكرة الشعوب المنحطة عن روح الفرد او النفس : وهي صورة بشرية لطيفة غير مادية ، كبخار او سحابة او ظل ، وهي سبب الحياة والتفكير لدى الفرد. وهي الامرة المسيطرة على وجدانه وارادته . وباستطاعتها ان تترك الجسد وتنتقل من محل الى آخر . وبوجه عام لا سبيل الى لمسها او رؤيتها ولكنها تستطيع ان تعلن نفسها ببعض الخواص الفيزيائية ، فتظهر للناس في اليقظة او في الرؤيا كطيف انفصل عن الجسد ، الا انها حافظت على مظهره . وبعد موت ذلك الجسد تظل موجودة وتستمر على الظهور ولها قابلية النفوذ في الأحياء الاخرين وفي الحيوانات والتحكم فيها والتأثير عليها ، كما انها تتحكم في الاشياء الجامدة (١) .

* * *

ثم يمضي تايلور قائلا: واذا اريد الحصول على ما كانت تقصده الشعوب بالروح وبالنفس ينبغي استعراض الكلمات التي تعبر عنهما . ان الشبح او الطيف الذي يراه الحالم او المتخيل هو صورة لا ذات لها وشيء يشبه الظل . لهذا استعملت كلمة (الظل) للتعبير عن الروح : وهكذا يستعمل الطاسمانيون كلمة واحدة للروح والظل . وتزعم قبيلة الاجونيك في امريكا ان روح الانسان ظله . ولا تقتصر قبيلة الزولو في افريقيا على تسمية النفس او الشبح بالظل ، بل تتصور ان موت الظل يخرج الروح من الجسد فتأخذ الروح مكانها بين ارواح الاجداد . ويشير

١ - الحضارة البدائية ، الجزء الاول .

الى ان عملية التنفس عند الحيوانات العليا ترتبط ارتباطاً كلياً بالحياة ، وكان من امر ذلك ان اختلط التنفس - بطبيعة الحال ولمرات عديدة - بالحياة او بالروح ذاتها وهكذا اصبحت الحياة والنفس شيئاً واحداً .

والاشتقاقات اللغوية التي تدل على اختلاط معنى الروح بالتنفس واضحة فالعبريون يستعملون كلمة (نفس) للتنفس ولها عندهم معان مختلفة اخرى منها الحياة والروح والنفس والحيوان ، بينما يعبرون عن النفس (تنفس) والنفس بكلمة (رواخ) و (نشمه) يقابلها كلمتا نفس وروح العريتين . وبالامكان معرفة الصلة الماثلة بين الكلمتين السنسكريتيتين (Ataman - اتمان) و (Prana - برانا) اي الروح والنفس والكلمتين اليونانيتين (بسيكه - Psyche) و (بنيوما - Pneuma) والكلمتين اللاتينيتين (انما - Anima) و (سبريتوس - Spritus) وكذلك التعبير السلافي (دوخ - Dukh) التي تعني حرفياً النفس وعبرت اخيراً عن الروح والنفس . كما ان كلمة (جايست - Geist) الالمانية وكلمة (جوست - Ghost) الانكليزية كان معناها بالاصل نفس وتنفس .

ان النظرة الروحية البدائية ترى ان الروح سبب الوظائف الحياتية (الاعمال والافعال) وبذلك تساعد الانسان على ايضاح بعض الظواهر الفيزيائية والنفسانية والعقلية . فالاستراليون يعبرون عن الشخص الذي لا يشعر ولا يعي بكلمة (وليامربا - Wyllya marraba) اي لا روح له . وتعتبر قبيلة الجونيك في امريكا الشمالية عن المرض بان ظل المريض اختل وانفصل عن جسده . وتعتبر قبائل سارلش ان النفس شيء يختلف عن الحياة ، وان الروح تستطيع ترك الجسد لوقت ما دون ان يشعر المريض بغيابها ، كما ان قبائل الكارن تعتقد ان الروح تتخلص من الجسد في النوم خاصة وتسري حيث تريد ، وان غيابها يطيل المرض واذا غابت بصورة دائمية يموت المريض . ويمضي تايلور في بحثه فيقول ان الطريقة التي شرحت آنفاً تشكل مفهوم نظرية الاحلام الشائعة عند الشعوب المنحطة . فبعض قبائل جرينلاند تعتقد بان الروح تترك الجسد وتذهب للبحث عن الاشياء التي اعجبت بها . وتتصور قبائل نيوزيلنده ان روح الحالم تترك الجسد وتعود

اليه ، وانها في انفصالها عنه تذهب حتى الى عالم الاموات للتحدث مع اصدقائها ،
اما قبائل تجال في جزيرة لوسون فيمتنعون من ايقاظ النائم باعتبار ان روحه
غائبة . واخيراً يصرح تايلور : « اما انا فأرى ان الاحلام والرؤى هي التي
جعلت البشر يتصور ان الارواح صورة هوائية للجسد » (١)

وننتقل بعد ذلك الى ذكر الادلة على ان الروحية ، اي عبادة الروح هي
الشكل البدائي للحياة الدينية ولأجل اثبات ذلك ينبغي التأكد أولاً من ثلاثة
امور :

اولاً - بما ان فكرة الروح هي الاساس في نظرية الروحية فينبغي التأكد من
ان أياً من عناصرها لم يقتبس من دين آخر .

ثانياً - ينبغي ان نبين كيف اصبحت الارواح تعبد وكيف تحولت الى
اجسام لطيفة .

ثالثاً - ينبغي ان نوضح كيف نشأت عبادة الطبيعة من عبادة الارواح .
يبدو ان الروحية من اقدم معتقدات الشعوب البدائية ولم تزل تعاليمها الى
يومنا هذا ظاهرة بين عقائد الاديان الطبيعية التي تتجلى بعبادة مظاهر الطبيعة ،
ولا سيما الاقوام المتوحشة في افريقيا وامريكا واوقيانوسيا ، ومع ذلك فان من
الصعب الجزم بما كان عليه الدين البدائي وذلك لأن اديان الهمجيين المنقرضين
والشعوب المتوحشة الموجودة ما هي الا بقايا وانقاض للدين الذي كان سائداً
قبل نشوء الحضارة . وقد توصلنا دراستها الى معرفة الدين البدائي بصورة صحيحة
وسبب ذلك :

اولاً - لقد دلت البحوث على ان الحضارة العامة في العهود السحيقة لم تكن
اكثر تقدماً من حضارة الشعوب المتوحشة الحالية .

ثانياً - ان اديان الاقوام المتحضرة التي يرجع تاريخها الى عهد قديم كدين
المصريين ودين بلاد الرافدين ودين الصين تأثرت بالروحية اكثر من تأثر الاديان
الحديثة المنشأ .

ثالثاً - ان جزءاً مهماً من اساطير وشرائع الشعوب المتحضرة نجد صورة ابتدائية لها ممتزجة بتقاليد الشعوب غير المتحضرة .

رابعاً - واخيراً ان احسن طريقة لايضاح الآثار الروحية البارزة في الاديان الرفيعة هي مقارنتها بعقلية العوام وذلك باعتبارها بقايا افكار قديمة عادت الى الظهور .

ويجدر بنا الان ننسى ان الاديان المنحطة الحالية لا تصور دين ما قبل التاريخ الا بصورة ناقصة جداً . لأن الاديان المنحطة لم تبقى جامدة ولانها في الواقع ابتعدت عن حالتها البدائية بكثير او بقليل . وبعد تلك الايضاحات والاستطرادات يقتضي اثبات ان الشعوب الاولية اعتقدت قبل كل شيء بالروح .

* * *

كيف اعتقدت الشعوب الاولية بالروح ؟

ان حالات النوم واليقظة هي التي نهبت البشر الى الروح . ولم يستطع البشر الاول ان يفهم التناوب الثنائي في اليقظة والنوم . ينام الانسان فيظن اصحابه انه مات ، وعندما يستيقظ يظنون ان قوة خفية احيته ، ويرى الانسان في نومه انه ذهب الى مكان بعيد زاره في اليقظة من قبل ، وعندما يفيق يرى نفسه في المكان الذي نام فيه ، ولكنه يعتقد حقاً بانه ذهب الى المكان الذي رآه في الحلم . وقد تتكرر هذه الحادثة ، فيحاول بعقليته الساذجة ان يؤول كيف ظل في المكان الذي رقد فيه وذهب في الوقت نفسه الى المكان الثاني ... ان محاولة التأويل جعلته يعتقد بان الذي ظل في مكانه هو الجسد ، اما الذي انتقل الى المكان الثاني هو شيء يختلف عن الجسد . ان حادثة الموت نفسها تؤيد ظناً ان في الجسد شيئاً يختلف عن الجسد لانه يرى الميت ينازع قبل الموت ثم يتوقف عن التنفس فيموت فيصور لنفسه ان القوة الخفية التي تختلف عن الجسد هي شيء

آخر ، وهي عبارة عن نفس (او ربح او هواء) لأنه يخرجها من الجسد ينقطع عن الحركة . انه يرى في احلامه اقاربه الذين ماتوا فيجالسهم ويحدثهم ويسامرهم ، فاذا افاق اعتقد بان الذي جالسه وحادثه هو ذلك الشيء الذي يختلف عن جسد الميت . ويذكر العلماء الذين خالطوا القبائل المتوحشة في اوستراليا ان الرأي السائد فيها هو الاعتقاد بان حياة الجسد وحركته ترجع الى قوة خفية متأصلة فيه . والاعتقاد هذا شائع بين المتوحشين في القارات الاخرى ايضاً . وتعتقد قبائل اوستراليا بان الروح شيء مادي ومستقل عن الجسد يحتاج الى بعض الملذات ويعيش كما كان يعيش في اطار الجسد ، فهو يأكل ويشرب ويصطاد ويطيير فوق الاغصان ويشدو بانغام يسمعها المتقون . فاذا ما صادفوه تطيروا منه وعدوه شؤماً على العشيرة والقبيلة . وتعتقد بعض القبائل ان الروح ليس لها عظام ومن خواصها انها لا ترى بالعين ولكنها تأكل وتشرب وتطيير . واذا ما تعمقنا في اساطير هذه القبائل وطقوسها نرى انهم لا يعتقدون تمام الاعتقاد بتجرد الروح عن الجسد بل يتصورون انها مرتبطة باعضاء الجسد ارتباطاً متيناً ، حتى انهم يزعمون ان الروح تكبر وتهرم مع الجسد ، ولذلك فالفتيان لا يرون الارواح التي تطير فوق الاغصان لأن رؤيتها من مميزات الشيوخ الذين سموا في مراتب الدين ، واذا كبروا وهرموا يعفون من اجراء الطقوس واقامة المراسم لأن روحهم كبرت وهرمت فلا تستطيع ذلك . ومن القبائل الاوسترالية من يعتقد ان الروح والجسد ممتزجين . وفي الروح شيء من الجسد ، وفي الجسد شيء من الروح وان للقلب والتنفس والكلية علاقة بالروح . وقد يتصورون ان هذه الاعضاء تؤلف الروح ، واذا جرى الدم تذهب الروح معه ، فالروح تعيش في قرارة النفس ، بل انها النفس عينه . ولعل اعتبار القلب والرئة والكلية من الروح هو الذي جعل الاقوام الاولية تعتقد بوجود ارواح متعددة في جسم الانسان . وتتصور بعض قبائل اوستراليا ان الروح المنتشرة في الاعضاء تجزأت وتمايزت اجزاؤها فاصبح كل عضو ذا شخصية فيه جزء من الروح الذي حل في الجسد . وقد نتج عن هذا التصور ان روح القلب ليست روح النفس او

روح الظل او روح المشيعة . صحيح ان هذه الارواح صلة متينة ببعضها ولكنها ارواح مختلفة . ومن العشائر الاسترالية من يطلق على كل قسم من هذه الارواح اسماً خاصاً ، فيسمون الجزء الذي حل في القلب (نجائي - Ngai) والذي حل في النفس (وانجي - Wangi) ومنهم من يعتقد بان في الجسد ثلاثة ارواح او اربعة . وتبدو مظاهر حلول الروح في جميع اعضاء الجسد في طقوس الجنائز اذ يقومون ببعض المراسيم الدينية بالاشارات والحركات داعين بذلك الروح لتخرج من الجسد ، وذلك لاعتقادهم بان مجرد انقطاع النفس لا يدل على ان الروح تركت الجسد تماماً . اذ قد تكون موجودة ولربما مهدوا لها السبيل ليسهل عليها الخروج من الجسد والطيران . ومن القبائل الاسترالية من اذا قتلت اعداءها تقطع من اصابعهم السبابة لتحول دون استعمالها من المقتولين في الرمي ، ذلك لاعتقادهم بان الروح تبقى فيها . واذا خرجت الروح من الجسد انتقلت الى عالم آخر . ولا تتفق القبائل في وصف هذا العالم ولربما اختلفت بطون العشيرة الواحدة في هذا الوصف ، فمنهم من يتصور انه تحت الارض ومنهم من يعتقد بان عالم الارواح وراء البحار او في شاطئ من شواطئ البحيرات . ويرى بعضهم انه في السماء وراء السحاب .

* * *

كيف تحولت فكرة الروح الى عبادة الارواح فعبادة الاجداد ؟

واذا كانت حالتني النوم والحلم هما اللتين نبهتا البشر الاول الى الروح كما شرحها تايلور آنفاً فيصبح الشرط الاول في اثبات النظرية الروحية متوفراً . اما الشرط الثاني فيقتضي ايضاح كيفية استحالة روح البشر الى ارواح متعددة . وبعد ان انتبه البدائي الى الروح في حالتني النوم واليقظة كان سهلا عليه ان يعمم هذه الحادثة البسيطة وينتقل بها من فكرة الروح الى فكرة الارواح . فالى حلول الروح في جميع الموجودات . وما دام النوم هو ترك الروح للجسد

لمدة موقته فان الموت هو ترك الروح للجسد لمدة طويلة وقد تكون ابدية . وفي هذه الحالة ينبغي ان تبقى الروح هائمة اذ لو كان الجسد باقيا لكانت قد رجعت اليه ولكن الجسد قد بلي : وبما ان الانسان يرى في حلمه اشخاصاً ماتوا قبلا ويتصور ان روحه اجتمعت بارواحهم لذلك يعتقد ان ارواح الموتى تظل هائمة وتجتمع من وقت لآخر بارواح الاحياء ، عندما تترك اجسادهم لمدة موقته ، وتجتمع بارواح الموتى عندما تترك اجسادهم لمدة دائمة . كما ان الحلم نبه الانسان الى الروح فان الاغماء والشلل والصرع والوجد وما اشبهها من حالات جعلته يعتقد بانها حالات نشأت من ترك الروح لبعض اعضاء الجسد، وان ارواح الموتى سببت تلك الحالات في الاحياء . ومن مميزات الروح انها اسرع من الجسد لانها تقطع مسافات بعيدة في مدة قصيرة وانها تمر بجميع المحلات وتنفذ اليها ولا يصدها مانع او حاجز ، فنتج من ذلك ان الانسان اعتقد بان الروح مادة لطيفة شفافة ، لا لحم لها ولا عظام . وهكذا تبين كيف اعتقد الناس بتعدد الارواح .

ونجروج الروح من الجسد بصورة موقته او دائمة تصبح لطيفة تحوم في الفضاء . وقد تستقر في مقر تتركه متى شاءت وتذهب الى حيث شاءت ففتألف منها جماعة الارواح الهائمة حول البشر وتسير حسب عواطفها وغرائزها عندما كانت في الجسد ، فهي اما طيبة او خبيثة واذا حلت بالانسان فقد تسبغ عليه البركة والصحة . او تجلب له التعاسة والمرض . ونتج من هذا التصور اعتقادهم بأن من يأتي بأعمال خارقة تساعده على ذلك روح من الارواح الطيبة . واما من يحن ويصيبه الشلل والصرع فان روحاً خبيثة حلت فيه . وما دام ان للارواح هذا الحول والطول فلا بد للانسان ان يلتبس رضاها لكي يتقي شرها اذا كانت خبيثة ويستعين بها اذا كانت طيبة . وبعد ان وصل به الاعتقاد الى هذا الحد شرع ينذر النذر ويقرب القرابين ، ويقم الحفلات الدينية ويؤدي شعائر العبادة اتقاء لغضب الارواح وسخطها . وكان من السهل عليه ان يتصور بأن الموجودات الاخرى كالحيوان والنبات لها مثله ارواح . لأن الروح تشاهد بالحركة والحيوان والنبات يتحركان .

ويذكر تايلور ان المتوحشين البدائيين يوجهون الكلام للحيوانات الحية والميتة بوقار ، ويقدمون اليها الاحترام ويطلبون العفو منها عندما تقضي الضرورة بصيدها وقتلها. ان الهندي يخاطب جواده كأنه كائن أعلى، ويتجنب بعضهم الثعبان المجلجل لأنه يخشى نقمة روح الثعبان. ومنهم من يجيي الحيوان كأنه صديق اتى من ارض الارواح (١) .

ثم ويستطرد قائلاً : « ان مذهب حلول الارواح الشائع لدى المتوحشين والمتحضرين فلا يكتفي بالتأكيد على ان للحيوان روحاً بل يؤكد بأنه يمكن لتلك الروح ان تحل في الانسان وقد يكون ذلك الحيوان جد الانسان او بالاخص صديقه القديم. ويعتقد هنود امريكا الشمالية بأن لكل حيوان روحاً وان لارواح الحيوانات حياة اخروية. ان روح الرجل الكندي تخدم صاحب الكلب في الآخرة. ان قبائل (السيوكس - Sioux) لا يرون البشر وحدهم يتمازجون بعدة ارواح بل يعتقدون بأن للدب - وهو الحيوان الاكثر شهماً بالانسان - ايضاً عدة ارواح . ويعتقد اهل غرينلاند ان الساحر يتمكن من تبديل روح مريض بروح ارنب سليمة او روح وعل الرنة او روح طفل . وتزعم قبائل الزولو في افريقيا ان الحيوانات التي يقتلونهم تبعث للحياة وتصبح ملوكاً لسكان عالم الكلام » (٢) .

ويشير تايلور الى : « ان الاعتقاد بأن الروح تتقمص بعد الموت شيئاً ما من جديد يكون مذهباً خاصاً عند كثير من الشعوب المنحطة . وقد تأصل هذا الاعتقاد في نفوس الناس في افريقيا الغربية مما حدا بالارقاء الذين كانوا يشحنون الى امريكا بطريق البحر ان ينتحروا لكي يبعثوا في بلادهم من جديد . والاهلون في استراليا يقولون : « موت اسود يبعث موتاً ابيض » . وتعتقد قبيلة (آهت Aht) في جزيرة فانكوفر في امريكا بأنه كان يوجد قبلاً بشر هبيئة حيوان وسماك ، وان ارواح الهنود الحمر كانت تتقمص اجساد الحيوانات المذكورة. ان (البوهاتان - Powhatan) في امريكا لا يؤذون الطيور الصغيرة

١ - الحضارة البدائية ، الجزء الاول : تايلور .

٢ - ايضاً .

لأن ارواح رؤسائهم حلت فيها . اما (الثاسكلو - Thascalau) في المكسيك فيتصورون ان ارواح الاشراف تتقمص بعد الموت في الطيور الفخمة . بينما تحمل ارواح العوام في الحشرات . وكذلك يزعم (اليكنا - Yacanna) ان ارواح الشجعان تتقمص طيوراً فخمة وتتغذى بفواكه لذينة . ولهذه العقيدة انصار في افريقيا . ويتصور (المرافي Maravy) ان روح رجل صالح تمنح الحياة للضبع ، وروح الطالح تمنحها للشعابين . وفي غيبه يتصور الناس ان القردة التي تتردد على القبور حلت فيها ارواح الموتى .

ثم يذكر تايلور اعتقاد البدائيين بالنباتات فيقول: « ان للنباتات كما للحيوانات ظاهرة الحياة والموت . ولهذا كان من الطبيعي ان يعزى لها نوع من الروح . ان اهالي جزيرة (سوسيته - Societe) الذين يعتقدون بأن (فروا Varua) اي الروح او النفس التي تبقى حية لا يختص بها البشر وحده بل تختص بها الحيوانات والنباتات . ان اهل بورنيو لا يكتفون بأن يعزوا للبشر والحيوانات الروح التي اذا تركت الجسد مرض او مات ، بل انهم يؤكدون بأن للرز ايضاً نفساً ، ويؤدون بعض المراسيم لمحافظة هذه النفس خشية ان يصيب الغلة ضرر ما » (١) .

وعلى تلك الصورة اعتقد البدائيون بوجود ارواح البشر والحيوانات والنباتات وقسموها الى ارواح طيبة وارواح خبيثة استحالت الى الغول والجن والشياطين ونشأت من ذلك عبادة الارواح وعبادة الاجداد (السلف) . ادعى تايلور ان عبادة الاجداد وعبادة الاوثان والسحر والكهانة ... الى غير ذلك نشأت من الاعتقاد بالارواح اي انها تطورت من العقيدة الروحية . وبعد ذلك يقول ان الآباء والاجداد في القبائل البدائية كانوا رؤساء الاسرات ويبداهم مقاليد الامور لأنهم أخبر بشؤون الحياة كالصيد والقنص ومكافحة الحيوانات المفترسة ، والتحفظ من كوارث الطبيعة ، واعلم بمطالب الدين فاذا ماتوا فان ارواحهم ترفرف في سماء الاسرة لتقيها شر النوايب ، وبذلك تصبح من الارواح الطيبة يقتضي التوسل والاستعانة بها ، فصار الاحفاد يعبدون ارواح اجدادهم . اما

١ - الحضارة البدائية ، الجزء الثاني .

المرض والجنون والشلل وغير ذلك من الامراض العصبية والعقلية فانها نتيجة الارواح الخبيثة . والبشر البدائي الساذج ليس له الا ان يعلل هذا بذلك مما دفعه الى وقاية نفسه من الارواح الخبيثة وهذا هو الذي جعل للكهنة والعرافين والسحرة كلمة مسموعة ونفوذاً قوياً في الجماعات البشرية الاولى . ومما ذكرناه آنفاً يتوفر الشرط الثاني لنظرية الروحية .

* * *

كيف ادى الاعتقاد بالارواح الى عبادة مظاهر الطبيعة ؟

يرى تايلور ان بعض الاقوام المتوحشة التي تقدمت في الحضارة بعض التقدم والاقوام البربرية تتصور بحق ان الاحجار والعصي والاسلحة والطعام والملابس وادوات الزينة وامثال ذلك اي المواد التي نعتبرها مجردة من الحياة ، مواد لها روح او نفس تنفصل عنها وتبقى حية حتى بعد ان يصيبها التلف . ومهما يكن من غرابة هذا الرأي فان العقل قد لا يرفضه رفضاً باتاً اذا حاول المرء ان يربط ذلك بالعقلية البدائية التي سادت الشعوب المتوحشة والتي تنسب الحياة للمواد الجامدة . واستدل على ذلك بما ذكره الفيلسوف الانجليزي (هيوم) في كتابه تاريخ الاديان الطبيعي . وقال : « ان لدى الانسان ميلاً تاماً لأن يعتقد بأن جميع الموجودات تشبه لهذا اعطى لكل مادة الخصائص المألوفة لديه والتي يشعر بها تماماً . » ولا غرابة في ان يععم البشر البدائي فكرة الروح للحيوان وللنبات والجماد على السواء؛ ومن ثم يتصور ان جميع مظاهر الطبيعة من كواكب ونجوم وجبال وانهار والشمس والقمر والصاعقة والعاصفة لها ارواح تحركها .

فالنار التي تلتهم الاخضر واليابس والعاصفة التي تقلع الاشجار والصاعقة التي يسبقها دمدمة الرعد فتحرق الضرع والزرع جميعها تعمل بأمر الارواح التي سخرتها . وكذلك كان البشريظن ان النبات والجماد يتصفان بالخصائص التي يتصف هو بها ، ويعتقد ان لكل منها جسداً وروحاً مع فرق هو ان روح البشر

لا تترك الجسد الا بعد الموت . واذا التحقت بالارواح فانها تفضل الحلول في البشر على الحلول في مواد الطبيعة . ولذلك يعتبر المتوحشون المرض والعجز والصحة والنشاط من عمل الارواح البشرية اما العاصفة والصاعقة والمطر والخصب وغير ذلك فمن عمل سائر الارواح . ويعزون الرعد والبرق والخسوف والكسوف والصاعقة والمجاعة والموت الفجائي الى الارواح الخبيثة ويعزون الخصب والمناخ الصالح والظفر بالحيوانات المفترسة الى مساعدة الارواح الطيبة .

ويتضح من ذلك ان الفكرة الاولى قامت على عبادة الارواح ثم على عبادة الاجداد . وتطورت بالتدريج الى ان اصبحت فلسفة الكون وغدت المظاهر الطبيعية محل الاحترام والتبجيل والعبادة كالارواح والاجداد . وصارت النذور والقرايين تقدم الى الارواح التي حلت في تلك المظاهر ، وهكذا انتقل الانسان من عبادة الاجداد الى عبادة الطبيعة وصارت الروحية منشأ لعبادة الطبيعة . وبذلك توصل انصار النظرية الروحية الى توفر الشرط الثالث .

عبادة مظاهر الطبيعة

استند واضعو نظرية الطبيعة في بحثهم عن منشأ الأديان إلى أساس يختلف تماماً عن الأساس الذي استند إليه واضعو نظرية الروحية . فقد رأينا أن هؤلاء استندوا إلى التصور والخيال في زعمهم أن الجماعات الأولى عبدت أول ما عبدت الروح . وقالوا بأن الأحلام واليقظة والنوم هي التي نبهت البشر إلى فكرة الروح أما العلماء الذين وصفوا نظرية الطبيعة فقد استندوا إلى المحسوس وقالوا أن الجماعات الأولى عبدت مظاهر الطبيعة . وبذلك بنوا نظريتهم على مادة ترى وتلمس آثارها باليد . ويذكر الأستاذ ماكس مولر وهو أول من وضع هذه النظرية أن الدين يستند إلى التجربة ويستلهم أحكامه ونفوذها منها . ويقول في ذلك : « أن الدين بوصفه العنصر المنبثق من شعورنا فإنه لكي يمثل مقامه يبدأ بتجربة محسوسة تستند إلى الحواس » ، ويؤكد بأن الدين لا ينطوي إلا على ما كانت الحواس قد أحست به قبلاً . ويستند في ذلك إلى القول المشهور : « لا يوجد شيء في العقل من دون أن يكون قبلاً في الحواس » .

إن أنصار النظرية الروحية توصلوا إليها عن طريقة دراستهم لعلم الأقسام وعلم البشر أما أنصار النظرية الطبيعية فتوصلوا إليها بدراسة أديان الأقسام

الاربية القديمة عن طريق الفيلولوجيا . وقد ساعد على نشر هذا الرأي - عبادة
مظاهر الطبيعة - بين علماء الاديان دراستهم لاساطير الاقوام الهندية الاوربية،
كالهنود اليونان والرومان والشعوب الجرمانية القديمة. وقد تبين لهم بعد البحث
عن ابطال الاساطير (قصص الالهة الخرافية) انها تتشابه من حيث الافكار
والافعال في اساطير اقوام مختلفة تدل على ان الاساطير نبتت من معين واحد .
ولما كانت هذه الاساطير باجمعها تذكر مآثر الاشخاص الذين يمثلون مظاهر
الطبيعة استنتج الباحثون ان الاقوام باجمعهم كانوا في بدأ حياتهم يعبدون مظاهر
الطبيعة التي ألهاها ونسبوا اليها الحواشي والذبول المختلفة باختلاف البيئة .

* * *

كيف دانت الجماعات الاولى بدين الطبيعة ؟

وضع نظرية الطبيعة ماكس مولر المتخصص في لغات الاقوام الهندية -
الاوربية . شرح نظريته هذه في كتابه الذي نشره في المجلثة سنة ١٨٥٦ بعنوان
(بحوث في علم الاساطير المقارن) (١) وذلك بعد ان عثر على كتاب الفيدا وهو
اقدم كتاب ديني عند الهنود ، اعتبره العلماء مصدراً لجميع الاديان الاربية اي دين
الهنود ودين الفرس ودين اليونان ودين الرومان ودين الشعوب الجرمانية والسلافية
القديمة . ويبسط ماكس مولر نظريته كما يلي : « ان مظاهر الطبيعة كانت
اول ما استرعى انتباه البشر الاول ودهشته عندما نظر الى الكون . ولشدة
نفوذها وتأثيرها في نفسه نبهت فيه فكرة الدين فعبد الطبيعة . ولم يعتبر البشر
هذه المظاهر من الامور المعتادة الا بعد زمن طويل ، اي بعد ما اتسعت مداركه .
رأى البشر القمر يبرز هلالاً فيكبر حتى يبدر ، ثم يصغر حتى يعود كالعرجون
القديم . وما كانت الجماعات الاولى لتعبد الطبيعة لولا ان رأّت في الكون مجموعة
من الخوارق والمعجزات التي جهلت اسباب حدوثها فاحترمتها وتبعتها » ويضيف

Essais sur la Mythologie comparée , Max Muller - ١٢

الى ذلك قائلاً : « ارجعوا باذهانكم الى دور من ادوار الحياة البدائية لم يكن قد ظهر دين الطبيعة ، حتى ولا اولى مظاهره . وباستطاعتكم وقتئذ ان تتصوروا ما أثرته النار في عقل البشر حينما شاهدها لأول مرة . ولا يهمننا كيف ظهرت النار سواء حصلت من احتكاك غصنين او انبثقت من احتكاك الاحجار . لقد كانت النار دون شك حدثاً عظيماً ، شيء يزحف من جهة ويقتضي الحذر منه من جهة اخرى ، فهي من ناحية تحمل معها عنصر التخريب ومن ناحية اخرى تجعل الحياة في الشتاء مستساغة ، تحمي الانسان في الليل وتهيء له سلاحاً في الهجوم والدفاع . واستخدمها البشر في طبخ طعامه والتخلص من اكل اللحم النيء . وبفضلها سبك المعادن فصنع الادوات والاسلحة . وبذلك اصبحت عنصراً ضرورياً للرقي الفني والصناعي . وحتى في يومنا هذا لو حدث ان فقدنا النار ترى ماذا كانت تؤول اليه حالتنا ؟ » .

احاطت الطبيعة بالانسان من كل جانب . والنهر يجري باستمرار ولا يعلم الانسان من اين اتى والى اين يذهب ؟ وهو يجري صاحباً دافقاً ، هكذا بدا للناس قوة لا تنتهي ولا يستطيع تخفيف قاعه . والبحر يمتد امامه ولا نهاية له ، واذا ما هبت العاصفة وارتفعت امواجه هدارة على السواحل ، والسماء بعظمتها وجلالها بشمسها وكواكبها . وكل مظهر من مظاهر الطبيعة يولد الشعور بالتصاغر والضعف امامها ، وهي تحيط بنا وتسيطر على مشاعرنا ، وهكذا انبثقت الأديان من هذا الشعور . وقد استحوذت تلك القوى الخارقة على عقل البشر ، ففكر فيها وخضع لها . هذا امر لا سبيل الى انكاره . ولا بد للانسان ان أعمال فكره فيها لمعرفة تلك القوى وبذل جهده ليستخلص منها فكرة واضحة ومفهوماً معيناً .

ويستشهد مولر على عبادة الأقوام الهندية الاوربية لمظاهر الطبيعة بكتب الفيدا ، وهي مجموعة من الأساطير الدينية الهندية القديمة والطقوس والآداب التي ينبغي مراعاتها . وهي مكتوبة باللغة السنسكريتية ، لغة الهنود القديمة . ومن دراسة دقيقة لهذا الكتاب يتبين له أن أسماء الآلهة المسطورة في الفيدا

تشبه اسماء الآلهة المسطرة في اساطير الأقوام الآرية الأخرى . فإله النار الذي كانت له منزلة سامية بين آلهة الفيديا يسميه الهنود (اجني - Agni) ، والكلمة هذه تدل على مادة من مواد الكون وهي النار . ولها شبيه في اللغات الهندية الاوربية القديمة . ففي اللغة اللاتينية توجد كلمة (اجنيس - Agnis) ، وفي اللغة السلافية القديمة كلمة (اوجني - Ogni) وفي اللغة اللتوانية (اوجنيس - Ognis) ، ومعنى هذه الكلمات النار . وكذلك يطلق الهنود على إله السماء كلمة (دياؤس - Diaos) السنسكريتية اي السماء اللامعة . ويسمي اليونان القدماء معبودهم الأعظم (زؤس - Zeos) . اما الرومان فيسمونه (جوفيس - Jovis) . وفي اللغة الجرمنية القديمة يسمى إله السماء (زيو - Zio) . والأسماء هذه تدل على اسماء متقاربة تعني السماء . واستدل ماكس مولر من هذه الأسماء المتشابهة التي تدل على مظاهر الطبيعة كالنار والسماء ، وفي الوقت نفسه تعني أسماء آلهة تمثل النار والسماء والنور ، استدلل بها على ان الأقوام الهندية - الأوربية جميعاً كانت تدين بدين واحد في مهد نشأتها ثم تفرقت واحتفظت بأسماء الآلهة التي كانت تعبد .

ويقول دركهايم في كتابه (الأشكال الأولية للحياة الدينية) : « ان ماكس مولر ، لأجل ان يدعم رأيه ، استند دائماً الى الملاحظات النفسية ، فرأى ان ما عرضته الطبيعة من مناظر متنوعة انطوت على جميع الاسباب التي أدت الى انبثاق الفكرة الدينية وأثارت الطبيعة في نفوسهم دوافع من الخوف العظيم والدهشة البالغة ، وما برحت الطبيعة في نظرهم مبعث خوارق ومعجزات .

* * *

كيف أهدت الجماعات الاولى مظاهر الطبيعة وعبدتها ؟

يدعي ماكس مولر ، ان الذي جعل البشر يؤله قوى الطبيعة هو الكلام . وقف البشر امام ظواهر الطبيعة ، فاراد تسمية الاشياء بمسمياتها ، وفي هذا الصدد يقول : اصبحت الاسماء مألوفاً لدينا ، حتى اننا لا نكاد نقدر الصعوبات التي كان البشر قد تجشمها في وضع الاسماء

المذكورة . وليس بالامكان ان تتصور لغة بدون اسماء مجردة . ومع ذلك توجد بعض اللهجات للتخاطب في يومنا هذا ولا تتضمن اسماء مجردة . وكما رجعنا القهقري بتاريخ اللغة وجدنا تلك الاسماء اكثر فاكثر . ان الاسم المجرد اذا لوحظ من ناحية اللغة لم يكن صفة انقلبت الى موصوف ، بيد ان نفعم الصفة بمثابة فاعل امر بالغ الصعوبة . وحين نقول (احب الفضيلة) ينسدر ان نفرد كلمة للفضيلة ذات معنى واضح كل الوضوح ، اذ ليست الفضيلة كائناً حياً وكائناً غير مادي كما انها ليست كائناً فردياً او شخصياً او فاعلاً . ولم تكن ثمة شيء يمكن بذاته ان يحدث في نفسنا انطباعاً يعبر تعبيراً خاصاً . ولم تكن الفضيلة الا تعبيراً مختصراً . ولما قال البشر (اني احب الفضيلة) لاول مرة اراد بذلك ان يعبر بكلمة عما يطابق المعنى التالي: « اني احب جميع الامور التي تليق برجل شريف سواء من الذكور او من الاناث » . وهناك كلمات اخرى لا يصح تسميتها باسماء مجردة ومع ذلك فقد وضعت لها اسماء بنفس الطريقة السابقة . مثال ذلك بعض الاسماء كالليل والربيع والشتاء والفجر والغسق والعاصفة والصاعقة . ترى ماذا نقصد حيننا نتكلم عن الليل والربيع والشتاء ؟ والزمان بموجب فهمنا ليس اسماً موصوفاً ولا ذاتياً ولكنه صفة قلبته اللغة الى ذات او ماهية ؛ ولهذا فنحن حين نقول (بدأ النهار او قرب الليل) نستعرض اشياء لا يمكن ان تتحرك ، ومع ذلك نفرضها متحركة وثبتت كلاماً اذا ما حلل منطقياً يبدو انه بدون فاعل قابل للتعين .

وينطبق ذلك على الاسماء المشتركة ايضاً كالسما والارض والندى والمطر والانهار والجبال ، لأنه حيننا نقول (الارض تغذي البشر) لا نشير الى قطعة معينة من التربة ولكننا نشير الى الارض ككل . وكذلك لا نقصد ذلك الافق الضيق الذي نحيطه بابصارنا انما تتصور ثمة شيئاً لا يستوعبه شعورنا ، ولكننا نسميه كلا او قوة او فكرة عندما نتكلم عنه وبذلك نجعله شيئاً فردياً . وفي اللغات القديمة كان لكل من هذه الاسماء لاحقة تدل على الجنس مما يولد في النفس فكرة ذات صلة بالجنس . وكان من امر ذلك ان الاسماء المذكورة لم تأخذ صيغة فردية

فحسب انما اخذت صيغة جنسية ايضاً ، ولا يوجد اسم موصوف لم يكن مذكراً
او مؤنثاً .

وما دام البشر لا يفكر الا بواسطة اللغة ، فانه يستحيل ان يتكلم عن الصبح
والمساء والربيع والشتاء من دون ان يعطي لهذه المفاهيم شيئاً من السمة الضرورية
والفاعلية والجنسية ، وبكلمة اخرى سمة شخصية . وقد عبرت اللغة البدائية عن
الطبيعة بكلمة (ناتورا - Natura) وهي مجرد صفة استعملت كاسم موصوف ،
لأن معنى كلمة ناتورا « الأم المستعدة دوماً للولادة » ليس في هذا فكرة اكثر
تحديداً مما نفهمه الآن من كلمة ناتورا - الطبيعة ؟ ثم يشير مولر الى الشعراء
الذين ما ان وصفوا مظاهر الطبيعة الا وجعلوا كلاً منها يحيى ويتنفس ويتحرك ،
ويورد الامثلة من اشعارهم التي تصف الشتاء والجبال والانهار والبحار والعاصفة .
ثم يستطرد قائلاً : « اذا كنا نحن بالذات نتكلم عن الشمس والعواصف وعن
النوم والموت والارض والفجر دون ان نعطي هذه الاسماء اية فكرة محددة ،
واذا كنا نعبر بجملة هي من طبيعة القلب البشري حيناً يهزه تأثير قوي
- فنحاطب الرياح والشمس والسماء والبحر المحيط وكأنها تسمعنا ، واذا كانت
مخيلتنا لا تستطيع ان تتصور ايّاً من هذه الكائنات او اية قوة من قواها من
دون ان نلبسها لباساً بشرياً ، او على الاقل نجهازها بحياة بشرية ومشاعر بشرية
فلماذا نعجب اذن من كون الاقدمين استعملوا لغة تخفق بالحياة وتزهو بالالوان
بدلاً من خطوط مندرسة ، رخوة من الافكار الحديثة؟ ولم ندهش لأن الاقدمين
- بفضل تلك اللغة - ابتدعوا صوراً للطبيعة التي تنبض بالحياة ، مزينة
بالخصائص البشرية ، او بالاحرى بخصائص تتفوق على الخصائص البشرية ،
فجعلوا اشعة الشمس ألمع من نور العين وهدير العاصفة اكثر دويماً من صرخات
الصوت البشري . ان العلم في يومنا هذا اوضح منشأ المطر والندى والعاصفة ومع
ذلك فان اكثرية الناس يرى فيها كلمات جوفاء لا تختلف كثيراً عما كان يتصورها
(هويمروس) مع فاروق واحد هو ان جمالها وشاعريتها قد تضاءلت . مما مر
تبيين الصعوبة الكبرى التي عانتها النفس البشرية حيناً اضطرت الى التعبير

عن افكار مشتركة او مجردة ، صعوبة تفوق الصعوبات التي نجدها في ايضاح الأساطير » (١) .

ثم يعود مولر ويقول : « ويجب ألا يغرب عن البال أن لغة الأساطير لا تتضمن كلمات مساعدة ومتممة . وكان لكل كلمة سواء أكانت اسماً أم فعلاً القوة المطلقة في الدور الأسطوري . وكانت الكلمات ثقيلة صعبة القيادة ، وكانت تعني أكثر مما ينبغي لها ان تعني . وهذا من جملة الأسباب التي تجعل لغة الأساطير تترأى لنا أكثر غرابة . فهناك ظاهرة لا نقدر على فهمها الا اذا تتبعنا بامعان تطور اللغة الطبيعي . فنحن نقول ان الشمس تبرز بعد الفجر ، ولكن الشعراء القدماء يقولون ان الشمس العاشقة تحتضن الفجر . (وكلمة الشمس مذكر عند الآريين) ونحن نقول تغرب الشمس ولكن الاقدمين يقولون انها تكبر وتسقط او تموت ، ونحن نقول ان الشمس تطلع ، وهم يقولون ان الليل يلد طفلاً منيراً (والليل عند الآريين مؤنث) اما عن الربيع فهم يرون ان الشمس تحتضن السماء وتعاينه عناقاً حاراً وانها تنزل الغيث وتزين احضان الطبيعة بالأزاهير .

ويشير مولر الى ما كتبه (هسيود) اليوناني عن الاساطير فيقول (ورد اسم اورانوس - Uranus) في كتابات هسيود بمعنى السماء ووضح ان اورانوس ولد « ليكون للالهة المباركة مقام ثابت » . وذكر مرتين ان اورانوس غطى كل شيء وانه حينما يأتي في الليل ينتشر في كل مكان ويحتضن الارض . يبدو من ذلك ان الاسطورة اليونانية احتفظت حتى في زمن هسيود بذكريات غامضة عن اسطورة اورانوس . وبالْحَقِيقَة ان اورانوس لم يكن سوى (فارونا - Varuna) الذي يشتق اسمه من جذر (فار Var) السنسكريتية ، اي الغطاء ، وفارونا في كتب الفيدا اسم السماء ذات الكواكب وهو مرتبط بصورة خاصة بمفهوم الليل مقابل (ميترا - Mithara) اي النهار .

ويقول دركهام في كتابه الاشكال الاولية للحياة الدينية ان ماكس مولر

١ - بحوث في علم الأساطير المقارن ، Essais sur la mythologie comparée ، Max Muller .

قد احسن في قوله حينما اشار الى انه لو لم تكن الكلمة لما وجدت الفكرة ولا المفهوم . وليست اللغة غلاف الفكرة الخارجي فحسب بل هي هيكلها . وما ان تكونت الفكرة وظهرت إلا وقامت اللغة بواجب ترجمتها وايضاها . ولم تكتف بذلك بل ان اللغة ساعدت على تهيئة الفكرة ، ومع ذلك فان اللغة خصائصها . ولهذا ان قوانينها لا تشبه قوانين الفكر . وكما انها تساعد على الفكرة فانها لا تتورع عن ان تضغط بقليل او بكثير على الفكرة وتغير شكلها . ان هذا الشكل المتغير هو الذي ادى الى وصف التصورات والافكار الدينية وصفاً غريباً . ولا ريب في ان التفكير يعني تصنيف الافكار . ولنضرب مثلاً بالنار ، ان التفكير في النار يقضي بادخالها في صنف من هذه الاشياء او من تلك ، او انها الشيء الفلاني وليست الشيء الفلاني الآخر . ثم ان عملية التصنيف ما هي الا التسمية ، لأن اي مفهوم كلي او فكر عام لا يكتسب وجوده وشأنه بالكلمة التي تبينه ، والكلمة وحدها هي التي تجعل له شخصية خاصة . ويشير دركهايم الى جذور اللغات الهندية - الاوربية ويرى ان هذه الجذور او الاصول لم تكن سوى انعكاس للغة التي كانت تتكلم بها الاقوام القديمة قبل ان تنتشر في اقطار مختلفة ، اي حينما كان دين الطبيعة قد وجد . ويكرر ما ذكره مولر كيف ان اسماء مظاهر الطبيعة كانت السبب المباشر في عبادة الطبيعة . ويضرب مولر امثلة بذلك : ان الريح تدل على شيء يثن او ينفخ ، واسم الشمس يدل على شيء يرمي النبال المذهبة في الفضاء ، واسم النهر يدل على شيء يجري او يركض ، وهكذا سمي الريح بالانان والنفاخ والشمس برامي النبال المذهبة والنهر بالجاري او الراكض . . وقد ادت التسمية الى أن تتشابه الحوادث الطبيعية بالافعال البشرية ، وأدى هذا التشابه بطبيعة الحال الى ان يتصور الاقدمون ان لمظاهر الطبيعة بعض الشخصية . ولقد كان ذلك دون شك تشبيه او استعارة ، غير ان الأولين اعتبروه حقيقة واقعة . وكان هذا خطأ ولكنه خطأ لا بد منه ، لأن العلم هو الذي يستطيع ان يصححه ولم يكن وقتئذ للعلم سلطان ، لانه لم يكن موجوداً .

ويبين دركهايم رأي ماكس مولر في هذا الصدد ويقول ان اللغة لم تنته

مهمتها بذلك ، إذ بعد أن وضعت الكلمات لتلك المسميات أخذ التفكير والملاحظة ينسجان المعاني حول الكلمات المذكورة لأنها كانت تؤلف احاجي وألغازاً مختلفة ، ومن ثم ابتدعت الأساطير لجلها . وكان من امر ذلك ان أصبح لبعض مظاهر الطبيعة اسماء كثيرة . تذكر كتب الفيدا مثلاً عشرين اسماً للسماء . وحسب الناس ان الاسماء المذكورة تختص بشخصيات مختلفة ، وأخذوا بعد ذلك يظنون ان تلك الشخصيات لا بد ان يكونوا اقرباء ، ولذلك تخيلوا انهم ينتمون الى أسرة واحدة . فأثبتوا لهم شجرة انسان وصنعوا لهم تاريخاً .

ويتضح من ذلك أن البشر الاول لم يربداً من أن يسمي القوى الطبيعية : السماء والشمس والقمر والعاصفة والصاعقة والرياح والنار ... الى غير ذلك ، بأسماء أكثر ملاءمة بافعال البشر ، فخلط بينها ، فسمى الصاعقة ناشر الشرر أو الساقط على الأرض أو الحفار ، وسمى الريح بالأنان أو الصاخب والنهر بالجاري أو المهرول ... إلى غير ذلك . ثم اعتبر المجاز حقيقة وانتهى الى أن يحول مظاهر الطبيعة إلى الأشخاص . وأضاف إلى كل ما يراه من المظاهر المادية ، مظاهر أدبية يقوم بها أشخاص ذوو أرواح واعتبرهم العامل الحقيقي والفاعل المختار لتلك المظاهر . وراح بعد ذلك يجعل لمظاهر الطبيعة أرواحاً ، وتصور ان هذه الارواح القدسية هي التي تقوم بالحداث الكونية . وأخذت بعد ذلك اللغة تعمل عملها في ايضاح ما يخالج النفس من الأفكار ، لان ما وصفت به مظاهر الطبيعة من الاسماء والكلمات كان عاجزاً عن ايضاح الاسباب وتحليلها . وهكذا شرعت اللغة بخلق الاساطير لحل المجهولات وايضاح الاسباب . ولما كان البشر اطلق على مظاهر الطبيعة اسماء مستنبطة من افعال البشر كما ذكر ، لذلك ، كلما تحولت تلك المظاهر من حالة الى حالة اخرى وانقلبت من صفحة الى صفحة اخرى ازداد عدد الاسماء ، فقد سميت الشمس عند طلوعها برامية النبال المذهبة في الفضاء ، ولكنها ما لبثت ان سارت في الفضاء ناشرة النور والحرارة ، وتشتد حرارتها في وسط السماء ، وعند الغروب يحمر لونها ثم يتغير ويقرب من البياض . وهكذا اخذ كل مظهر من مظاهر الطبيعة اسماً خاصاً يعبر

عنه . وظن الناس بعد ذلك ان تلك الاسماء مسميات لاشخاص مختلفين ، وقد كان للأساطير والقصص النصيب الاول في ذلك .
والخلاصة : افضت الخرافات التي اختلقتها الاساطير وقضت المناقب والسير الى فصل الآلهة عن مظاهر الطبيعة وجعلها ممتازة عنها . ويرى مولر ان عبادة الارواح نشأت من دين الطبيعة . وذكر ان البشر توصل الى فكرة الروح من الميت لانه لم يدرك ان الموت ينهي الحياة . وظن ان الروح بعد تركها للجسد تبقى خالدة وتعرج الى المقام الأعلى . وحتى قام الاعقاب بعبادتها ولكنها لم تصل ابداً الى درجة الآلهة التي تمثل مظاهر الطبيعة (١) .

(١) كان لنظرية الطبيعة مقاماً ممتازاً بمد منتصف القرن الماضي وقد أشبهها القائلون بها بحثاً وتدقيقاً ، ولكنها ، ما ان حل القرن العشرون إلا وأخذت تنهافت امام البحوث الشيقة الباحثة من الروحية اولا والوطنية ثانياً .

الطوطمية

ذكرنا سابقاً ان الطوطمية مشتقة من كلمة (طوطم) وهو شعار لطائفة من الناس يلتفون حوله ويحتمون به ، ويعتقدون بأن رابطة قدسية تربطهم به . والطوطم اما ان يكون حيواناً او نباتاً أو في النادر جماداً . وقد ظن العلماء اول الامر ان الطوطمية نظام اجتماعي سائد لدى الشعوب البدائية وليس ديناً . واذا أخذنا الدين بمعنى الاعتقاد بألهة والقيام بواجبات العبادة من تقديم القرابين وذبح الاضاحي ... الى غير ذلك ، فالطوطمية تخرج من نطاق الدين . اما اذا اعتبرناه الاعتقاد بقوة مسيطرة يعتقد البشر بأنه خاضع لها فتكون الطوطمية ديناً دون شك .

وردت كلمة (طوطم) في نهاية القرن السابع عشر في كتاب نشره سنة ١٧٩١ (لانغ - Lang) وهو من نسل الامريكيين القدماء . وظلت الطوطمية لمدة نصف قرن تعتبر مؤسسة خاصة بامريكا وذكر (غري - Gray) وجود مؤسسات مشابهة لها في استراليا ، وبذلك رأى العلماء انهم حيال منظمة عالمية توجد مؤسساتها في امريكا وفي استراليا . ان اول من ربط الطوطمية بتاريخ البشرية العالم الاسكوتلندي (ماك لنان - Mac - Lenan) الذي نشر عدة

مقالات بين فيها ان الطوطمية ليست ديناً فحسب بل انها الدين الملمه لعدة معتقدات وطقوس وجدت آثارها في الاديان المتقدمة ، حتى انه ادعى ان ما نشاهده من آثار عبادة الحيوانات والنباتات ناشىء من الطوطمية نفسها . وقد قام بدراسة الطوطمية عدة علماء منهم (لويس مورغان - Lewis Morgan) في كتابه (المجتمع البشري القديم Ancient Society) المنشور سنة ١٨٧٧ . وكان العالمان (فيزون - Fison ، و هويت - Howit) قد شاهدا المنظمتين الاجتماعيه نفسها في اوستراليا وأجمعاً على صلاتها بالطوطمية . وأخذت الدراسات والمعلومات عن الطوطمية تكثر بعد ذلك ، الى ان جمع العالم الانجليزي (جيمس جورج فريزر - James - George - Frazer) كل هذه الدراسات في كتابه (الطوطمية) ، وقد بحثها من حيث هي دين ومنظمة حقوقية .

وكان العالم البريطاني (روبرتسون سمث - Robertson Smith) اول من اعتمد على تلك الدراسات والمشاهدات للوصول الى نتيجة ما . وكان قد احس أكثر من سبقه من العلماء بقيمة هذا الدين الفج المعقد من حيث البذور التي بذرها في الاديان . وذكر في كتابه (القرابة والزواج في بلاد العرب القديمة - Kinship-and Marriage in ancient arabia) ان الطوطمية تتضمن الاعتقاد بان الانسان والحيوان والنبات نشأ من جوهر واحد . واتصل العالمان (بولدوين سبنسر Boldwin Spencer) و (جلن Gillin) بقبائل كثيرة في اواسط اوستراليا وشاهدا ان الاعتقاد بالطوطم هو الذي يكون اساس الدين ، وقد اصدرا كتابين في هذا الموضوع . (كتاب القبائل الاهلية في اوستراليا الوسطى وكتاب (القبائل الشمالية في اوستراليا الوسطى) وكانت هذه الكتابات قد ادت الى صدور عدة مؤلفات تبحث في الطوطمية .

وكان فريزر قد كتب بحثاً مختصراً عن الطوطمية في دائرة المعارف البريطانية سنة ١٨٨٧ بين فيها انها دين ومؤسسة حقوقية ، ولم يتعمق في البحث لقلة الوثائق . ولما توفرت المعلومات وكثرت المؤلفات اعاد فريزر النظر في بحثه ووسعه وجمع فيه كافة المعلومات الخاصة بالطوطمية وبمنظمتها الاسرة والزواج

فاصدر كتابه (الطوطمية والزواج من الخارج Totamism and Exogamy)
باربعة أجزاء . و اشار العالم (وندت - Wondit) في كتابه (اصول علم النفس
الشعبي) الصادر سنة ١٩١٢ الى خطورة الطوطمية ، ومما قاله : « اذا جمعنا
هذه المشاهدات علينا ان نصدق ان الثقافة الطوطمية ما هي إلا أول صفحة
سبقت الصفحات التكاملية التي أتت من بعدها ، وانها مرحلة عابرة بين المرحلة
البدائية وبين العهد الذي يمتاز بالابطال والآلهة . ولما كانت اوستراليا هي احسن
مكان لدراسة الطوطمية ، لذلك سيكون بحثنا عنها مستنداً الى المعلومات
والوثائق التي دونت عن القبائل البدائية في اوستراليا » .

- ١ -

العشيرة والطوطم : يظهر من الدراسات التي جرت عن الطوطمية ان القبائل
الاسترالية تتألف من عشائر وقبائل ، وتتألف القبيلة من عدة عشائر وتمتاز
العشيرة هذه بميزتين ، الاولى : ان الافراد الذين ينتمون الى العشيرة يعتبرون
انفسهم اقارب ، والقراية لا تقوم على الابوة والامومة والعمومة والحولة ، انها
ليست قرابة الدم والنسب والولادة ، بل هي قرابة الاسم الذي يجمعهم . وهذا
الاسم المشترك هو الذي جعلهم افراد اسرة واحدة يساعد بعضهم بعضاً ،
ويثارون لدم المقتول منهم ويشتركون جميعاً في الحداد عليه كما لو كان الميت
اقرب اليهم نسباً .

الثانية : ان الاسم المشترك ورابطة القربى هو اسم الطوطم الذي اتخذته
العشيرة شعاراً لها ، ولفرط تعلقهم بالطوطم يتصورون ان لهم علاقة القربى
بالحيوان أو النبات الذي أخذ منه اسم الطوطم . فالطوطم هو الذي يميز العشيرة
وهو شعارها ومثلها وحاميتها هي مجموعها وبافرادها .

ان كلمة (طوطم) التي ذكرها لأول مرة لانغ هو الاسم الذي اطلقته قبيلة
الغونكين الامريكية (Algonkin) على المادة التي اعتبر احد عشائرها اسماً لها .

والحيوانات هي اكثر ما اتخذ طوطها ، ويليهما النباتات ، اما اتخاذ الجماد طوطها فنادر . وقد ذكر هويت ان من بين اكثر من خمسمائة طوطم ، نحو اربعين منها من الجماد وغيره كالمطر والبرد والقمر والشمس والريح والربيع والصيد والشتاء والجفاف والنجم والرعد والنار والدخان والماء والبحر ... ومن بين الخمسمائة اسم للطوطم سجل هويت لعشيرتين الشمس ولائنتين القمر ولثلاثة اخرى الرعد ولائنتين منها البرق . اما المطر فقد ورد اسمه كثيراً عند العشائر . ومما يلفت النظر ان الشعوب البدائية لم تهتم كثيراً بالاجرام السماوية وما تحيط بها من احداث الامر الذي اهتمت به الاقوام التي تقدمت في الحضارة الى حد ما . وبوجه عام يكون الطوطم حيواناً كاملاً ونباتاً كاملاً . ولكن يحدث ان يتخذ جزءاً من الحيوان او عضواً منه طوطها . وهذا الشكل على ندرته يدل على انه ناتج من انقسام العشيرة كأن الكنغر (حيوان اوسترالي لبون) طوطم عشيرة فيتكاثر افرادها وينقسمون الى طائفتين فيغدو فخذ الكنغر مثلاً طوطم الطائفة الجديدة . وليس الطوطم حيواناً او نباتاً بعينه وذاته بل هو نوع من الحيوانات والنباتات فاذا كان الضفدع مثلاً طوطم العشيرة فان جميع الضفادع تعتبر طوطم تلك العشيرة . ومن العشائر من يتخذ شخصاً خرافياً طوطها له وتعتبره جدها وتنسب اليه بعض الاساطير وتضع له اسماً خاصاً كالبلبل والشجاع او الاب الضاحك . وبما ان الطوطم يميز العشيرة من العشائر الاخرى فاذا اخذت جماعتان اسم طوطم واحد دل ذلك على انها تنتسبان الى عشيرة واحدة .

اورد فريزر في كتابه الطوطمية والزواج : « الطوطم مجموع من الاشياء المادية التي يحترمها البدائيون ويعتقدون بوجود علاقة خاصة لهم بتلك الاشياء . فالارتباط بين الفرد والطوطم يضمن للجانيين منافع متقابلة ، فالطوطم يحمي الانسان ، والانسان يحترم الطوطم ، وذلك بان يمتنع من قتله اذا كان حيواناً وقطعه اذا كان نباتاً . والطوطم يختلف عن الوثن لانه مجموعة اشياء لاشيئاً بذاته واذا كان الغراب طوطم العشيرة فان نوع الغراب باجمعه طوطم تلك العشيرة » .

ويمكن تمييز ثلاثة أنواع من الطوطم على اقل تقدير :

- ١ - طوطم العشيرة المشترك الذي ينتقل من جيل الى جيل .
- ٢ - طوطم الجنس الذي يمثل رجال العشيرة او نساءها .
- ٣ - الطوطم الفردي الذي يختص بالفرد ولا ينتقل الى اولاده .

ولعل الطوطين الاخيرين وضعاً فيما بعد ولا اهمية لهما من حيث (التابو) اي التحريم . والطوطمية بنظر فريزر طريقة دينية ونظام اجتماعي ، فمن الناحية الدينية تتجلى الطوطمية بالاحترام والمراعاة المتقابلتين بين الطوطم والفرد ، ومن الناحية الاجتماعية تظهر بالواجبات المتقابلة بين افراد العشيرة ، ويبدو من تاريخ الطوطمية المتأخر ان الناحيتين المذكورتين اخذتا تسييران نحو الافتراق . والناحية الاجتماعية تعمل في الاغلب على بقاء اثار الناحية الدينية ، وفي البلاد التي تضاءلت فيها الناحية الاجتماعية المدعومة بالطوطمية تحيي بقايا الطوطمية . ويذكر فريزر انه نظراً لجهلنا منشأ الطوطمية فمن العسير القول كيف اختلطت هاتان الناحيتان في بادئ الامر .

وفي شرحه للطوطمية بوصفها نظاماً دينياً يؤكد فريزر بان افراد العشيرة يقسمون بوجه عام باسم الطوطم ويعتقدون بانهم نزلوا من صلبه ، لذلك فان البدائيين لا يقتنصون الحيوان الطوطم ولا يقتلونه ولا يأكلونه اذا كان حيواناً ، واذا لم يكن حيواناً فلا يستعملونه باية صورة كانت . ولا يقتصر تابو (التحريم) الطوطم على قتله او ذبحه بل يحدث احياناً ان لمس الطوطم او حتى رؤيته يعتبر تابو اي محرماً . والذين يخرقون حكم التابو الذي فرضته الطوطمية يعاقبون بصورة تلقائية بالمرض والموت . واذا وجد الطوطم ميتاً حزنوا عليه وقاموا بمراسم دفنه كما يحتفلون بدفن فرد من افراد العشيرة . واذا اقتضى الامر قتل الطوطم فلا يتم ذلك الا بعد ان تجري مراسم طلب العفو منه ، واذا كان الطوطم حيواناً خطراً (مفترساً او ساماً) يعتقد الناس بانه لا يضر ، فاذا وقع ما يخالف هذا الاعتقاد فيحرم الشخص الذي هاجمه ذلك الحيوان ويعبد من المتبوزين . وفي حالة المرض يساعد الطوطم المريض وينذر العشيرة بما قد يحدث .

وإذا شوهد الطوطم قريباً من دار فيكون ظهوره على الاغلب بمثابة نذير الموت . ويقولون الطوطم اتى ليأخذ ما يعود اليه ، ويسعى الفرد في العشيرة الى تقوية روابطه بالطوطم بطرق عديدة ، فيكتسي جلده ويتزيا بزيه ويشم رسمه في جسده . وفي الاحتفال بالوضع وبلوغ سن الرشد والجنابة تجري كثير من الحركات والاطوار للتمثل بذات الطوطم ، فيتنكرون بهيته ويرقصون مقلدين حركاته . اما الطوطمية بوصفها نظاماً اجتماعياً فتتجلى قبل كل شيء بما يوجد في احكامها من محرمات شديدة وزواجر كثيرة . فيعتقد افراد العشيرة بأنهم اصبحوا اخواناً واخوات ، يجب عليهم ان يتعاونوا ويدافعوا عن بعضهم . فاذا قتل احدهم تضطر قبيلة القاتل الى تحمل مسؤولية القتل وتتضافر جهود عشيرة المقتول لأخذ الثأر . وكذلك فان روابط الطوطمية اقوى مما نعرفه من روابط القرابة في الاسرة .

ومما حرمه البدائيون من اتباع الطوطم التزاوج بين افراد العشيرة او ان تكون بينهم اية علاقة جنسية . وهذا الحكم يميز الطوطمية عن سائر المنظمات الدينية . ومن اهم مسائل الطوطمية معرفة منشأها والتحریم الذي وضع لمنع الزنا اي تناكح اعضاء العشيرة اي الصلة بين موضوعات الطوطم وتحريم الزنا . ويدعي (فرويد - Freud) في كتابه (الطوطمية والتابو - Totem and Tabo) انه من المستطاع تفهم القضية سواء من الناحية التاريخية او الناحية النفسانية ، ويرى ان هذا التفهم يبين لنا ماهية الظروف التي ادت الى تطور هذه المؤسسة الغريبة والدوافع الروحية التي عملت في سبيلها . واستشهد بما قاله العالم الديني اندربولانج عن الصعوبة التي يجابهها المدقق حيث قال : « ان الشعوب البدائية نفسها لا تتذكر الاوضاع الاصلية والشروط الاصلية ولما لا نستطيع الوصول الى المشاهدات فليس لنا ان نلجأ الى الفرضيات » .

اسس الطوطمية وأحكامها :

اولا - اسس الطوطمية ، وتتلخص بما يلي :

١ - يتصور افراد العشيرة انهم يرتبطون بالطوطم برابطة غيبية وانهم نزلوا من صلبه . وكذلك يصبحون اقارب لانهم ولدوا من جد واحد الا وهو الطوطم . ولهذا لا يستعملون الطوطم حيواناً كان او نباتاً في الاعمال الحسيسة ولا يجيزون اكله الا لبعض شيوخ العشيرة الذين تقدموا في السن وبلغوا مرتبة عالية في الدين . واذا كان الطوطم نباتاً فلا يجوز حرقه ، واذا مات احد هم حملوه بتابوت مصنوع من ذلك النبات .

٢ - ولما كان الطوطم بذاته مقدساً فتصبح العشيرة مقدسة ، وكذلك افرادها الذين تسموا باسمه فانهم يصبحون ايضاً مقدسين ، الرجال والنساء على السواء . ولهذا لا يجوز لهم ان يتزاوجوا لان هذا التزواج (تابو) اي محرم كالزنا . ويعتبر الزواج من العشيرة من اشد المحرمات ولذلك نشأت قاعدة الزواج من خارج العشيرة . ان قتل الحيوان الطوطم محرم كما ذكرنا ويعتقد الناس بان من قتل الطوطم يعاقب تلقائياً بالمرض والموت . اما الذي يخالف تحريم الزواج من العشيرة فكأنه عرض حياة الشعب كله للخطر ، ولذلك ينبغي التكفير عن هذه الخطيئة فوراً بانتقام العشيرة من المذنب . والموت عقوبة من يجامع امرأة من بنات عشيرته . وفي احوال يقتل الرجل ويكتفى بجلد المرأة جلدأ ميمتاً او طعنأ بالرماح ، ويرجع السبب في هذه التفرقة في العقوبة في رأي فريزر ان المرأة قد اجبرت على العمل الشنيع وكان من جراء هذا التحريم البات ان انقسمت القبيلة الى عشيرتين على الاقل . ويتبع الولد في بعض العشائر طوطم امه وهو الشائع ولذلك لا يجوز له ان يتزوج بفتاة من عشيرتها ، وقد يتبع طوطم ابيه في البعض الاخر وفي هذه الحالة يجوز له ان يتزوج بفتاة من عشيرة امه . والمرأة

تتبع طوطم ابياها لا طوطم زوجها . ومن العشائر من يتخذ للاولاد طوطما غير طوطم الاب والام ، وقد يكون احد الاجداد طوطما للولد اذ يعتقدون بان روح الجد حلت في جسد الام فحملت بالولد . وفي الشعوب الطوطمية توجد جماعات تسمى بالجماعات الزوجية وتتكون من انقسام القبيلة الى عشيرتين ، وانقسام العشيرة الى جماعتين وبذلك تتألف القبيلة من اربع جماعات زوجية ، كما أن هناك اتحادات تتكون من انقسام القبيلة فتصبح القبيلة مؤلفة من اتحادين وكل اتحاد يتألف من عدة عشائر ، وتكون عشائر كل اتحاد مقابل عشائر الاتحاد الاخر . وبذلك يفرض على عشيرة كل من الاتحاد ان يتزوج افرادها بفتاة من عشيرة في الاتحاد الاخر . ويبدو ان هذا التنظيم جاء متأخراً لما كثر افراد القبيلة فلم تكف العشائر عن التناكح من الخارج ويبدو انه اخذ بالتضاؤل .

وحاول العلماء معرفة سبب التحريم بين افراد العشيرة الواحدة واعتباره زنا . فان من ذلك ما ذهب اليه فرويد واطرح نظرية التحليل النفسي . فقد زعم في كتابه (الطوطمية والتابو) ان الباعث لهذا التحريم هو زواج الفتة الذي شرحه الراهب فيزون وذلك بان يتزوج عدة رجال بعدة نساء بالمشاركة فيستطيع اي منهم ان يجامع اية امرأة من نساء الفتة . وقد نوه عنه (ادوارد وسترمارك - Edward Westermarck) في كتابه (تاريخ الزواج - History of human marriage) وفي هذا النوع من الزواج يصبح الاولاد المولودين من امهات مختلفة اخواناً ، فيكون كل واحد من رجال الفتة اباً لكل واحد من الاولاد . ومن الطبيعي ان ينتمي الابن في هذه الحالة الى امه . ولعل هذا هو سبب نظام الامومة الذي كان شائعاً في القديم فيرث الابن امه وينتمي الى خاله ويعتبر زواج الفتة . اقدم عهداً من الزواج الفردي . ولا يزال يوجد آثار لهذا النوع من الزواج في بعض القبائل الاوسترالية حسبما ذكره سينسرجلن .

اما كيف اعتبر بعد ذلك زواج الفتة زنا ، وتحول الى الزواج الفردي فهذا لا سبيل الى معرفته باليقين وانما على سبيل الفرض والتخمين . وقد ظن فرويد ان سبب تحريم الزواج بين افراد العشيرة هو محاولة القضاء على زواج الفتة واتخذ من

التشديد في العقوبة دليلاً على تعليله ، كما جعل زواج الفئة الطريقة التي اتبعت للقضاء على النظام السابق عليه الذي كان يستأثر فيه الاب وحده بالنساء ، بينما يحرم الاولاد من ذلك وهو ما وقع في عهد الهمجية . ويشير الى ان الاولاد ازاء هذا الاستئثار لم يروا بدأ من ان يتآمروا على ابيهم فيقتلوه ليمتعتوا بعد ذلك بنسائه احراراً . وقد تحول هذا النظام بسبب ما كان يحدث بين الاخوان من حوادث وخصومات الى زواج الفئة . اذ كثيراً ما كان يستأثر القوي بالنساء الذي يحدد الحالة السابقة من الزواج دون الضعيف . ثم تحول زواج الفئة بعد ذلك الى الزواج الفردي ووضعت القيود والاحكام للحيلولة دون ما يعتبر زناً .

احكام الطوطمية : ليس الطوطم اسماً للعشيرة فحسب بل هو رمزها وشعارها لذلك يحمل كل فرد من العشيرة اشارة طوطمها دليل انتماؤه اليها . وفي المعاهدات التي كانت تعقدها العشائر مع الاوربيين والامريكيين يختمون عليها باشارات الطوطم . كما كان الاشراف في عهد الاقطاع يضعون شعار الاسرة على المناشير . وتضع بعض العشائر في امريكا علامات الطوطم فوق رماحها كرايات لكتائب الجيش . ويرتدي بعض رجال العشائر جلود الحيوانات التي اتخذها طوطماً ، ويحشو بعضها جلد الطوطم بالقش ويلقونه فوق الابواب . ومن العشائر الاوسترالية من تنقش صورة الطوطم على تابوت الميت او تدفنه في جوار مكان نقش عليه صورة الطوطم . ومنهم من يشم بدنه بصورة الطوطم ، ومنهم من يتزيى في الاعياد الدينية بزى حيوان يمثل الطوطم . ويخال للباحث ان العشائر ارادت بهذه الاشارات والعلامات والرسوم ان تشرك الطوطم في جميع شؤون الحياة وذلك ليحميها من شر الحوادث ويكون عوناً لها في النائبات .

وقد لخص العالم (ريناخ - S-Reinach) سنة ١٩٠٠ اسس الطوطمية واحكامها بمجموعة من الاحكام ، اراد ان يجاري بها الوصايا العشرة في التوراة في كتابه (قانون الطوطمية - Code de totemism) عددها اثني عشر حكماً هي :
١ - لا تقتل بعض الحيوانات المعلومة ولا تؤكل . وينتخب واحد منها ويُعنى به .

٢ - وأذا مات احد هذه الحيوانات قضاء وقدرأ يحذ الناس عليه ويدفن باحترام كأحد افراد العشيرة .

٣ - ان تحريم الاكل يتناول بعض الاحيان جزءاً من الحيوان فقط .

٤ - واذا اقتضت الضرورة قتل حيوان منها فلا يجوز ذلك قبل ان يلتبس منه العفو . ومن الواجب اتخاذ انواع الحيل والالعب قبل قتله لتخفيف مخالفة التحريم (خطيئة القتل) .

٥ - واذا ضحى الحيوان بموجب الطقوس يقام الحداد من اجله .

٦ - وفي بعض الاحتفالات المعينة كالمراسيم الدينية يرتدى جلد الحيوانات الطوطمية في المحلات التي ما تزال الطوطمية سائدة فيها .

٧ - ان الافراد والعشائر تتسمى باسماء الحيوانات الطوطمية .

٨ - ان كثيراً من العشائر تتخذ صور الحيوانات شعاراً لها ويزينون اسلحتهم برسومها ويرسمون صور الحيوانات على اجسادهم ويشمون بدنهم بها .

٩ - اذا كان الطوطم من الحيوانات المفترسة تعتقد العشائر التي تتسمى بها بانه يرحم افراد العشيرة ويشفق بهم .

١٠ - ان الطوطم يحمي افراد العشيرة ويرشدهم .

١١ - ان الحيوان الطوطم ينسب المؤمنون بما سيصيبهم ويقوم بامر ارشادهم .

١٢ - تعتقد عشائر الطوطمية في اغلب الحالات انهم والطوطم من اصل واحد .

هذه هي الاحكام التي دونها ريناخ ، ولكنه اهمل اموراً مهمة ومنها ميزة الطوطمية وهي تحريم الزواج بين افراد العشيرة وعقاب فاعله بالموت .

مقدسات الطوطمية : والطوطمية ككل دين لها مقدساتها ومحرماتها . وقد ظهر للعلماء الذين درسوا احوال القبائل الاوسترالية الوسطى ، ولا سيما قبائل (ارونتا - Arunta ولوريتجا - Luritcha) انها تستعمل بعض المواد في طقوسها وعبادتها . ويسمى الارونتيون هذه المواد باسم (شورينغا - Churinga)

ومعناها المقدس الذي لا يجوز مسه او التقرب منه او مشاهدته الا لمن سمح لهم بذلك ، وهي تصنع من الخشب والصوان بأشكال مختلفة ، وتكون في الأغلب بيضية الشكل طويلة . وتحفظ كل جماعة طوطمية بعدد من الشورينغا ، نقشت فيها او رسمت عليها صورة الطوطم . وهذا الرسم هو الذي يعلي قدرها ويرفع منزلتها (١) . ولما كانت الشورينغا من المقدسات ، لذلك لا يذكرها الارونتيون الا بكل وقار واحترام ولا يكاد يسمعون الحاضرون . ولا يحل للنساء لمسها أو مشاهدتها لانهن غير طاهرات . وكذلك للبنين الذين لم يبلغوا السن التي تؤهلهم الاشتراك بالمراسم الدينية ، ولكن يجوز لهم التمتع برؤيتها في حالات خاصة . ويحجب الارونتيون الشورينغا في امكنة خاصة داخل الارض ويسدون قمتها باحجار يكدسونها بشكل يتعذر على من يمر بها من غير الارونتيين معرفتها .

وتسري قدسية الشورينغا الى المكان الذي حفظت فيه ، لهذا يحرم على النساء والبنين التقرب منه ، وكذلك تسري قدسيتها الى ما يجاورها من الاماكن ، فلا يجوز للدنس ان يمسه او يتقرب منها . ولا يجوز فيها القتال ، ويسلم العدو من المطاردة اذا لجأ اليها ، وكذلك يسلم الصيد ويحرم اقتناصه . وتشفي الشورينغا الامراض ، وتداوي الجروح وتشجع العشيرة في القتال ، وتجلب لها النصر ، كما انها تزلزل اقدام العدو وتقهره . وتعرض الشورينغا في الاحتفالات الدينية ويتبرك بها الناس . ومنهم من يطلي جسده او يمسح يديه بالدهن الذي طليت به اعتقاداً منهم ان روحاً من ارواحها تحل بهم . وكذلك يعتقد الناس ان قوة خصائصها تسري الى الكهنة والى الحاضرين في الاحتفال ، وهم يغطونها بالريش ويديرونها ، فينتشر الريش على الحاضرين وبذلك تنتقل قوة الشورينغا وخصائصها اليهم .

ويعتقد الناس بان مصير العشيرة مربوط بها ، لهذا تعظم المصيبة وتكبر اذا

١ - وهو رأي دركاييم، اما سينسر فيرجع السبب الى الاعتقاد بأن روح احد الأجداد حلت فيها.

استولى عليها العدو . واذا طلب الغالب تسليم الشورينغا اليه واضطر المغلوب الى القبول عم الحزن العشيرة وانتشر الفرع فيبي الرجال وتنتحب النساء ويستمر الحداد في العشيرة اسبوعين يقضونها بالنواح والعيول كما لو فقدوا اعز عزيز . ويتولى رئيس العشيرة امر الحراسة عليها ، ولا يسوغ لافراد العشائر الاخرى زيارتها الا باذن من الرئيس واذا فعلوا فباحترام .

وتوجد مادتان مقدستان اخريان لدى قبيلة اروننا وهما (نورتونجا - Nurtunja وواتينغا - Watinga) اما النورتونجا فهو رمح او حزمة رماح او عمود لفوا به شدات من الحشيش ربطوها بحيط من الشعر ، وزينوا العمود او الرمح بريش الصقر . واما الواتينغا فعبارة عن عصا او عمود ركز في الارض يربط به احيانا عصا افقية على شكل صليب وربما ربطوه بعضا اخرى . وقد يغطون الواتينغا بالريش لئلا تراه الناس ، وبذلك يشبه الواتينغا الراية . وتعرض النورتونجا والواتينغا في الاحتفالات والاعياد ويصبحان مركز الاحتفال والرقص حولهما . واذا كانا بيد الكاهن فالاحتفال والرقص يجريان حوله . ولا يشترك الشاب في الاحتفالات الدينية الا بعد ان يقوم بتقديس النورتونجا بأن يؤخذ اليها ، فيقول له المشرف : « انظر هذا النورتونجا انه ابوك » فيقبله ويحرق له بعدها المساهمة في الاحتفالات .

ويعتقد الناس ان النورتونجا تحرس وتحمي ما ركزت بجانبها لذلك يركزونها قرب البيت او الخيمة . اما الواتينغا فيبدو انها بمثابة راية تحملها العشيرة في القتال ، فتمنح النصر لأنها والواتينغا تمثلان الطوطم ، ومما يؤيد ان القدسية ناشئة من رسم الطوطم هو اعتقاد القبيلة بان رسم الطوطم على الحجارة يجعلها مقدسة . وتسمى وقتئذ (شورينجا الكينا - CH - ilkina) بمعنى الرسم المقدس او الصورة القدسية ، ويطلق هذا على ما يحمله الكاهن وحاشيته في الاحتفالات .

المهتدين

صلة الانسان بالطوطم الحيواني : يعتقد الناس في الطوطمية ان الصور ليست وحدها مقدسة بل ان جميع الحيوانات من نوع الطوطم مقدس ، وكذلك كل فرد من افراد العشيرة مقدس كأنما قدسية الطوطم نفسه شملت نوعه وجميع الافراد الذين تسماوا باسمه . وتتجلى قدسية الطوطم بتحريم اكل جميع الحيوانات من نوعه عدا جواز استعماله . اما الحيوانات الاخرى فيجوز اكل لحمها لأنها غير مقدسة . اما سبب التحريم فهو الاعتقاد بان في الطوطم شيئاً ينبغي إتلافه قبل ان يدخل في تركيب الاكل . ويكون التحريم في بعض العشائر باتاً ، ولكنه يخف في القبائل التي تضعف فيها نظام الطوطمية . ومع ذلك فان هناك قيوداً وشروطاً في الاكل فلا يؤكل الا جزء من الطوطم . ولا يجوز مطلقاً اكل البيض او الشحم . وكذلك لا يجوز اكل الحيوان الا قبل بلوغه سنأ معينة ، ولا اكل النبات قبل نضوجه ، وما دام الحيوان لم يبلغ تلك السن والنبات لم ينضج فان قدسيتها لم تستكمل . على انه يجوز اكل الحيوان في بعض المراسيم الدينية للرؤساء وهذا يدل على ان الذين تقدموا في مراتب الدين يصبحون بحل من التحريم ، ولانهم اصبحوا مقدسين ولهذا باستطاعتهم ان يأكلوا الطوطم المقدس . واذا كان الطوطم من المواد التي لا غنى للناس عنه كالملح والماء فينبغي ازالة قدسيتها ببعض المراسم ليحل اكلها .

والفرد الذي يحمل اسم الحيوان يصبح هو والحيوان سواء . ان كل فرد من عشيرة الكنغر مثلاً يعتبر نفسه كنغر بحق . ويظهر من ذلك ان الفرد في العشيرة الطوطمية يعتقد بان له ذاتيتين ، ذاتية حيوانية وذاتية بشرية ، وسبب ذلك اعتقاد الناس بأنهم نشأوا من صلب الطوطم . وتعتقد بعض العشائر بأن جدها الاعلى عاش مدة طويلة بين الحيوانات الطوطم . ويعتقد الطوطميون ايضاً بان بعض مواد الانسان مقدس كالدم والشعر ، ويستعملون الدم لتقديس بعض الاشياء ، لهذا تطلى النورتونجا بالدم في بعض المراسيم

الدينية . وفي الاحتفالات التي تجري لادخال الشاب في الحظيرة الدينية يعرض الى عملية قطع احد الشرايين ليجري الدم وبما ان هذا الدم بالغ القدسية كالشورينجا يحرم على النساء رؤيته . ويدفن الارونتيون هذا الدم في محل ما ، فيركزون فيه قطعة خشب للدلالة على قدسيته ، فلا يجوز للنساء بعد ذلك التقرب منه . ويفرض على الشاب الذي قطع شريانه ان يلحس دم السكين القاطعة ويعتبر دم الختان مقدس كذلك . والشعر ايضاً مقدس كالدم ، لهذا اكتسى البعض حزاماً من شعر الانسان . واذا اعار احد الناس الشورينجا الى آخر فيعطيه هذا من شعره دليل امتنانه . وهناك بعض المراسيم تجري لقص الشعر ، واذا مات احدهم يقصون شعره ويحفظونه ويصنعون منه أحزمة ولكن في محل لا تراه الاولاد والنساء اذ لا يجوز لهم رؤية الشعر .

مراتب التقديس ومفهوم الكون في الطوطمية : تبين لنا ما سبق ان الطوطمية دين شديد التعقيد وفيه ثلاث مراتب تتفاوت في القدسية .
المرتبة المقدسة الاولى : هي تمثال الطوطم اي المادة التي يرسم عليها او الصورة التي تنحت على هيكله .

المرتبة المقدسة الثانية : هي نفس الطوطم حيواناً كان او نباتاً او جماداً .
المرتبة المقدسة الثالثة : الشخص الذي ينتسب الى ذلك الطوطم .

وهذه المراتب القدسية الثلاث وان كانت على درجات متفاوتة من القدسية فجميعها يؤلف كلا واحداً لا يتجزأ . فكما ان الشخص يعتبر نفسه من نوع الحيوان الطوطم الذي لا يختلف عنه ، بل هو ناشيء منه كذلك الطوطم ينبغي له ان يحمي صاحبه ويساعده ويرشده ويخبره بما سيصيبه ، واما التمثال فهو من الطوطم وشعار الشخص .

ويعتقد الطوطميون بان الموجودات المختلفة ما هي الا اشكال متحولة متبدلة للطوطم ، فمشيرة الغراب مثلاً تضم الموجودات التالية : المطر والصاعقة والبرق والسحاب والبرد والشتاء وهذه كلها اشكال متحولة للغراب . وينقسم المجتمع الطوطمي الى عشائر فقبائل . وتنقسم القبيلة احياناً الى مجموعتين من العشائر

يؤلف كل منها (فرايري) اي اتحاد كما مر ذكره . والعشائر والاتحادات والقبائل جميعها تكون الشعب الطوطمي . وبما ان لكل من هذه الاقسام طوطماً او اكثر ، تتعدد الطواطم في الشعب ، وتنحصر حدود الكون في نظرهم - بالارض التي يسكنها الشعب وتشمل كل ما فيها من حيوان ونبات وجماد وبشر . وبذلك تصبح جميع الكائنات من قمر وشمس ونجم وحيوان الخ ضمن القبيلة . ومن هنا نشأ اعتقاد الطوطميين بأن كل ما هو موجود مندمج بشعبهم .

مثال ذلك ما ذكره (كر - Kurr) وفيزون وهويت ، عن شعب جبل غامبيه الذي يتألف من قبيلة (كمت - Kumit) وقبيلة (كروكي - Kroki) ؛ وتتألف قبيلة كمت من خمس عشائر وهي الصقر الذي يصطاد الاسماك ونوع من الطير والغراب والبيغاء ذو الريشة والحية غير السامة . وتتألف قبيلة كروكي من ثلاث عشائر وهي شجرة الشاي البري وجوز يؤكل وبيغاء بدون عرف ، ويضاف الى ذلك موجودات جعلتها قبيلة كمت من صنفها وهي الدخان ، ونوع من الزهور وبعض الاشجار والكلاب والنار والثلج والمطر والصاعقة والبرق والسحاب والبرد والنجوم والقمر ، وثلاثة انواع من الاسماك والاشجار ذات الالياف والبط والسرطان والبوم ونوع من الطيور والحجل والكنغر والضيف والشمس والرياح والحريف ... الخ ، لذا ادخل شعب جبل غامبيه كل الموجودات في نطاق قبيلته ولم يفكر بوجود موجودات اخرى غير هذه . وبذلك حصر الكون في ذاته وارضه ، وعنده ان القبيلة جنس والعشيرة نوع . هكذا اصبحت له فكرة تصنيف الموجودات والجنس والنوع . وكان من امر ذلك ان الاشخاص اعتبروا موجودات عشيرتهم اصدقاء يمتزجون ويتصلون بها ، ولهذا اذا مات أحد من قبيلة موللرا - Mollera) مثلاً ، إنهم يحملون جثته على تابوت مصنوع من شجرة خاصة بهم ، ويغطون الجثة بالاغصان التي يقطعونها من اشجار القبيلة . والساحر لا يستعمل الا المواد الخاصة بعشيرته . كما اعتقدوا ان الموجودات المختلفة ما هي الا اشكال متبدلة للطوطم . فعشيرة الغراب مثلا تضم الموجودات

الطوطمية التالية : المطر والصاعقة والبرق والسحاب والبرد والشتاء، وهذه كلها اشكال متحوّلة للغراب .

وكان العلماء يظنون اول الامر ان العشيرة منطوية على نفسها في شؤونها ولا علاقة لها بغيرها ، وبذلك ضيقوا مجال الدين عند الطوطمين . ولكن الدراسات الاخيرة دلت على عكس ذلك ، اذ ان الاحتفالات الدينية في العشائر متكاملة ، او هي مراسم تختص بدين واحد . وهذا بالاضافة الى معرفة العشيرة لما يجري في العشائر المجاورة واحترامها لما يحتفلون به . وكان من ذلك ان افراد العشيرة لا ياكلون طوطم العشائر المجاورة الا بعد اجراء بعض المراسم ، ولا ياكلون منه شيئاً اذا جاورهم افراد يقدسون ذلك الشيء الا بعد ان يستأذنونهم ، وبذلك يكون طوطم العشيرة المجاورة شبه مقدس . ويستبان من ذلك ان من يريد ان يتتبع الطوطمية بامعان ينبغي الا يحصر دراسته بعشيرة واحدة بل يوسعها في نطاق الشعب باجمعه .

الطوطم الشخص والطوطم الجنس :

بالاضافة الى الطوطم المشترك فلكل فرد من العشيرة طوطم خاص به ويأخذ منه اسمه وحميته ويكون حيواناً في الاغلب او جماداً او عضواً من اعضاء الجسد كالكبدة والرأس والرجل . وقد تأكد الباحثون من ذلك في بعض قبائل استراليا واكثر قبائل سكان امريكا الاصليين . ولأجل أن يظهر الشخص تعلقه بطوطمه يكتسي جلده او يحمل ريشه اذا كان طيراً او يرسم صورته في جسده وينقشها على سلاحه . ويعتقد الشخص بأن خصائص طوطمه تنتقل اليه ، فاذا كان الطوطم عقاباً يمتاز الشخص بالنظر من بعيد ويستطيع ان يتنبأ عن المستقبل . واذا كان طوطمه دبة يعتقد انه يجرح في القتال لأنه بطيء الحركة كطوطمه ، واذا كان الحيوان الطوطم حقيراً فيكون الشخص مهاناً . وقد بلغ هذا الاعتقاد في الاشخاص انهم يعتقدون بأنهم ينقلون الى الحيوان الطوطم في حالة الخطر وبذلك يتقون شر عدوهم ، واذا مرض الحيوان يمرض الشخص واذا مات تتعرض حياة الشخص الى التهلكة .

والفارق بين طوطم العشيرة المشترك وبين الطوطم ان الاول يرثه الشخص من امه او من ابيه ، اما الطوطم الشخصي فيختاره الشخص في احتفال ديني . والطريقة الشائعة لدى اهالي امريكا الاصليين هي ان الولد عندما يبلغ سنًا معينة قبل سن الرشد ، التي تجيز له الاشتراك في الاحتفالات الدينية يساق الى محل منعزل كغابة مثلاً يمارس هناك رياضات جسمانية شاقة بضعة ايام او سنوات ، ويمارس الصوم محاولاً التغلب على نفسه بتعذيبها ، ويطوف في الغابة صارخاً عاوياً كالكلاب ، يرقص تارة ويتضرع اخرى ويتملكه الوجد ويبلغ به التهيج حد الافراط حتى يغمى عليه ، ثم يهذي فتترأى له الرؤيا فاذا تخيل له ، في هذه الحالة النفسية المتهيجة حيواناً او رأى شيئاً في احلامه فانه يصبح طوطمه الشخصي . اما في استراليا فتستعمل طريقة اخرى . فالشيوخ والسحرة هم الذين يعينون الطوطم الشخصي ، او يكون ذلك عند ولادة الطفل فتربط جدته او عجوز اخرى مشيمته بجبل من قش وتديره في الهواء بينما تلفظ عجوز اخرى اسماء متعددة فاذا انقطع الجبل عند احد الاسماء كان ذلك هو الطوطم للشخص المولود . وهناك طريقة اخرى بأن يبصق الطفل عندما يقلع سنه الاولى في اناء مملوءة بالماء فينظر الساحر في الماء حتى اذا تشكل البصاق بشكل حيوان اصبح ذلك الحيوان طوطم الولد . وفي بعض العشائر ينتقل طوطم الاب او العم الشخصي الى الولد .

ومما يذكر ان هناك دلائل على ان الفرد يتمسك بطوطمه الشخصي اكثر من تمسكه بطوطم العشيرة ، فقد ذكر بعض المبشرين ان من اعتنق المسيحية من الطوطميين قد يترك الطوطم المشترك ولكنه يظل متمسكاً بطوطمه الشخصي . وهناك طوطم ثالث هو الطوطم الجنسي فيكون لكل من جنس الرجال وجنس النساء طوطم خاص . ويزعم الرجال انهم اولاد ذلك الطوطم ، وتزعم النساء انهن بناته . ومن واجب كل من الجنسين احترام طوطم الجنس الآخر فلا يأكله ولا يشتمه واذا حصل ذلك فالخصام ينشب بين الجنسين في العشيرة .

نظرية دركهائم في الطوطمية

مر بنا ان دركهائم اول من قال ان الطوطمية دين وليس نظاماً اجتماعياً . وقد ذكر في كتابه « الاشكال الاولى للحياة الدينية » (١) ان في الطوطمية ثلاثة عناصر مقدسة وهي : العشيرة والمادة المثلة للطوطم كالثورنجا والشخص المنتمي للعشيرة الممتاز بطوطمه . واقدس هذه العناصر المادة المثلة للطوطم ومرجع هذه القدسية « مفهوم » او « مبدأ » جعل القدسية تشمل الفرد والعشيرة والطوطم ، وهو قوة خفية غير مشخصة ولا اسم لها . ولا توجد هذه القوة كاملة في اي عنصر منها . ولكنها تشترك جميعاً بتكوينها . ومن هنا كانت هذه القوة مستقلة تام الاستقلال عن الشخصيات التي تجسدت فيها واصبحت مقدسة ولذلك فهي مستمرة ودائمة ، كانت موجودة من قبل وستبقى خالدة من بعد ، لا يلحقها تغير مهما تعاقبت الاجيال والقرون .

واذا استعملنا كلمة الإله فانها تدل على تلك القوة في اعتقاد الطوطمية ، وهي بعد ليس اسماً ولا اسطورة ولا تاريخاً . وهي موجودة في أشياء لا حصر لها .

وليست هي بعد ذلك في العشيرة والافراد او الطوطم ، بل انها موجودة وراء تلك الاشياء .

ويبدو من ذلك ان الطوطم شيء غير مادي وان اخذ اشكالا مادية. وهكذا يستنتج دركهام ان الباعث الحقيقي للعبادة انما هو تلك القوة . ويتضح مما سبق ان الاستراليين اذا نسبوا الفرد الى عشيرة الغراب لا يقصدون حقاً انه غراب ، لأن الانسان البدائي مهما انحطت مداركه فانه يفرق بين البشر والغراب وانما يريدون به تلك القوة التي اتحدت بهم . والقوة المذكورة ذات صفة جسمانية وروحانية معاً . واذا سئل احد الطوطميين عن اشتراكه في الاحتفالات الدينية اجاب ان اجداده كانوا يحضرونها وهو مكلف بالاعتداء بهم . وهكذا صارت تلك القوة سبباً للتآخي والتعاون بين افراد العشيرة ، حتى جعلتهم يثارون لدم المقتول منهم . ولا يزال لمفهوم تلك القوة اثر بين الاقوام التي اخذت تترك الطوطمية في سبيل الاعتقاد كقبائل امريكا . ان بعض عشائر قبيلة (سيوكس - Siox) الامريكية الاهلية التي ما يزال نظام العشيرة سائداً فيها تسلم بوجود قوة قادرة تسمى (واكان - Wacan) وهي ليست كائناً شخصياً ولا تتمثل باي شكل من الاشكال . وهناك قبيلة اخرى تسمى القوة المذكورة (اورندا - Orenda) وهي مماثلة لواكان السيوكس . ويعتقد الناس بانها ترسي الجبال وتجري الانهار وتنبت الاشجار وتخلق الانسان والحيوان ، وتسير السحاب وتكون وميض البرد ودوي الرعد واذا اتفق أن أفلت الصيد من يد الصياد قالوا ان اورندا الصيد غلب اورندا الصياد وهذه القوة اسماء اخرى لدى قبائل اخرى .

ان الملازيين الذين تركوا الطوطمية وتقدموا في مراتب الاعتقاد يطلقون على تلك القوة اسم (مانا - Mana) ، والمانا هي القوة الممتازة عن جميع الموجودات تجلب الخير والشر . فمن اراد ان يعيش سعيداً فما عليه الا ان يستجلب عطف المانا وفق رغباته . ويورد دركهام قول (كودرنجتون -) عن المانا : « يعتقد الملازيون بوجود قوة مجردة تماماً عن اية قوة مادية وهي ذات تأثير سواء في عمل الخير او في عمل الشر . وينتفع الانسان انتفاعاً كبيراً بجيازته

هذه القوة وبالسيطرة عليها . وهي قوة ذات تأثير ونفوذ من نوع غير مادي .
وخارق الى حد ما ولكنها تتجلى بقوة مادية بما يملكه الانسان من قدرة . وهي
ليست موجودة في شيء معين ولكنها موجودة في كل شيء . ويتلخص دين
الملازيين بتملك المانا ينتفعون بها بالذات وينفعون الاخرين بها .

ويصل دركهايم في مطالعاته الى ان الطوطمية هي فكرة المانا في حالتها
الابتدائية . احتفظ الطوطميون بوضعها الاصلي وتطورت عند الملازيين فظهرت
بمظهر راق . اما طوطم العشيرة والطوطم الشخصي فهما من ظواهر اوضاع المانا .
وليست العبادة عند الطوطميين لنفس الطوطم أو لتمثاله بل للقوة المتعالية التي
يظنون انها حلت فيها . وتبدو اوضاع هذا المعتقد في الشعوب الامريكية
الشمالية لانها تقدمت في الاعتقاد اكثر من الشعوب البدائية الاخرى . اما العقائد
الدينية الاخرى كالروحية والطبيعية والوثنية فانها تمثل اوضاع الطوطمية
المتكاملة . ومفهوم الطوطم عند الاقوام المعتقد بتلك الاعتقادات الدينية هو
المانا او الروح والجنان ، او مظاهر القوى الطبيعية او المعبود الممثل بالوثن او
بالصنم . اما الابطال اي الالهة الخرافيون الوارد ذكرهم في اساطير الاقوام
المشركة فهم اشخاص تمتعوا بسلطان المانا التي حلت فيهم ولهذا فان عبادة بعض
الاقوام للشمس والقمر والنجوم انما هي عبادة لمانا التي يظنون انها اندمجت
فيها . واذا حلت المانا باي شيء اصبح مقدساً وان كان تافهاً في ذاته (٢) .

واذا كان بعض الاقوام قد عبدوا الروح فما ذلك الا لانهم اعتبروا ان اصحابها
كانوا في حياتهم متمتعين بسلطان المانا . والذي يتبين من معتقد الاقوام البدائية
انهم كانوا جميعاً متفقين في اوصاف تلك القوة المتعالية سواء أكانت مانا ام
واكان ام اورندا .

ان قبيلة السيوكس في امريكا الشمالية ترى ان الواكان هو القوة التي يمكن بها
ايضاح مختلف الحوادث الطبيعية . والواكان في نظرها منشأ كل انواع الحياة

٢ - الاشكال الاولى للحياة الدينية - Les formes primilinaires de la vie

religieuse

فيكون كالمنا ، ان الواكان بأعتقادها علة كل ما يحدث في الكون . وكذلك تعتبر قبيلة (الإركوا - Irqouoi) قوة اورندا العلة الفاعلة لكل ما يتجلى من احداث تحيط بالانسان . والاورندا هي التي تجعل الريح تهب والشمس تشع وهي التي تمنح الحرارة للارض وتنبت النبات وتغدق على الانسان بالقوة والمهارة والذكاء . ويصف الملازبون المانا ايضاً بتلك الصفات ، والانسان بفضل المانا ينتصر بالقتال وينعم بغلة بساتينه وحقله . وبفضلها تتكاثر قطعانه ، والسهم الذي يصيب الهدف فيه مانا ، واذا امتلأت الشبكة بالسماك الوافر ونجر الزورق في البحر ، فما ذلك الا بفضل المانا . وهكذا يعتبر دركهائم الواكان واورندا والمانا الشيء نفسه . وهذه الاسماء الثلاثة هي التي تدل على مفهوم الطوطم .

* * *

كيف نشأت فكرة المانا الطوطمية ؟

يدعي دركهائم ان الطوطمية نشأت من فكرة المانا . ويتساءل كيف ظهرت هذه الفكرة عند الانسان البدائي ؟ هل ان الطوطم هو الذي ايقظ في الانسان فكرة التبعيد أو التقديس ؟ واذا كان الامر كذلك فينبغي ان يكون الاحساس قد ولد فكرة الطوطمية . ولكن دركهائم يعترض على هذا الاستنتاج ويرى ان الاحساس لم يكن مصدر الطوطمية ، اذ لو كان الاحساس هو الذي أوجد عبادة الطوطم في نفوس البدائيين لاتخذ البشر الاول من الحيوانات الكبيرة والاشجار البواسق ومن مظاهر الكون الخارقة طوطم له ، لانها ادعى الى اثاره انتباهه من الحيوانات الحقيرة التي اتخذها الاستراليون طوطماً لهم ، كالدودة والضفدع وسام ابرص والحرباء والفار وغير ذلك . وليست هذه الحيوانات الحقيرة مما يثير انتباه البشر ، فيدفعه الى التبعيد ؛ بينما هناك مظاهر طبيعية خارقة اقدر على تحريك شعور الانسان كالنجوم والشمس والقمر والصاعقة... الخ ومع ذلك فلم تتخذ طواطم الا نادراً . ويبدو من ذلك ان الذي جعل الطوطم موضع

عبادة لا اسمه ولا ذاته انما شيء آخر، ولو كان الداعي الى الاحتفالات الطوطمية ومعتقداتها الاحساس الذي أيقظه الطوطم ، لوجب ان يكون الطوطم ذاته الشيء الاكثر تقرباً ، وللعب الحيوان أو النبات عندئذ الدور الاول في الحياة الدينية . وبينما رأينا ان الحيوان أو النبات بذاته ليس هو محور العبادة بل التمثال الذي يمثله وهو أكثر ما يقده الطوطميون . ويتبين من ذلك ان التمثال مصدر الافكار والاحساسات الدينية في العشيرة . والتمثال يرمز الى مبدأ ، المبدأ الذي يتجلى بتلك القوة الخفية التي سميت بأسماء مختلفة ، والتي لا تتناول النوع الطوطمي وافراد العشيرة والتمثال فحسب بل يمتد مجال عملها الى افق أوسع . وبما ان البدائي لم يستطع ادراكها في صورتها المجردة مثلها في صورة حيوان او نبات أو في صورة شيء محسوس . فالطوطم إذن يمثل شيئين مختلفين، يمثل من جهة ذلك المبدأ أو المعبود ويكون مثاله الخارجي المحسوس ، ويمثل من جهة اخرى العشيرة فيكون شعارها الذي يميزها عن العشائر الاخرى . وبهذه الاستنتاجات المتلاحقة يصل دركهايم الى النتيجة التالية :

ان الطوطم تمثال المعبود وتمثال العشيرة في وقت واحد . وبتعبير آخر ان معبود العشيرة في المجتمعات الطوطمية هو العشيرة بذاتها . اذ لو كان المعبود والعشيرة شيئين مختلفين، لكان الشعار الذي يمثل المعبود يختلف عن الشعار الذي يمثل العشيرة . ولهذا وجب ان يكون معبود العشيرة هو العشيرة نفسها . ويستنبط من ذلك ان العشيرة بتقديسها للطوطم تقديس نفسها اي تعبد نفسها . أما وقد وصل دركهايم الى هذه النتيجة ، فيقتضي ان يشرح لماذا قدس الافراد الجماعة (العشيرة) واعتبروها معبوداً . ولايضاح ذلك يقول ان البشر الأول كان يعيش في العزلة لان موارد المعيشة وحالة المناخ في حينه لم تكن لتساعده على تكوين الجماعة . وكانت الأسرة تأوي الى الكهوف وتعيش على الحيوانات التي تصطادها . ولعلها كانت تضطر الى أكل بعض افرادها . ولما تحسنت احوال المناخ وكثرت حيوانات الصيد توفرت اسباب المعيشة . ولما بدأت الجماعة تتكون وتعاون فيما بينها للتغلب على مشاكل الحياة ، شعر الافراد والاسرات

بما قدمته لهم حياة الجماعة من خير في التعاون على الصيد والانتفاع من موارد الطبيعة والدفاع عن النفس . لان الاجتماع من شأنه ان يولد قوة قاهرة يستحيل على الاسرات المنزلة ان تناهها . والجماعة بتضامن أعضائها وتعاونهم تتغلب على مشقات الحياة . فتصطاد الضواري وتتفجع بما تقدمه الطبيعة من موارد المعيشة . والاجتماع يولد الشعور والادراك بين الافراد ويستبدل النفع العام بالنفع الخاص ، ويكون سلطة الآراء التي يعبر عنها بالرأي العام . واذا كان للاجتماع هذا التأثير العظيم في تأمين الفوائد المادية والمعنوية للافراد ترتب على ذلك تقديسهم للجماعة ما دامت مصدر الخير المادي والمعنوي . ورأوا في الاجتماع قوة قدسية تسيطر على الافراد .

وبصدد إظهار تأثير الاجتماع في الافراد يتوسع دركهايم في الموضوع بوصفه عالماً اجتماعياً قبل ان يكون عالماً دينياً ، ويذكر ان للجماعة طبيعة خاصة تختلف عن طبيعة الفرد . وللجماعة أهداف خاصة ، وبما ان هذه الاهداف لا يمكن الوصول اليها إلا بواسطة الافراد ، فان الجماعة تطلب من الافراد التعاون المطلق معها ، وتسألهم تضحية منافعهم الخاصة من أجلها وتحمل المشقة والحرجان في سبيل ذلك . وهكذا يخضع الافراد للجماعة ويسعون للتوفيق بين اعمالهم ورضاء الجماعة . وتتحكم الجماعة في آرائهم ويضطرون الى العمل رغم رغباتهم وحتف غرائزهم ، وليس مرجع هذا الخضوع قدرة الجماعة على قهر كل مقاومة فردية تقف في وجهها فحسب ، بل ان السبب الرئيسي يرجع الى ان الجماعة اكتسبت تقديساً وتبجيلاً حقيقيين من الافراد . ومن المعلوم ان العامل الذي يلهم الافراد سواء كان فردياً او جماعياً يصبح ذا قوة مهيمنة على الافراد ، وبفضل هذا العامل يستطيع القائد الذي نال احترام جيشه وثقته ان يحرك آلافاً من الجنود بمجرد اصداره الاوامر . وإذا لاحظنا هذا التأثير الذي تولده الجماعة في الافراد ، نستطيع ان نعرف كيف ايقظت الجماعة في نفوس البشر الاولين وجود قوى دينية خارجة عنهم ومهيمنة عليهم . ويستند بعد ذلك دركهايم الى ما ذكره السياح والعلماء عن أحوال الشعوب الاسترالية . ويشير الى صفحتين

من حياتهم الدينية : صفحة عطالة وركود وصفحة نشاط وتهيج بالغ ، والصفحة الاولى تظهر حينما يكون الافراد متفرقين يعمل كل لنفسه ، وتظهر الصفحة الثانية حينما يجتمعون حول التمثال يرقصون ويلعبون بوجد واستغراق . صمت وخمود في الاولى وصخب ونشاط في الثانية . وقد كانت القوة المسيطرة في حالة الاجتماع مصدر إلهام لهم ، فحاولوا تجسيدها بتماثيل الحيوانات والنباتات التي اتخذوها رمزاً للاجتماع ، يلتفون حولها فيرقصون ويلعبون ويأخذهم الوجد حتى يقعوا مغشياً عليهم ، وأصبحت شارتهم في الغزوات وحاميتهم في الصلوات . وما تزال هذه الشارة تمثل الراية التي تحارب الجيوش في سبيلها لانها رمز الوطن وشعار الدولة . ومن الجدير بالذكر ان البشر البدائي تصور ان الاجتماع هو العامل الاصلي لما شعر به من تأثيرات وانطباعات . وكان وقتئذ قاصر الادراك وكل ما استطاع ان يفهمه ان الاجتماع مصدر ما يحس به من حالات غير عادية في الاحتفالات التي تقام حول الطوطم أي الشورينجا والنورتونجا والواتينغا . وكان من الطبيعي ان يعزو سبب الوجد الذي انتابه في الاجتماع الى تلك التماثيل ، لهذا أصبح لها المرتبة الاولى في القدسية .

وبما ان تلك القوة الخارقة لم تتجل إلا باجتماع الافراد ، فمن الطبيعي ان يتصور بأن لهم قوة تماثل قوة الطوطم ، وهذا ما دعاهم الى اعتبار الافراد في المرتبة الثالثة من القدسية . وبسبب ذلك اعتبر الناس أن نوع الحيوان الطوطمي ونوع النبات اعلى منهم مرتبة في القدسية فكان في المرتبة الثانية . وبما ان القوة المذكورة سارية جداً فلا تتركز في نوع معين من الحيوان والنبات ، إنما تتسرب الى الموجودات سواء كانت قريبة من الكوائن الطوطمية او بعيدة عنها ، وقد تتسرب الى ما يأكله الحيوان الطوطم او الى ما يشبهه من حيوان آخر او ما له صلة بالموجودات المشتركة . وهذا هو سبب ان يكون للعشيرة طواطم اخرى بمرتبة ثانوية . وكذلك هذا هو سبب تصنيف جميع الموجودات بموجب العشائر التي تؤلف القبيلة وتقسم حسب طواطمها . أما اعتقاد الناس بأن اسم العشيرة مقدس فنأشئ من ان الاجتماع يوقظ في نفوس الافراد وجداً روحانياً . وبما ان

الجماعات البدائية لم تدرك بأن الوجد والشعور بالقدسية نشأ من الاجتماع ، وبما انهم لم يروا في الاجتماع الا طوطم العشيرة ، فلذلك ظنوا ان نسيم القدسية هب من الطوطم . هكذا يتبين ان اساس الطوطمية يستند الى ان التمثال قام مقام فكرة الاجتماع فصار رمز العشيرة وشعارها ومعبودها ومقتداها . ويبدو من كل ذلك ان الطوطمية عبادة الافراد لجماعتهم الا ان التمثال قام مقام العشيرة وقام المسمى مقام الاسم .

لماذا اختارت العشيرة الحيوانات والنباتات طوطماً لها ؟

يجيب دركهايم على هذا السؤال : - ان احسن واسطة للاجتماع هو التمثال اذ لا يعقل ان يتجمع الناس حول مادة مجردة لا يشاهدونها . والتمثال المادي محسوس ومفهوم . والعشائر لا يمكن ان تتعارف الا بشعارات خاصة ، واذا ارادت ان تمتاز باسماء رؤسائها او باسم المحل الذي تسكن فيه ، فيزول الشعار المميز بموت الرئيس او بتبدل المحل . اما الاسم الثابت الذي لا يتغير فهو موجود من الموجودات التي لها صلة دائمة بالعشيرة . ولما كانت الجماعات البشرية في اول نشأتها تعيش على الصيد وتأكل النباتات من حشائش وجذور وثمر ، فكان من الملائم لها ان تتسمى بأسمائها^(١) .



المهتدين

١ - الاشكال البدائية للحياة الدينية ، دركهايم .

النظريات في نشأة الدين

أولا - تنفيذ النظرية الروحية

تعرضت النظرية الروحية الى النقد حتى من بعض الذين أيدوا آراء تايلور بشأنها ، ولكن دركهايم بوصفه واضع نظرية الطوطمية كان من أشد المنتقدين لها . وفيما يلي خلاصة انتقاداته :

استند تايلور الى الرؤيا في تمهيدته لنظرية الروحية . وزعم ان الرؤيا هي التي ألهمت البشر الاول فكرة الروح ، وجعلته يعتقد بأن الروح والجسد شيئان مختلفان ، فكأن الحلم أشغل الانسان الأول فظل يعنى النظر فيه حتى اقتنع بأن الروح هي مصدر الحركة في الانسان ، فإذا تركته بلا رجعة مات وبلي الجسد ، واسترسل في هذا الاقتناع فتوصل الى فكرة الأرواح ، فعبادتها ، فعبادة الاجداد . حتى انتهى الى عبادة الطبيعة ، ولكن هل ان البشر البدائي تصور الروح كما قالت النظرية ؟ ولقد أظهرت الدراسات والمشاهدات ان البدائيين مع انهم يعتبرون الروح غير الجسد ، إلا ان تصوراتهم في أكثر الحالات لا تؤيد فكرة استقلال الروح عن الجسد ، بل انها تجعل الروح ممتزجة بالجسد الى حد ما مما يدل على ان شعور البدائيين بالروح ليست من الوضوح

ببحث تكون أساساً لنظرية تايلور ، ولأجل ان تكون النظرية صحيحة ينبغي الاتعلل بطرق أخرى ، لأنها إذا فسرت بطريقة أخرى يصبح ذلك التفسير نظرية ثانية . ويلوح ان رأي تايلور في الرؤيا ليس الرأي الوحيد . صحيح ان الانسان يستطيع ان يرى في حلمه محلات بعيدة بينما جسده لم يبدل محله . والحادث هذا قد يجعل الانسان يتصور وجود شيء يختلف عن الجسد ، ولكن لماذا لا يجعله هذا الحادث يتصور بأن للانسان مقدرة رؤية المحلات البعيدة . ان تصور الانسان للحادث على هذه الصورة أقرب من تصوره للروح بأنها كائن غير مرئي وشفاف ولطيف . ولو كان الحلم الذي يراه الانسان في نومه يتعلق بحادث بسيط ، كأن يرى الانسان انه في محل بعيد ، أو يحلم بأنه يعاشر أناساً ماتوا قبلاً لجاز ان يستخرج من هذا الحلم الذي تكرر بعض النتائج ويتوصل بها الى فكرة الروح . ولكن الحلم أغلب ما يكون معقداً مشوشاً يتناول حوادث شيء في الحال وفي الاستقبال . قد يرى النائم في رؤياه تلك الحوادث في نوم واحد وفي مدة قصيرة . اذن كيف يتسنى للانسان البدائي ان يفسر في صحوته هذه الحوادث ويستنتج منها نتائج ؟ كيف يستسيغ عقله بأنه عاش بروحه في الماضي وفي الحال وفي الحاضر في الوقت نفسه ؟

يرى أصدقاؤه في حلمه ويتحدث معهم ، فاذا استيقظ وسألهم وعرف انهم لم يروه في منامهم ألا يدل ذلك على انه اخطأ في نومه وانه رأى أناساً لم يتحدثوا اليه ؟ ألا يكفي هذا لهدم فكرة اجتماع روحه بأرواحهم . وهل كان للانسان البدائي الوقت الكافي أو العقل الكافي لوضع حلول للرؤيا والتفلسف .

نذكر فيما يلي نقد دركهايم لنظرية الروحية ، كما جاء في كتابه الآنف الذكر : يقول دركهايم : « ولنقبل جدلاً ان فكرة الروح يمكن ارجاعها الى فكرة الشيء الملازم للجسد (القرين) ، ولنرى كيف تكونت فكرة القرين . لقد أوحى تجربة الحلم تلك الفكرة ، فظن الانسان انه مركب من وجودين ليفسر كيف انه استطاع ان يرى نفسه في النوم في محلات بعيدة بينما ظل جسده في محله : الوجود الاول الجسد والوجود الثاني (الانا) الثانية التي تستطيع

الانفصال عن العضوية التي تحل فيها والتجول في الفضاء ، بيد انه لاجل ان يقنع البدائيون بان فرضية القرين امر لا بد منه يجب عليهم ألا يفكروا إلا بها ، إذ انه ينبغي ان يروا ان التفكير فيها أكثر سهولة وأقصر طريقاً بينما توجد هناك أفكار بسيطة يستطيع البدائي ان يستعرضها في فكره . مثال ذلك ، لماذا لا يفكر النائم ان له خاصية تجعله يرى من بعيد ! ويبدو انه كان من الأسهل على البدائي ان يتصور بأن له تلك المقدرة بدلاً من اقحام نفسه على ان يتصور مفهوماً شديد التعقيد والغموض ، كمفهوم القرين غير المرئي والشفاف مما يتعسر معرفته بالتجربة . واذا كانت بعض الاحلام تساعد على ايضاح النظرية الروحية فان أغلبها يناقضها .

ان أحلامنا في الأكثر تخص حوادث وقعت في الماضي قبل يوم أو يومين أو في أيام صبانا الخ ... ونرى في الحلم أموراً كنا شاهدناها أو أجريناها ، وتحدث هذه الأحلام بكثرة وتحتل في الحياة الليلية مكاناً مهماً بعض الاحمية ، ومع ذلك فانها لا توضح فكرة القرين . والقرين هذا يقدر ان يتجول في الفضاء ولكنه كيف يستطيع البدائي ان يفهم ان القرين يعمل معاكساً للزمان ؟ ومهما يكن العقل البدائي متأخراً فانه بعد يقظته لا يتمكن من تفسير ما حلم به قبل برهة من حوادث يعرف انها وقعت قبلاً أو أنه اشترك فيها . كيف يستطيع ان يعرف بأنه رأى في حلمه حياة يعرف جيداً انه عاشها قبل مدة طويلة ؟ وكان من الأفضل له ان يعتبر تلك الخيالات المتكررة خواطر لاحت له كالخواطر التي تتوارد الى ذهنه في النهار ولكنها تجلت في نومه اكثر وضوحاً. يضاف الى ذلك انه يحدث كثيراً ان احد معاصرنا يلعب دوراً في المسرح الذي نشاهده في النوم او نشترك فيه ، وكما نرى انفسنا فيه نرى ايضاً احد اصدقائنا ونظن اننا سمعنا صوته . والنظرية الروحية تفسر ذلك بأن قرين صديقنا زار قرين الحالم ، او ان قرينه اجتمع بقرين صديقه . ولكن هذا التفسير يتلاشى حينما يجتمع الحالم بصديقه ويسأله عن تلك الحادثة فيتأكد منه ان الحادثة لم تقع . الا يكفي هذا لنفي التفسير وقد نفته التجربة . ولا سيما اذا كان صديقه قد رأى حلماً في الوقت ذاته . ولكنه

يختلف عما شاهده هو. الا يؤيد ذلك ان الصديقين لم يشتركا في مجرى الحادثة وانهما زارا مكانين مختلفين . وبما ان هذا التناقض في الاحلام يستمر فكيف يقتنع البدائيون بانه ليس في الامر خطأ ووهم ؟ ومن سذاجة التفكير الادعاء بأن البدائي يصدق ذلك تصديقا اعمى . ان البدائي ينتبه في حالة اليقظة الى ان احساساته تخدعه احيانا . وكيف يعقل ان الاحساسات المذكورة تخطيء في النهار ولا تخطيء في الليل ؟ ويستبان من ذلك ان كثيراً من الاسباب تحول دون اعتبار الاحلام حقيقة واقعة وانها تحمل البدائي على انها تفسر الحالة الشائبة (١) .

ويرى دركهايم ان التجارب التي تنفي الواقع كافية لهدم النظرية الروحية ويتساءل هل كان للانسان البدائي الوقت الكافي والعقل الكافي لوضع حلول للرؤيا والتفلسف؟ والحقيقة انه كان يكافح من اجل الحياة ويحارب قوى الطبيعة للدفاع عن نفسه . ولم تكن اسباب المعيشة في متناول يده ، بل كان يقضي اياماً طوالاً ليعثر على صيد يقنات هو واسرته على لحمه وكان وقتئذ في اسفل دركات الادراك . ولم يكن الحلم ليشغل باله بحيث يستنتج منه نتائج يبني عليها فلسفته في الروح . ومن المعلوم ان الرؤيا حادثة تتكرر في كل يوم والحوادث التي تتكرر بانتظام وبترتيب لا تستلفت انظار الانسان لانها تصبح من الامور الاعتيادية . ان الذي شغل بال الانسان اكثر فاكثر هي الحوادث الخارقة ، غير الاعتيادية .

ويفهم من ذلك ان النظرية الروحية رغم ما اكتسبته من مكانة عند العلماء فانها ليست من النظريات التي سلم بها الباحث دون تردد . واذا كان البشر في يومنا هذا يتصور في رؤياه ان روحه انتقلت الى مكان آخر فان مما لا شك فيه ان الذي اهمه فكرة الروح ليست الرؤيا وحدها . . ويبدو مما ذكره كودرنتون ان الملازمين لا يعتبرون ان الروح تركت الجسد الا في الاحلام التي تستدعي

انتباههم بصورة اشد ، وهي احلام دينية كالارواح الطيبة او الارواح الخبيثة او الارواح الاجداد. وكذلك يفرق الديرى (Dieri) في استراليا كالملازيين بين الاحلام التي يلتقون فيها بالموتى من اقربائهم واصحابهم وبين الاحلام الاعتيادية ويطلقون على كل من هذين الفرعين من الاحلام اسماً .

وإذا صح ان الرؤيا هي التي نبهت الانسان الى فكرة الروح فكيف توصل الى تقديسها فعبدها الى ان عبد الاجداد .

زعم انصار الروحية ان الروح لا تكون موضع عبادة الا اذا انفصلت عن الجسد ، والموت بنظرهم هو الذي يجعل الروح مقدسة ، ولكن كيف اسبغ الموت على الروح صفة التقديس ؟ بينما تعتقد الشعوب المتوحشة في استراليا في الوقت نفسه بان الروح تهرم مع هرم الانسان الامر الذي جعلهم يقتلون رؤساءهم ورجالاتهم قبل بلوغهم ارضل العمر ، وذلك لتحفظ ارواحهم بحيويتها ونشاطها وكذلك يعتقدون بأن الموت اذا حدث بنتيجة مرض او عجز فان روح الميت تصبح عاجزة لا قوة لها . الا يدل كل هذا على ان الموت بمحذ ذاته مصدر عجز وضعف لا منبع قوة ونشاط ؟ لهذا يتعذر تصديق فكرة تقديس الروح بعد موتها . واذا تعسر ذلك يتعسر ايضاً الزعم القائل بان عبادة الاجداد نشأت من فكرة الارواح . ولو كانت عبادة الاجداد من مظاهر الدين الفطري فيقتضي ان نجد اثارها لدى الشعوب المتوحشة في استراليا التي ما زالت تحافظ على اوضاعها الاجتماعية المنحطة ، بينما نرى اثار هذه العبادة لدى الاقوام التي تقدمت في الحضارة كالهنود القدماء واليونان والرومان .

ولتوضيح منشأ عقيدة عبادة الاجداد قيل ان البدائيين يعتقدون بان الروح التي تترك الجسد اما انها تنفع الاحياء او انها تضرهم . صحيح ان الاحاسيس التي يشعر بها المتعبد نحو ما يقدهه ويعبده ، احاسيس يكتنفها الخوف والحذر ، بقليل او بكثير . ولكن هذا الخوف ناشىء من الاحترام تجاه المقدس والمعبود . ان اسناد عقيدة الاجداد الى هذا الامر يبدو اكثر انطباقاً على الواقع . ويذكر دركهايم ان الملازيين الذين لا يزالون بدائيين

يعتقدون بأن للانسان روحاً ، وانها تترك الجسد بعد الموت ويعبدون الارواح ، ولكن هذه العبادة ليست كما يتصورها تايلور تشمل كل الارواح . وانما هي خاصة ببعض الارواح ، ويسمي الملازيون الروح الاعتيادية التي تترك الجسد (تندالو - Tindalo) و (نتمات - Natmat) وهي لا تعبد ، اما الارواح التي تعبد فهي التي نعمت بالمانا . ويستبان مما ذكره كودر نغتون بهذا الصدد ان الموت وحده ليس سبب تأليه الارواح . والموت الذي يفرق بين الروح والاشياء غير المقدسة تقريراً تاماً يزيد في قدسية الارواح المقدسة ، ولكنه يمنح القدسية لروح لم تكن مقدسة قبلاً . واذ يحتفل البدائيون بالموتى من الابطال الذين اعترفوا بهم ، فليس سبب ذلك اعتقادهم بأن الموت اسبغ عليهم القدسية بل لانهم اعتقدوا كما اعتقد الملازيون ان ابطالهم نعموا بقوة المانا .

ومما يستحق الانتقاد الشديد في النظرية الروحية ادعاء تايلور ان عبادة الطبيعة نشأت من عبادة الارواح ، وذلك بتعميم فكرة الروح الى الحيوان فالجماد . وزعمه ان البشر البدائي كالطفل يرى سائر الموجودات على مثاله ، فيتصور لها ارواحاً . ولكن زميله ومؤيد نظريته سبنسر اعترض على رأي تايلور هذا . وتساءل « نرى ان القط حينما يلاعب الفأر ويرى انه لا يتحرك مدة طويلة يلكزه بمخبله لكي يحمله على الحركة . ويظهر من ذلك ان القط نفسه يدرك بان الفأر حينما يضطهد يسعى لانقاذ نفسه . واذا كان الحيوان يظهر هذا الادراك فلماذا يحرم الانسان منه مهما كان عريقاً في التوحش ؟ ان الادعاء بان البشر البدائي كان لا يستطيع ان يفرق بين الحيوان والجماد ، ثم بناء نظرية الانتقال من عبادة الاجداد الى عبادة الطبيعة على هذا الادعاء امر لا ينطبق على العلم (١) » .

ويعلل سبنسر عبادة الطبيعة الى سبب آخر سنشير إليه حين البحث عن نقد النظرية الطبيعية . ولكي يسفه رأي تايلور بتعميم فكرة الروح الى الجماد

ويستشهد دركهائيم باعتراض سبنسر ويؤكد بان للانسان الوعي الكافي للتفريق بين الحيوان والجماد والطفل يغضب على العوبته (دميته) ويضرها او حيناً يسب المنضدة لأنها صدمته وآلمته فانه لا يفعل ذلك لانه يتصور بانها حيوان بل لأن الغضب والألم حركا عقله الباطن ففعل ذلك وكذلك حين يلاعب الطفل العوبته ويخاطبها يتخيل انه يرى فيها شخصاً حياً ليكون لعبه جدياً واخيراً اذا كان الانسان البدائي يرى كل شيء على مثاله . فينبغي له ان يجعل الموجودات المقدسة على صورته . بينما نرى الاقوام البدائية صورت الموجودات المقدسة بصورة حيوانية ونباتية ، ولم تصور الآلهة شبيهة بها الا بعد ان ارتفعت كثيراً في سلم الادراك .

ثانياً -- نقد نظرية الطبيعة

لقد فقدت نظرية الطبيعة مقامها منذ امد بعيد ، بعد ان كان لها شأن في النصف الاخير من القرن الماضي حين هذا العلماء حذو ماكس مولر في دراسة الاساطير الآرية في الهند وايران واوروبا ، يقارنون بينها ويرجعون اسماء الآلهة الواردة في اناشيد الفيدا الى مظهر من مظاهر الطبيعة العظمى . ولما وضع تايلور نظريته في الروحية وتقبلها عدد كبير من مؤرخي الاديان بعد ان تبين لهم ان المواد التي بنيت عليها رصينة ، تؤيد ان الروحية سبقت الطبيعة اخذت نظرية ماكس مولر تتلاشى الى ان فقدت مركزها .

استند مولر في نظرياته الى اللغة ، وزعم ان الاسماء المجازية انقلبت بمرور الزمن الى اسماء حقيقية مما حمل الجماعات الاولى على الاعتقاد بان المظاهر الطبيعية ارواح ينبغي عبادتها والتقرب اليها ، ولكن العلماء مع اعترافهم بان الطبيعة استلقت انظار البشر البدائي وان المظاهر الطبيعية ارواح ينبغي عبادتها والتقرب اليها فانهم لا يقرون ان البشر عبد مظاهر الطبيعة نتيجة خطأ نشأ من اسم مجازي الى اسم حقيقي . وكان دركهائيم من أشد المعارضين لهذه النظرية وقال : « ان مسألة اللغة ما تزال موضع بحث علماء اللغات وتنقيهم ومناقشاتهم اما ان البشر الاول احترم مظاهر الكون وتهيبها فلا شك في ذلك . غير ان

تعليل ما كس مولر تأليه البشر لمظاهر المذكورة ومحاوله وصفها بالادوصاف البشرية غامضاً ولا يشفي غليلاً ، ذلك انه اعتمد على الاسماء الإلهية المسطورة في كتب الفيذا ، وزعم انها تمثل مظاهر الطبيعة في حين ان البحوث المتأخرة اظهرت ان اكثر تلك الآلهة لا يمثلون مظاهر الطبيعة . ومع ان البشر الاول نظر الى حادثات الكون وعمد الى تفههما ، الا انه اهتم قبل كل شيء بالمواد النافعة له كالماء والبناء والنار وسعى للاستفادة منها قبل ان ينظر في الاسباب التي احدثتها .

ويتساءل دركهام هل يمكن ان تدوم نظرية الطبيعة زمناً طويلاً ؟ صحيح ان الجماعات الاولى نظرت الى حوادث الكون كمجموع من الخوارق ، ولكن هذا النظر لم يدم زمناً طويلاً لأن البشر ادرك مع الايام ان هذه الحوادث امور معتادة تتعاقب في الوانها وعلى نمط واحد ، فالشمس تطلع في كل يوم صباحاً وتغيب مساء . والقمر يبزغ في الليل فيهل ويبدر ثم يعود ، والأهوار تفيض في موسم ذوبان الثلوج ونزول الامطار الكثيرة . ويجوز ان الجماعات الاولى وقفت امام المظاهر الكونية خاشعة متهيبية ، فقربت لها القرايين وتوسلت بها والتمست العون منها بالندور . ولكن عندما اتسع ادراك البشر وفهمه اتضح له دون شك ان القرايين والندور في أغلب الأوقات لا تجدي نفعاً ، وان نفعت فمن المصادفات . فلماذا لم يحصل المطلوب في الأحيان الأخرى ولم يستجب للدعاء ؟ ولو حصل الشك تهاوت العقيدة الدينية عند البشر الأول ، مع اننا نرى تمسك البشر بعري الدين مع تحضره ورقيه . بل ان عبدة الطبيعة ما زالوا موجودين حتى يومنا هذا رغم الفشل المتكرر لتوسلاتهم وقربانهم وندورهم ، ما يزالون يلتمسون العون من الشمس والقمر والنجوم والنار ، ويتوقون شر العواصف والصواعق . ولا ينكر ان الشعوب تحطىء وتسير على الخطأ ولكنها لا تستمر على الخطأ زمناً طويلاً ، لأن غرض الانسان من الاعتقاد الانتفاع والاستفادة ، فلا يصح على اعتقاده إذا كان لا ينال مراداً . وفي هذا الصدد يقول دركهام : « اما ان البشر اهتم بمعرفة الطبيعة التي تحيط به وفكر

فيها فأمر يقبله كل أحد دون جدل ، وبما ان أمور الطبيعة التي يتصل بها مباشرة يحتاج الى مساعدتها بالحاج فكان من الطبيعي أن يحاول الانسان فهم ماهية تلك الأمور . إلا انه إذا كانت الفكرة الدينية نشأت من تلك الملاحظات ، كما يدعي أنصار النظرية الطبيعية ، فان مما يحير العقل ان يظل مفعول تلك الملاحظات سارياً باصرار بعد ان حاولت ايضاح امور الطبيعة لأول مرة . ان حاجتنا لمعرفة شؤون الكائنات تبدو ملحّة لكي نستطيع ان نعمل كما ينبغي لنا ان نعمل ، بينما الأمر على عكس ذلك ، لأن الافكار التي ألهمها الدين ، ولا سيما في مهد نشأته ، كانت جداً معقدة وغامضة ، ولا تلهم مبادئ وأعمالاً تفيد الانسان في حياته الجسدية ، وكما ان المحيطة الدينية اعتبرت حادثات الكون مخلوقات حية ومفكرة ولها شعور وشخصية فقد اعتبرت الاشياء والموجودات كذلك ايضاً . ولم تكن الصلاة والصيام والشعائر والقرايين والرياضات لتفيده من منع الموجودات من اضراره أو اجبارها على ان تحترم رغباته . ولم يكن هذا التعبد ليحقق الغرض إلا في حالات نادرة جداً وذلك من قبيل المعجزات .

وإذا كان الدين هو الذي ينير لنا الطريق في علاقاتنا بالكون ، فالدين بالصورة التي بينوها لم يكن ليستطيع ان يؤدي ذلك الغرض . ولا يمكن ان تتأخر الشعوب في معرفة ذلك لأن كثرة الفشل في تجربة الحوادث لا بد انها نبهت الناس الى انهم سائرون في طريق خاطيء ، ولا يستطيع الدين ان يبقى ثابت الأركان وقد تضععت أركانه بالتكذيبات المتكررة» (١) .

علل سبنسر انتقال البدائيين من عبادة الأرواح الى عبادة الطبيعة وقال : « يشاهد ان البدائيين يحترمون الحيوانات التي تجوب في المقابر وحول المساكن ، ويتصورون بأن أرواح الموجودات حلت بها . ان هذا الاقتناع كان فيما بعد أحد العوامل التي أدت الى عبادة الطبيعة . ويشاهد ان بعض القبائل تعبد الجبال والأحجار . وليس من شك في ان هذا الطور من التعبّد ناشيء من ان

١ - دركهام . الاشكال الاولية للحياة الدينية .

الناس تصوروا ان الجبل الذي اعتبروه بموجب تقاليدهم القديمة جدم الأعلى تناسلوا من صلبه ، ولهذا أخذوا يعبدونه كما يعبدون أجدادهم » .
ومن المفيد الاشارة الى ان سينسر لم يستند الى هذا التعليل وحده لايضاح انتقال عبادة الأجداد الى عبادة الطبيعة ، بل يذكر سبباً آخر لذلك ، ويدعي ان العامل الحقيقي لعبادة الطبيعة هو الاسماء التي كانت مجازاً ثم أصبح البدائي يعتبرها حقيقة . ولكن دركهايم يعترض على هذا الرأي ايضاً .
وأخيراً ، هل أيدت الأساطير تأثير الآلهة ونفوذها ؟

ان أنصار الطبيعة استخرجوا دلائل نظريتهم من الأساطير التي مثلت مظاهر الطبيعة ، فاصبحت الهة ذات حول وطول . ولكننا اذا درسنا الاساطير درساً عميقاً نراها تعزو الى بعض الآلهة افعالاً ذميمة يستحيل صدورها من إله متعال . فقد نسبت الى بعض الآلهة الجرائم واعتبرت البعض منها رجالاً مخدوعين بازواجهم وزعمت ان من الآلهة من قتل ولده غيرة ومن خدع ابنته ففض بكارتها . . . الخ وتبين لماكس مولر ان نظريته من هذه الناحية قد تكون عرضة للنقد والتفنيد بين الدين والاساطير . وذكر ان اليونان القدماء يعتقدون ان الههم (زفس) هو منشئ وحامي الشرائع والمنتقم من الجناة . اعتبر هذا الاعتقاد من الدين وقال : واما معتقدهم بسيرة زفس وبزواجه وبالاعمال التي اجراها اولاده الخ . . فمن الأساطير التي جاءت بعد الدين . ولكن لو كان البحث في دين متكامل لصحت دعوى مولر ، ولكن الأساطير في الأديان البدائية من أهم عناصرها . فاذا ما فصلناها عن الدين فكأنما أخرجنا الطقوس الدينية من الدين لأن أكثر الطقوس والشعائر الدينية مستنبطة من الأساطير .
وبعد هل عبدت الشعوب البدائية حقاً مظاهر الطبيعة ؟

ان أهم اعتراض وجهه دركهايم الى نظرية الطبيعة هو ان الشعوب البدائية الحالية كشعوب امريكا الاصليين واستراليا لا يعبدون المظاهر العظمى للطبيعة كالشمس والقمر والسماء والجبال والبحار ، بل يعبدون بعض الحيوانات الحقيرة كالضفدع والارنب وسام ابرص . واما الذين يعبدون المظاهر الطبيعية الخفية

والعظيمة فهم الراقون في سلم الحضارة من شعوب امريكا القديمة كالمكسيكيين والبرويين والهنود واليونان والرومان ، وحتى ان عبدة الكواكب فهم من المتقدمين في الحضارة بالنظر الى الاقوام البدائية الحالية . فلو كانت المظاهر الطبيعية أول من نبه البشر الى عبادتها لكانت الجماعات الاولى اول من عبدها واحتفظ بعبادتها . وهذا دليل آخر على تهاافت النظرية أمام النقد والواقع .

ثالثاً - تنفيذ نظرية الطوطمية :

اعتبر اميل دُر كهايم الطوطمية الدين البدائي وادعى بان الاديان البدائية الاخرى نشأت منها ، واستند في بحثه الى الناحية الاجتماعية . ومع ان دراسته تمتاز بالاصالة وفيها بعض الحقائق الا انها لم تسلم من الانتقادات . ورغم ان بعض مؤرخي الاديان يعتبرون الطوطمية ديناً فما يزال البعض منهم يعتبرها نظاماً اجتماعياً . ومن هؤلاء المؤرخ الديني الاستاذ تانان سوندر بلوم الذي قال : « ليست الطوطمية بحد ذاتها ديناً ولكنها ضرب من التنظيمات الاجتماعية . والفرق بين الطوطمية وعبادة الحيوانات واضح بل الواضح . فالاولى تتناول كل نوع من انواع الحيوانات حتى اكثرها تفاهة ، كالفأر والارنب والبط والغراب والحمام والفراش واطراف الحيوان ... اما عبادة الحيوانات فالامر على نقيض ذلك لأن العبادة تتناول موضوع حيوانات تتميز بمنفعتها وبالفتها كالحوانات الاهلية او بقوتها وبطابعها السري لصلتها بالجثث والقبور كالذودة والحية ... الخ » (١) .

ويصر در كهايم على ان الطوطمية دين . ويذكر ان جميع العقائد التي عرضها في توضيحه لفكرة الطوطمية عقائد دينية . انها تتضمن تقسيم الاشياء الى مقدس وغير مقدس ، ولأن العنصر الوحيد الذي يشترك حقاً بين جميع الاديان هو معنى المقدس ، ويقول : تقوم جميع العقائد الدينية المعروفة على اساس تصنيف الاشياء الى صنفين في نوعين متضادين ، يدل عليها بوجه عام مصطلحان مختلفان وهما

١ - مختصر تاريخ الاديان :

اللذان تعبر عنها بدقة كافية كلمتا (قدسي) و (دثيوي) - بمعنى يدئس
المقدس - ويجب الا نفهم من الاشياء المقدسة مجرد هذه الكائنات الشخصية التي
يطلق عليها اسم الالهة او الارواح . وقد تكون صخرة ما او شجرة ما او
منبع ماء او مجرى ماء او قطعة ما من الحشب او منزلاً أو شيئاً مقدساً . وقد
يكون لطقس من الطقوس هذا الطابع او في بعض الكلمات او الكلام او الصيغ
ذلك الطابع (١) .

وجاء في كتاب نشأة الدين ما يلي :

« حقاً ان در كهيم لم يذكر حين عرضه للطوطمية ما تعوده الباحثون من
اصل الاديان من موجودات روحية كالنفوس والقرائن والاشخاص الالهية وهذا
ما دعا كثيرين الى ان ينكروا دينية الطوطمية ، ويرى در كهيم في ذلك خطأ
شديداً . لأن هؤلاء الباحثين لم يفهموا فهماً واضحاً معنى الظاهرة الدينية . ان
الطوطمية هي اقدم الاديان اطلاقاً ، انها متصلة او ترق الاتصال بالتكوين الاجتماعي
للعشائر - اي بالتكوين الاجتماعي الذي تكون العشيرة اساسه - ونحن لا يمكننا
ان نحذره فحسب بان الطوطم لا يقوم بعمله ولا يتضح الا في العشيرة . ان
در كهيم يذهب الى ان العشيرة - في ابسط صورها - وهي الصورة الاسترالية
لا يمكن ان توجد بدون الطوطم . ان افراد العشيرة لا يجتمعون ولا يتصلون
ولا يكونون عشيرة على اساس المعاشرة او السكن او الدم ، ذلك لانهم ليس
بالضرورة يعيشون في مكان واحد او في عصب واحد ، انما قد يكونون متفرقين
في نطاق القبيلة . فوحدتهم انما في اشتراكهم في اسم او في رمز ، او بما لهم من
نفس العلاقات بمجموعة معينة من الاشياء او بمعنى ادق من انهم يزاولون عبادة
طوطمية واحدة . فالطوطمية والعشيرة يمتزجان امتزاجاً تاماً ، ولا توجد واحدة
بدون الاخرى . ومن المعلوم ان التكوين الاجتماعي على اساس العشائر هو ابسط
نظام اجتماعي ، ولم يكشف نظام آخر اقدم منه الى الآن ، وعلى هذا فالطوطمية

التي تتصل بهذا النظام هي اقدم دين من الاديان .

وهاجم نظرية الطوطمية الاستاذ تايلور وأيده في هذا الهجوم الاستاذ ويلكن وفيما يلي ما ذكره تايلور في الجزء الثاني من كتابه الحضارة البدائية : « ان منشأ الطوطمية يدخل طبعاً في مجال علم الاساطير ، بينما التقسيمات الاجتماعية وترتيبات الزواج والعادات التي تخص الطوطمية تؤلف جزءاً مهماً جداً من قوانين وعرف البشرية التي بلغت حداً من الحضارة . ولكن الطوطمية لا تهم الدين الا من ناحية الحيوانات وغيرها ، حامية العشائر بوصفها موضوع احتفالات دينية او انها تعتبر بمثابة آلهة . ويبدو ان هذه الحالة عرفت الى حد ما عند قبيلة الالجونيك الامريكية الاهلية - وهي القبيلة التي شاع بينها تعبير الطوطم - وفي الحقيقة ان بعض الروايات تجعلنا نتصور ان هذه القبائل تعتبر الطوطم مادة مقدسة او حامي الاسرة التي تحمل اسمه ورمزها . هذه هي الحالة في بعض القبائل الاسترالية ان للاسر (كوپونغ - Kopong) اي صديق او حامي حيوان او نبات ، او محل غيبي يستقر في كل عضو من اعضاء الاسرة وفي الحيوان وفي النبات ، ويتحتم على عضو الاسرة الا يقتل ايا من حيوانات هذا النوع لأنه اذا فعل ذلك كأنما قتل حاميها بالذات ، واذا كان كوپونغ نباتاً فلا ينبغي قلعه . وبعد ان يسرد تايلور امثلة من هذا الطراز في افريقيا وآسيا يقول : « يبدو ان هذه الحوادث لا تبين حالة خاصة عارضة فحسب بل مبدأ اكثر انتشاراً وعمماً لدى الشعوب المتوحشة . وكان ماك كنان قد اوضح في مذكرة قيمة ان عبادة الحيوانات - العبادة الواسعة الانتشار في العالم - ترجع الى مبدأ الوراثة مفترضاً ان فكرة الطوطم انتشرت في العالم اجمع في فترة من فترات الحضارة . واذا قبلت هذه الفرضية بقليل او بكثير يجب حينئذ التساؤل ما هو منشأ الطوطمية ويبدو ان السرجون لوبوك وسبنسر قد سلما بالفرضية التي ترجع الطوطمية الى العادة - التي شاعت دون شك شيوعاً كبيراً - وذلك بتسمية الافراد باسم احد الحيوانات كالذب والوعل الاغبر والنسر . الخ بحيث اصبحت هذه الاسماء في بعض الحالات اسماء للقبيلة . ويقتضي والحالة هذه ان نسلم بان العناوين

الشخصية المذكورة يمكن ان تنقلب الى اسماء الاسرة ، وانه من المحتمل ايضاً ان تلك الاسماء قد تولد ، بواسطة الاساطير فكرة تسلسل الاسرات من صلب الحيوانات التي حملت اسمها ، ويجوز ايضاً ان الفكرة المذكورة ساعدت على اختلاق الاساطير الخاصة بالحوادث العجيبة من مآتي البطولة التي قامت بها الحيوانات شبه البشرية التي تسمى بها الاجداد . وفضلاً عن ذلك فان بمرور الزمن لم يعد يميز بين الجد والحيوان الذي تسمى باسمه ، ومن ثم احترم الحيوان ذاته الامر الذي يبين بوضوح عبادة الحيوانات . ومن الواضح ان الامر في بعض الحالات تم على هذه الصورة . وان المثال الذي اتخذته بعض الاسرات جعل الاخريات تحذو حذوها ، فنتج من ذلك ان انقسم الشعب الى عدة عشائر ارجعت اصولها الى حيوان خرافي . وينهي تايلور بحثه عن الطوطمية بما يلي :

« ان الاسباب الثلاثة لعبادة الحيوانات التي سبق ان أشرنا اليها ، أي عبادة الحيوان بصورة مباشرة ولذاته ، والعبادة التي توجه إليه لأنه اعتبر متمصاً ثمة روحاً ، والاحترام الذي يوجه اليه بوصفه طوطماً او ممثلاً الاجداد الامر الذي يبين دون شك وفي نطاق واسع ، ظاهرة عبادة الحيوانات لدى الشعوب المنحطة ، على انه ينبغي الا يغيب عن البال المؤثرات العديدة للخرافة وللرمز اللذين شاهدنا نفوذهما جلياً في كل محل » (١) .

وكنا أشرنا قبلاً الى ما اورده تايلور من آراء بشأن انقلاب روح البشر الى ارواح الحيوانات عند شرحنا لنظريته في الروحية اذ بين كيف تتقمص الروح بعد الموت من جديد ، وكيف انها تظهر هيئة طير او سمك او حيوانات اخرى .

وادعى تايلور - وايده ويلكن - ان الطوطمية ما هي الا ضرب خاص من عبادة الاجداد ، لأن مذهب انتقال الارواح من موجود الى موجود آخر المنتشر انتشاراً واسعاً يؤلف حداً فاصلاً بين عبادة الاجداد والطوطمية . ان كثيراً من الشعوب تعتقد بان الروح لا تحرم من الجسد الى ابد الأبد ، بل انها تحل جسداً

آخر فتمنحه الحياة. ومن ناحية أخرى يقول تايلور: «ان سيكولوجية الشعوب المنحطة تسلم دون صعوبة بإمكان انتقال روح البشر الى اجساد الحيوانات لانها لا تستطيع ان ترسم خطأ فاصلاً جلياً بين ارواح البشر وارواح الحيوانات». وبعد ان يسرد تايلور امثلة لذلك يضيف قائلاً: ان ما لفته الجد لاختلافه من احترام ديني نحوه يسري بطبيعة الحال الى الحيوان او النبات الذي اصبح ممتزجاً به. ان الحيوان الذي استقر به ذلك الكائن المحترم (الجد) يصبح شيئاً قدسياً وموضوع عبادة ، وبالتالي طوطماً لجميع اخلاف ذلك الجد ، اي للعشيرة التي خرجت من صلبه ولا ريب في ان العشيرة التي كانت تعبد ارواح اجدادها تعبد بسهولة الحيوان الذي حلت فيه تلك الروح . وهذا ما جعل افراد العشيرة يعتقدون بان ذلك الحيوان من قرابتهم لأن روح جدهم حلت فيه .

وما يؤيد هذا الرأي - حسباً ذكر ويلكن - ان الجماعات الممازية في جاوه وسومطرة تقدر التمساح وتعده حامياً لها ، فتتقرب اليه بالنذور والقربان وتحرم قتله ، اما الممازيون في الفلبين فيعتقدون بان التمساح جدهم . ومثل هذا الاعتقاد شائع بين سائر الاقوام الممازية ، فان احدهم مات يتوقع ان تحل روحه في احد الحيوانات او احد النباتات ، فتقدسه . ويحدث في ملائزمية ان يرغب احد الوجهاء قبل موته في ان يصبح الحيوان الفلاني او النبات الفلاني . فيصبح المقر الذي استقر فيه بعد موته في نظر اسرته من المقدسات .

ويتفق (وندت - Wundt) مع تايلور في رأيه من حيث المبدأ . ولكنه يبين العلاقة بين الحيوان والانسان بالصورة الآتية : ان البدائين حين يرون الجثة تفسخت وظهر منها الدود يظنون ان الروح حلت في هذا الدود والسحالي وغيرها من الزواحف . وهذا هو سبب اتخاذ الطوطمين تلك الحيوانات طواطم لهم .

واما (جيفونس - Jevons) فقد خالف دركهايم في استنتاجاته وادعى ان الطوطمية ناشئة من عبادة الطبيعة ويؤيد دعواه كما يلي : لا شك في ان البشر البدائي وقف مندهشاً محتاراً امام خوارق الطبيعة وتصور ان العالم مملوء

بوجودات خارقة تحيطه من كل جانب وهو معرض لنقمتها واضرارها لهذا لم ير بدأ من ان يتفق مع بعض الموجودات الكونية ليأمن شرها ويكافح الاخرى . وشاهد ان افراد العشيرة يساعد بعضهم بعضاً لأنهم اقارب ، فأراد ان يتقرب الى بعض الموجودات لتساعده على مكافحة الموجودات المعارضة له اسوة بافراد العشيرة الذين يساعد بعضهم بعضاً ، ولم يشأ ان يحالف وحده تلك الموجودات لهذا تم الحلف بين العشيرة وبين نوع من انواع الموجودات من حيوان ونبات وجماد . فكما انه جزء من اجزاء العشيرة ، فالموجود الذي يتفق معه ايضاً يكون جزءاً من اجزاء النوع الذي ينتسب اليه . وهكذا تأسست الصلة القوية بين العشيرة وبين نوع من انواع الحيوانات والنبات التي تكون عادة ضمن منطقة تلك العشيرة (١) .

وعارض فريزر ، وهو من مؤيدي النظرية الروحية ، دُر كهاميم وادعى ان الطوطمية ليست ديناً بل هي نظام اجتماعي لا صلة للدين به . وقد اعتمد في رأيه على الحالة الاجتماعية في قبائل ارونوتا ، وهي من احط القبائل الاسترالية ادراكاً واقدمها في اوضاعها الطوطمية ، ووضح ان الطوطمية في قبائل ارونوتا محلية ، اي ان كل قبيلة او عشيرة تقدرس المحل الذي تسكن فيه ، فتحترمه وتبجله وتخفي المواد المقدسة فيه ، وتقيم الاحتفالات الدينية حوله . وتسمى العشائر باسم المحلات التي تقطن فيها . وعند الارونوتيين لا يكتسب افراد العشيرة طوطمهم من الاب والام لأنهم لا يعتقدون بان ولادة الطفل تتم بالاتصال بين الزوجين بل بجلول روح من ارواح الاجداد في جسد المرأة ، فاذا أحست المرأة بحركة الجنين في بطنها ايقنت بان روحاً من ارواح الاجداد الساكنة في المحل الذي تحرك فيه الجنين قد تجسد فيها . وفي هذه الحالة يتخذ الطفل المحل الذي تحرك فيه - عندما كان جنيناً - وطناً له يحترمه ويقدره . لهذا يرى فريزر ان وضع الطوطمية البدائي هو الطوطمية المحلية ، وقد تشعبت اوضاع

١ - جيفونس : مدخل الى تاريخ الاديان :

Jevons : Introduction to the History of Religion.

الطوطمية الأخرى منها ، ويكتسب الشخص الطوطم عند حمل أمه به ، وإذا كانت الحامل - عند حركة الجنين في بطنها - قريبة من شجرة أو رأّت حيواناً مر امامها فانها تظن ان روح الشجرة أو الحيوان حلت فيها . وإذا كانت تأكل طعاماً حسبته نشأ من ذلك الطعام . وهكذا يعتقد المولود ان ذلك الحيوان أو النبات أو الطعام من ذوي قرابته ، فيحترمه ويحرم عليه أكله ويميل اليه كل الميل . ويؤيد فريزر رأيه بما يلي : لنفرض ان عدة نسوة حملن في محل واحد وفي ظروف واحدة . وقد احست كل منهن بالحمل في المحل عينه ، فلا شك في انهن يعتقدن بان ذلك المحل مستقر الأرواح . وبمثل ذلك تتأيد القناعة مع الأيام ، فيكون ذلك المحل طوطماً للعشيرة التي سكنته ، وهكذا صار لكل عشيرة من عشائر ارونتا طوطماً محلياً .

وادعى فريزر ان اتخاذ البشر طوطماً شخصياً له ، لم يكن سوى خدعة حربية تخيلها الرجل البدائي ، اذ من معتقدات البدائي ان الضرورات تقضي في التهلكة ان يخرج الانسان روحه ويحفظها في محل امين لان الجماعات المنحطة تعتقد بان الروح باستطاعتها ان تترك الجسد من دون ان يصاب الانسان باذى وان الروح مهما كانت بعيدة عن الجسد فانها تقيض الحياة عليه . لهذا ينبغي محافظة الروح في وقت الشدة . وتستعمل تلك الجماعات بعض الطرق لاجراج الروح من الجسد بغية انقاذها من خطر حقيقي أو خيالي ، واذا اراد اصحاب الدار الذين شيدوه حديثاً الدخول لأول مرة فيه ، فان ساحر العشيرة يجري بعض الطقوس لاجراج ارواح اصحاب الدار ووضعها في كيس لمدة مؤقتة . فاذا قفز اصحاب الدار عن عتبة الدار ودخلوها ، يعيد الساحر حينئذ الأرواح الى اصحابها . وسبب ذلك اعتقادهم بان الأرواح الساكنة في العتبة أو ارض الدار قد تغضب على اصحاب الدار فتصيبهم بالاضرار ، ولهذا يجب استرضاءها . وما دام اصحاب الدار دخلوها وكانت ارواحهم في مأمن فانهم بعد دخولها لا يصيبهم سوء من غضب الأرواح الساكنة في عتبة الدار وارضها . وبما ان هذا الاعتقاد قد تأصل عند البدائين فقد

فكروا في ملجأ تلجأ اليه ارواحهم في الحروب وقد ولد هذا التفكير الطوطم الشخصي . وكذلك رأى البدائيون انه من المعقول ان يحدوا في بعض انواع الحيوانات والنباتات ملجأ يحفظون به ارواحهم ليحموها من رقى الساحرين وعزائمهم . وبعد ان رسخت هذه العقيدة اخذ كل فرد يحدد رابطة متينة بينه وبين الحيوان والنبات الذي ظن انه اصبح ملجأه . وكان من نتيجة ذلك ان اخذ هذان الموجودان المتساندان يعتبران نفسها شيئين لا يكادان يتمايزان ويظنان انها يشتركان في خصائصها . وهكذا يستنتج فريزر ان الطوطم الشخصي يسبق طوطم العشيرة اي ان الاخير نشأ من الاول ، اما سبب اتخاذ الشخص طوطما له فلحماية روحه من جهة ولتحالفه مع نوع من الحيوانات من جهة اخرى . وبذلك يرى ان الطوطمية متفرعة من الروحية .

وينضم لانج الى معارضي دركهايم ، ويدعي ان الطوطم محرف من الاسم الذي امتازت به العشيرة ، فالجماعات الاولى ارادت ان يمتاز بعضها عن بعض فاطلقت عليها اسماء الموجودات القريبة منها . فتسمت احداها باسم حيوان والاخرى باسم نبات او اسم جماد . وتأسست بهذه التسمية علاقة خفية بين الجماعة والاسم الى ان ترك الناس الاسم وتمسكوا بالمسمى وظنوا انهم اتصفوا بصفاته وتخلقوا باخلاقه واعتبروه ذا قرابة منهم . وهكذا صار الحيوان او النبات طوطما . وينكر لانج كفريرز دينية الطوطمية ويرى ان ما يشاهد فيها من عقائد واعمالاً دينية ليست ناشئة من الطوطمية ذاتها ، بل ناشئة من احتكاك الطوطمية بدين اخر . وكان البدائيون على رأي لانج يرون ان هناك رابطة غيبية ولاهوتية تربط الاسماء بدلولها من الموجودات مثال ذلك ان الاسم الذي يتسمى به شخص ما لا يعتبر انه مجرد لقب عادي وكلمة بل جزءاً اساسياً من الشخص لهذا فاذا كان الاسم اسم حيوان يعتقد بان حامل الاسم يتصف بالصفات المميزة لذلك الحيوان . وكلما كانت التسمية قديمة تأصلت تلك العقيدة وانتشرت فتنشئ اساطير وتروج قصص تؤيد الصلات المتينة بين الناس وبين الحيوانات التي تسموا باسمها وتزيد من قوة تلك العقيدة . ولاجل ايضاح تلك الاساطير والقصص

تتصور الجماعة التي تتسمى باسم حيوان ما ان جدها هو ذلك الحيوان وبذلك يعتقد الناس بالقرابة التي افترضوا وجودها بين العشيرة التي تحمل الاسم وبين نوع الحيوان او نوع النبات .

اما الاستاذ (لويه-Lowie) وكان من اعنف الناقدين لرأي تايلور وفريزر فقد هاجم دركهايم ايضاً هجوماً عنيفاً ورأى ان خطأ دركهايم الرئيسي هو اعتباره قبائل الاروتتا اقدم الأجناس البشرية وغفلته عن كثير من الحقائق التي تقرر ان الاروتتا هي من احدث القبائل اما الاجناس البدائية حقاً فهم سكان جزر اندمان و (السمانغ - Semang) في غينيه الجديدة والبفوستو وهؤلاء لا يعرفون شيئاً عن الطوطمية .

وقد رد دركهايم على الانتقادات السابقة فذكر بصدد لا دينية الطوطمية ان الطوطمية كسائر الاديان تصنف الاشياء الى صنفين : مقدس وغير مقدس وهذا التصنيف وحده يعطي للطوطمية صفة الدين . ويعطيها هذه الصفة كذلك كونها تنطوي على محرمات ومحلات وبصدد ادعاء تايلور وديكن بان الطوطمية تشعبت من عبادة الاجداد مستنديين الى تحريم المالزين الفليبيين لبعض الحيوانات باعتبارها اجدادهم الاولين ، وان الطوطمية نشأت من دين اكثر تعقيداً واهماً ذلك الرأي الذي ايده وندت ايضاً قال دركهايم : ان ويلكن استند في رأيه الى وقائع اقتبسها من جماعات بلغت الى حد ما درجة عالية من الحضارة ولا بد من انها قد اجتازت مرحلة الطوطمية وليست تلك الجماعات المتقدمة من العشائر الطوطمية وانما تتألف من الاسرات . ان اكثر الحيوانات التي يكن الناس لها الاحترام لا تقدسها الاسرات انما تقدسها القبائل . لهذا فان معتقداتها وطقوسها رغم انها لا تخلو من صلة بالعبادات الطوطمية - فانها تعكس صورة مغلوطة من تلك العبادات . واذا اريد معرفة كيف تكونت الطوطمية فينبغي دراستها في استراليا لا في جاوه وسومطره او ملائيزيه . ان عبادة الاجداد وفكرة انتقال الارواح لا توجد في استراليا . صحيح ان هناك اعتقاداً يزعم ان الابطال الحرافيين من مؤسسي العشيرة يتقمصون لمدة موقته في جسد جد ولكن ارواحهم لا تحل الا في اجساد البشر .

وإذا كان الناس في استراليا يقومون باحتفالات دينية للحيوان الطوطم فإن هذه الاحتفالات لا تستند الى الاعتقاد بان ارواح الاجداد حلت في ذلك الحيوان لان العشائر الاسترالية لا تعتقد بذلك ، وصحيح ايضاً ان الناس في استراليا كثيراً ما يتصورون الاجداد الاولين بهيئة حيوانات ولكن هذا التصور لم ينشأ من عقيدة التقمص لانه لا يوجد في الجماعات الاسترالية اثر لفكرة التقمص ، وفضلاً عن ذلك فان عقيدة التقمص لا توضح الطوطمية . وبدون أسس الطوطمية يتعذر اثبات عقيدة التقمص ، ان فكرة الطوطمية سبقت فكرة التقمص التي اقترتها الشعوب المتقدمة في الحضارة بعض التقدم ، وان التقمص هو الذي نشأ من الطوطمية .

وناقش دركهام قول تايلور ان الطوطمية نوع من عبادة الاجداد فقال : « ان البدائي الذي انتبه الى كثير من التشابه بينه وبين الحيوان ، نظر الى افعال الحيوان وخصائصه من الزاوية البشرية . وبذلك تصور ان الحيوان يتصف بالواصف البشرية وانه صورته المتجسدة . ترى حينما يطلق اسم الاسد والثعلب والافعى والبيغاء والبومة على بعض الناس ، الا يعني ذلك تعبيراً عن بعض خصائص الحياة البشرية ؟ . ويقول انه اذا وجد بعض التشابه بين افعال الحيوان وخصائصه وبين الانسان فان ذلك التشابه مبهم واستثنائي . والانسان يشبه قبل كل شيء اقاربه واصدقاءه ولا يشبه الحيوانات والنباتات . وينسب الخطأ الى تايلور ووندت بادعائهما ان الطوطمية شكل من اشكال عبادة الحيوانات ، بينما تختلف الطوطمية كل الاختلاف عن عبادة الحيوانات ، لان الحيوان ذاته لا يعبد في الطوطمية . ولو اعتقد الناس بان ارواح الاجداد حلت حقاً في الحيوانات الطواطم لما وافقوا على ان تأكل العشائر الاخرى لحوم تلك الحيوانات . وبينما تجري الاحتفالات وتوجه العبادة عند عبادة الحيوانات الى الحيوان المعبود حصراً ، فإن الطوطميين لا يجرون الاحتفالات ويقومون بالعبادة باسم الحيوان الطوطم بل يقومون بها باسم التمثال . والحقيقة لا توجد اية علاقة بين هذا التمثال الديني وبين عبادة الحيوانات او عبادة الاجداد .

ويعترض كذلك در كهايم على رأي جيفونس القائل ان الطوطمية نشأت من فكرة التحالف بين العشيرة وقوى الطبيعة كما وجدت العلاقة والقرابة والتعاون بين افراد العشيرة ، فكما ان القرابة دفعت افراد العشيرة الى التعاون فكذلك تعاقدت العشيرة بغية الاستعانة بالقوى الطبيعية مع نوع من موجودات الطبيعة . ويحيب در كهايم على ذلك بان الطوطمية تستلزم حقاً مشاركة متينة بين العشيرة وبين نوع معين من الموجودات ولكن الصورة التي صور جيفونس بها الطوطمية لا تنطبق على اخبار التاريخ . فالاديان من اشد الامور تعقيداً وارتباكاً ، وهي حصيلة حاجات شديدة الغموض والتنوع لهذا ليس صحيحاً ان تنشأ الاديان بفعل الارادة . والدين ينشأ نشأة طبيعية من قلب العشيرة . اي من قلب الجماعة وبوحي من مصلحتها . كما ان جيفونس زعم ان البشر البدائي حاول ان يتمتع بعبادة الموجودات الخارقة . فاذا كان الامر حقاً فكان ينبغي على البدائي ان يضمن هذا التعاون بالتحالف مع اقوى الموجودات وان يطلب الحماية ممن يستطيع ان يقدم له اقواها وامتنها ، بينما الواقع ان العشيرة اسست رابطة القرابة مع اضعف الحيوانات واحطها باتخاذها طواطم لها ، كما ان هذه الفكرة تفرض على البدائي ان يكثر من عدد حلفائه ، بينما الواقع ان لكل عشيرة طوطماً واحداً اي حامياً واحداً ، ولا تتبنى طوطم عشيرة اخرى .

وفي صدد رأي فريزر يقول در كهايم اننا لا نريد ان نناقش طويلاً نظريته عن الطوطم الشخصي وزعمه ان الشخص يختار الطوطم ليخفي روحه اثناء التهلكة - وعلى رغم انها تراءيان محبوكتين باتقان الا انها لا تستندان الى براهين مقنعة . ولاجل ارجاع الطوطمية الى الوثنية ينبغي ان نثبت بان الوثنية اقدم من الطوطمية ، ولكن المعلومات المتيسرة لدينا تؤيد عكس ذلك . والثابت ان اثار الوثنية ورسومها وجدت لدى الشعوب التي بلغت مرحلة اكثر تقدماً في الحضارة ، وبينما لا توجد الطوطمية الا في العشائر البدائية . مثال ذلك ان الوثنية ليست من الاوضاع الدينية السائدة في استراليا بينما الوثنية توجد في الاغلب في اواسط افريقيا .

صحيح ان بعض العلماء ادعوا ان الشورنجا ما هي الا نوع من الوثن . وحتى لو قبلنا هذا الفرض فانه يؤيد ان الطوطمية خلقت الوثنية . بينما الشورنجا ليست وثناً بل هي تمثال الطوطمية . لانها من حيث اصلها وماهيتها اداة تستعمل في الاحتفالات الطوطمية وان ما اسند الى الشورنجا من خواص ناتج من المعتقد الطوطمي .

ولقد اعتمد فريزر على نظرية واهية حين زعم ان البدائين بحثوا عن ملجأ لارواحهم . ان الوقائع لا تساعد على قبول هذه النظرية ، وليست مختلفة عن القول ان البدائين ظنوا انهم وقوا ارواحهم شر التهلكة بحفظها في محلات مقدسة وامينة ، اذ كيف يصدق انهم اعتقدوا بان ارواحهم بعد ترك اجسادهم ستكون في مأمن اذا انتقلت الى اجساد الحيوانات ، لماذا لا تكون في مأمن وهي في اجسادهم ؟ ولنفرض جدلاً ان الروح لكي تسلم بسهولة من رقيات الساحرين وسحرهم اختلفت في نوع من الحيوان والنبات ، ولكن الا يرد على خاطر البدائين ان الروح باختفائها في الحيوان والنبات ستصبح في متناول الصيادين ؟ فضلاً عن ذلك حتى اذا ضل احدهم او بعضهم واعتقد بصحة ذلك هل يجوز ان يتقبل الشعب باجمعه هذه الضلالة ؟ والحقيقة ان وظيفة الطوطم الشخصي في اكثر الحالات تختلف كثيراً عن الوظائف التي ذكرها فريزر لان الطوطم قبل كل شيء واسطة يتمتع السحرة والمحاربون والصيادون بقدرته الخارقة .

والذي يهنا جداً هو معرفة منشأ طوطم العشيرة . هل هو ناشئ حقاً من الطوطم الشخصي كما ادعى مؤخراً بعض العلماء ؟ ويناقش دركهايم هذا الرأي ويصل في بحثه ونقاشه الى ان الطوطم الشخصي نشأ من طوطم العشيرة من دون اهمال تلك الفروق . في الحقيقة ان طوطم العشيرة يتعين بالولادة ، وبذلك يصبح عنصراً في سجل الشخص المنتمي الى العشيرة ؛ اما الطوطم الشخصي فيكتسبه الشخص في حياته ، ولأجل ان يكتسبه يقتضي اجراء مراسم خاصة بذلك ، فضلاً عن ان تعيين الطوطم الشخصي يتم بانتقال حالة الشخص من الصبا الى المراهقة . واخيراً يذكر دركهايم ان صحة النظرية

القائلة ان طوطم العشيرة نشأ من الطوطم الشخصي تتوقف على ايضاح النقاط التالية :

اولاً - اذا كان الطوطم الشخصي شعاراً خاصاً للشخص ، فينبغي ان نعرف كيف اصبح بعد ذلك طوطماً لكل افراد العشيرة ؟

ثانياً - ان الطوطم الشخصي الذي اقتضى ان يحدث تبديلاً اعظم في بنية الشخص الدينية والحلقية ، كيف امكن ان يكون عاملاً في ذلك التبدل ؟.

ثالثاً - ان التحول الذي تم قبلاً بالاحتفال كيف حدث بعد ذلك من تلقاء نفسه دون ان يكون للارادة البشرية دخل في ذلك ؟ ويدعي دُر كهائم ان النظرية الآتفة الذكر لا يمكن ان توضح هذه النقاط الثلاث الغامضة ، ويضيف قائلاً : اذا كانت الطوطمية الشخصية كما زعموا اول وضع من اوضاع الطوطمية فينبغي ان يشاهد شكلها الكامل والواضح في الجمعيات العريقة في البداوة ، وان تزول كلما تقدمت الجمعيات البشرية في الحضارة شيئاً فشيئاً . بينا الامر على عكس ذلك وعلى الرغم من ان القبائل الاسترالية متأخرة كثيراً عن القبائل الامريكية ، فان الطوطمية العشائرية اكثر انتشاراً في استراليا . والامر البارز في كثير من القبائل الاسترالية هو الطوطمية العشائرية ، اما الطوطمية الشخصية فلا توجد الا في بعض القبائل . والطوطمية العشائرية في امريكا في دور الانقراض ، بينما يلعب الطوطم الشخصي دوراً مهماً عند الامريكيين الاهليين ، مما يدل على ان الطوطمية الشخصية اصبحت حقاً مؤسسة عمومية في امريكا .

وكان فريزر بعد ما نشره سبنسر وجيلكن من مؤلفات قد وضع نظرية اخرى لايضاح الطوطمية ، تعتمد في احكامها على الاوضاع الطوطمية في قبائل ارونتا في استراليا ، وهي كما يدعي فريزر احط القبائل الاسترالية ادراكاً . في رأيه ان الطوطمية لدى هذه القبائل طوطمية محلية ، اي ان الشخص يكتسب طوطمه من المحل الذي يعتقد ان امه حملته فيه ، كأن روح المحل حلت فيه . هكذا يكون المحل المذكور طوطمه . وبما ان الطوطمية المحلية هي الاقدم ،

فيقتضي ان تتشعب منها اوضاع الطوطمية الاخرى . ويتبين من ذلك ان الطوطمية في رأي فريزر نشأت من مفهوم البدائيين للحبل . لهذا سماها فريزر (الطوطمية المحلية) . ويرد در كهيلم على ذلك بأن هذه النظرية كنظرية تايلور تستند الى خطأ . ولأجل ان يتصور الناس ان ارواح البشر هي ارواح حيوانات او نباتات يجب ان يقتنعوا بانهم قد اقتبسوا من العالم الحيواني او العالم النباتي اهم شيء فيها . ان هذا الاقتناع هو احد اسس الطوطمية ، يضاف الى ذلك انه بموجب تعليل فريزر يتعذر جداً دينية الطوطمية لان الاعتقاد المبهم بوجود قرابة غامضة بين الانسان والحيوان لا يكفي وحده لتأسيس طريقة دينية ، ان الجمع بين سلسلتين متباينتين لا يؤدي الى جعل العالم ينقسم الى قسمين : مقدس وغير مقدس . هذا مع العلم ان فريزر ينكر دينية الطوطمية ، ويرى ان الطوطمية ما هي الا نظام سحري . لكن ادعاء فريزر هذا ينافي الحقيقة لأن هناك فروقاً عظيمة بين السحر وبين الدين . والطوطمية نظام ازدادت فيه المواد المقدسة ولهذا السبب فهي دين ، ولأن اي نظام يفرق بين المقدس وغير المقدس هو دين .

ولقد اعتمد فريزر في نظريته على ما نشر من معلومات عن قبائل الاروتنا ووضع نظرية الطوطم المحلي ، بيد ان الدراسات الاخيرة قد دلت على ان الطوطمية لدى قبائل الاروتنا ليست محلية كما يظن . وقد ظهر من دراسات (شولتز - Sehlitze) و (شترهولوف - Strehlow) ان الاروتنين يكتسبون طوطمهم بالارث من الأم ، وظهر ايضاً ان للاروتنين ما عدا الطوطم المحلي اخر ليس له اثر جغرافي ، ينتقل بالوراثة والطوطم هذا هو طوطم الأم . ويتصور الناس ان هذا الطوطم ايضاً كالطوطم المحلي ، يؤمن لهم الطعام وينبئهم بالمخاطر ويكون حامياً لهم وصديقاً ، واذا مات هذا الطوطم يدفونه باتجاه مقر طوطم الام ، ويتوجهون اليه بالعبادة ، فكأنما هو قبر طوطم الام . وما يؤيد ذلك اسم المقر لانه يعني (مقر الطوطم الذي شاركني) ويبدل هذا ايضاً على ان الطوطمية الموروثة من الأم ليست متأخرة عن الطوطمية المحلية . ولعل الاولى اقدم من الاخيرة .

وانتقد دركهايم نظرية لانج القائلة بان الطوطمية نشأت من تسمية العشائر
باسماء الحيوانات والنباتات ، وكان لانج ايضاً كفيريزر ينكر دينية الطوطمية .
ويتساءل دركهايم لماذا اسبغ الانسان صفات خارقة للحيوان الذي اعتقد بانه
نزل من صلبه ، واتخذ الصور التي تمثل الحيوان موضوع عبادة . ويبين ان
الاساطير نفسها التي اعتمد عليها لانج تخالف ما ارتآه بشأن الطوطمية . واذا
كان الاستراليون لم يروا في الطوطم الا شيئاً بشرياً وغير مقدس ينبغي لهم الا
يعتبروا الطوطمية مؤسسة الهية . اما اذا شعروا مؤخرأً بحاجة الى ان يلبسوا
الطوطمية لباساً دينياً كما تصور لانج ونشأت دينية الطوطمية فلا ريب في ان
تلك الحاجة ايضاً قد نشأت من اعترافهم بقديسية الطوطم فيتضح من ذلك ان
الاساطير نفسها لا تكتفي بايضاح الطوطمية فحسب بل انها تبين دينية الطوطمية .
وكان لانج نفسه قد اعترف بان الناس يشعرون باحترام ديني تجاه الطوطم ، من
ذلك ان الاستراليين يعتبرون دم الطوطم في كثير من الاحوال تابو كدم
الانسان . بينما الاساطير التي استند اليها لانج لا تستطيع ان توضح من اين نشأ
هذا التابو .

سلسلة من اخطاء دركهايم

لقد ظن دركهايم ان رأيه في الطوطمية كان الحل الفاصل لقضية نشأة الاديان
ولكن العلماء المتأخرين أشبعوها نقداً وتجريحاً . ورفضوا ان تكون الطوطمية
هي الدين الاول . وقد لخص الاستاذ علي سامي النشار هذه الانتقادات في كتابه
القيم (نشأة الدين) آثرنا اقتباسها منه لاصالتها وطرافتها لتكون اخر البحث
عن الطوطمية .

قال : « رأينا كيف انتهى دركهايم من وضع اسس مذهبه وكيف استخلص
النتيجة النهائية من ابحاثه من طبيعة الاديان البدائية « ان المتجمع انما يعبد نفسه »
ولقد وضعت الطقوس البدائية لتحقيق تلك الفكرة . ان تلك الحفلات التي كان

البدائيون من افراد العشيرة يهرعون اليها ، كانت تقام بشكل مثير عنيف لا يعهده البدائي في حياته العادية . يجتمع افراد العشيرة حول الرموز الطوطمية ، ويقومون بحركات من اعنف ما يتصوره العقل ويصيحون صيحات شديدة مبهمة ، ويدورون في حلقات راقصة عنيفة كل هذا يبعث في نفس البدائي احساس عجيبة عن سطوة الجماعة وسيطرتها ولقد نظمت الرقصات والغناء فيما بعد ، وغدت انغاماً وترتيلات وصلوات ومزامير . ان تلك الحفلات وما فيها من طقوس تترك في نفس البدائي اثراً سيكولوجياً عجباً عن قوة الجماعة . ان البدائي بعد مزاولته لتلك الطقوس يشعر بما للجماعة من سيطرة قوية ممثلة في الفكرة الدينية التي توحى بها تلك الاجتماعات فلا الحلم اذن ولا التأمل في الطبيعة وقائع تجريبية تتناولها التجربة الفردية وتخضع لها ، والمقدس لا يمكن ان يكون له اصل يتجاوز الانسان اي اصل اجتماعي . ولكن دركهايم وقد خيل اليه انه حل المشكلة حلاً نهائياً قد غفل عن حقيقة اخرى تهدم مذهبه . اي جماعة هي التي اوحت بتلك الفكرة الدينية ؟ .

اولا - يقرر دولاكروا - Delacroix ان كل ما وجهه دركهايم الى فكرة الحلم او الطبيعة انما يتجه اليه نفسه . « ان الجماعة نفسها واقعة طبيعية » ان الجماعة جزء من الطبيعة ، فيها كل مظاهرها وكل تغيراتها وتخضع للتجربة كما تخضع كل ظاهرة طبيعية . ثم ان الذي يوحى بالدين ويوجد الله - اذا كان لا بد ان تكون الجماعة هي الخالقة - ليست تلك الجماعة الانسانية الواقعية بانظمتها الدنيوية ، وانما الجماعة المثالية والانسان دائماً متعلق بالقيم النبيلة ، ولم يتحقق في هذه الجماعات الاولى تلك الفكرة المثالية عن الجماعة . ولم توجد اطلاقاً في القبائل والاتحادات والعشائر من حيث هي جماعات : هنا فقط يظهر الفرد ، الفرد المتوحد ذو الاشعاع المقدس الخالد . وتتبعه العشيرة او القبيلة . ونرى في تميزه ما يقودها الى العنصر الالهي . فالجماعة اذن في ذاتها لم توجد الدين ولم تصنع الالهة . واذا كان لا بد للبدائي ان يتعبد ما تطالبه به الجماعة ويرى فيه العنصر الديني الأقدس ، اذا كان لا بد من هذا ، فانما يتجه نحو الدوافع الاجتماعية النبيلة .

ولكن المشكلة لم تكن حتى في هذه الصورة قد حلت ، لانه ما الذي يمنع ان تكون تلك الدوافع نفسها صادرة عن رجل متوحد نأى عن الجماعة نفسها حين انحرافها في ناحية من نواحي الظلم او التحلل . ولم لا يكون الامر مختلفاً عن هذا الى حد كبير ، ويكون الدين نفسه نتاجاً لاعتزال افراد عن الجماعة وتأملهم الحياة وما وراء الحياة تأملاً باطنياً . هنا تتجه نحو المذهب الطبيعي او المذهب الحيوي (الروحي) ، وقد نجد فيها حلولاً لا نجدها في المذهب الطوطمي . وفي ايجاز ليس الدين ميكانيكية ولا الة يسيطر عليها ما اسماء دركهيم العقل الجمعي مع انكار الناحية الفردية وان جميع الابحاث التي اجريت حديثاً على الجماعات البدائية عامة - كبحاث (شتاني متر وما لينوفسكي Steinmetz Malinowski) او على البدائيين الاستراليين خاصة كبحاث (بك Beck) اثبتت اثباتاً قاطعاً ان للفرد مركزاً ممتازاً في تلك الجماعة ، وان النظرية الاجتماعية التي نادى بها الاجتماعيون عن الطوطمية الاسترالية غير صحيحة في كثير من نتائجها ، وان مركز الكاهن الممتاز في العشيرة او القبيلة لم يكن اطلاقاً منحة اجتماعية ، وانما كان يعود الى موهبة الشخص ، اما الطقوس الدينية ودخول المريدن الى الحياة المقدسة فلم يكن يظهر الاثر الاجتماعي فيها بوضوح اكثر من الاثر الفردي . كانت يسودها نوع من التصوف الفردي . ان الدين هو مجموعة من التجارب الفردية ، ولا بد لعلم النفس من ان يدلي دلوه ، وان يشرح المظاهر النفسية للدين البدائي . ان دركهيم اهل اهمالا شديداً ما لتلك المظاهر من قيمة في نشأة الدين ، وارجع كل شيء الى فكرة العقل الجمعي ، وانبثاق الدين من هذا العقل على ما تثيره من اعتراضات شديدة .

ثانياً - ان دركهيم وجه الى المذهب الحيوي (الروحي) نقداً هاماً . انه يقيم فلسفة في فجر الانسانية وان البدائي لم يكن يشغل على الاطلاع بتلك المتيازيقية . كان التنازع على البقاء وهو يقاوم الطبيعة قانونه الخالد . فلم يكن ثمة وقت لكي يتفلسف ، او يحاول اكتشاف تلك القوى الخالدة من نفس او مسائل ما بعد الطبيعة . غير ان دركهيم يرتكب نفس الخطأ . انه يتكلم عن

الطوطمية كفلسفة للكون ، ويجعل من المانا فكرة فلسفية لا يستطيع البدائي ان يفهما . انه يعتبر الطوطمية نفسها مذهباً في الوجود . كل هذا لم يستطع البدائي ، اذا سرنا مع منطق دركهايم نفسه وانتهينا الى نتائجه .

ثالثاً - اهمل دركهايم اهمالاً باقيا العامل الفسيولوجي للانسان في تكوين الدين ولهذا العامل اثار لا يمكن جحدها . ان الحياة الاجتماعية غير قاصرة على الانسان ؛ ان بعض الحيوانات تحيا حياة اجتماعية منظمة . من الامثلة على هذا جماعات من الفيلة تحيا حياة اجتماعية ، كذلك انواع الشمبانزي والقرود ، وكذلك النحل والنمل ، غير انه ليس هناك اي دليل على وجود حياة دينية لدى تلك الانواع . والانسان وحده من بين الانواع التي تعيش في جماعة هو الذي ظهر الدين في تاريخه . أليس هذا يثبت ان تركيب الانسان العضوي او الفسيولوجي في نفسه اثرأ في انبثاق الدين ثم ان تكوين الجهاز العصبي واثره في الحياة الانسانية يعاون على هذا ايضا ؟! . ان الدين ليس مرتبطاً بالجماعة ، انه مرتبط بالانسان ولذلك كان الدين ظاهرة انسانية ولكنه ليس ظاهرة اجتماعية - وان القول باجتماعيته خطأ واضح . واذا كان دركهايم يعمم فكرته على جميع الاديان قديمها وحديثها - فان فكرته هذه تنهار وتتحطم من اساسها . حقاً ان هناك ادياناً تتلاءم مع الحياة الاجتماعية وتكاد تكون تقنياً لهذه الحياة في صورها المختلفة قانونية واقتصادية وسياسية . غير ان هناك ادياناً لا تتحقق فيها هذه الميزات الاجتماعية ، بل تكاد تكون صوراً فردية . والمسيحية مثال واضح على هذا الدين الصوفي الفردي .

رابعاً - فكرة المانا - ذهب دركهايم الى عمومية هذه الفكرة وانها مبدأ عام منبث في الاشياء ، بيد ان هذه الفكرة غير كلية على الاطلاق ، وانها فكرة جزئية مشخصة وذهب بعض الباحثين الى ان المانا لا تشير احياناً الى اية قوة دينية .

خامساً - فكرة الطوطم الشخصي - من الواضح في ابحاث الانثروبولوجيين ان الطوطم الشخصي اسبق بكثير من الطوطم الجمعي . ويجاول البدائي

اكتساب هذا الطوطم قبل اكتسابه لطوطم العشيرة او الاتحاد او القبيلة .
يكتسب الفرد طوطمه في ساعات التوجد والاعتزال التي تسبق الدخول في
حياة الجماعة الدينية . فالطوطم الشخصي اسبق بالتأكيد من الطوطم الجمعي .
ومن الثابت ايضاً ان ما كان يهدي الشخص الى طوطمه الشخصي هو الحلم .
ودر كهائم يعترف بهذا . تلك ثغرات واسعة في صميم مذهبه لم ينتبه اليها .
ويذهب عدد من الانثروبولوجيين المختلفي المشارب والمنازع الى ان الطوطمية
الدينية هي الطوطمية الفردية اما الطوطمية الجمعية فهي متصلة بالنظام الاسري
فقط لا بالنظام الديني .

سادساً - ليس من المعقول قط ان يكون الدين ، هذا النظام الديني النبيل
ناشئاً عن تلك القوة الميكانيكية الالية المسماة بروح الجماعة او العقل الجماعي .
وليس من المعقول ان تلجأ الجماعة الى التعبير عن ذاتها الى تلك الطرق الملتوية
المعقدة من حفلات بما فيها من طقوس وعبادات تتجه نحو الرمز . وان يعبر
الرمز (التمثال) عن مبدئين : مبدأ عام منبث في المانا ، ومبدأ جماعي هي
العشيرة تربط اعضاءها بمصالحهم المادية ومجاهدتهم للطبيعة وغوائلها ، ثم ان
العشيرة البدائية والعقل الجمعي يرتكب اشنع الجرائم ويوغل في احط الفساد
ولا يمكن ان يكون الدين تعبيراً عن هذا اطلاقاً . ان الدين رد فعل لكل هذا .
وهو محاولة للعدالة ولايقاف البشر عند حدود معينة من الانحراف في غرائز
حيوانية لا تحد . من الخطأ البين ان يجعل در كهائم الدين من الجماعة ووقفاً عليها .
ومن العجيب ان يعمم فكرته على الاديان جميعاً ، بحيث يرى ان الاديان الحديثة
صوراً من الاساس الجماعي الذي بنى عليه فكرته في الطوطمية . ان الدراسة
الاجتماعية المحايدة لكثير من الاديان المتحضرة والمعاصرة ليثبت تمام الاثبات
فساد فكرته . راع در كهائم ما في العقل الجمعي من خصب وقوة ، فرأى فيها
كل مظاهر الحياة الانسانية دينية وغير دينية فغفل عن كثير من الحقائق الدينية .
وبالرغم من علمه الواسع بالتاريخ العام للاديان فانه لم يستطيع ان ينفذ الى
جوهر الاديان ولا الى الحياة الباطنية لمؤسسي الاديان نفسها . فكان الدين عنده

لباساً طاهراً ترتديه الجماعة ، او اشارة عامة ترمز اليها . وتكذب النفاذ الى نشأته في نفس مؤسسه وما يعاصر هذه النشأة من ناحية ، ومن انطواء على الذات من ناحية ، حتى يفيض - في ثوران عجيب - من باطن صاحبه ، بعد تجارب روحية عميقة وشديدة وحينئذ تقاومه الجماعة اشد مقاومة ، ويلاقي اتباعه العنت والارهاق والقتل والتشريد . ان تاريخ الشهداء في جميع الاديان معروف لنا جميعاً ، وهو دليل على مقاومة الجماعة للدين اشد مقاومة . قد يرد دركهايم على هذا بانه كان للجماعة دين يرمز اليها ، وهو علم وحدتها ، فأبت ان تتنازل عنه . فقاومت وقاومت ولكننا نقول ان الدين الجديد هو صادر عن فعل فردي سرعان ما يتغلب ، ويقضي على الدين القديم ولكنه لم يقض على الجماعة .

بقيت الجماعة كما هي ، وعاشت في مجرى التطور التاريخي بدون ان تنفصم وحدتها التي يشير اليها الدين القديم . واخذ افرادها يعانون - كل من وجهة شخصية - الدين الجديد معاناة فردية بحتة ، ويقوم تجاربه في عزلة كاملة . وهناك من لا يؤمنون بدين على الاطلاق ولا يمثلون لاوامره ونواهيه وعاشوا ايضاً في قلب الجماعة .

ويلاحظ ايضاً ان نشأة الدين لم تكن جمعية اطلاقاً ، وكلما اوغلنا في ادوار البشرية الاولى كلما رأينا فردية الدين . ما كان يسود الجماعة من اضطراب وفتن وقلقل وقانون وحشي - قانون الغابة - هو الذي دفع افراداً الى الدين ، او وجههم نحو استلهاهم وحي - عزاء عن هذه الحياة المضطربة الظالمه . ولذلك صبغت الاديان القديمة بروح تشاؤمية عجيبة ، في نظرتها لهذه الحياة ، فتعزت عن كل هذا بالتفكير في إله وعالم افضل كانت الاديان القديمة كلها محابنة لروح الجماعة . واذا ما صعدا سلم الانسانية قليلاً وجدنا الفكرة الاجتماعية تعظم شيئاً فشيئاً حتى لاحت في الاسلام جزءاً كبيراً لا ينفصم عن الدين . ومن هنا نستخلص النتيجة التي تنكبها دركهايم - ان الاديان في نشأتها فردية بحتة - يثبت هذا البحث الانتروبولوجي والتأمل في حقيقة الدين ، ثم في تطورها فردية

اجتماعية ، فيها الجانب الفردي من صلوات وعبادات وعقائد خاصة بين الفرد والهه ، وفيها الجانب الاجتماعي من نواه واوامر واحكام ومذاهب اخلاقية .

* * *

اراء الاب شمت في الطوطمية :

يعتبر الاب (شمت - Schmidt) الهادم الحقيقي للمذهب الطوطمي وهو من رجال الانتروبولوجيا والانتولوجيا وهو في هذا يختلف عن دركهايم . فهذا الاخير لم يكن من علماء هذين العلمين ، انما اقام اجنائه على دراسات غيره من الباحثين . اعترف شمت لدركهايم بالاصالة في عمله . واعتبر كتابه تحليلاً رائعاً للطوطمية الاسترالية . وان الانتولوجيا وتاريخ الاديان قد استفادا من الحقائق الباهرة التي توصل اليها دركهايم ولكن المذهب نفسه يحمل في اعماقه ما يهدمه هدماً تاماً ، اذا ما لجأنا الى المناهج والابحاث التي استند اليها دركهايم ، والى المنهج المقارن والى دراسة الاجناس المتأخرة المعاصرة . هذا بالرغم من اننا لا نستطيع ان نمزج اطلاقاً بان تلك الاجناس المتأخرة تمثل طفولة الجنس البشري فهناك اثار لم تكشف عنها بعد الاركيولوجيا القديمة . وهي خاصة بديانة العصر الحجري او العصر الجيولوجي الرابع .

وكان من الغرابة بكان اذن ان يأتي دركهايم بعد ذلك وينذهب الى ان الطوطمية اقدم دين في البشرية ويمضي الى حد الاعتقاد ان الطوطمية منشأ الاديان جميعها . بينا المشكلة هي دينية الطوطمية نفسها . ان الطوطمية نظام اجتماعي عرفته الانسانية في فترة من فتراتنا الاولى ما في ذلك شك . ولكن هل الطوطمية نظام ديني ، ان الاستقراء الدقيق للعشائر الاوسترالية لا يثبت اطلاقاً فكرة دركهايم . كان شمت - عالم الاجناس - يتكلم بلغة يقينية ، وهو يورد امثلة عديدة عن لا دينية الطوطمية ، ومع ان الطوطمية اتصلت اتصالاً وثيقاً بحياة العشيرة وبحياة الاتحاد وبحياة القبيلة ، ثم بحياة الفرد قبل ذلك او بعد ذلك

فالامر سواء ، غير ان الصلة بين عقيدة كل من تلك النظم الاجتماعية او الافراد غير واضحة على الاطلاق ، يسودها الغموض وتكتنفها الشبهات او بمعنى ادق تكاد تكون معدومة . ومن العجيب ان يأتي ويجعل منها مصدر الحياة الدينية . بينما ينشر هذا العدد العديد من الباحثين معلومات في ضوء تجارب وابحاث في اوستراليا نفسها - ينكرون فيها اية صلة بين الطوطمية والدينية . نحن هنا امام نقد واقعي يستند الى الحقائق نفسها .

اما النقد الاخر الذي وجهه شمت الى دركهيم فهو ان الاخير قصر ابجائه على الطوطمية الاسترالية المتوسطة ولم يشر الى انواع الطوطمية في شمال امريكا الا قليلا . ان المنهج المقارن كان يوجب عليه ان يقوم بدراسة مقارنة مفصلة للطوطمية في جميع صورها ، لا ان يتوقف عند صورة واحدة للطوطمية . والنقد الثالث ان دركهيم اعتبر قبائل استراليا الوسطى اقدم الاجناس البشرية لكن ما هي الدلائل على ان ليس ثمة صور اخرى للاجناس البشرية سبقت استراليا الوسطى وان هذه القبائل ليست الا تطورا لها . ان تاريخ الاجناس اثبت بشكل قاطع ان قبائل استراليا الوسطى وارونتال بالذات - وهي التي اختارها دركهيم لم تكن اقدم جماعة انسانية - انما هي الطور السادس الذي انتهت اليه العقلية الوطنية لاهل اوستراليا ، بل هي اكثرها تقدماً . وقد قابل دركهيم في خلال ابجائه تلك الالهة المتعالية في الجنوبي الشرقي لاستراليا واعترف بهذا . وقرر انه اذا كان لم يجد فكرة عن آله واحد ، فقد وجد فكرة عن آله متعال ، وان هذا الاله هو من اخص عقائد الوطنيين الاستراليين في تلك البقاع لكن دركهيم لم يحاول ان يرى في هذه الفكرة الديانة الاولى للانسانية بل تورط في جدال عنيف مع اندريو لانج ومع شمت وانتهى من دراسة افكار تلك القبائل ومعتقداتها الى ان تلك الافكار ليست الا (النتيجة المنطقية والضرورية السامية لطوطمية الاسلاف التي ظهرت في القبائل الاوسترالية الوسطى) التي تطورت عنها بعد ان مرت في ادوار عديدة ذكرها واحدة فواحدة ، حتى اكتملت في صورة الكائن الاعلى في الجنوب الشرقي من استراليا .

لم يوافق شمت على هذا اطلاقاً وبيّن تبياناً حاسماً ما في فكرة دركهايم من خطأ . ان هذه الفكرة تقوم كما رأينا على ان قبائل اوستراليا الوسطى اقدم الجماعات الانسانية وان قبائل اوستراليا الجنوبية الشرقية احدثها ، والطوطمية في هذه القبائل لا تظهر اطلاقاً او تظهر بعض مظاهر منها ، ثبت ايضاً انتروبولوجيا انها مكتسبة في عنصر متأخر . اما صورة العقيدة الي تظهر لدى هذه القبائل فهي صورة (الاله الاسمى) صورة واضحة كل الوضوح محددة كل التحديد ومستقلة تمام الاستقلال عن الطوطمية (١)

١ - نشأة الدين - النظريات التطورية المؤهلة ، تأليف علي سامي النشار .

نظريّة التّأليه

الالوهية :

ان النظريات الباحثة عن منشأ الاديان التي استعرضناها فيما سبق قامت جميعها على فكرة التطور ، تلك الفكرة التي سيطرت على عقول العلماء والباحثين في القرن الماضي ، والتي تدعي ان الحياة والموجودات تطورت على مر الدهور والاجيال : فكانت الحياة في بدايتها بسيطة ثم اخذت تتطور بتأثير البيئة وبعامل الاصطفاء فتدرجت من حالة ادنى الى حالة اعلى حتى بلغت مستواها الحاضر . فالحيوان كان في مبدأ نشأته ذا خلية واحدة ، ثم اصبح ذا خلايا متعددة ، بدأت باللافقرات فالزواحف اولا ونشأت بعدها الاسماك فالطيور فاللبنونات الخ . هكذا قامت فلسفة النشوء والارتقاء وفلسفة بقاء الاصالح .

لهذا لا غرابة اذا رأينا علماء الاديان ومؤرخيها يسلكون في بحوثهم مسلك التطور ، ويرون ان الدين ايضاً ينبغي ان يجاري التطور . فيبدأ بحالة بسيطة ترى اثارها لدى الاقوام البدائية ، ثم يأخذ بالتطور نحو التكامل ، حتى يبلغ مرتبة الاديان السماوية الموحدة ، وتمشياً مع ذلك المبدأ وضعوا النظريات في منشأ الاديان . وترغم كل نظرية انها اكتشفت الدين البدائي الاول الذي تشعبت منه

الاديان الاخرى. ومن الواضح ان فكرة التطور في الاديان تعارض نظرية الوحي والالهام التي نادى بهما الاديان السماوية. غير ان بعض علماء الاديان اتجهوا برأيهم الى ان البشر الاول توصل الى فكرة (الله) بالوحي واكدوا ان البشر بفطرته اعتقد بوجود اله متعال (إله السماء) وظلت هذه الفكرة بين الاخذ والرد حتى كتب العالم الايطالي (بتاتسوني-Pettazzoni) كتابه القيم عن تكون التوحيد وتطوره وقد شرح فيه فكرة الاله المتعالى التي وجد اثارها لدى كثير من القبائل البدائية والمتوحشة في استراليا وامريكا وافريقيا، وضرب امثلة عديدة لذلك.

اما العالم الاسكتلندي (اندريو لانج) فله نظرية في دين اله السماء (ذكر خلاصة هذه النظرية مؤلف كتاب نشأة الدين نذكرها كما يلي (١):

« كان ظهور لانج مؤذنا بظهور عهد جديد في تاريخ الاجناس والاديان. وقد احتل هذا المفكر الاسكتلندي مكانة عظيمة في الحياة الادبية في إنجلترا. ثم شغل بالدراسات الاجتماعية والميثولوجية والدينية، واعتنق المذهب الحيوي (الروحي) وهاجم النظرية الطبيعية لماكس مولر هجوماً قسوى على صحتها. وقد مهد له شهرة كبيرة في اوربا وامريكا». وتتلخص اراء لانج في اول الامر براء تيلور. ولم يتردد اطلاقاً في اعتناق المسلمات التي قررها هذا العالم، وهي ان التوحيد انما هو تطور لصورة حيوية (روحية) منحة من العبادة، وحدث بعد ان قرأ لانج تقريراً لاحد المبشرين، ان قابلية وقائع معينة عند البدائيين لا تتفق اطلاقاً مع جوهر المذهب (النظرية الروحية). ظن لانج في اول الامر ان المبشرين اخطأوا خطأ ما في ثنايا عرضهم لتلك الحقائق. وتابع دراساته وابجائه فقابلته امثلة اخرى متعددة واخيراً خلص الى النتيجة الآتية: ان مذهب تيلور في اساسه غير صحيح على الاطلاق. وقد نشر كتابه (The Making of Humanity) في سنة ١٨٩٨ وصادف الكتاب نجاحاً منقطع النظير. وتتابعته كتبه بعد ذلك مبشراً بنظريته الغدّة. وحين اعلن لانج تلك

١ - نشأة الدين (النظرية التطورية والمؤلمة).

النظرية قوبل باهمال شديد من العلماء سواء في إنجلترا او في امريكا او فرنسا .
واخيراً هاجمه (ليان - Lehman) واعتبر افكاره غير موثوق بها . ولكن
لانج لم يهتم اطلاقاً بتلك الهجمات واخذ يدعم نظريته ويسوق لها الادلة
الاثنولوجية الموثوق بها . وقد توفي في سنة ١٩١٢ في الوقت الذي نشر فيه الاب
شمت ابحاثه مؤيداً نظرية لانج في جوهرها .

بدأ لانج ابحاثه في تاريخ الاديان بمهاجمة المذهب الحيوي وقد استند الى
اكتشافات (هويت Howit) عن الكائن الاعلى في قبائل استراليا الجنوبية
الشرقية . والى كتابات مسز (لانجلوباركر - Langlo Parker) وعن بعض
قبائل استراليا وقصصهم . كذلك على اكتشافات (ت.ه. مان T.H. Man)
عن الإله المتعالى لدى قبائل افريقيا . واستخدم أيضاً بعض الابحاث عن البوشمان
والهوتنتوت والزولو وغيرهم من قبائل جنوبي افريقيا ووسطها وبعض قبائل
الهنود الامريكيين وتتلخص اراء لانج فيما يلي :

اولاً - كل انسان يجعل في نفسه (فكرة العلية) . وان هذه الفكرة كافية
لتكوين العقيدة ، ان ثمة الهة صانعة خالقة للكون . ان كل انسان لديه فكرة
عن صنع الاشياء . انه يعتقد بوجود صانع لها . ولا يستطيع هو ان يصنعها ، ان
هذا الصانع هو (رجل عظيم غير طبيعي) . يبين الانسان في قدرته المناقصة ،
وعدم قدرته على الخلق .

وقد نسب لهذا الرجل القادر ، بجانب قدرته الخير والطيبة ومحبة الاطفال .
هذا هو منشأ (الاعتقاد النظري في قوة اسمى من الانسان والاعتقاد الشعوري
بانه يجب اطفاله) .

ثانياً - ان نجد لدى كل الاهالي القدماء المتوحشين الاعتقاد بأب وبسيد وبخالق
نجد هذه الفكرة بجانب عقائدهم الاخرى البدائية الغريبة ، وبجانب اساطيرهم
التي تسودها مسحة من غلظة وقساوة . ومن العجيب ان البحث الموضوعي
الواقعي لدى هؤلاء الناس اثبت اثباتاً واضحاً انه لا واحدة من تلك العقائد
السامية والمنحطة تطورت عن الاخرى ، انما نشأت كل واحدة منها

منفصلة عن الاخرى تمام الانفصال . اما ان واحدة منها تسبق الاخرى ما لا يمكن اثباته بواسطة الحقائق الانتولوجية . على انه من المحتمل ان تكون الافكار السامية والعقائد الخيرة اسبق . ويرى لانج اننا اذا طبقنا المنهج المقارن على الاديان الحديثة كالمسيحية لوصلنا الى انها بدأت فكرة جليلة نبيلة ، غير ان كثيراً من الافكار المستحدثة والمعتقدات المريضة ، دخلت فيها . ان هذه الآراء لم تشوه حقيقة الدين وجوهره . فقد بقي وعاش . ولكن هذه الآراء عاشت ايضاً خلال التاريخ . فالاعتقاد النبيل اسبق - فيما يرجح - عند البدائيين ايضاً . »

ثالثاً - وجد العنصر الديني عند البدائيين في حالة من الطهر والنقاء الكاملين ثم اعقب ذلك عنصر اخر . هو العنصر الاسطوري ، فاخفى وراء العنصر الجميل ، هذا الجوهر الذي كانت سيادته جبارة على الفكر البدائي الاول ، اما عن علاقة العنصر الالهي الاعلى بالعنصر الاسطوري الادنى فيقرر لانج اننا نجد عادة بجانب الاعتقاد باب خالد وبسيد او صانع مجموعة من الاساطير الغريبة الوهمية التي لا سند لها من تفكير منتظم . وبين الاعتقاد الديني والاعتقاد الاسطوري تناقض مطلق : اما الاول فهو عقلي وسام وهو نتاج التأمل والنظر ، ويدفع اليه الاستسلام العقلي . بينما الثاني نتاج الخيلة وتدفع اليه النزوات المضطربة ومع هذا فان الشكلين موجودان حتى في الاديان السماوية ، عبر الشكل الاول عن نفسه بالصلوات والمزامير والانشيد في البيع والاديرة ، بينما ظهر الشكل الثاني في خوارق الانبياء والقديسين ، وما علق بهذا كله من معجزات غريبة لا تواجه البحث العلمي ادنى مواجهة لأنها من صنع الاساطير . وعاش العنصران جنباً الى جنب وعلى ما بين الاثنين من اختلاف . ويذهب لانج الى ان هذين العنصرين موجودان دائماً وفي تنازع مطلق خلال تاريخ الجنس البشري الديني كله . انها قريبان تمام القرب في وجودهما واحد منها يصور الحب ويعلنه في نقاء ، والآخر يقرر الشهوة ويدعو اليها . »

« وهذا العنصر الديني الذي يصور الحب ، يلح به الباحثون في الاجناس

المنحطة في وضوح تام ، لم يفسد ولم تغيره سطوة الاساطير - بما فيه من انماء لعواطف منحطة واظهاره بجملة ترفيه لا تستند الى العقل - وقد تبوأ المكان الاسمى ووضح تمام الوضوح فأخفى وراءه العنصر المقدس . ان هذا العنصر ما زال موجوداً كامناً في النفوس لن تستطيع قوة الاساطير ان تنزعه من باطن الفكر الانساني ، فعاش تحيط به هالة من الاساطير . اما ما هو منشأ هذا العنصر وكيف ظهر وما هي الاسباب التي جعلته يكبر ويضخم فهذا بحثه لانج . وقد اعتنق لانج وهو بصدد الاجابة على هذه المسائل - آراء المذهب الحيوي الحديث وقبل نظرياته عن منشأ هذا العنصر كما تعتقد تلك المدرسة ان الاساطير العجيبة والقصص الخرافية والفولكلور^(١) عامة انما ظهرت في زمن معين من تاريخ الانسانية مر به الناس جميعاً وما زالت الاجناس البدائية تعيش فيه الى حد ما . وفي هذا الطور من التطور العقلي خلفت هذه الاشياء التي نجدناها نحن الآن تمثل طفولة ساذجة الى اقصى حدود السذاجة ، وغير قائمة على اساس من الخبرة والواقع وقد قبلت حقائق مسلمة لا يرقى اليها الشك واعتبرها البدائي سندا قوياً من الواقع . ومضى التطور العقلي قدماً - فدعمت التقاليد وجود تلك الاشياء في فكرة البدائي . دافع عنها الكهان .. وظهر الشعراء وقد اكتشفوا قصصاً اخرى زادت تمكيناً في النفوس . او جمعوا الاساطير او القصص المختلفة ثم توالت عليها تطورات عقلية فصورت صوراً مختلفة عند الفلاسفة والشعراء ورجال الدين والمؤرخين كل من وجهة نظره الخاصة يصبغها بصبغة رمزية او اعتبرت رموزاً لحقائق اخرى ، او تاريخياً لتطور فكري - هذا هو ببساطة تفسير الميثولوجيا (علم الاساطير) عند المدرسة الانتربولوجية الحديثة . وهو يختلف اشد اختلاف عن تفسير المدرسة الفيولوجية القديمة . »

غير ان لانج يختلف مع المدرسة الحيوية (الروحية) في مسألتين هامتين :
المسألة الاولى - انه لا يعتقد بأن هذا الطور من النمو العقلي كان اول طور

في تاريخ البشرية وبذلك لا يؤيد ان كل الناس بدأت به انما الواضح ان كل الناس مروا به .

المسألة الثانية - انه ينكر ان هذا العنصر غير العقلي كان وحده المسيطر على البدائي في ذلك الوقت . او انه اشغل وحده نشاط البدائي الفكري ، بل كان بجانبه العنصر العقلي واضحاً متميزاً احياناً ، وعناصر اخرى غير عقلية مسيطرة على فكر البدائي احياناً .

« بقيت مسألة هامة : كيف استطاعت العبادات البدائية المختلفة ان تسيطر على فكر البدائي ، وان تحفي فكرة الله ، بينما هذه الفكرة هي الأصلية في النفس وهي اولى الافكار واساسها . وكيف امكن لجميع افراد الجنس البشري ان ينسوا ديانة صحيحة لتحل محلها عقائد مضطربة وأساطير موعلة في البهيمية والغلظة والنشاز .

« يجيب لانج بان الانسانية عاشت فترة حياة مليئة بأسمى المعاني ، ولكن ثمة تحلل حدث بعد ذلك في عهد من عهود البدائية الانسانية . كانت فكرة الإله الخالق ليست في حاجة الى العطايا والمنح ، وتنتهي عن الشهوات والعداوات ، وتمنع الناس عن الظلم والجور على الجار ، ولا يمد العون في حروبه ، ولا يهبه القوة تجاه الامراض السحرية الطارئة . وكثيراً ما كانت البدائي يضحي للإله . لكي يحقق عملاً من الاعمال ، فلا تتحقق ، فيندفع في بعض الاحيان الى التماس تحقيق مطالبه من موجودات خفية ذات صبغة طلسمية . وكانت اولى هذه الموجودات هي الاشباح والقرائن (جمع قرين الانسان في النظرية الروحية) او بمعنى ادق النفوس .. وقطع شوطاً كبيراً في التوجه الى هذه الموجودات . وقد نشأ عن هذا انه : اولاً اهمل فكرته الصافية عن خالقه ؟ وثانياً انه اعتبره احد القوى الكبرى بجانب القوى الاخرى الاسطورية ونسب له كثيراً من صفات تلك القوى ، وقدم له القرابين كما قدم لها . وقطعت الحياة الانسانية طوراً زمنياً وظهرت فنون ومهن . واصبح لكل مهنة وفن إله .. ويرى لانج ان المسيحية والاسلام جاءا بعد ذلك ، فظهر التوحيد في اجلى صورته . لم تعلق به شوايب

العنصر الاسطوري الذي شوه جمال الاول » . (١)

ظلت نظرية لانج موضع الشك وعدم التسليم حتى ظهر المنهج التاريخي في علم الاجناس الذي اتفق مع كثير من النتائج التي انتهى اليها لانج وقد استخدم هذا المنهج الأب شمت وهو من اعظم علماء الاجناس ، وتوصل في دراساته واستنتاجاته الى اننا اذا صعنا الى الحضارات البدائية الاولى فانه يظهر لنا بوضوح اله عظيم ، خالق اسمى ، مصدر الاخلاق . وقبل ان يعرض مؤلف كتاب نشأة الدين الى آراء شمت ذكر بايجاز الابحاث التي ايدت لانج في نظريته وقال : ان الابحاث التي جرت مع انها كانت منفصلة عن ابحاث لانج ولكنها بدت كما لو كانت من عمله الخاص . وهي تثبت فكرة وجود الاله الاسمى في كل المناطق التي جرى البحث فيها . ويشير في هذا الصدد الى رأي (ليوبولد شرودر) في العقيدة الآرية عن الخالق الاسمى وعمما كتبه في هذا الشأن ووضح الوقائع عن الآله الاسمى الاري . واعتبر اساس الدين عند الهنود الاوربيين يستند الى ثلاثة اصول : عبادة الطبيعة والاعتقاد باله اعلى خير وخالق . ونشر الدكتور كروبر - Okrober دراسات عن هنود كاليفورنيا قال عنهم انهم اقدم القبائل الامريكية ، وذكر انه عثر في دراسته على فكرة اله خير سام بيده كل القوى وتنسب اليه كل الاقدار ، وبين ان هناك ايضاً فكرة اخرى عن موجود متعال آخر شرير ، يتعاون احياناً مع الخالق ولكنه يقاومه ويحالده وهو المسؤول عن الموت . و اشار الى وجود ثمة اله صانع صنع العالم من الماء الاول وهو يصنع الجبال والانهار ، ويخلق الطعام ويخلق دائماً وهو الذي فرق الناس بواسطة اللغات والبلاد .

وشمل البحث عن الشعوب البدائية اقزام اواسط افريقيا وجزائر الاندمان وبعض جزائر الفلبين . ودل البحث على ان الاقزام يمثلون اقدم طور في التطور البشري وانهم احط من قبائل جنوب شرقي استراليا . ولم يجد شمت وغيره من

الباحثين من عقائد تلك الجماعات اي اثر لعبادة الطبيعة او عبادة الارواح. وكان ابرز عقائدهم عبادة موجود اسمى هو الخالق وسيد العالم . ولم يكتف الاقزام بالاعتراف بوجود هذا الاله فحسب بل قرروا ايضاً ان صفاته تتعالى عن صفات غيره . ولا ريب في ان اكتشاف قدم تلك القبائل واكتشاف عقيدتها انما هو اكتشاف خطير في تاريخ الاديان. واعطت الابحاث الانثروبولوجية كثيراً من الشواهد على صحة الرأي القائل ان المتوحشين يؤمنون بوجود متعال وان فكرة الصنع اي الخلق هي الاساس الذي بنى عليه البشر الاول فكرة الله. ان كل بدائي كان يتردد في صدره الفكرة ان ثمة صانعاً له وللموجودات وان تلك الفكرة هي التي قادت الانسان الى الدين . ولم ينكر (برويس Preus) وجود فكرة الاله المتعالي عند البدائيين مع انه كان من واضعي نظرية السحر القائلة ان السحر ظهر اولاً وبالذات في العهود السحيقة من تاريخ البشرية وقد كشف الاستاذ (نيونيهوس - Niuwenhuis) في اندونيسية فكرة الاله المتعالي لدى البدائيين هناك .

وهكذا يظهر مما تقدم ان فكرة وجود اله متعال اصبحت مسلمة في تاريخ الاديان . وان الابحاث قد أيدتها .

* * *

التوحيد واله السماء :

وعرض بعد ذلك عالمان بنظرية جديدة وهي نظرية التوحيد واله السماء العالم الايطالي رفائيل بتاتسوني ، الاستاذ في جامعة بولونيا ، والاستاذ الفرنسي (فوكار Foucart) . اما بتاتسوني فقد سجل ابحاثه في كتاب خطير نشره سنة ١٩٢٢^(١) وخص الجزء الاول منه بالكائن السماوي (اله السماء) وجمع فيه

Dio formazione E sulloppo del monteismo nella storia delle — ١
religioni Raffaele Pettazzoni , I, l'esser celeste nelle credense dei popli.

كل ما كتب عن معتقد الاقوام البدائية اله السماء في استراليا وافريقيا وامريكا .
نذكر فيما يلي ما جاء في كتاب نشأة الدين عن هذا الموضوع :

بدأ بتاتسوني كتابه بتوضيح عدم قدرة المذهب الحيوي بفكرة الاله الناشئة عن عبادة الارواح ، واطهر فساد هذه الفكرة علمياً . ثم رأى ان لانج وشمث ظهرا بعد ذلك معارضين للنظرية الحيوية وقد نادى الاثنان بأن التوحيد هو الاديان في الانسانية وليس نهاية التطور الديني . وقد تساءل بتاتسوني كيف تؤدي سلسلة او مجموعة بنفسها من الحقائق الى فرضيتين مختلفتان تمام الاختلاف . رأى بتاتسوني ان مجرد الجدل بين المذهبين لا يفيد شيئاً بذاته . وانما ينبغي ان نلتمس الوقائع من خلال البحث في الاديان البدائية وقد انتهى - هو من جمع كثير من الوقائع البدائية - الى نتائج مختلفة عما ذهب اليه لانج . ارجع بتاتسوني التوحيد الى نوع ايسر من الاعتقاد في موجود سماوي . اعتبره البدائي في صورة السماء الشخصية ، وهذه الصورة عن هذا الموجود هي الثابتة في شعور البدائي الديني ، وقد اوجدها في هذا الشعور الفكري الاسطوري الذي حكم كل صور العقلية الدينية البدائية . ويقرر بتاتسوني انه وجد آثاراً تؤيد فكرته هذه لا عند المتوحشين فقط في جميع اجزاء العالم ، بل في الاديان الوثنية في الماضي والحاضر . اما عدد الهة السماء هذه فهو عدد كبير اكثر مما يتصور العقل اما تعريف هذا الموجود السماوي فهو موجود يعيش في السماء وحياته هي حياة السماء نفسها وهذا الموجود السماوي - هو عنده - نتيجة لتشخيص وهذا التشخيص ليس على الاطلاق نتيجة للعقل والتخيل معاً وانما للتخيل فقط . فالموجود الاسمي إذن هو تشخيص عنصر من العناصر تدركه الحواس ويطلق عليه اسم السماء غير ان هناك صعوبات متعددة تثيرها طريقة تشخيص السماء - كيف تشخصت - كيف حدث هذا العدد الكبير من الهة السماء هذه - وما هي الفروق والمميزات التي تفصل بينها ؟ وهذا ما دعا احد علماء الاساطير (أريناتخ - Ereniech) الى انكار وجود فكرة تشخيص السماء في العصور الانسانية الاولى . ولم يجد اي اثر لتلك الفكرة فيما درس من اساطير ، مع انه

قد عرفت فكرة الاله الاسمى في هذه الاطوار . ويحاول بتاتسوني ان يتفادى المشكلة فافترض ان صورة التشخص هي الصورة الوحيدة التي يمكن قبولها ابان ذلك العصر . ولا بد من موجود يوجد الظواهر السماوية ، ومن ثم يرتبط معها ارتباطاً قوياً لا تفكك عنه . وهذا الموجود صورة غير واضحة المعالم ، لا يرى فيها تركزاً معيناً ، اذا ما قارناها بصور اخرى من الالهية ظهرت فيابعد ورمزت الى اشياء يبدو انفراديتها بوضوح ، كالشمس والقمر ، غير ان الالهة السماوية المشخصة صفات اخرى اضفتها عليها السماء... القوة العليا والوحدة .

ومن المؤكد ان تلك المجموعة السماوية لم تأخذ مكانها كاملاً الا في ضوء انفرادها . ثم بدأت تضيق الفروقات ، وساعد على ذلك ما في السماء من طبيعة موحدة منسقة ، فتكون الاله الاسمى في القوة العليا اللامحدودة ومن الوحدة المطلقة . والاثنان مرتبطان تمام الارتباط : القوة العليا لاله السماء ، والارتباط والوحدة .

وعرض الاستاذ الافرنسي فوكار رأيه في موضوع اله السماء عند البدائين بمقال كتبه في قاموس الدين والاخلاق بعنوان (السماء اله السماء) وقد اشتهر في فرنسا بانتقاده الشديد للطوطمية وقد لخص كتاب نشأة الدين رأي فوكار كما يلي :

« بدأ فوكار في تحديد توزيع اله السماء عند المتوحشين والمتحضرين ، ووصل الى النتيجة التالية — .

ان تصور اله السماء يمتد الى اقدم عصور الانسانية وانه على اقل تقدير أقدم عبادة الارواح او عبادة الطبيعة . اما انه اقدم من المذهب الحيوي فهذا ما لا يستطيع ان يجزم به فوكار . فالمشكلة اذن لم تحل بعد . ولما لم يستطع فوكار تحديد المسألة تحديداً تاريخياً دقيقاً فانه اقترب من فكرة بتاتسوني قريباً كبيراً ونسب قيام فكرة اله السماء الى تخيل البدائي للمادة السماوية والبحث في اصل الظواهر السماوية نفسها . فرد كل هذا الى هذا الاله . اما الذي اظهر فكرة اله السماء فلم يكن المذهب الحيوي او المذهب الطبيعي بل هو التشخص . وذلك ان التشخص

يظهر المسائل واضحة ومحسوسة ، غير ان شرح فوكر للتشخيص غريب ، نشأ التشخيص عنده من فكرة غريبة تتلخص بما يأتي :

« ان هناك قوة شخصية وراء الظواهر - او خلف المادة الخارجية ، وهذه القوة الشخصية ترتبط بجوهر ، هو مصدر الطاقة والحياة ولا يمكن لهذه القوة ان توجد بدون هذا الجوهر ، ولكنها متميزة عنه مفارقة له على الاقل موقتاً . وقد فعل فوكر هذا لكي يتجنب فكرة حيوية المادة ولكنه على أي حال ميز تميزاً واضحاً بين اله السماء وبين الجوهر الذي يكون المادة السماوية ويمدها بالحياة ومختلف القدر . ومن ناحية اخرى ان هذا الجوهر نفسه ضروري لوجود اله السماء فبدونه ستظهر قوى الطبيعة غير المشخصة مسيطرة على الفكر الديني الاول .

اخيراً ان ثمة مشاكل هامة لم يحاول فوكر حلها وهي هل تصور البدائي في وقت ما انه لم توجد فيه سماء على الاطلاق وبالتالي لم يوجد اله السماء لان وجود احدهما يستلزم وجود الاخر . وهل هما متساويان في القدم . ام ان اله السماء خلق السماء ، اجابت الاساطير ان اله السماء خلق السماء ولكن هل هذه الاساطير بدائية ؟

* * *

مر بنا ان لانج هو اول من وضع نظرية اعتقاد البدائيين باله متعال وجعل هذا الاعتقاد البدائي مصدر كل الاديان وان فكرة التأليه سبقت فكرة الروحية وفي رأيه ان الروحية والطبيعية والوثنية والاشراك على اختلاف انواعه انبثقت من فكرة الاله المتعالي ، اول فكرة للدين ، وكان لنظرية لانج مؤيدون على رأسهم شمت ؛ ثم ظهرت نظرية اخرى من التأليه وضعها الاستاذ بتاتسوني كما اشرنا وهي لا تختلف عن نظرية لانج في الجوهر لان كتيهها تجعل التأليه الحجر الاساسي لمنشأ الاديان . فالتأليه لدى لانج بدأ بالاعتقاد باله متعال . بينما بدا لبتاتسوني على هيئة إله السماء . ونستعرض فيما يلي اراءه باختصار :

أشار بتاتسوني في مقدمة الجزء الأول من كتابه^(١) إلى أن يهوه اله بني إسرائيل هو أول اله فرد واحد ، وقد اعترفت إسرائيل به في أشد الظروف الدينية من حياتها القومية القلقة . وانبثقت فكرة الإله المسيحي الأول من يهوه . وبشر نبي الإسلام قومه بدين آخر ، واله واحد وانكر جميع الآلهة . وكان وردشت نبي الفرس أيضاً يبشر إلى حد ما بعبادة اله واحد ، ولعل زردشت وضع أسس دينه مستوحياً فكرة التوحيد العبري . وقد وجدت في بلاد بابل بعض اتجاهات نحو التوحيد ولكنها ظلت فردية محصورة بالمحافل الدينية . وفي مصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد قام أمى حوطب (اخن اتن) بحركة اصلاح دينية على اساس التوحيد الشمسي وكان الدافع اليه فكرة سياسية لذلك ماتت الحركة بموت اخن اتن لان الفكرة لم تتغلغل في نفوس الشعب . وقد حاول بعض الاباطرة الرومان تأسيس دين رسمي على اساس التوحيد الشمسي لم ينجح . وأسس اباطرة الانكا في بيرو القديمة في امريكا الجنوبية ديناً يقوم على عبادة الشمس بوصفها الإله الواحد . ومما قد يعتبر من ضروب التوحيد ما كان شائعاً في الازمنة القديمة كالسعي للتأليف بين الآلهة وجمعها في واحد . وجميع هذه المحاولات التي اشرنا اليها لا تمثل التوحيد الحقيقي الذي يفرض على معتقيه انكار جميع الآلهة الاخرى . اما التوحيد الحقيقي فبوجه عام لم يتوطد وقتئذ . وفي الهند القديمة حيث كان لها كما كان في اليونان مجمع آلهة شرك عديدة واساطير فنية وبحوث شيقة ، ولكن لم ينبثق منها توحيد حقيقي وهي لا تختلف في ذلك عن اليونان . وقد ارادوا في الهند التغلب على جموع الآلهة الطبيعية فتبلورت الآراء بفكرة (برهه) ، ولم تكن فكرة برهه سوى تصديق للمفهوم السحري البدائي لفكرة (المانا) ولكن على مستوى عال . وادى ذلك الى مذهب وحدة الوجود اي برهه روح الكل ونفسه . وثمة ميل نحو التوحيد ظهر في الهندوسية الحديثة وذلك يجعل الآلهة (ولا سيما فشنو) موضع عبادة الهندوسيين مما رفعه الى مصاف الإله الواحد ولكنهم لم ينكروا الآلهة الاخرى .

١ - رفائيل بتاتسوني : تكون الإله وتطوره في تاريخ الاديان Dio Formazione

وناقش بتاتسوني بعد ذلك فكرة تطور الدين فذكر نظرية الفيلسوف الافرنسي اوغست كونت في منشأ التوحيد والتي اقتبسها تايلور بعد ذلك ، وزعم ان التوحيد تطور من الشرك الذي نشأ من الروحية والاعتقاد بعالم الارواح . وبذلك يكون التوحيد آخر مرحلة من مراحل تحديد الالهة . وقد تم ذلك بالتدرج من الكثرة البالغة في عدد الالهة الى الكثير منها ، الى الواحد نتيجة تصحيح مستمر لمفهوم الاله .

ومن الواضح ان هذه النظرية استمدت احكامها من فلسفة التطور . وقد بنى الانثروبولوجيون هذه الفلسفة وبنوا بحوثهم عليها ولكن العقلانيين في القرن الثامن عشر كانوا بعيدين عن هذا التفكير الفلسفي لان فلسفة النشوء والارتقاء لم توجد وقتئذ ، وكان هؤلاء يقرون تطوراً دينياً حدث لدى جميع الاسرات البشرية بطريقة تلقائية . ولكن بتاتسوني لا يقر رأي التطوريين في ان الدين بتطوره يسير على خطة تجري بموجب قانون . ويؤكد ان الوقائع التاريخية لاتتفق مع ذلك القانون .

ويقول ان الشرك لم يتطور الى التوحيد في كل مكان ، وان المشركين ما يزالون منذ الاف السنين مشركين ، هكذا ظل دين الصينيين القومي والرسمي قائماً ، وتميز من ناحية بالاشراك الفيدي البرهمي ومن الناحية الاخرى بالهندوسية الحديثة . اما البوذية فلم تكن دين توحيد مطلقاً وقد مر عليها نحواً من الفين وخمسةائة سنة ولم تصبح موحدة . وبقي اليونان فعلاً مشركين في كل تاريخهم ، صحيح انهم اصبحوا ذات يوم موحدين ولكن لم يتم ذلك نتيجة تطور ، بل باعتناقهم المسيحية بالجملة ، وهو بمثابة انقلاب ، واعتنقت بعض القبائل الافريقية التوحيد الاسلامي ، فانتقلت بالجملة من الروحية وهي من احط دركات الدين ، الى الاسلام وهو اعلى درجات التوحيد من دون ان تمر بمرحلة الشرك . الا يدل ذلك على ان نظرية تايلور الكلاسيكية ، بان التطور الديني تم بثلاث مراحل : الروحية فالشرك فالتوحيد لا تؤيدها حقائق التاريخ ؟ . ويشك بتاتسوني في ان الاسباب التي حملت الشعوب على تبديل دينها اسباب عقلية محضة . واذا

كان الجرمان والكلتيون والسلاف قد اعتنقوا المسيحية ، واذا تخلى الفرس عن الزردشتية واعتنقوا الاسلام ، فان اسباب ذلك وعوامله مختلفة ، ولم يكن للتفوق العقائدي - تفوق التوحيد على الشرك او الثنوية - النصيب الاكبر في هذا التحول الديني .

ثم ظهرت نظرية اندريولانج المناقضة للنظرية الروحية واعتبرت التوحيد هو بداية الاعتقاد الديني لانهايته كما تزعم نظرية التطور ، وان الجماعات البدائية اعتقدت اول ما اعتقدت بكائن اعلى ، وان كانت فكرة التوحيد بدائية الا انها وجدت قبل الروحية وقد اشرت كل الجماعات البدائية بفكرة الكائن الاعلى . ويشاهد اثار ذلك في الجماعات المتوحشة ، اما عقيدة الشرك اي الاعتقاد بالهة متعددة فانها تراجع عن عقيدة الكائن التوحيدية البدائية . والتوحيد العبري لا يمكن ان ينشأ من الروحية كما يدعي انصار نظرية التطور . ويبدو ان يهوه اله اسرائيل ما هو الا احد الكوائن العليا البدائية .

هذا خلاصة ما قدمه الاستاذ بتاتسوني في كتابه الانف الذكر . اما الوقائع التي استند اليها في تأييد فكرته في اله السماء فسندكرها فيما يلي نقلا عن الجزء الاول من كتابه الانف الذكر ، وفيها يتبين ان بتاتسوني سجل وقائع القبائل المنحطة سواء في اوستراليا او في امريكا او في افريقيا . وسرى من ملخص ذلك السجل ان هذه القبائل تكاد جميعها تعتقد باله سماوي او بكائن اعلى يتفاوت اعتقادهم به باختلاف مناطقهم ومستوى تأخرهم .

اعنفاد الشعوب المنوحشة بوجود كائن أعلى

في أستراليا :

تسكن القبائل البدائية الأسترالية في جنوب غربي أستراليا وفي مقاطعة ويلسن الجديدة وفي مقاطعة فيكتوريا الواقعة في أقصى الجنوب وفي جنوب غرب أستراليا ، وفي مقاطعة كويتزلاند الواقعة في الشمال الشرقي . وفي جنوب غربي أستراليا تسكن قبائل (كاميلاروي ^(١) وورادجوري ^(٢) وادياهلاي ^(٣)) وتسكن الى جوار هذه القبائل قبيلة (يون ^(٤)) وقبيلة ولونجونج ^(٥) وقبيلة جرنجاني ^(٦) . ولكل من هذه القبائل كائن أعلى ، فالقبائل الثلاث الأولى كائنها الأعلى يسمى بيامي - Biame يعتقد الناس بأنه يسكن في السماء وبأن له ولد ولكنه لم يولد من أم . وهو يراقب اعمال البشر ، والصالحون منهم في الجنة والاشرار منهم في الجحيم . ويطلقون عليه اسماء ونعوتاً منها ابو الكل ، الفاعل

Kamiluroi - ١

Wiradjuri - ٢

Euahlaye - ٣

Yuin - ٤

Wollonga - ٥

Gringani - ٦

الخالق ، خالق الارض والماء والسماء ، منزل الغيث ومنمي النبات ، يتكلم بالرعد وينزل الصاعقة ويخلق العشب والازهار باعث كل شيء ، ومانح الحياة فعال لما يريد ، عليم وبصير .

ان الكائن الاعلى لشعب يونين يدعى (درامالون - Darmalon) هو الاب والسيد يسكن في السماء ويظهر احياناً في الارض ، ان ارواح الموتى تعرج اليه . يدمدم صوته بالرعد ، منزل الغيث وقادر على كل شيء وينذهب الى حيث يريد . اما شعب (ولونجونج ، وشعب اللاورا ^(١)) يدعي كائنها الاعلى (ميريرول - Mirirul) هو خالق كل شيء ، يدير شؤون الناس حسب اعمالهم ويرفع الصالحين منهم الى السماء حيث يسكن . ولقبيلة جرنجاني كائن اعلى يسمى (كوين - كوين - Koen-Koin) ولما يسمع رجال القبيلة دمدمة الرعد يقولون غضب كوين . اما قبيلة شيبارا - Chepara) الساحلية فيدعي كائنها الاعلى (ممبا - Mamba) ومعنى هذا الاسم الرعد . والكائن الاعلى لقبيلة (واتي - واتي ^(٢)) يدعي تاتابولي - Tha-Tha-Puli) خالق الرجال والنساء والكلاب يسكن في السماء حيث تعرج اليه ارواح الموتى . وللقبائل المجاورة كوائن اعلى خاصة بها (تولونج - Tulung) وموريلله - Murella) ويخاطب الناس هذا الاخير بخشوع واحترام ويعتقدون بان خلق وطن القبيلة بانهارها واشجارها وحيواناتها ووضع قوانينها .

وفي مقاطعة ويلسن الجديدة تسكن ثلاث قبائل كائنها الاعلى (مالور - Mallur) وبأمر من عنده يقلع الشبان اسنانهم حينما يحتفل ببلوغهم سن الرجولة ويدعوا له شعب كوراني (مونجان مجوى - Mongan magau) ويعني هذا الاسم (ابونا) والحقيقة ان جميع القبائل التي ورد ذكرها تطلق على كائنها الاعلى اسم الاب واسماء اخرى لا تخرج عن معنى الاب . ويعتقد الناس ان مونجاي مجوى عاش في الارض ثم عرج الى السماء وسكنها .

Illawarra - ١

Wathi-Wathi - ٢

وئي مقاطعة فيكتوريا تسكن عدة قبائل تؤلف شعب (كولين) ويدعى كائهم الاعلى (بونجيل - Bungil) ، يسكن بونجيل في السماء في بقعة خاصة تسمى ارض اليوكاليتوس . يناديه الناس بنداء (ايننا) ويعتقد سكان الزواية الجنوبية الغربية من المقاطعة بوجود كائن اعلى يدعى (برنميل - Pirnmechal) يناديه الناس بنداء (يعني ابانا) ويتصورونه هيئة رجل جبار ، مقره فوق السحاب . والرعد صوته الذي يبشر بنزول المطر وينمي العشب وجذور النباتات .

في استراليا الجنوبية :

تعتقد قبائل (نرينيره ^(١)) بكائن اعلى يسمى (نرنديره - Nurendere) عزوا اليه كثيراً من الاساطير التي تحكي حياته في الارض . وهو فاعل كل شيء وقد ابدع السلاح ووضع الشعائر ثم عرج الى السماء حيث تعرج ارواح الموتى اليه . وتعتقد القبائل التي تسكن في منطقة الساحل في اولايدي بكائن اعلى يدعى (موناي نيشرلو - Monainecherloo) وهو خالق الشمس والقمر والنجوم والبشر وسائر الموجودات يسكن السماء ولا يهبط الى الارض يناديه الناس بالشمس الاب . ولقبيلة (ديرى) ^(٢) كائن اعلى يسمى (مورا - مرا - Mura - Murra) يسكن في السماء وقد انبثق منه القمر وخلق البشر والمخلوقات الاخرى .

قبائل الارونتا :

تسكن قبائل الارونتا في جنوبي شرقي استراليا . ومن العلماء من انكر وجود كائن اعلى عند هذه القبائل وهي احط القبائل الاوسترالية . الا ان فريقاً آخر ذكر انه لبعضهم كائناً اعلى اسمه (التزيرا - Altzera) وللبعض الاخر

١ - Nerrinyere

٢ - Dieri

كائن اعلى اخر يسمى (تونكورا - Tunkura) يتصورونه بهيئة رجل كبير شديد البأس ، يسكن في السماء وما النجوم والمجرة الانوار مصابيح السماء . وبهذا الوصف يعتبر التزيرا كائناً اعلى . ان مجال عمله غير محدود ويقولون انه لم يخلق البشر ولم يعن بامرهم ولم يأبه لسلوكهم وبهذا اختلف التزيرا عن الكوائن الاوسترالية الاخرى العليا في جنوب اوستراليا وفي شرقها . ويرى بعض العلماء انه اله خير .

اما قبائل (ورامونجا) (١) و كاييتيش - (٢) وبنليجا (٣) التي تقطن في الارض الواقعة الى شمال ديار اروتتا فلديهم كائن اعلى يسمونه (اتانتو-Atantu) يتصوره الناس بهيئة رجل ضخم يسكن في السماء . وقد القى باحد اولاده الى الارض وصارت قبيلة كاييتيش من صلبه . اتخذ مقره في السماء لا يتركه هو وابناؤه الكثيرون من زوجاته العديداً (النجوم) ، علم البشر الشعائر والطقوس . اما الكائن الاعلى لقبيلة (بتاسبتا) فهو ملكاري - (Mulkari) يتصوره الناس كائناً لطيفاً خيراً ، خلق كافة الموجودات . يناديه الناس بسيد السماء ، وهو الذي علم البشر السحر .

* * *

جزر اندمان :

تقع جزر اندمان في خليج البنغال بين الهند والملايا . ولاهل اندمان كائن اعلى يدعى (بلوجا - Puluga) اتخذ مقره في السماء وسكن في دار من حجارة وله زوجة انجبت له ولداً يقوم بمهمة الوزير لابيه . وانجبت اولاداً اخرين كثيرين ايضاً يسمون (ارواح السماء) . والشمس على مقربة من داره والقمر مع

Warramunoa - ١

Kaitish - ٢

Binlinga - ٣

اولاده . يعيش بلوجا كما يعيش البشر . يأكل ويشرب وينام ، والرعد صوته
والريح نفسه ليس له كهنة او شعائر او طقوس ، ولا صلوات أو قرابين .

شبه جزيرة مالقه :

تعتقد قبيلة (سمانج)^(١) الاقزام بكائن اعلى يسمى (كاري - كاره) .
يتصورونه ذا جسد ضخيم ، اكبر من جسد الانسان ، نفسه قوية لا يرى ، خلق
كل شيء ما عدا الارض والبشر الذين خلقهم (بلي - Ple) وهو كائن الهي
اخر يعمل بأمر كاري يعاقب كاري البشر اذا خالفوه . ويتخذ الصاعقة عقاباً .
اله الريح وزيره . ولا توجه اليه عبادة تذكر . ولا يتضرع الناس اليه بالدعاء
والصلوات . اما قبيلة (سكارى)^(٢) فصوروا كائنهم مثل كاري يجسد ضخيم
جداً . وهو لا يرى ولا يموت . والحياة والموت من اثار قدرته ، ليس له عبادة
ولا دعاء ولا صلوات .

الجزر الصغيرة في اوقيانوسيا :

وفي (فلور - Flore) يسمى الناس الكائن الاعلى (مري - كارين
Muri-Karin) يعتقدون بانه يرى كل شيء حتى الاشياء الخفية ويعاقب
المجرمين . وهو يشبه بصفاته الكوائن العليا التي يعتقد بها اهل جزر (سمبا -
Sumba) وسولور - Solor وسافو - Savu وفي جزيرة سولور يتوجه الناس
الى الهين عاليين هما (اراراك - Ararak) الشمس و (تانا - Tanah) الارض
وفي جزيرة سمبا يعتقد الناس ايضاً بكائنين عاليين يدعيان (اومبا - اوان
Umba-Awan) اي سيدي السماء و (اومبو تانا - Umbou Tanah) بمعنى
سيد الارض . وفي جزيرة سافو الواقعة على القرب من فيجي يسمي الناس الكائن
الاعلى الاول (بولودو - برو - Pu-Lodu-Bru) ويسمون الكائن الثاني

Semang - ١

Sekri - ٢

(بو - لودو - رايه - Pu Lodu-Rae) ويعتقدون انه يحكم المناطق السفلى بينما يتصرف الاول بالرعد والصاعقة والمطر والريح ، وفي وقت الجفاف المديد يقدم الناس اليه الضحايا ، ويتضرعون اليه ليمنحهم المطر .

غينية الجديدة :

تعتقد قبائل (مونومبو وكوني ومافولو) بوجود كائن اعلى يدعى (مالا - Mala) ويصفونه انه (الروح الرئيسي) ويكون تارة خيراً وتارة شريراً ، يتضرع الناس اليه ويلتمسون منه ان ينعم عليهم بموسم جيد وان يحميهم عندما يتعدون عن منازلهم وحينما يقاتلون الاعداء . اما اهل جزيرة (كرسو - Karsau) فيتصورون كائناً اعلى يسمونه (ونكاو - Wonekau) يسكن السماء ، ويتضرع الناس اليه بالادعية . لا يُرى ولكنه يرى كل شيء فيرى السارق ويعاقبه . ويتصورونه خيراً اطلاقاً وهو الذي صنع النجوم .

جزيرة نيوزيلندة :

ان الاعتقاد بكائن اعلى شائع في هذه الجزيرة ايضاً . ويدعى (هنتوبوهت - Hintubuhet) . ويزعم الاهلون انه خلق نفسه بنفسه في البدء ، لم يخلقه احد خلق السماء والارض والبشر ولكنه لم يهتم بهم لهذا لا يوجه الناس الدعاء اليه ولا يقربون اليه القرابين ولكنهم يتضرعون اليه في الحالات الخطيرة كالزلازل ، وحين ينتابهم مرض معد . يسكن هنتوبوهت في السماء ويلتمس الناس منه انزال المطر .

جزر سالامون :

يبدو ان الاعتقاد بكائن اعلى موجود في مجموعة الجزر الواقعة الى اقصى الغرب . يدعى الكائن (تونوتانا - Tonotana) اما في سان كريستوف فالاعتقاد بكائن اعلى واضح كل الوضوح .

جزر فيجي :

ورغم ان اهل فيجي يعتقدون بارواح الموتى فان الاعتقاد بكائن اعلى يتجلى بكائن يسمونه (ندنجو - Nedengo) وهو يتقدم على جميع الارواح . ويتصوره الناس بصورة افعى كبيرة يسكن في كهف واقع في جبل . وله صفات كائن اعلى وهو الخالق وتحدث الزلازل من حركته ويظن ان كلمة ندنجي تعني السماء .

هريديا الجديدة وكلدونية الجديدة :

ان الكائن الاعلى في جزيرة (بانك) يدعى (كات - Qat) وهو يبدو بصفات كائن اعلى وفي هريديا الجديدة يحتمل (تانجاروعا - Tangaroa) مقام كات . يسكن هذا الكائن في السماء وله اخ يشاكسه ، وهناك كوائن عليا اخرى تتسمى باسما مختلفة كالاخ والزوجة وفي جزيرة (ريف) مثلاً يعتقد الناس بروح عظمى تدعى (تاوماكا - Taumaka) تعيش في السماء .

جزر ميكرونزية :

وفي جزر ماريان يعتبر (بنتان - Puntan) الكائن الاعلى لانه وجد قبل الارض والسماء ، صنعت اخته بأمره السماء والارض من صدره وكتفه ، وفي جزيرة توبي يدعى الكائن الاعلى (ياريس - Yarris) يتكلم بالرعد ويتقرب من الناس بالزلازل . وفي جزيرة (ياب) في كارولينا الغربية يدعى الكائن الاعلى (يلافز - Yalafaz) يسكن السماء ويصوره الناس بصورة رجل ويجعلون له زوجة وولداً ، وهو الخالق وهو الخير . هو الذي انهى الطوفان ، وهو سيد السموات حيث استقر فيها ، يرعى شؤون البشر ولكنه لا يهتم بهم ، ليس له عبادة تذكر .

وفي سيحان واولب من جزر مارشال يعتقدون بكائن اعلى يدعى (وولب - Wulleb) وهو الذي خلق الارض والسهول والطيور ثم خلق البشر . وفي جزر

جلبرت يتمثل (تابوريك - Tabuarik) بصورة كائن سماوي ، ويسمى في جزيرة تاورو باسم (وانيجين Wanigain) . وصفات تابواريك هي صفات الاله الاعلى ، يسكن فوق النجوم ويحدث الرعد . وفي جزيرة (اونواتو) كائن اعلى يدعى (ناروا - Nareua) خلق الزوج البشري الاول ثم خلق الشمس والقمر .

بولينزيا :

ويبدو ان لشعب الماموري فكرة سامية عن الكائن الاعلى يدعى (يو - Io) امامه صخرة كبيرة ينبثق منها كل ما في الكون ، وهو العليم بكل شيء ، العظيم القوى ، اصل جميع الموجودات ، صدرت عنه العلوم القدسية والخاصة بالفعال . وهو النفس الحية في جميع الموجودات . وفي جزيرة (سامويا) رغم ان السياح الاولين انكروا وجود دين ومعابد فيها ، توجد اثار تدل على فكرة غامضة عن كائن يدعى (تانجالوعا - Tangaloo) بمثابة اله الشمس ، ويظهر في بعض الاساطير بمظهر الكائن الاول الذي خلق الظلمات والنور . وفي جزيرة (تونجا) يبدو الكائن الاعلى الخالق بهيئة شخص عظيم في السماء وفي الارض ، لا تقدم اليه الضحايا ولا القرابين ، ويسكب باسمه الشراب . ويظهر ان جزيرة (تاهيتي) كانت مركز عبادة (تاروعا - Taroa) وهو اسم اخر لتانجالوعا وقد انتشرت عبادة تاروعا من تاهيتي الى الجزء الشرقي من بولينزيا حتى جزيرة (هواي) ولتاروعا جميع اوصاف الكائن الاعلى . ويعتقد الناس بانه اسمى من ان يهتم بشؤون البشر ولهذا لا يوجد له معبد ولا مذبح وليس له عبادة .

* * *

الاعتقاد بكائن اعلى في افريقيا :

ان اليوشمان في جنوبي افريقيا والاقزام المنتشرين فيها ولا سيما في افريقيا الاستوائية يمثلون حسبا يبدو اقدم نموذج للبشرية الاولى . ومع ان فكرة الكائن

الاعلى غير ناضجة عند البوشان بوجه عام فان قبيلة (مكالونج) ^(١) يعتقدون بكائن اعلى يدعى (كا انج - Kaang) بمعنى السيد ويسمى ايضاً (كويه أكانج تنج - Kue-Akang-Ting) والاسم هذا يعني حامي جميع الموجودات . يسكن في السماء ولا يرى ، خلق كل الحيوانات . يتضرع الناس اليه في النوائب كالمجاعات والحروب . هو الذي ينزل الغيث ويمنح الحياة والموت ، ويعتقدون بقدرته على انزال المطر واحداث الجفاف واطالة العمر والبذل في الطعام . اما قبيلة البوشمان (مساروا) ^(٢) فتستعمل كلمة (تورا - Thora) للتعبير عن الاله ، ويعتقدون بانه ينزل الصاعقة والغيث . وتعتمد قبيلة (ازونجو) ^(٣) في افريقيا الغربية بكائن يسكن في المناطق العليا ويخاطب البشر بالرعد مبشراً بسقوط المطر . يدعى (نزامبي - Nzambi) وهو اسم يستعمله شعب البانتو الغربي للتعبير عن كائنهم الاعلى . ويتضرع اليه اقزام (نكولا) ^(٤) بوصفه كائنهم الاعلى وهو في الوقت نفسه الكائن الاعلى لاقزام (بكو) ^(٥) ، يتصف بصفات الكائنات العليا الاخرى ، خالق السماء والنجوم والنور . وهناك بعض الاقزام يعيشون في حوض الكونجو يمثلون حضارة بدائية جداً . ويسمى اقزام (واروه) ^(٦) كائنهم الاعلى (اندجرا - Indegra) . اما اقزام (بوني) في افريقيا الشرقية فيسمون كائنهم الاعلى واكا - Waka) ويعتقدون بانه لا يرى ولكنه يرى البشر فيهبط احياناً الى الارض ويقتل بعض الناس بالصاعقة .

اما قبائل الهوتنتوت فلهم كائن اعلى يدعى (كهوى - كهوين - Khoi - Khoin) والاخبار عن الهوتنتوت قليلة وغامضة كخبار جيرانهم البوشمان . ويمثل (تسوى جواب - Tsvi - Goab) الكائن الاعلى لديهم .

Makalong - ١

Masarwa - ٢

Ajango - ٣

Nukula - ٤

Beko - ٥

Warwa - ٦

قبائل البانتو :

تنتشر قبائل البانتو على رقعة واسعة من افريقيا . ولهذه القبائل في جميع مناطق سكنها كواثن عليا قد تختلف اسماءها وقد تختلف صفاتها من مكان الى اخر الا انها مع ذلك تتفق بوجود كائن اعلى تؤلهه . فشعب (الزولو)^(١) في جنوبي افريقيا يمثلون السماء بكائن شخصي . اما قبائل (بارونجا)^(٢) فيعتقدون بما يسمونه (تيلو - Tilo) أي السماء او الكائن السماوي الذي يتصرف في الظواهر الجوية وينزل الغيث ويثير العاصفة التي يعلن عنها الرعد ، ويكشف عن السارق . ولدى بانتو (بساتسه)^(٣) كائن اعلى يدعى (مولينو - Moleno) يسكن في زرقة السماء ويتمثل احيانا بالشمس .

قبائل بانتو الغربية :

تختلف اسماء الكائن الاعلى عند هذه القبائل باختلاف اللهجات فهو يسمى (نزامبو ونزاميه ونزامه Nzambo, Nzambe - Nzame) . واسم نزامبو شائع في افريقيا الغربية وخاصة في حوض الكونجو وتوابه من هرير الى الكامرون اما نزامبه ونزامه فاسمها في افريقيا الوسطى . ولدى قبائل بنجالا ، وقبائل بولاكي في الكونجو يسمى الكائن الاعلى (ليبانزا - Libanza) يسكن في السماء ويعرج اليها فوق نخلة بالغة الطول ، وهو خالق كل شيء . اما قبائل (يوبوتو) فتعتقد بان ليبانزا يسكن القسم الغربي من السماء .

قبائل بانتو الشرقية :

ويمكن اعتبار (مولونجو - Mulongu) اسم الكائن الاعلى عند هذه القبائل رغم ان هذا الاسم يدل على المحل الذي تسكن فيه الارواح اي السماء .

Zulo - ١

Baronga - ٢

Basatse - ٣

وليس له صورة لشخصه يعتقدون بأنه المسبب للظواهر الجوية ، فإذا صدر صوت الرعد في موسم الامطار قالوا : ان مولونجو تكلم . ويسمون قوس الفرح قوس مولونجو . ليس له عبادة ولا صلوات . اما القبائل (تونجا) التي تسكن في غربي بحيرة نياسا فتعتبر (شويتا - Chutta) بمثابة كائن اعلى . يعتقدون انه يسكن السماء : وهو يصنع المطر ويسيطر على الظواهر الجوية كالصاعقة والعاصفة الخ عند قبيلة كافيرونندو توجد اثار اعتقاد بكائن اعلى لا عبادة له يسكن السماء وقد انزل الزوج البشري الى الارض اما قبائل (كيوكيو) في كينيا وجيرانهم (كامبو - V) فان (نجاي - Ngai) كائنهم الاعلى وهو الذي ينزل الغيث ويرسل الرعد ويلقي الصاعقة فيعاقب بها المجرمين .

* * *

الاعتقاد بكائن اعلى في قارتي امريكا

الهنود المحر في الشمال الغربي للمحيط الهادي :

تقوم الدلائل على ان جميع الهنود المحر الساكنين في شمالي غربي امريكا يعتقدون بكائن اعلى يتمثل في الشمس . وتعتقد قبائل (تلتجت) ^(١) بان السماء طبقة صلبة تشبه الارض تماماً ، ويسكنها كائن اعلى يسمى (تاهت - Tahit) حيث تعرج اليه ارواح الموتى . والفجر القطبي من عمل الروح العظمى في السماء . واذا اصبح لون السماء في الفجر القطبي احمر قانياً يبشر الروح الى ان الحرب قادمة . والجرة في نظرم غصن كبير تتجمع حولها ارواح المحاربين . اما قبائل (تسمشيان) ^(٢) فلهم اله يسمى (لاكسها - Laxha) اي السماء ، ويعتقدون

Tilingit - ١

Tsimshian - ٢

بان هذا الاله غضب من اعمال البشر وحدث الطوفان في الارض عقاباً لهم عما فعلوا .
 اما قبائل (هايدا) (^(١) فان (سن - sin) او سنج - Sing) هو المثال الشخصي
 للشمس وهو بقدرته السحرية وروحه المسيطرة يشبه لاكسها . ولدى قبائل
 (اهت) (^(٢) فكرة عن كائن اعلى يدعى (كواواتهت - Quawteht) يسكن
 السماء بوصفه السيد المالك لبقعة سماوية واسعة وفتحة .

الهنود الحمر في كاليفورنيا :

ويسمى هنود كاليفورنيا الكائن الاعلى باسم الشيخ (لاسو - Lassu) اي
 الشيخ في السماء . وادعى احد العلماء انه ليس لهنود كاليفورنيا اية فكرة عن
 الكائن الاعلى ، ولكن الدراسات الحديثة دلت على ان لديهم فكرة عن
 كائن خالق ، ولا سيما في الجهات التي ظل اهلها محافظين على عناصر الحضارة
 القديمة ببساطتها البدائية في كاليفورنيا الوسطى . ويظهر هذا الخالق بصورة
 متعالية ونبيلة جداً . ويسمى اهل نهر (كاليناث - Kalinath) هذا الكائن
 الخالق باسم (كموكامتج - Kmukamtch) اي الشيخ القديم ، الشيخ الاول
 والشيخ الاب . اما قبائل (ويوت) (^(٣) فيسمونه الشيخ في العلى . واما قبائل
 (يونكي) (^(٤) فيسمونه الكائن الخالق . وهناك اعتقاد بان الشيخ السماء (لاسو)
 انزل صاعقة في الازمنة السحيقة فاصابت شجرة واحرقتها وكانت اصل النار .

قبائل (اتاباسك) (^(٥) :

ان قبيلة (دنه) (^(٦) رغم عبادتها للارواح فان لديها فكرة غامضة عن كائن

Haida - ١

Aht - ٢

Wyot - ٣

Yunki - ٤

Athbask - ٥

Dene - ٦

اعلى ، من صفاته الاصلية قدرته على تنظيم الظواهرات الجوية : الريح والثلج والمطر . وله صفات اخلاقية ايضاً تظهر في معاقبته للمجرمين ، ويدعى باسماء مختلفة . اما قبيلة (نما هو ^(١)) وهي من اتاباسك الجنوبيين فتمتاز باعتقادها بعالم السموات المؤلف من اربع طبقات حيث تسكنها الارواح والطيور والصاعقة والرعد والريح وتزعم ان (يدلكيل هستكين - Yadilqil Hestekin) هو السماء الرجل والارض الامراة .

الهنود الحمر الذين ينتظمون باتحادات عشائرية ،

تقطن هذه الاتحادات في سهل انديانا وتعتقد عشائر (باوني ^(٢)) بكائن اعلى يتمثل بصورة (تيراوا - Tirawa) ينادونه ببناء (تيراوا الاب) ، وهو السميع يسمع كل شيء ويقوم مركز حكمه في اعلى عليين في السحاب وفوق السحاب . اما السماء المرئية فسكن العناصر القديرة الخمس : الريح والشمس والارض والنبات والماء .

قبائل (سيوكس) ^(٣)

لقد قدم هذا الشعب امام الباحثين من السياح والمبشرين مادة جديدة بالبحث والملاحظة ويستبان من تدقيقاتهم ان عقيدة هذه القبائل عقيدة اصلية لم تشبها شائبة ، رغم احتكاك الاوربيين بها ، وتعتقد باله متعال من طراز التوحيد . يدعى الروح العظمى (واكان - Wakan) .

قبائل الجونكين ^(٤)

تسكن قبائل الجونكين في الجزء الغربي من امريكا الشمالية على شواطئ

Mamaho - ١

Pawni - ٢

Sioux - ٣

Algonkin - ٤

بحر المحيط الهادي وتحتل قبيلة (اراياهو)^(١) المقام الاول من بينها . وتزعم هذه القبيلة ان (شيني اتهان - Chebbeniathan) هو البشر الاول ، يحتفلون به في بعض الاعياد الدينية واحدا عيد رقص السماء ، وتهياً قبيلة (سنيه)^(٢) ساحة رقصها للقادر اله السماء الطيب ، العلي العظيم ، ويمكن الاستدلال بهذه الاوصاف على ان لقبيلة سينه كائن اعلى . ولم تحتص قبائل الجونكين وحدها بالاعتقاد بكائن اعلى بل يوجد هذا الاعتقاد لدى قبيلة (اوزبوا)^(٣) وقبيلة (مستاسيني)^(٤) وقبيلة (مسايه)^(٥) . ويشير لانج الى ان في نيوانجلند اثار عقيدة بكائن اعلى . ولدى الشعوب الشرقية اعتقاد باله ينظم الزمان وهو اله ازلي خالق الشمس والقمر والنجوم ، يتعالى على جميع الالهة الصغرى ويدعى مانتو - Manto وجاء في اخبار سائح تجول في ولاية فرجينيا ان الناس هناك يعتقدون بكائن اعلى يسكن السماء ، خلق الشمس والقمر والنجوم يدعى (اهونه - Ahone) ولا توجه اليه العبادة . اما الكائن الاعلى الذي يعبد ويقرب له القرايين فهو (اوكه - Oke) وهو كائن اعلى يثير العواصف .

قبائل اركوا^(٦)

وتعتقد قبيلة (تلتنجيت)^(٧) بالروح العظمى (يك - yek) كما تعتقد قبائل الجونكين وسيوكس بواكان . ويك مثل واكان يعبر عن تلك القوة الخصبية النافذة في كل المخلوقات . تسمى (اورندا - Orenda) عند شعب الاركوا ، وخصائصه تشبه مانا الملائيين .

Arpaho - ١

Cyenne - ٢

Ojibwa - ٣

Mistassinni - ٤

Micmae - ٥

Irkoï - ٦

Tilingit - ٧

قبائل بيوبلو (١)

تقطن قبائل بيوبلو في مكسيكا الجديدة في ولاية اريزونا . تعتبر هذه القبائل الشمس بمثابة كائن الهي . يجعلها الناس ويحترمونها كثيراً . والشمس عندهم هي الخالق الزراعي . اما قبيلة (هوبي) (٢) فتمتاز بعبادة اله السماء . يطلق عليه اسماء مختلفة يبدو انها كانت في الاصل كواثن عليا . وجاء في اساطير قبائل بيوبلو انهم خرجوا من باطن الارض وعمروا العالم ، ثم عرج اهل النجوم واهل الصواعق الى السماء لكي يؤمنوا الماء لاهل الارض . ولدى قبيلة (زوني) (٣) اثار اسطورة بدائية مضمونها ان الشمس هي الاب والارض هي الام ، وهما الصورتان الفعالتان في التكوين ، انفصلت الارض من جيبها وحملت الاف الاف البذور في صدرها ، والحرارة عنصر الارض الام ، اما البرودة فعنصر السماء الاب . والمرأة الموجود الحار ، اما الرجل الموجود البارد .

* * *

الاعتقاد بكانن اعلى في امريكا الجنوبية

الكاريب (٤) والارواك (٥)

لقد تسلسل شعبا الكاريب والارواك من الجزر الى القارة الامريكية الجنوبية وانتشروا في الداخل والى الغرب . وخاصة في وادي الامازون واختلطوا باهل

Pablo - ١

Hopi - ٢

Zuni - ٣

Caraib - ٤

Aruak - ٥

البلاد الاصلين وكان لكثير من تلك المناطق كائن اعلى يدعى (اروموم كوندبي Aromum kondi) يعيش في العلى ، وهو الكائن الاعلى لشعب الارواك الذي يسكن في مناطق الساحل . وكان الخالق الثاني عند قبيلة (تريو) (١) من شعب الكاريب يدعى بلييليفا Pelepleva يسكن هذا الكائن فوق النجوم في جنة يحري فيها نهر عظيم وفيها شجرة جبارة (المجرة) حيث تحوم حولها الطيور الاولى . وتعتقد قبيلة (ايكابويو) (٢) بالروح العظمى التي تدعو (ماكونايمما - Makonaima) وهو كائن اعلى لم يره احد وان ولده شبه اله . ويعتقد الناس في بلاد الجويان بان الكائن الاول تتجلى قدرته بظواهرات الطبيعة ، اي الرعد والصاعقة . ولدى قبيلة (باكيري) (٣) من الكاريب اساطير خاصة بالسما والنجوم والشمس والقمر والمجرة والسحاب . ويختص الكائن الاعلى (كاموسيني - Kamussini) بقبيلة باكيري : يسكن كاموسيني في السماء وينسج الخيوط كما ينسجها العنكبوت . ومن شهري آب وايلول ينسج الخيوط ويتسلق بها ويذهب الى السماء . ولكاموسيني في معتقدات الباكيري مقام لا يضاهيه فيه كائن اعلى اخر . وهو الكائن الاول وبقدرته تكون الكون ، وهو الذي خلق البشر . ولقبيلة (غبي) (٤) من الكاريب و (اوياما) (٥) من بوليفيا كائن اعلى يدعى باسماء مختلفة (تاموي - تاموسى وتاموشي - Tamochi , Tamossi , Tamoi) وتعني هذه الاسماء (الجد) وهو الاب الكبير وشيخ السماء . ويناديه الناس (يا جدي) ، والصفة المميزة لهذا الكائن الجد بلا منازع وهو البشر الاول المتعم وشبه اله . وعند قبيلة (مندروكو) (٦) كائن اعلى يدعى (كارو - Karo) وهو الكائن الاول

١ - Trio

٢ - Aekawoie

٣ - Bakairi

٤ - Gabbe

٥ - Oyama

٦ - Mundurucu

ويدعى ابنه (رايرو - Rairu) ولدى قبيلة (اباوكوفا) (١) كائن اعلى يدعى (نندبروفوسو - Nanderfuçu) وهو على ما يظهر كائن شمسي ، وقد اتى بالنور قبل خلق الشمس وخلق الارض ثم خلق الشمس والقمر وانسحب بعد ذلك كلياً الى الساحات العليا من السماء .

قبائل البتاجون - اروكان :

تقطن قبائل (الاروكان) (٢) في السفح الجنوبي من سلسلة جبال الاند . وهي تعتقد بكوائن عليا تسيطر على البراكين والجبال والزلازل . ان (بللا - Pilla) هو الكائن الاعلى للاروكان وقد اختص بالرعد . اما (نجونمايوم - Ngunemapum) فهي سيدة الارض . ويعتقد اهل البتاجون بكائن اعلى خالق لا يهتم ولا يبالي بشؤون البشر . وجاء في كتاب نشر سنة ١٧٨١ ان لاهل بتاجونية (في جنوب جنوبي امريكا) كائناً طيباً وكائناً اخر يكون طيباً تارة وشريراً تارة اخرى ، يحكم الاول مناطق السماء . وهناك كائن يدعى (آل - لال - El - Lal) يتصوره الناس نصف اله ، ملاً العالم بالحيوانات المفترسة .

جزر فيجي

يعتقد اهل فيجي بوجود روحي قادر على عمل الخير والشر . ولدى قبيلة (بهاجان) ثلاث ارواح شريرة ، ومن بين الارواح الخيرة ما يرمز اليه ببشر عظيم هو البطل الذي يعمل لاجل الغابات والجبال . وبهذا الوصف يمكن اعتباره كائناً اعلى ، ويعلم هذا كل ما يقال وكل ما يعمل ، ولا يفلت من يده شيء . ويبدو ان له مظهراً شمسياً . وينظم هذا البشر الخارق امور الجو بموجب اعمال البشر فاما نعم عليهم بالجو العاجي الجيد واما ان يبتليهم بجو متلبد سيء ، واذا عمل شرراً يعاقبهم بالصاعقة وبالثلج والبرد .

Apapocova - ١

Abucan - ٢

استعرضنا فيما سبق خلاصة المعلومات التي جمعها بتاتسوني عن اعتقاد القبائل المتوحشة بكائن متعال وباله السماء. وقد اختار اكثر القبائل هجية لتأييد نظريته القائلة باعتقاد الاولين باله يسكن السماء ، فاختر من اوستاليا اكثر قبائلها ولا سيما الارونتيين ومن اوقيانوسيا الشعوب المنتشرة في الجزر الصغيرة ، وجزر اندامان واقزام ملاقة . ومن افريقيا الاقزام البوشان والهوتنتوت والبانسو ، ومن القبائل المنتشرة في القارتين الشمالية والجنوبية ولا سيما قبائل كاليفورنيا . وفي الحقيقة ان اكثر تلك القبائل اعتقدت بكائن اعلى يسكن في السماء ويتصرف بالظواهر الجوية ، والرعد والبرق والصاعقة والمطر والعاصفة . ويلاحظ انه ليس ثمة فرق كبير بين نظرية لانج ونظرية بتاتسوني ، فالاول يذكر ان البشر الاول اتجه بعقيدته الى الكائن الاعلى ، بينما يطلق عليه الثاني الكائن السماوي ، او اله السماء . وتتفق النظريتان على ان البدائيين يعتقدون بقوة تسيطر على الكون خلقت الموجودات وتحكمت في الظواهر الجوية . وفكرة التوحيد تستمد حكمها من هذا الاعتقاد . وكان من الطبيعي الاتسم نظرية بتاتسوني من الانتقادات : « يتساءل المنتقدون لنظريته ما هو دليل بتاتسوني على ما ابداه من اراء ، انه لم يأت بالبراهين الواضحة لاثبات فكرته ، لانه كان يضع اراء وفروضاً فحسب من دون ان يبين الاساس المنهجي العلمي الذي استند اليه ، ولم يعالج مسألة قدم الكوائن الالهية في الزمان ولم يبين الاسباب التي جعلته يضع الاله السماوي المتشخص في بدأ الانسانية . انه لم يستخدم منهج التاريخ الثقافي للاقوام البدائية لكي يوضح عهد الهه السماء المتشخصه التي وضعها ، وقد اعلن انه اصح المناهج وادقها ، ولكنه اهمله اهمالاً كاملاً . ويلاحظ شمت ان كتاب بتاتسوني لا يحوي تركيباً على الاطلاق وانه مجرد تلخيص للوقائع ، بدون تحديد تاريخي لهذا الجمع ، وهذه ظاهرة مملوسة في كل الكتاب . فلا نجد اية محاولة لتعيين مسألة المتقدم والمتأخر بطرق

موضوعية او ادنى مجهود لاثبات العهود الانتولوجية النسبية للموجودات السماوية ان بتاتسوني نفسه يعلن ان عدداً كبيراً من تلك الموجودات لم يكن موضوع عبادة بل قرر هذا في نص هام « المشاهد ان الموجود السماوي لم يكن في معظم الحالات موضوع عبادة » (١) .

ولعل اكثر ما يؤخذ على بتاتسوني انه اكتفى بجمع المعلومات من دون ان يقارن بينها ويبحث في اي منها متقدم واي منها متأخر . وهل ان هذه المعتقدات او المعلومات ليس فيها عنصر دخيل ؟ الا يمكن ان تتسرب فكرة الكائن الاعلى الى تلك القبائل عن طريق الاحتكاك والاتصال ؟ ومن المعلوم ان الدراسات العلمية عن تلك القبائل المتوحشة لا يتعدى تاريخها قرناً من الزمان فقد بدأت بعد منتصف القرن التاسع عشر اما المعلومات التي سبقت ذلك فعبارة عن اخبار سياح فحسب .

وقد اكتشفت القارة الامريكية قبل الدراسة العلمية للاقوام المتوحشة بقرون وكذلك استراليا . ترى هل ان تلك المعتقدات كانت شائعة لدى تلك الاقوام قبل الاكتشاف ؟ وهذا ما لا سبيل الى معرفته . وجدير بالذكر ان شعوباً تقطن في مناطق متباعدة لا اتصال بينها مطلقاً ، تفرق بينها الابحار المحيطة ، تسكن في جنوبي استراليا وفي اواسط افريقيا وفي امريكا الشمالية وفي اقصى جنوبي اميركا الجنوبية ، وفي الجزر الصغيرة والمنتشرة في المحيطات يكاد جميعها يعتقد بوجود كائن اعلى . وبديهي ان تكون صورة هذا الكائن غامضة ، يشخص تارة ولا يشخص تارة اخرى ، لا تراه العين احياناً . ويصور احياناً اخرى بهيئة بشر ضخم جداً او بهيئة حيوان نادر ويكون له زوجة واولاد .. والصورة هذه ليست غير معقولة في نظر البدائي . واذا كان ادراكه لهذه الصورة تم بالحدس والتخيل وليس بالتفكير المنطقي المتعقل فمن السهل عليه ان يتصور وجود كائن يتصرف في كل الظواهر الجوية ويتحكم في الموجودات وله القدرة

على الخلق ، ويصدر عنه في الأغلب الخير وإذا ما بدأ الشر فينبغي ان يكون قد صدر عن كائن اخر ليس له القدرة على مخالفة الكائن الاعلى ، لان هذا الكائن يقدر على ازالة الشر . وإذا شاء يهدىء العواصف ويحول دون نزول الصاعقة ويقضي على الجفاف بانزال المطر والبدائي يعتقد بصحة ذلك .

ومن اخر البحوث في توحيد البدائيين ما كتبه الاستاذ الايطالي (بوكاسينو R. Boccassino) في المجلد الاول من كتابه تاريخ الاديان (K) جاء فيه :

« ويستبان مما اورده ان الشعوب الاكثر بدائية لها مفاهيم دينية تختلف كثيراً عما نسبته اليهم نظرية التطور ، ولكن هل هذه الشعوب موحدة ؟ ، وإذا كان يقصد بالتوحيد التسليم باله واحد مجرد عن اي كائن اخر ذي مظهر طبيعي وذي طابع متسلط ، او قدرة مسيطرة ، فنقول ان البدائيين ليسوا موحدين . وهذا التحديد قد نستنتج ان الاديان الاخرى التي سمت الى مرتبة التوحيد يجب ان نحشرها بين اديان الشرك . اما اذا عكسنا الامر وقلنا ان الكوائن الاخرى الواقعة الى جانب الكائن الاعلى (نفوس و ارواح الطبيعة و ارواح الموتى و جميع الكوائن الاخرى التي يتوجه الناس اليها بالعبادة) لا تقدر على القيام باي عمل دون ارادة الكائن الاعلى ، يبدو لنا عندئذ بأنه لا يجوز انكار التوحيد لدى الشعوب البدائية . فلدى (شعب اليانا - Ymana) في ارض النار في اقصى جنوبي امريكا تبرز شخصية (واتانيوما) وحدها بمثابة كائن اعلى اتصفت باوصاف الالهية . اما الكوائن الاخرى فجميعها خاضعة له وتعمل بامره . لهذا يجوز اعتبار دين ما من اديان التوحيد اذا كانت توجد فيه الهة اخرى يجانب الكائن الاعلى ولكنها خاضعة له اطلاقاً . ان دين الاقوام الكلاسيكية (اليونان والرومان) لا يمكن بان يوصف بأنه دين توحيد ، وعلى الرغم من وجود اله اعظم من الالهة الاخرى ، لأن مجمع الالهة عندهم يضم الهة مستقلين يتحاربون ويتباغضون ويتقاتلون ولا يخضعون لاله خضوعاً تاماً .

كيف توصل البدائيون الى معرفة الاله والاله الواحد ؟

لقد ارتكب انصار التصور خطأ كبيراً في البحث عن دين الشعوب البدائية من دون ان يتعمقوا في دراسة طراز معيشتها وحياتها . لقد مثل نظرية التطور علماء بعيدون عن علم الانتولوجيا ، وكان (ماكس مولر) مستشرق اما (وندت وماوس ودر كهيم) فكانوا علماء اجتماع . وكان (اولو) عالم بروتستاني متخصصاً بالالهيات ، اما (ليفي بريل) فكان سيكولوجياً . ان الانتولوجيا الحديثة ضد نظرية التطور في الدين ، وهي لا تهتم في دراستها اي عنصر من حياة الشعوب وذلك بعد ان تطلع تماماً على الحضارة المادية والبحث في الحياة الروحية . لقد توصل البدائيون الى معرفة الاله ايضاً للسبب ذاته . لقد سبق ان ذكرنا ان الشعوب الاكثر بدائية كانت تسعى للحصول على ما تقدمه الطبيعة من صيد البر والبحر وجمع الثمار والجذور ، وكانت يومئذ لا تعرف فلاحه الارض وتربية المواشي ، وكانت تقضي وقتها بوجه عام في محلات وعرة لكي تحافظ على نفسها من الشعوب الاشد قوة والاكثر عدداً ، وكان ينبغي للرجل ان يعمل كل يوم للحصول على الطعام الضروري له ولأسرته ، وكان يذهب الى الصيد ، بينما كانت المرأة تجمع الثمار والجذور . ولم يكن العمل هذا رتيباً ما دام الصيد يحدث تبدلات لا حد لها ، وما ان ينتهي الرجال من عملهم ويجمعون ما يكفي لاعاشة اسرتهم حتى ينطوي الناس على بدائيتهم في ساعات الفراغ يقضونها بوجه عام في سرد القصص ورواية الخرافات .

ويذكر (كوبرس — Koppers) ان قبائل اليانا في ارض النار يخصصون ثماني ساعات من يومهم للعمل وثمانتي ساعات للنوم والباقي يقضونه في رواية القصص والخرافات . ان مثل هذه الممارسة اليومية تقوي ملكة الابداع . ان الصيد يوقظ كثيراً من الاحاسيس ويقوي الذكاء لأنه يحث الرجل على التغلب على اقوى الحيوانات ، والسعي وراء الصيد يولد في البدائي توتراً في الاعصاب سرعان ما ينتقل الى فرح عندما تتم الغلبة على الصيد . وفي الاكثر

لا يمكن مهاجمة الحيوانات لأنها قوية جداً ، مما يحتم اللجوء الى الحيلة . هكذا تدعو الحياة اليومية الى اثاره جميع الملكات العقلية وغير العقلية . ومن الواضح ان البدائي يتفهم الحياة بصورة عقلية . والحقيقة ان السحر لم يتقدم في الشعوب البدائية الا قليلاً ، ولذلك نرى اقزام افريقيا لا تعير الا قليلاً من الاهتمام الى الرقيات التي يحملها جيرانهم من الزوج . يشاهد في بعض الشعوب البدائية ان السحر اعتمد في تأثيره على الكائن الاعلى ، ولذلك نرى اليانا في ارض النار يتعجبون كيف ان الساحر يقدر على الرقية والعمل السحري مستقلاً عن الكائن الاعلى وخلافاً لرغبته .

ان الدين لا ينبثق من (اللاعقلي كما يدعي (اوتو) صحيح ان البدائي بلغ من الناحية الدينية حداً لم يكن معه اكثر تعقلاً من المذاهب الفلسفية العظمى . فلسفة الهنود والصين ، وكانت فلسفة اليونان نفسها من ناحية فكرة الاله غير واضحة ومعقدة . ان مفهوم اله خلاق لم يتطور بصورة مماثلة في جميع الشعوب البدائية ، ولا يعرف بعضها شيئاً كثيراً عن ذلك ، بينما شعوب اخرى كهنود كاليفورنيا واقزام الجابون في افريقيا ادركوا خلقه الكون من لا شيء . ولم يستطع ارسطوطاليس التخلص من فكرة المادة الاولى . وقد توصل البدائيون الى مفهوم الاله خاصة عن طريق صلة العلة بالمعلول ، او ارجاع المسبب الى السبب بصورة منطقية . وقد اشار لانج ان البشر ما ان توصل الى صنع المواد حتى توصل بطريقة المشابهة الى مفهوم الاله الخلاق . ان الخلقه في نظر تلك الشعوب جرت من قبل الكائن الاعلى بلا ادوات ولا الات ، اذ يكفي ان يريد الخلاق ذلك فيقول له كن فيكون (١) .

الوثنية

ومن الاوضاع الدينية المشهودة عند الاقوام المتوحشة، الوثنية ، وهي ليست الدين البدائي الاول اطلاقاً ، ولكنها عقيدة دينية متأخرة ، وجدت عند أقوام وشعوب اكثر ثقافة وتحضراً من ثقافة البدائيين وتحضرهم. وقد ظهر للمستعمرين في افريقيا ان بعض الزوج فيها يتخذون من الاحجار والقواقع وغيرها مادة للعبادة يتقربون اليها ، ولقد اطلق عليها البرتغاليون اسم (فتيش Fetish) والكلمة هذه مشتقة من كلمة (Fetico) البرتغالية التي تعني المادة السحرية او السحر لأن الوثنية فيها شيء من السحر، والساحر في الاقوام الوثنية كالكاهن في الاديان الاخرى .

وجاء في الانسكلوبيديا بريتانىكا ما يلي : « ان كلمة (Fetich) او (Fetish) استعملت لأول مرة في القرن الخامس عشر من قبل البرتغاليين الكاشفين في افريقيا . وكانت بقايا من اجساد القديسين والسبحات والصور تجدد في اوربا بكثرة، وكان الناس يرون فيها قوة سحرية سماها البرتغاليون (Fetico فتيكو) تطلق على حيوان او روح محلية لنهر او رابية، اما كلمة (فتيشم Fetishism) فتستعمل في معان متعددة :

١ - عبادة المواد التي لا حياة لها خصوصاً المواد الجامدة الافريقية .

٢ - دين الزوج بوجه عام .

٣ - عبادة المواد غير الحية التي يتصورها الناس مقراً للارواح .

٤ - مذهب تجسيد الارواح في بعض المواد ، او ارتباط الارواح بها ، او نقل التأثير الروحي بواسطتها .

٥ - استعمال المواد بمثابة تعويذات لا لغرض العبادة بل لانها تثبت قوتها السحرية من إله او روح .

٦ - استعمال المواد بمثابة تعويذة لان الناس اعتقدوا بان قوتها السحرية كامنة فيها . اما تعبير فتيش كما الشائع فيعني عبادة او تبجيل مواد غير حية يعتقد اصحابها بانها ذات فعالية سحرية ناشئة من قوة كامنة فيها لمدة موقته او لمدة دائمة ، ولا يعتقد الناس بانها تنبثق منها بسبب استقرار الاله فيها او لسبب ايصال قدرته اليها .

وقد اثرتا ترجمة فتيش بالوثن لانها اقرب الى المعنى من الصنم . والوثن عند العرب القدماء في الاغلب مادة من حجر او خشب او طعام يؤكل ، وتكون المادة على الاكثر على حالتها الطبيعية من دون ان تعمل يد الانسان فيها نحتاً او صقلاً او نقشاً . وبينما الصنم يمثل الاله المعبود فان الوثن يكون احياناً المعبود نفسه ، لأن الروح حلت فيه وزودته بقوة سحرية خارقة . وكانت الوثنية شائعة لدى العرب قبل الاسلام ، فكانت اكثريتهم تتخذ بعض المواد اوثاناً لها وتقيم لها المحاريب وتعبدها ، فاللات مثلاً كانت تعبد في الطائف بصورة حجارة مربعة الشكل .

واعتبر تايلور الوثنية تطوراً من الروحية وقال انها نشأت من قدرة الروح على التقمص وفكرة التقمص عنده : « لعبت دوراً هاماً في الدين البدائي وفي الشعائر والممارسات البدائية التي تتخذ طابعاً دينياً وسحرياً ، ويستغلها الناس انفسهم لتحقيق بعض اغراضهم . فالرجل البدائي قد يعمل على احلال روح من الارواح الشريرة في جسم الاجسام الغريبة كي يتخلص منها او ليجعل هذا الجسم

كائنًا معينًا. ويجوز اعتبار بعض تلك المواد رقيات رمزية تنقل خواصها بصورة غير معلومة ، كما يفترض ان خاتمًا من حديد يمنح صاحبه القوة والثبات ومخلب عقاب يضمن لحامله الهرب السريع . ان الناس جميعاً يميلون بقليل او بكثير الى جمع المواد والاعجاب بها لان رونقها وشكلها وخاصيتها او ندرتها تجعلها من الغرائب . ولنقارن بين تبجيل رجل من قبيلة الاستياك في امريكا لحجرة صغيرة وبين الفرح الذي يظهره الصيني في جمع انواع مختلفة من قشور القواقع وفلوس الاسماك وحر اشفها . ولاجل معرفة مادة يعتبرها الناس أو لا يعتبرونها يجب التأكد من ان الذين يحوزونها يظنون ان روحاً قد تقمصتها ، او ان الروح تؤثر بواسطتها ، وانهم يعتبرونها اوثاناً . وهناك كوائن روحية تتجول طليقة في العالم وتجد مواد تتقمصها فتجعلها اوثاناً . وبلاستطاعة من الناحية النظرية التمييز بين مادة تعمل بفضل ارادة الروح وقوتها او النفس ، وبين نفس غريبة حلت في تلك المادة وتعمل فيها من بعيد وبكلمة اخرى بمثابة جسم ذي ارادة .

ان الاستاذ (ويتس - Waitz) قد لخص المبدأ المستقي من حديث السياح ووصف الفكرة التي يحملها الزنجي عن وثنه بالعبارات التالية : « يتصور الزنجي ان النفس تقيم او تستطيع ان تقيم في اية مادة مهما كانت . ويحدث احياناً ان نفساً في غاية العظمة والمقدرة تستقر في مادة تافهة . ولا يفكر الزنجي ان النفس قد ارتبطت ارتباطاً دائماً بالمادة التي استقرت فيها ولكنه يتصور انها اتخذت تلك المادة مقراً رئيسياً لها . وفي بعض الحالات يجعل الواحد ضد الاخرى ، ولكنه في اغلب الاحيان يجمع بينهما ليجعل منها كلا واحداً . والمادة قبل ان تعتبر وثناً او يختارها الناس وثناً يقتضي اجراء بعض التجارب عليها فاذا كانت المادة لا تلبى رغبة مالكها او لا تضمن له منفعة فانه سرعان ما ينبذها للبحث عن واسطة اقدر . والوثن بنظر الوثني يسمع ويفهم ويعمل ، فيعبده ماله كما ويخاطبه بدالة كما يخاطب صديقه المخلص ويسكب عليه الخمر . وفي حالة الخطر يتوجه اليه مستصرخاً اياه ، كما يريد بذلك ان يوقظ عزمته . ومن غريب ما يذكر في اختيار الوثن ان عجوزاً زنجياً خرج من داره لامر مهم ولما مر بعبئة

داره اصطدم بحجرة صغيرة جرحته . وعلى اثر ذلك فكر ان الحجرة لا بد ان تكون وثناً فالتقطها وراح يعبدها لانها قدمت له خدمة جليلة في قضاء حاجته (١) .

وفي صدد نشوء الوثنية يقول تايلور ما يلي :

« تلعب فلسفة التقمص دوراً خطيراً جداً في نفوس الهمجيين المتوحشين ، وتساعد على ايضاح حالات الاستغراق والامراض العقلية ولا سيما حين يرافقها كلام غير موزون ، وبالتعميم كادت هذه النظرية توضح جميع الامراض ، وهي من جهة اخرى تمكن المتوحشين من التخلص من نفس شريرة باحلالها في جسد اجنبي . وفي الاخير تحثه على ان يحمل شيئاً مادياً ليقوم بخدمته وكذلك تشجعه على عبادة مادة تحتوي النفس - كما يستوعب الاناء السائل - ويعتبرها فيما بعد إلهاً . وهذا في الواقع هو المنشأ العقلي للوثنية حصراً ، ومنشأ عبادة الاصنام بنطاق اوسع » .

ومما يلفت النظر ان الوثنيين جميعاً يعتقدون في نفس الوقت بالارواح مما يدل على ان الوثنية تطور للروحية لهذا اعتبرها انصار الروحية مرحلة لاحقة للروحية . ووضح العالم الالماني (شولتز) سبب تعلق الوثني بالوثن بصورة مباشرة . وذكر ان المتوحش يهتم كثيراً بالمواد التافهة ، فيتعلق بها ويزداد اعجابها بها ، ويتحول تعلقه هذا واعجابها الى التصور بان لها روحاً ولها ارادة . ولا يصعب على المتوحش هذا التصور ، ثم يلوح له بمرور الايام ان لبعض الحوادث والمصادفات صلة بتلك المادة وعندئذ يقتنع بلزوم عبادة تلك المواد التي كن لها الحب والاحترام في بادىء الامر . ويبدو من ايضاح شولتز ان الوثني متى اعتقد ان المادة الفلانية تجلت فيها الروح اتخذها وثناً له . ومما يلفت النظر تعدد الاوثان عند الاقوام الوثنية . فيكون للفرد وثن وللقبيلة وثن ، ومعنى ذلك ان الفرد يعبد وثنه ووثن اسرته ووثن قبيلته . مما قد يشير الى ان في الوثنية شيئاً من الطوطمية .

١ - تايلور - الحضارة البدائية ، الجزء الثاني .

والاوثان تعبد في بعض الاحيان بصورة دائمة بينما هناك اوثان تعبد لغرض خاص
فاذا ما انتفى ذلك الغرض تلاشى شأن الوثن . واذا سافر الوثني يحمل وثنه معه
لحمايته في الطريق ومساعدته على اقتحام الصعوبات . فاذا انتهى سفره وحصل
على غايته زالت قوة الوثن الذي رافقه في السفر . واذا كان الوثن مادة تؤكل
اكلها الوثني بعد انقضاء حاجته .

* * *

الدين وبشر ما قبل التاريخ

اشرنا فيما سبق ان بشر ما قبل التاريخ خلف بعض الاثار التي تدل على شعور ديني وبما ان الاثنولوجيا (علم الاقوام) التطورية اعتبرت ما قبل التاريخ حلقة وصل بين عالم الحيوانات والتاريخ ، لذلك يكون الادعاء بان الشعوب التي عاشت قبل التاريخ والشعوب البدائية بعدها لم تشترك في صنع التاريخ ادعاء مردود ، لأنه ما من شعب الا وضع تاريخه . وكما ان الاثنولوجيا تسلك في دراستها المذهب التاريخي (المدرسة التاريخية) فكذلك دراسة ما قبل التاريخ ينبغي ان تسير على المذهب ذاته . لقد ايدت دراسة ما قبل التاريخ نتائج الاثنولوجيا . واستناداً الى النتائج التي توصل اليها الاستاذ (منجهيم - Menghim) الذي حاول لأول مرة اكمال دراسة اصولية عن ما قبل التاريخ في اوربا واسيا وافريقيا - تجلت الصلة الوثيقة التي تربط الاثنولوجيا بما قبل التاريخ . مثال ذلك ان مراحل متعددة لدور (بروتوليثيك - اي المرحلة التي سبقت الدور الحجري) اظهرت الصلة بين حضارة قبيلة اليانا - Yamana في ارض النار في امريكا الجنوبية وبين حضارة ذلك الدور . وقد وجد في الكهوف في سويسرة جماجم وعظام تجيز الاستنتاج بانها بقايا ضحايا قدمت قرابين .

ان الرأي القائل ان بشر الزمن الجيولوجي الرابع لا دين له اصبح الان

رأياً خاطئاً . وقد دلت الدراسات الحديثة على وجود الدين حتى في ازمته أقدم من الدور الحجري ، وان لم يكن الامكان التثبت من معرفة الزمن الذي وجدت فيه الاديان . ترى ما هو الدين الذي كان بشر الدور الحجري القديم يدين به ؟ من العسير التأكد منه بمجرد الاستناد الى نتائج ابحاث ما قبل التاريخ ، لأن بقايا ما قبل التاريخ تنحصر على الاكثر بالثقافة المادية وهذه الاثار نفسها قليلة ، وتستطيع الاثنولوجيا ان تفسر ما قبل التاريخ بما هو معلوم الان عن اوضاع الشعوب البدائية الحالية . وقد توصل العالمان منجهيم و (جاس - Gass) الى نتائج في هذا المجال . فالاستاذ منجهيم بدراسته لبقايا اثار ما قبل التاريخ التي وجدت في كهوف سويسره قد اثبت وجود القرابين في زمن قبل الموستري - قبل الدور الحجري القديم - وهي قرابين بكر الحاصلات ، ولم تكن وقتئذ عبادة الحيوانات والسحر موجودين ، اما الاستاذ جاس فقد شرح بتفصيل النتائج التي توصل اليها منجهيم مبتدئاً من المعلومات الموثوقة - لانها ما زالت شائعة لدى الشعوب البدائية الحديثة - فتوصل الى ان وجود قرابين بكر الحيوانات في اوربا امر لا مجال للشك فيه وهي ترجع الى زمن ما قبل الموستري - قبل الدور الحجري - والزمن المجدلاني ، وبالمعطيات الاثنولوجية اعتقد جاس وهو على حق ، بانه استطاع ان يبين ان في الطبقة الارضية الموضوعه للبحث توجد بقايا ضحايا بكر الحيوانات المقتولة في الصيد ، وقد قدمت قرابين الى الكائن الاعلى ، وما زالت الشعوب البدائية تمارس هذه الضحايا . ان من اوصاف الكائن الاعلى انه (واسع الحظ في الصيد) وفي الحفريات التي اجراها (اميل بخلر - Bachler) في كهوف سويسره قبل بضع سنوات اكد بتفصيل وجود ضحايا البكر في الدور الحجري القديم ؛ ولا يوجد في هذا الدور كله أدنى اثر يشير الى الضحايا البشرية (١) .

صعوبة دراسة الدين لدى بشر ما قبل التاريخ : ولأجل دراسة بشر ما قبل التاريخ من المستحسن التمييز بين اربعة ادوار موعلة في القدم اليك بيانها :

اولا - الدور الحجري (دور الحجر المصقول وزمن البرنز) .

ثانياً - دور الحجر القديم (دور الحجر المشذب في زمن اورنيك ومجدالين) .

ثالثاً - الدور الحجري الاقدم ومن عاصره من الزمن .

رابعاً - دور البشر الاول ، او بالاحرى شبه البشر كبشر لاشابل وبشر نهر السين وبشر نندرتال وبشر بكين وبشر الصين الذي ترك اثاراً غريبة كالخشب المكسور والحصاة الخ . مع العلم ان هذا البشر لا يشبه الجنس البشري بتقاطيعه المعروفة .

وينبغي ملاحقة الدين - او على الاقل امكانية التحري عن الدين - عند البشر في مراحل وجوده وذلك لسببين :

اولا - لأن هذه المخلوقات السفلية من البشر وجدوا على الارض دون ريب ، كبشر جاوة وبكين والحلقة المفقودة بين القردة العليا والبشر . ثانياً - لان كان لديهم مفاهيم دينية غير واضحة وبسيطة في الوقت نفسه . ومن الضروري معرفة ما اذا كان هناك تشابه حتى في ابسط صورة بين الاوضاع الدينية لدى البشر في حدود الحيوانية ولدى الشعوب الاقل حضارة والتي تتكون من بشر حقيقي . ان الفرق بين ذكاء القردة وذكاء البشر كبير ، ويبدو انه ناشىء من خاصة الكلام عند البشر ، لقد ظلت صرخات الشمبزي المتقطعة بدائية . ان ديمومة الافكار وحصيلة التقاليد - وهي من خصائص البشر - لا توجد لدى الاطفال والقردة لفقدان اللغة ، ومع هذا فان للقردة نصيباً اكبر من الغريزة لأنها تستطيع ان

قنشىء بينها نوعاً من السلوك وليس صحيحاً الادعاء بان صنع الادوات خاص بالبشر . اذ دلت التجارب التي اجريت على القردة العليا على انها ذات استعداد ظاهر في ابداع الادوات وربط العصي وايجاد الحيل للتغلب على الصعوبات في سبيل الحصول على الثمار . وامام هذا الاستعداد لدى اشباه البشر في تطور الذكاء لا يستبعد ان يظهر الدين - بمعنى المقدس - بشكل بسيط يدفعه الى الوجود قوى الطبيعة الغامضة الهائلة التي تستحق الاعجاب وتدعو الى الدهشة ، وتساعد الانسان الذي يشعر ازاءها بتفاهته . وهذا سبيل من سبل مختلفة ينتهي الى الشعور الديني ولا يتطلب هذا الشعور تطورات عقلية عميقة لذلك لا يستبعد وجود الشعور الديني عند بشر نندرتال الذي كان نموه العقلي بدرجة صبي على اهبة البلوغ نظراً للادوات التي كانت تحيط به ويظن انه صنعها ، وعند بشر بكين الذي كان يستعمل النار التي يتدفأ بها ، لهذا يقتضي معرفة فيما اذا كان الشعور الديني البسيط كان معروفاً عند اشباه البشر ، او ان ذلك الشعور يرجع الى عهد سحيق في ما قبل التاريخ . والجواب على ذلك نعم ! انه كان معروفاً . وهناك متبعون يرون ان الدور البدائي للبشرية كان تاريخياً دينياً بالغ الكمال ، وهناك اساطير عند الاقوام المتحضرة تزعم ان دوراً ذهبياً سامياً سبق العصور المتأخرة حضارياً ، كان البشر فيه يعيش على ما تجود به الطبيعة من نعم دون مشقة . ومنذ ان اكتشفت الازمنة الحجرية والبرونزية اخذ الناس يعتبرون ان البشرية سائرة في طريق الحضارة نحو اوضاع مادية اكثر فاكثر وعقلية حضارية اقل فاقل .

ولم تتطور الحضارة بموجب قانون واحد فحينما كان البشر يعيش على الرعي كانت الامور الدينية تنال جل اهتمامه لان الحياة في العراء الواسع ومراقبة القطعان والتأمل في الطبيعة اثارت الاستعداد الى تقبل الافكار الدينية . وفي دور الزراعة وادوار الصيد - وقد اعقب دور الرعي - اختلقت امكانيات الحياة الدينية تماماً بامكانيات الجهالة الدينية . والأمر الثابت انه في الدور الذي سبق التاريخ تكونت حضارات عقلية متسامية في جهات عديدة من العالم : في

آسيا الصغرى وفي بلاد الرافدين وفي جزيرة العرب ، ومن الجائز في الهند وفي مصر ايضاً . ولأجل دراسة العقلية الدينية في الازمنة البدائية يستحسن تقسيم الادوار الرئيسية الى اربعة ازمنة :

اولاً - الطبقة الاولى للبشرية البدائية - مبتدئين من الزمن الاقرب للدور التاريخي : أي الدور الحجري الجديد وزمن البرنز . ان اكثر الاساطير المهمة كاسطورة (بروميثوس) اليونانية من انتاج هذا الدور ، ويمتاز هذا الدور في التاريخ بازدهار الحضارات العظمى فيه كالحضارة البابلية والمصرية . وقد تقدمت المعارف الفلكية فيه والتي كانت شديدة الصلة بالدين . ان المعارف الفلكية التي توصل اليها البشر عليها تحمل على الافتراض بانها ملاحظات استمرت الاف السنين .

ثانياً - الدور الذي يرجع الى عهد اسبق من الدور الحجري الجديد وعباداته الفلكية وهو دور الصناعات الخاصة . وكانت صناعات هذا الدور بزمنه المجدلاني والاورنياكي تشبه تماماً الصناعات التي حاول سكان غينية الجديدة صنعها . ومن الخطأ اتخاذ قبائل الشعوب الحالية البدائية دليلاً على انه لم يجر اي تغيير في الازمنة الاولى . وهنا يتبادر السؤال اية قبيلة من الشعوب البدائية اكثر بدائية من القبيلة الاخرى . يرى بعض العلماء ان قبيلة الارونتا - Arunta في استراليا اكثر بدائية بين البشر الحالي . بينما يرى علماء اخرون ان اقزام افريقيا وآسيا ظلوا معاصرين للجنات الارضية . ويبدو ان قبائل البوشيان في افريقيا ، قبل ان تتسرب اليها الحضارة الحديثة كانت في معاشها اقرب الى الحياة التي عاشها بعض بشر الحجري الجديد .

ثالثاً - وفيما يتعلق باجداد دور بشر الحجري الجديد وهم اكثر وحشية من البشر البدائي في عهدنا ، فما تزال صعوبات كبيرة تجابه الباحث في استقاء المعلومات عنهم . لقد عثر لدى اولئك البدائيين في البر والبحر على طقوس جنائزية منتشرة كثيراً ونماذج لمدافن واضحة وغامضة ، فالجماجم كانت تجمع احياناً في مكان واحد .

رابعاً - دور المخلوقات الاكثر بدائية كبشر بكين . فان المفاهيم الدينية ما

رألت غامضة على ان التأمل في بعض المكتشفات تتطلب دراسة عميقة ، مثال ذلك الطعام (التقدّمات) المفضل للجحاشم والاحتفاظ بالجحاشم وحدها ، فقد تدل الدراسات المقبلة على معانيها الدينية . وبالاختصار اذا تركنا جانباً مخلفات البشر الاكثر بدائية وتاريخ اجدادنا الاقربين من السكتيين والمصريين والبابليين الاقدمين فان الدين النموذجي لبشر ما قبل التاريخ يكاد يكون مشابهاً لدين البدائيين الحاليين (١) .

- ٢ -

اثار الدين في اوربا في الدور الحجري الجديد وما قبله : يبدو ان مبدأين كانا يسيطران في غربي اوربا في الدور الحجري الجديد وما قبله :
الاول - حرمة الموتى ونتيجة لذلك الاعتقاد بحياة اخرى .
الثاني - من المحتمل ان تكون الطوطمية هي الشكل الاول للدين .
فقد وجد في كهوف (جريمالدي - Grimaldi) وفي كهوف اخرى كثيرة ان الميت يدفن قريباً من مقره محاطاً بالمواد التي كان قد الفها . واستمرت هذه العادة الى نهاية استعمال الحجر المشذب واشتدت كثيراً بعد ظهور المعارف ، الامر الذي يدل بصورة لا تقبل الشك على ان الناس في فرنسة يومئذ كانت لهم علم بعبادة الموتى وكانوا يعتقدون بالحياة الاخرى - وبالتالي بقدرة عليا تتفوق على قدرة البشر . ويبدو ان ذلك لم يكن خاصاً بالشعوب التي سكنت غربي اوربا في الزمن الجيولوجي الرابع ، بل انها كانت عامة ولكنه يبدو ان اقدم الشواهد التي جمعت حتى الان وجدت في كهوف اوربا الغربية .

١ - تاريخ الاديان العام ، المجلد الاول . Histoire Generale des Religions .

أما وجود الطوطمية في تلك الأزمنة فمسألة فيها نظر . فقد توصل علماء آثار يعتمد عليهم بعد دراسة الرسوم في الكهوف ومقارنة نتائج المعلومات المستقاة من عادات بعض الشعوب المتوحشة الحالية ، توصلوا الى الرأي بأن المجدلانيين (بشر كهف مجدلين) لم يملأوا جدران مساكنهم الجانبية بالصور ليطمئنون ذوقهم الفني فحسب بل انهم كانوا يعززون معاني اعتقادية الى تلك الصور: وكانت الصور في بعض الكهوف ترسم اما في الزوايا أو في تجوفات الصخور الصعبة المداخل ، مما يدعو الى الافتراض بأنها رسمت خصيصاً في تلك المحلات لأنها ينبغي أن تكون تابو (محرمة) على النساء والصبيان وبوجه عام لمن لم يكن قد اطلع على الأسرار . والاعتقاد بالأشباح والروى الذي عرفته ايطالية في الأزمنة التاريخية لم يكن في الواقع مفهوماً خاصاً بالشعوب الاوربية بل كان شائعاً في مصر ايضاً بشكل آخر . ولكن مما لا ريب فيه ان الخوف من عودة الموتى بهيئة رؤى لاقلاق الأحياء كان شيئاً عاماً ، مما أوجد للقبور حرمة خاصة عند الناس ، وجعل لها تأثيراً قوياً على البدائين ، وانه ما يزال يبعث القلق الشديد لدى عدد غير قليل من المعاصرين الذين نالوا ثقافة عالية . وبظهور الصناعات الحجرية توطلدت دعائم عبادة الموتى بأنماط متعددة لأن قبور ذلك الدور وهي كثيرة ومنتشرة في كل مكان - كانت تختلفه أشد الاختلاف . اما القبر في بطن الأرض بدون سقف يحمي الجثمان فكان قليل الاستعمال في فرنسة . وشوهد في مقاطعة المارن وفي دورمان خنادق صغيرة وضعت فيها الأجساد بوضع القرفصاء أو مطوية باتجاه الشمال الجنوبي . وكان هذا النمط من القبور ، وهو أبسطها ، يستعمل في وادي النيل في الوقت الذي ازدهرت فيه صناعة الدور الحجري ودور أنيولثيك . وكان يشاهد في الاغلب هيكل الجثمان ملفوفاً بجلد ظبي او غزال ، ولم يبدل ظهور النحاس هذه العادة . وكان الميت في الزمن الجيولوجي الرابع كثيراً ما يدفن في الكهوف قريباً من مقره . وفي الدور الحجري الجديد لم يعد أكثر تلك الكهوف يسكن فاستخدمت لوضع الجثث فيها ، وسدت مداخلها لمحافظة الجثث من الحيوانات .

ولما لم تكن الكهوف الطبيعية موجودة في كل الجهات حفرها البشر واتخذها ملاجئ اصطناعية . وقد وجدت في مقاطعة المارن في فرنسه نواويس محفورة في الصخور الطباشيرية مؤلفة من غرفة او غرفتين كانت تسد قبلاً ، وكان بعضها يحوي هياكل عظمية عديدة وضعت بانتظام الواحد فوق الاخر صفين ترك بينها ممشى . وقد اعتبر علماء الآثار بعض الكهوف الاصطناعية اما صوامع جنازية خاصة باحتفالات طقسية ، او مقابر خاصة بشخصيات ذوي مراتب عالية . ان النواويس كثيظة في اغلب انحاء اوربا وفي بلاد البحر المتوسط وفي آسيا الغربية وجميعها من وحي المبدأ ذاته وهو احترام الميت والرغبة في محافظة بقاياها من الحيوان والبشر .

ان العدد القليل من مقابر الزمن الجيولوجي الرابع التي اكتشفت حتى يومنا هذا لا يساعد على معرفة القواعد التي كانت تتبع عند دفن الميت . وليس لدينا اية معلومات عن عملية (ترميد) الجثة اي احوالها الى رماد التي عرفها البشر في الدور الحجري الجديد في فرنسة . ولكنه بظهور الحجر المصقول ازدادت معلوماتنا واصبحت اكثر وثوقاً . وفي الازمنة التاريخية كانت الاقوام اللاتينية والاترسكية تستعمل الحرق والدفن ولكن الشرق القديم لا سيما مصر لم يستحسن حرق الجثثان . ومع ذلك فان الحرائق في قبور الملوك في نجادة وفي ابيدو تحمل على التفكير ان عملية الحرق كانت تطبق في الاصل على الشخصيات العظيمة ، فلا يحرق الجسد وحده بل كانت تحرق معه مقتنيات الميت . اما تعرية عظام الجثث من اللحم قبل الدفن فيظهر انها كانت مستعملة منذ الزمن الجيولوجي الرابع ولم تكن عبادة الموتى في ازمنة ما قبل التاريخ العقيدة الوحيدة بل وجدت معها عقائد اخرى متعددة على اننا لا نستطيع ان نفترض ان في التاريخ السحيق كان لها فلسفة معينة للمعتقدات اذ ليس لدينا اية وثائق تساعد على هذا الافتراض بيد ان الطقوس الجنائزية التي اشرنا اليها تدل على ان الانسان في كافة الانحاء اهتم بالحياة الاخرى . (١)

الدين في زمن الجاليثك (الاحجار الكبيرة): ماذا تعني جاليثك ؟ ان الكلمة من (مجا - Mega) اليونانية اي الكبير وكلمة (ليث - Lith) اي الحجر . وبذلك يكون معنى جاليثك الاحجار الكبيرة ، ويمكن تصنيف اثار الاحجار الكبيرة الى صنفين : الصنف الاول ينطوي على ابسط نهاج ، وهي اما ان تكون احجاراً منفردة منصوبة دون مسند وتسمى (منهر - Menher) ، واما ان تكون احجار متعددة تنصب عادة على خط مستقيم او بشكل دائرة . اما الصنف الثاني فيسمى (دولمن - Dolmen) . اي مجموعة احجار منحروطة الشكل تظهر دور غرفة واحدة . واثار اخرى تتألف من حيث الاساس من احجار منصوبة او ممدودة تتساند اقسامها العليا وضعت باوضاع مختلفة .

ان اثار الاحجار الكبيرة توجد في جزر المحيط الهادي الصغيرة وفي اليابان وفي مختلف انحاء الهند ، ولا توجد في غربي الهند ولا في سورية وفلسطين ومصر . ويوجد منها عدد كبير في بلاد القفقاس وشبه جزيرة البلقان . وتظهر في الجزر في جنوب ايطالية وفي غربيها ولا توجد في ايطالية نفسها ، بينما توجد في اسبانية بكثرة وكذلك في فرنسا وفي الجزر البريطانية . ما معنى هذا التوزيع الغريب ؟ يرى العلماء فيه امرين رئيسيين :

اولاً - ان اغلب الاحجار الكبيرة يوجد في المناطق البحرية . وتشير التحريات الى انها ترجع الى العهد الواقع بين نهاية الحجري وبداية عصر البرنز واجمعت الآراء على انها تدل على افكار دينية . ان نصب هذه الاحجار الكبيرة من دون استخدام آلات ميكانيكية امر يتطلب مجهوداً يكاد العقل لا يدركه ويتعرض الى اخطار جدية . وهو يدل على استجابة الى شيء او قوة اكثر من مجرد حاكم مستبد ، وربما قام به الناس لتسكين غضب كوائن فوق البشر او الالهة او الموتى .

الصنف الاول . - وهي نصب ضخمة تدعى منهر . لماذا اقيمت هذه النصب

كلاعمدة الكبيرة التي يبلغ ارتفاعها عشرة امتار او اثني عشر متراً ، بل ارتفع احدها اكثر من خمسة عشر متراً ويجوز الاجابة على هذا السؤال باربعة فروض هي :

اولاً - من السهل القول ان كثيراً منها اقيم بمثابة قبر . والدليل الذي لايقبل الشك وجود بقايا جنازية تحتها . ان القصص الشعبية - الفولكلور - في البلاد التي اقيمت فيها المنابر تحتفظ حتى يومنا هذا باعتقادات تنسب اليها نوعاً من الحياة غير الاعتيادية اذ تزعم انها ترقص وتدور وتنحي وتشرب وتقوم بكل الاعمال التي يقوم بها الكائن الحي .

ثانياً - انها اثر تذكاري لوقائع تاريخية ، وهذا التفسير اكثر اقتناعاً من الفروض الاخرى . في العهد القديم (الكتاب المقدس) اشارات الى اقامة نصب تذكراً للوقائع كالانتصارات وغيرها يقابل ذلك اخبار اخرى تروي انها نصبت لشؤون دينية .

ثالثاً - انها اقيمت لاغراض دينية كنصب الحدود التي كان البابليون يقيمونها ويؤشرون عليها اشارات فلكية يعتقدون انهم بذلك ينيطون حراسة الحدود الى آلهة سماوية .

رابعاً - قد تكون المنابر احجار عبادة او محاريب او صوراً . وكانت بعض الشعوب ترقع امام الحجارة وتقبلها او تطلبيها بالدم او بالزيت والسمن بوصفها وسيطاً بين العالم المرئي والعالم غير المرئي .

اذن بالاستطاعة الاستنتاج من المنابر ثمة افكاراً دينية في عبادة الآلهة والموتى وقد تكون بمثابة تذكاري ديني لبعض الشؤون او اشارات ، اما المنابر التي نصبت باتجاه معين فلا بد ان يشير الاتجاه الى معنى خاص . وبامتداد الاتجاه الى السماء قد يكون دليلاً الى كوكب او نجم . ونصبت المنابر على شكل دائرة ويكون في وسطها منبر . ويجوز القول انها نصب تمثل الآلهة في مجمع وان رئيسها قائم في الوسط^(١) .

معلومات لا بُدَّ منها لدراسة الشعوب المتوحشة

بعد ان فصلنا ما قيل عن النظريات الشائعة عن نشوء الدين من روحية وطبيعية وطوطمية وألوهية وسردنا المعلومات عن الوثنية وألحنا الى ما ذكر من آراء عن فكرة الدين لدى اشباه البشر والبشر الأول وما معروف عن الدين في زمن ما قبل التاريخ وعن بعض الآثار الحجرية التي تدل على مفهوم ديني نعود الى شرح ما هو معلوم عن اديان الشعوب المتوحشة الحالية . ان هذه الشعوب تقطن في الوقت الحاضر في قارة اوستراليا وجزر اوقيانوسية وفي وسط افريقيا وفي جنوبها وفي القارتين الأمريكيتين ، وهي من حيث المستوى الديني متفاوتة ، ومنها لا تزال في حالة الجاهلية الأولى ، ومنها ما تقدمت في سلم الحضارة فوضح مفهومها الديني . وسنرى في بحثنا عن هذه الشعوب آثار جميع الاوضاع الدينية التي اشرنا اليها بارزة فيها من الطوطمية الى عبادة الارواح والموتى ، فعبادة الاوثان الى عبادة مظاهر الطبيعة . فنرى آثار الطوطمية والروحية في الشعوب في احط دركات الانحطاط كبعض قبائل اوستراليا واهل طاسمانية في اقصى جنوب اوستراليا وارض النار في اقصى جنوب امريكا الجنوبية . ونرى آثار الوثنية والطبيعية في الشعوب التي بلغت شأواً من الحضارة الى حد ما . ان التفاوت في الادراك لدى الشعوب المذكورة وتنوع مفهومها عن الدين ، من مفهوم ساذج جداً الى مفهوم متقدم نوعاً ما هو الذي جعل علماء الاديان الانثروبولوجيين يدرسونها دراسة تطورية . وقد بدا لنا من الامثلة التي جمعها بتاتسوني في كتابه

الآنف الذكر ان كثيراً من القبائل المنحطة تعتقد بوجود كائن اعلى مما جعل بعض العلماء يؤيدون نظرية التأليه . وقبل البحث في اديان الشعوب المتوحشة ينبغي ذكر معلومات يصعب بدونها فهم بعض الاوضاع الدينية ، لأن العقل والمنطق لا يقبلانها ، ولأنها لا تنطبق على عقليتنا واذا كان بينها ما لا تقبله الا انها احكام دينية وخلقية يتمسك بها البدائي ولا يجيد عنها . وهي شائعة لدى الشعوب المذكورة جميعاً بين احطها ادراكاً واكثرها فهماً .

- ١ -

العقلية البدائية : وكتب الاستاذ الافرنسي ليفي بريل عنها ما يلي^(١) :
لا شك في ان الفروق التي تميز العقلية البدائية وعقلية الامم المتحضرة عديدة جداً . ولكن فرقاً واحداً من بينها هو الذي استرعى انتباه عدد كبير من الباحثين الذين توفروا على دراسة الجماعات البدائية في خير الظروف ملائمة لهذا البحث اي قبل ان يؤثر فيها الاحتكاك الطويل بالاوروبيين . فقد لاحظ هؤلاء الباحثون ان البدائيين ينفرون اشد النفور من الاستدلال العقلي وبما يسميه المناطقة بالعمليات المنطقية للتفكير ، كما لاحظوا ايضاً ان هذا النفور لا يرجع الى قصور اصيل او عجز طبيعي في ذكائهم بل بالاحرى الى مجموعة العادات التي درجوا عليها اي طريقتهم في التفكير .

وليس الاختلاف في الاساس الذي يفرق بين المتوحشين وبين غيرهم من الاقوام الذين يفوقونهم في درجة الحضارة يرجع الى انحطاط عقلي خاص بهم بل الى حالة واقعية ينحصر تفسيرها في حالتهم الاجتماعية وتقاليدهم . فسكان جرينلاند مثلاً ينحصر تفكيرهم وابتكاراتهم حول المشاغل الخاصة ببقائهم وكل ما لا يتصل بذلك اتصالاً وثيقاً لا يسترعي تفكيرهم بأي حال . وما يقال عن

١ - العقلية البدائية ، ترجمة الدكتور محمد القصاص .

هؤلاء قيل عن اسكيمو القطب الشمالي ، فقال عنهم باحث عاش بينهم : لا يشغلهم شيء آخر غير صيد الطيقس والصيد البري والغذاء . اما فيما عدا ذلك فانهم يعتبرون التفكير مرادفاً . وليس من النادر ان تسمع الشخص من سكان افريقيا الجنوبية الاصليين يتساءل قائلاً : اتستطيع ابصارنا ان ترى إلهاً ابيض ؟ واذا كان الله لا يرى ، فكيف يجوز لشخص عاقل ان يعبد شيئاً خفياً ؟ .

ثم يستطرد المؤلف قائلاً « كيف تأتي للعقلية البدائية ان تصل الى هذا الحد من الفروق من الاستدلال والنفور من عمليات التفكير المنطقية ومن التعليل والتفكير ، مع اننا نكاد نعتبر هذه العمليات من الوظائف الطبيعية المستديمة للعقل الانساني ؟ الواقع ان ذلك يرجع الى قصور او عجز اصيل اذ ان الباحثين الذين وصفوا لنا حالة هذه العقلية يقرون بصراحة انه يوجد بين البدائيين عقول مستعدة للتفكير العلمي بقدر استعداد العقول الاوربية له ... ولا ترجع هذه الحالة الى خمود عقلي عميق او شلل يشبه مرض النوم الذي يستعصي على الشفاء ، لان اولئك البدائيين انفسهم الذين يعدون اقل تفكير تجريدي عبثاً لا يطاق ويظهرون عروضهم التام عنه يبدون في الوقت نفسه ذكاء ودقة وحنكة ومهارة وفطنة نفاذة اذا اضر بهم امر من الامور ولا سيما اذا كان هذا الامر يتعلق بغاية يودون الوصول اليها بشغف شديد . »

ولايضاح انصراف العقلية البدائية عن الاسباب الطبيعية يذكر المؤلف : « اذا رأى العقل البدائي نفسه امام شيء يهيمه او يقلقه او يخيفه فانه لا يسلك تجاهه نفس المسلك الذي يسلكه عقلنا ، بل يسير على الفور في طريق يختلف عن طريقنا وذلك لان حسنا الدائم بوجود الضمان العقلي قد بلغ درجة من الاستقرار لا يجعلنا نتوهم امكانية اختلاله . فاذا فرضنا ظاهرة لانعرفها وقد ظهرت امامنا بصورة مفاجئة وان اسبابها تخفي علينا في بادىء الامر خفاء تاماً فان ذلك لا يزلزل اقتناعنا بان جهلها امر يتوقف وان هذه الاسباب موجودة بالفعل ويمكن اكتشافها ان عاجلاً او آجلاً .

ان مسلك العقلية البدائية يختلف عن ذلك المسلك كل الاختلاف لان

الطبيعة التي تعيش في احضانها تمثل امامها في مظهر مختلف كل الاختلاف لجميع الاشياء والكائنات التي تتضمنها متشابكة ، مختلطة بامور غيبية ، ومن هذا التشابك يتكون بناؤها ونظامها وهو الذي يبدأ بالظهور امام انتباه البدائي ويستوقفه ، فاذا استرعت اهتامة احدى الظواهر ولم يقتصر ادراكه بصورة سلبية خالية من رد الفعل اتجه ذهنه فوراً وبما يشبه ان يكون حركة عقلية الى وجود قوة خفية غير مرئية ، وجعل تلك الظاهرة مظهراً من مظاهرها . يقول الاستاذ (ماسو - MASSAU) . كلما بدا للافريقي شيء غير معتاد اتجه عقله توأ الى الشعوذة ، اي الى ما وراء الطبيعة لكي يحدله تفسيراً دون ان يبحث عن تفسير له فيما يسميه المتحضرون بالاسباب الطبيعية ، والواقع ان عالم ما وراء الطبيعة هذا يعتبر عاملاً فعالاً دائماً في حياة البدائي ، فنراه يلجأ اليه لتفسير كل ما يقع امامه . »

ومما يدل على اختلاف العقلية بين البدائيين والمتحضرين اعتقاد البدائي في الموت وفي صدد ذلك يقول المؤلف : « رأى احد الباحثين احد عماله جالساً في مهب ريح في يوم مطير ، فسأله ان يدخل بيته ويغير ملابسه ولكنه اجاب قائلاً لا يمكن ان يموت الانسان من تأثير ريح باردة اذ لا اهمية لذلك بل لا يمرض انسان ويموت الا بسحر ساحر ، وقد تعمدت الجماعات البدائية كلها الى تفسير الموت بغير الاسباب الطبيعية ، فاذا رأى شخصاً يموت بدا له هذا الحادث وكأنه يقع للمرة الاولى وانه لم يشاهد مثله من قبل . » ثم يضرب مثلاً ويقول : « فالاهالي في مقاطعة فيكتوريا في استراليا يعزرون الموت دائماً الى فعل الانسان فاذا مات عندهم شاب او شيخ اعتقدوا ان عدواً فتح جنبه ليلاً وانتزع كليته ولا يمكن اقناع احد منهم مهما كان ذكاًؤه ، بان الموت ينتج عن اسباب طبيعية ويرى الشخص حية تنهش جسمه وقد تكون هذه الحية من التي تختفي على الفور فيدل هذا الاختفاء السريع على ان الشخص الذي لدغته الحية قد وقع تحت تأثير سحر عدو وانه لا مفر من موته ، فلا يقدم بأية محاولة للعلاج بل يستولي عليه اليأس ويضطجع في انتظار الموت . ثم يقول « لا تعرف العقلية البدائية

شيئاً يسمى المصادفة ، كما انها من جهة اخرى لا تبحث في الشروط التي تعمل على وقوع الحوادث او امتناعها . ويترتب على ذلك ان هذه العقلية البدائية تتلقى الاشياء المفاجئة او غير المتوقعة او التي تخالف المعتاد اكثر ما تتلقاها بالدهشة .

- ٢ -

القوى الغيبية : تؤمن العقلية البدائية بالقوى الغيبية وغير المرئية ويوضح المؤلف هذا الامر كما يلي : ان البدائيين يعيشون ويفكرون ويحبون ويتحركون ويعملون في عالم لا يتفق مع عالمنا في كثير من الوجوه ولذلك نرى ان كثيراً من الاسئلة التي تواجهنا بها التجارب غير موجودة بالنسبة اليهم ، لأن لديهم جواباً مجهزاً من قبل ، اي القوى الغيبية .

ان عقلية البدائي عقلية غيبية وغير منطقية ولكن من العسير اعطاء فكرة صادقة عنها ، وهذه العقلية تدعو الى الاعتقاد بأن العالم الذي يحيط بها عبارة عن لغة تستعملها الارواح في مخاطبة بعض العقول . وتتوقف حياة البدائيين العقلية على هذه الحقيقة الجوهرية البدائية وهي ان العالم المحسوس والعالم الآخر لا يكونان في تصوراتهم الا شيئاً واحداً ، ومجموع الكائنات غير المرئية لا ينفصل عندهم عن مجموع الكائنات المرئية وليست الكائنات الخفية في نظرهم بأقل وجوداً ونشاطاً من الكائنات المرئية بل انها اكثر منها تأثيراً وارهاباً ، ولذلك فهي تشغلهم اكثر وتصرف عقولهم عن التبصر والتفكير فيما نسميه نحن بالمدركات الموضوعية ولو الى حد يسير .

يمكننا على الاجمال ان نقسم التأثيرات غير المرئية التي تشغل بال العقلية البدائية بصورة دائمة الى ثلاثة اقسام وان كانت كثيراً ما تتداخل بعضها في

بعض وهذه الاقسام هي : ارواح الموتى والارواح بأعم معاني الكلمة ، اي تلك المؤثرات التي تجعل الحياة تدب في الاشياء الطبيعية من حيوانات ونباتات وكائنات جامدة كالانهار والصخور والبحار والجبال والادوات المصنوعة ... الخ ... واخيراً الطلاسم والتعاويد التي تعد من فعل السحرة ، وقد تمتاز هذه الاقسام بعضها عن بعض بشكل واضح جداً في بعض الاحيان ، فالمطبيون (اطباء مزيفون) في (لونجو Longo) لا يشتغلون الا مع الارواح التي تسري في المواد المقدسة (فتيش) ولكنهم لا يرغبون بأية حال ان يتصلوا بارواح الاموات التي يخشونها كثيراً . وعند قبائل البابو في غينية الجديدة يلعب السحر عندهم دوراً اعظم من الدور الذي يلعبه الخوف من الارواح فاذا لم يسقط المطر او اذا سقط اكثر مما ينبغي ، واذا ساءت الحاصلات الزراعية او اذا ماتت الحنازير واذا لم يأت الصيد البري او البحري بالثمرة المرجوة ، واذا زلزلت الارض زلزالها ، واذا طغى مد البحر واكتسح قرية على الشاطئ واذا حدث مرض او موت ، اذا وقع اي شيء من هذا القبيل لم تكف الاسباب الطبيعية لتفسيره بأية حال ، بل لا بد ان يكون هناك سحر من وراء الستار . « وهناك تطوران متباعدان للارواح : احدهما يرى انها شياطين او آلهة حقيقية لكل منها اسمه وخصائصه بل عبادته ايضاً في كثير من الاحيان . والآخر هو ذلك التصور العام المشخص على السواء الذي يعتبر الارواح قوة مستقرة في الاشياء كلانا دون ان تكون هذه القوة محددة الفردية وليست لحظة الموت عندهم وعندنا سواء ، فنحن نعتقد ان الموت يتم حين يتوقف القلب عن الحفقان وينقطع النفس تماماً ، اما في الجماعات المتأخرة فيعتقدون ان الموت حين يحدث يغادر الجسم ضيفه حتى ولو لم تنطفئ الحياة الفسيولوجية بعد . وضيف الجسم هذا يشترك في كثير من السموات مع ما نسميه نحن الروح . وتعتبر هذه الفكرة من الاسباب الداعية الى اسراع البدائين في دفن موتاهم في اغلب الاحيان . »

وتنحصر اولى المدركات التي تهتم العقلية البدائية باستجلائها في افعال القوى الغيبية التي يشعر البدائيون انها تحيط بهم من كل جانب ومن طبائع هذه القوى التي لا

ترى ولا تدرك بالحواس كما انها لا تكف عن نفسها الا في ظواهر قد تكون واضحة او غير واضحة قوية الدلالة او ضعيفة الدلالة كثيرة الورد او قليلته وهناك مظاهر اخرى اكثر مباشرة واكثر اطراداً وبواسطتها تخبر تلك القوى بما سيقع للاحياء وكأنها تتخذ وسيلة انذار الفرد او الجماعة الاجتماعية بما سيحدث ومن هذه الظواهر الاحلام والفؤول سواء كانت ببعونة او مشثومة ومن المعروف ان العالم غير المرئي يكون في نظر العقلية البدائية عالماً واحداً فالاتصال عندهم مستمر بين ما نسميه الحقيقة الحسية وبين القوى الغيبية. ولكن هذا الاتصال لا يحصل بصورة اتم الا في الاحلام حيث ينتقل المرء من احد العالمين الى الاخر ذهاباً واياباً دون ان يشعر .

- ٣ -

الاحلام - تترك الروح الجسم الذي تحمل فيه مؤقتاً وتذهب في بعض الاحياء بعيداً جداً لتتحدث مع الارواح او الاموات واذا ما استيقظ الشخص رجعت اليه واخذت مكانها في جسمه . لذلك اذا منعها سحر او حادث من دخوله ثانية فقد يصاب صاحبها بمرض يتبعه الموت . وفي بعض الاحيان تأتي ارواح الموتى نفسها او بعض القوى الاخرى لزيارة الحالم اثناء نومه ويعمل الحلم على مد البدائين بمعلومات لا تقل قيمتها بل قد تزيد على قيمة المدركات الحسية التي يحصلون عليها اثناء اليقظة . ويؤمنون ايماناً تاماً بان الاحلام تضعهم في علاقة مباشرة مع القوى التي لا ترى ، وهم لا يرون في ذلك اية غرابة . ويعلق البدائيون في ذلك اعظم نصيب من الالهية ولذلك نراهم في كل صباح يتساءلون فيما بينهم عن احلامهم ويتحاكونها ويفسرونها . ان القاعدة عند البدائين ان كل ما يرى في الحلم حقيقي . ولعل العقول البدائية تعتقد فيما تراه في الحلم اكثر مما تعتقد في

غيره بفضل ما لمدركات الحلم من اصل غيبي ، يزيد في قيمتها ويؤكد حقيقتها لذلك لا يثق البدائي في شيء اكثر من وثوقه فيما يراه في الحلم . وفي (الجابون) يعتبر الحلم برهاناً اصدق من برهان الشهادة ولا يشك البدائي في صدق الحلم . ففي نظره ان كل ما يعلن عنه الحلم سيحدث وكلما اطلع عليه النائم قد حدث بالفعل ، ويبدو من معلومات الباحثين ان بعض الهنود الحمر لا يفرق بين الحدث المرتكب في الحلم والحدث المرتكب في وضح النهار ويحدث للبدائي ان يرى في الحلم بعض الحوادث على انها ستقع في المستقبل فمثل هذه الحوادث تعتبر مستقلة في نظره لانه يتوقعها في المستقبل وفي الوقت نفسه تعتبر في المستقبل . فمثل هذه الحوادث تعتبر ماضية لانه رآها في الحلم وبهذا الاعتبار يعدها وقعت بالفعل والخوف من السحر هو الهم الدائم الذي يقلق بال الجماعات في افريقيا الجنوبية وحلم رجل ان حياته في خطر وان الذي يدبر له هذا الخطر شخص كان يعتبره دائماً من اخلص اصدقائه فلما استيقظ قال : « ما اغرب هذا الامر ان ذلك الرجل لم يرتكب دنيئة قط ، فكيف يسعى لقتلي وذلك ما لا افهمه ولكن لا بد ان يكون الامر حقاً لأن الاحلام لا تكذب ابداً . وتعتقد بعض القبائل في الكونجو بأن الاحلام تنبئ الاحياء في اثناء الليل بما يريدون معرفته والاحلام عندهم هي الحقيقة . واذا رأوا في المنام احد اقربائهم الموتى اعتقدوا بأن روحه جاءت فعلاً لتقدم اليه نصائح الميـت وتعتبر لهم عن رضاه او سخطه وعن رغباته وامانيه . لماذا يرى الهندي الامريكي ان طاعة ما يأمر به الحلم ضرورة قصوى ؟ او بعبارة ادق لماذا يرى حتماً ، تنفيذ ما فعله في الحلم بمجرد ان يستيقظ من نومه ؟ كثيراً ما وجه هذا السؤال الى الآباء اليسوعيين وكانوا يجيبون عنه بصورة واحدة لا تتغير اذ يقولون : هذه مسألة حياة او موت بالنسبة للهنود الامريكيين اذ انهم يؤمنون بأن الموت سينتابهم اذا لم يتحقق ما رأوه في المنام .

الفؤول : ويلعب الفأل ايضاً دوراً خطيراً عند البدائيين وبه يتنبأون عن ان المشروع الفلاني ينجح او يفشل وفيما اذا كانت القوى الغيبية راضية عن العمل الفلاني او انها تنفر منه ، وظل الاعتقاد في قوة الفال سارياً حتى في الاديان القديمة وقد مارسه القدماء واختص به رجال من الكهنوت في كل الاديان وما يزال . ذكر ليفي بريل مؤلف كتاب (العقلية البدائية) عن الفؤول ما يلي : « ان الاحلام كما اشرنا تكون اهم جزء في تجارب العقلية البدائية لانها هي التي تصل بينها وبين العالم غير المرئي بطريق غير مباشر . ثم تأتي الفؤول في الدرجة الثانية من الاهمية ، لأنها هي الاخرى تمد هذه العقلية ببعض المعلومات عن فعل القوى الغيبية التي تحس بوجودها في كل مكان حولها . فالفؤول ضروب من الكشف تحدث تلقائياً ويفسرهما البدائي على التودون حاجة الى تردد وذلك بواسطة انواع من الارتباط الزائف تصل بين تصوراته الجمعية . ولفؤول عند البدائيين صور شتى كأن يسمعون الطائر يصيح من جهة الشمال او ليروا ذلك الحيوان يعبر الطريق في اثناء المسير وهم جرا . والبدائي يدرك الدلالة السعيدة او المنحوسة لهذا الفأل او ذاك بمجرد ان يدرك الحادثة التي تكونه وحينئذ يتابع السير في المشروع الذي بدأه بشجاعة او يتخلى عنه . ولا بد من ايراد ملاحظتين لكي نحسن فهم تأثير الفأل في عقلية البدائيين .

اولاً - تعلن الفؤول مثلاً عن المشروع الذي سيبدأ فيه المرء سوف ينجح او يخفق وقد تحذر من ان خطراً لا يخطر بالبال سيقع عاجلاً او آجلاً . والبدائي يرى ان كل امر مفاجيء يعتبر كشفاً واعلاناً عن امر ما . وان كل حادثة عرضية لها دلالتها القوية اذ لا يوجد شيء اعتباطي وكل ما خرج عن المألوف ولو قليلاً يعلن عن فعل القوى الخفية . فالفال اذن نوع من حدس يشتمل على انواع اخرى كثيرة وهو ضرب من الاعلان عن حوادث مستقبلية .

ثانياً - ترتبط هذه الخاصية العقلية التي يتميز بها البدائيون على النص الذي اوضحناه بنظرتهم الى السببية وهي سببية من نوع غيبي . والعقلية البدائية لا تهتم بأن تصعد او ان تنزل سلسلة الشروط التي تقوم هي نفسها على شروط اخرى . ولا بد ان يكون للفؤول عند البدائيين اهمية اخرى . ولما كانت الاسباب تنحصر عند البدائيين في بعض مظاهر الغيبية والخرافية ، كان للفؤول في نظرهم نصيب رئيسي في احداث ما تعلن عنه ، فليست وظيفتها الوحيدة ان تعلن عما سيقع بل انها تشترك اشتراكاً جوهرياً في احداث ما تعلن عنه .

وتحظى الفؤول عادة بأهمية عظمى في تنظيم الحياة عند كثير من الجماعات المتأخرة ولكنها لم تصل في اي مكان الى درجة الاهمية والناء التي وصلت اليه لدى قبائل (الدياك Dayak) ولدى الجزء الاكبر من سكان بورنيو . لذلك كانت الاحوال في هذه الاماكن من انسب الظروف التي تساعد على دراسة هذه الظاهرة دراسة صحيحة مجدية . ابان الاستاذ (برهام) مبلغ السلطة التي تعترف بها القبائل الاهلية للفؤول والقدرة التي يعزونها اليها فقال : « انهم يعتقدون اعتقاداً جازماً انها اساس كل نجاح ولا ينفكون يستشهدون على ذلك بالقصص التي لا ينضب معينها عندهم ويروون حالات الاخفاق والمرض والموت التي دلت عليها الفؤول ولم تأبه بها حماقة المحقق فحاقت بهم عواقبها .

ان مصادر الفؤول التي يعتمد عليها الاهالي في كل ظروف الحياة الفردية والاجتماعية تنحصر في سبعة طيور ، يضاف اليها عدد من الحيوانات وهي الوعل والابل والغزال والارماديو واخرى غيرها مثل الحرباء والحفايش والبيثون والكوبرا والفار وتستطيع كل هذه الحيوانات ان تعلن الفؤول بطرق مختلفة . ويستخرج الفأل من طيران الطائر وصياح الحيوان والاتجاه الذي يأتي منه او يذهب اليه فليست العلامات التي تظهرها الطيور والحيوانات الاخرى مجرد اشارات ونذر او اعلان لما سيقع ، وانما هي اسباب له في نفس الوقت . وترى العقلية البدائية من هذه الطيور والحيوانات قوى غيبية تتوقف عليها الحوادث التي تنبئ عنها والاهالي لا يصلون الى الاعتقاد بأن الطيور المقدسة تنتج الحوادث بسبب انها تعلن عنها بل انهم على العكس من ذلك يعتقدون ان هذه الطيور

تصنع نباح المشروعات او اخفاقها ويلهج لسان البدائي بالثناء حين يلح فألاً ميموناً فيشعر بالتحمس للعمل والقوة والوثوق من النجاح . وحينئذ يبذل في عمله كل ما يستطيع من مجهود والواقع انه كثيراً ما ينجح . فاذا رأى فأل الشؤوم امتنع عن العمل ما امكن . فاذا لم يكن الامتناع ممكناً يبحثون عن الوسائل اللازمة للتغلب على الصعوبة بتأويل الفأل المشؤوم تأويلاً حسناً فيمكن مثلاً اعتبار فأل الشؤوم قابلاً للنقض . فيستمررون في البحث عن فأل ميمون دون ان يشبب من همتهم ظهور فأل مشؤوم . واذا ظهر الفأل المأمول فإنه ينسخ ما قبله .

وفي الكونجو العليا اذا رأى الناس فرساً نهرياً يقترب من قرية ما فقد يعدونه فأل حرب بالنسبة لاسرة معينة . ويجوز ان تكون حالة الفرق نذيراً بالجوع والكوارث لاحدى الاسر ، او الشجرة الطافية على سطح النهر والمنسابة مع التيار يصح ان تكون فأل نحس ، وامراض عديدة بالنسبة لقرية ما . فاذا قابل احدهم فألاً منحوساً وهو في طريقه الى الحقل في صبيحة هذا اليوم حرمت عليه زراعة الارز طوال سنة كاملة ولا يجوز له ان يزرع غير البطاطا او الذرة . ولذلك يفضل الاهالي لكي يتجنبوا هذا الخطر ان يذهبوا الى الحقل لأول مرة في جنح الظلام . و اشار المعنيون بحياة الجماعات المتأخرة الى وجود نوع من الفؤول التي تزعج البدائين ازعاجاً شديداً وتدفعهم الى استعمال اعنف الوسائل للوقوف في سبيل الكارثة يتهددهم بها ظهور الفؤول، وهي تنحصر في الكائنات المسوخة . وفي بعض الظواهر التي تشذ عن المعتاد . فاذا ولد مولود وخرج قدماه قبل رأسه عند الوضع قتلوه . واذا رأوا عنزة تأكل روثها اعتقدوا ان سبب هذه الظاهرة الغريبة وجود سحر بها وانه لا مناص من تضحيتها . وكذلك اذا ولدت عنزة توأمين في اول ولادة لها فهذا من اثر السحر ، ولا بد من قتل ولديها ، واذا كانت بقرة ترعى فلفت ذيلها حول شجرة وجب قتلها في الحال . والطفل الذي يولد في وضع غير معتاد والتوائم ايا كانت كل الخلوقات لا تعتبر فؤولا مشؤومة بل تعد في نظر قبائل البانتو في افريقيا الشرقية خطراً

على صاحبها وعلى الأسرة وعلى القرية بأسرها . فهي تكشف بحالتها او بفعلها عن وجود بذرة شريرة فيها قوة غيبية تسبب الموت ما لم يقض عليها بقتل هذه المخلوقات التي تحملها . وعند قبائل الهونتوت في افريقيا الجنوبية اذا اخذت الدجاجات تصيح صياح الديكة . اخذت وقتلت او طوردت حتى تموت والا فان صاحبها يموت لا محالة .

- ٥ -

العرافة : ان المدركات المباشرة التي تتكون منها تجارب البدائين كثيرة ومنها تلك التي تأتي من العالم غير المرئي والتي تكشف لهم القوى الغيبية التي تغمره والبدائيون أشد اتصالاً بهذا النوع الاخير . فرخاء الهئية الاجتماعية وصحة كل عضو من اعضاءها وحياته كل ذلك يتوقف على التأثيرات الطيبة والسيئة التي تنصب عليهم من هذا العالم . وهم لا يستطيعون ان يأملوا في الوصول بمشروع من مشاريعهم الى بر السلامة الا اذا وثقوا من ان القوى الغيبية التي تقاومه مقاومة فعالة . وهذا هو مصدر حاجتهم الملحة الى التحقيق من انها في جانبهم وانها ستكون رائدهم وكيف يمكنهم ان يتأكدوا من ذلك ؟ لا شك في ان القوى الخفية كثيرة الحدوث وان البدائي مجبول على ان يرى بعضاً منها في كل مكان وان يعتبر بعض الظواهر العادية وجل الظواهر الغريبة من هذه العلامات . والحلم ابسط هذه الوسائل واسهلها . ذكر احد الابهاء اليسوعيين عن البدائين : « انهم يجعلون من الحلم الههم وكان الصوم وسيلتهم العادية لالتاس الحلم المرغوب فيه . وقال اخر « انهم يصومون تكريماً للالهة لكي يعرفوا منها حدوث مسألة ما » والهنود الامريكيون اذا همم امر حرب او صيد يقضون ثمانية ايام لا يكادون يتناولون خلالها اي طعام . ثم يبلغ بهم الاصرار الا يفطروا الا بعد ان يروا في

الحلم ما يريدون كأن يحلموا فيه مثلاً بقطيع من حيوانات الصيد او بعصابة من اعدائهم وقد ولت الادبار . وليس ذلك بالامر العسير على دماغ فارغ وقد انهكه الصوم ولم يفكر طول نهاره في شيء اخر .

والعرافة التي يمارسها الهنود في شكل حلم مستشار تنطوي في آن واحد على محاولة المعرفة وجهد لضمان النجاح المرتجى ويمكننا ان نعتبرها نوعاً من الصلاة ايضاً ويلجأ كثير من الجماعات الى الحلم المستشار للاتصال بالارواح الحارسة في بورنيو ويعتقد اهلها بانه لا يوجد انجح من الدواء الذي تكشف عنه الاحلام . ومن اوستراليا يوجد عدد من القبائل التي تعلق على الاحلام اهمية كبرى . وتعتبر الاحلام المستشارة طرقاً للعرافة واستجداء المعرفة من قوى العالم الخفي وضماناً لتحقيق ما رأوا في المنام وقد لا يأتي الحلم رغم التماسه واستشارته لذلك تلجأ العقلية البدائية الى وسائل اخرى للاتصال بقوى العالم الخفي . والاستجواب المباشر ابسط هذه الوسائل وانجحها اذا كان ممكناً . فيستعملونه مع الاموات الذين لم تنقطع مشاركتهم للاحياء . ولا سيما اذا كانوا من الاموات الجدد ، لاعتقادهم بانهم غير بعيدين عنهم او مع الذين على وشك الموت فيجتمع حوله افراد الاسرة . ولا يسمحون عند ذلك باشعال النار في المنزل خشية ان تخيف الروح ويوجه اليه ضرباً شتى من الاسئلة . وصوت المحتضر هو الذي يحمل الاجوبة الى السامعين . ولكن الروح هي التي تتكلم وليس المحتضر . ولا يعتبرون الموت قط ، اولا يكاد يعتبر قط امراً طبيعياً في الجماعات البدائية ولذلك تحتاج اسرة الميت الى معرفة صاحب السحر المسؤول عن موته والميت نفسه هو خير من يعرف غريمه . لذلك يستجوبه الاحياء ويعتقدون انهم بهذه الصورة يصيبون هدفين في آن واحد . فيميطون اللثام عن الساحر الذي يعد نشاطه القاتل خطراً دائماً يتهدد المجموعة الاجتماعية وفي الوقت نفسه يظهر للميت الحديث عنايتهم بالانتقام له ومن ثم يتجنبون نتائج غضبه الذي لا يتردد في صبه عليهم .

ويباشر اهل بريطانيا الجديدة استجواب الميت بالصورة الاتية : - يجتمع

اقرباء الميت خارج المنزل في الليلة التي تلي الوفاة وينادي احد المطيبين روح الميت بصوت عال ويطلب اليها ان تدل على الشخص الذي سحرها . واذا لم يحصلوا على الجواب ذكر الطبيب اسم شخص مرتاب فيه وحينئذ يرهف الحاضرون اذانهم . فاذا لم يسمعوا جواباً ذكر اسما اخر وهم جرا الى ان يسمعوا صوتاً كنفق الاصابع على لوح خشبي او على حصير ، ويعتبرون هذا برهاناً قاطعاً على ان صاحب الاسم هو الجاني . ويخشى عدد كبير من الجماعات المتأخرة الاحتكاك بالموتى . اذ يعتقد انهم خطرون وميالون الى الاعتداء ، ولذلك يؤودون اليهم الواجبات الازامية بل ييكونهم باخلاص ، ولكنهم بالرغم من ذلك يرغبون في اقصائهم أي قطع ضروب المشاركة التي لا تزال تصل بينهم وبين الاحياء باسرع واتم ما يمكن ويحدث ذلك على الاقل في اثناء الفترة الاولى التي تلي الوفاة ان اقامة الطقوس الجنائزية من شأنها في نظرهم ان تسارع بالجثة الى التحلل الطبيعي ، واذا ما تم ذلك اعتقدوا ان الميت قد انفصل نهائياً من مجموعة الاحياء عن طريق الاحتفال الجنائزي الثاني الذي لا تزال تشاهد اثاره على الأقل حتى يومنا هذا . ويعتقد بعض الشعوب بامكان تبادل الخدمات بين الموتى والاحياء من ذلك انهم يحتفظون احياناً ببقايا الموتى ويحيطونها بشيء من الاجلال فلا يمر احد الاعياد حتى يقدمون القرابين من الطعام او غيره وينتظرون ان يعرف الاموات لاحفادهم هذه المكارم فيجدون في الاحسان اليهم . وكما وقع الاهالي في حيرة اخذوا جمجمة قريب لهم وجددوا طلاءها وغطوها باوراق ثم راحوا يكلمونها ويطلبون اليها النصيحة . وعند النوم يضعون الجمجمة على حصير بالقرب من رؤوسهم واذا وقع لهم أمر حسبوا ان روح قريبهم الميت هي التي حدثتهم ونصحتهم بما ينبغي فعله .

والانتقال من هذه الاستشارات الى العرافة امر يسير : وفي هذه الحالة لا يعتمد الاهالي الى استجواب جمجمة الميت شخصياً ولكنهم يعتقدون ان لها قدرة غيبية تجعل منها اداة صالحة نسميها بالعرافة ولا بد من توافر بعض الشروط لكي يمكن استعمالها هذا الاستعمال . وحينئذ تزخرف الجمجمة بالشكل المطلوب وتستعمل

كما ينبغي تصبح عرافاً ناجحاً جداً . ويستخدمها الاهلون بوجه خاص لاكتشاف السارق او الرجل الذي رمى آخر بالمرض عن طريق السحر. ان نجاح العرافة يتوقف على طريقة استعمال الجمجمة . وهذا الاستعمال مقصور على رجال عشيرة معينة واتباع طريقة بعينها . فليست الجمجمة من الادوات التي يمكن لكل شخص ان يستخدمها . وقد يكون من الشروط التي يجب ان تراعى في الجمجمة انها جمجمة ميت قوي . ومن العرافة التي تدل على شفاء المريض او عدمه عملية اقتناص حيوان صغير يسمى (الجلد) وهو حي فيجتمع المريض واسرته امام باب العشة ثم يأتي الشخص الذي اقتنص الحيوان فيمسك من مخبله وحينئذ يبصق عليه المريض او لا ثم هذا الشخص ثم الآخرون كل منهم بدوره وهو يقول « يا اجدادنا ساعدونا واجعلوا هذا الجلد ينتزع المرض » . وبعد ذلك يوضع الجلد حياً في ثقب ويوضع فوقه اناء مقلوب فاذا عكس لنفسه طريقاً تحت الارض في اتجاه يبعد عن العشة برىء المريض واذا حفر في اتجاه معاكس مات المريض .

ومن صور العرافة فحص احشاء الضحايا ولا سيما الكبد ففي بورنيو يلجأ الدياك في معظم المناسبات الهامة الى العرافة بواسطة كبد خنزير فاذا ظنوا ان هناك من يتربص بهم من كمين او أحسوا انهم مهددون بسوء الطالع او المرض هرعوا الى الخنزير يطلبون اليه الخبر اليقين . يتوسلون اليه الا يوقعهم في الخطأ والاي يتوانى في حل رسالتهم الى الكائن الاعلى . بل قد يحاولون خداعه ويوهونه بانهم لن يقتلوه ولن يأكلوه ولكنهم لا ينتهوا من كلامهم حتى يعجلوا بقتله مخافة ان يغير الرسالة اذا علم انه سيقتل وبمجرد ان يكف الخنزير من الشخير يشقون جنبه ويخرجون الكبد بسرعة ومهارة ويضعونه في طبق ويجتمع حوله الشيوخ يتناقشون في الفأل ويختبرون بامعان حجم الكبد وكل حمة من حلماته ومنظر المرارة وكمية الشحم اذ ان لكل من هذه الاشياء دلالة . وكانت اعمال العرافة بمعناها الحقيقي من الامور التي لا غنى عنها في الجماعات لانهم يعتقدون بان نجاح الميت يتوقف توفقاً تاماً على قوى العالم الخفي التي يتوسلون بكل الوسائل لمعرفةا وكسبها الى جانبهم قبل ان يشرعوا في أي عمل . ففي تاهيتي يعلقون دائماً اهمية

عظمى على ارادة الآلهة ، فاذا كانت راضية كان النصر محققاً ، والا كان الاخفاق مؤكداً ومن ورائه الموت . ويلجأون لمعرفة ارادة الآلهة الى العرافة او الى السحر . وكثيراً ما يقدرّون نجاح الرحلة او اخفاقها تبعاً للتقلصات العضلية لقلب الحيوان المضحى به ، او لحالة كبده او تبعاً للحركات غير الارادية التي تصدر عن الضحية البشرية وتتلوى في سكرات الموت او تبعاً لمنظر الضحية المذبوحة . بعد وضعها فوق المذبح واذا اجرّوا العرافة بواسطة العظام جعلوا نفس الدور الفعال الذي يجعلونه للضحايا فهي لا تعلن النتيجة فحسب بل تسببها ايضاً . وفي نهاية المرحلة الثالثة ينشر الساحر العظام ويقول انها تسمع وتجبب كما يجب البشر . وعند البانتو في افريقيا الجنوبية تلعب قطع العظام دوراً هاماً فاذا اضر بهم امر هام لم يجروا على البت فيه قبل ان يستشيروا العظام السحرية التي تكشف لهم الطريق الذي يجب اتباعه ويلجأ اليها الرؤساء في كل الملمات فاذا اعوزهم المطر او هددتهم كارثة او نزل ارضهم بعض الإجانب او عنّ لهم ان يقوموا بجملة حربية فما عليهم الا ان ينادوا ضارب العظام الخاص بهم فالعظام بنظرهم تتكلم وما عليهم الا ان يفهموا كلامها وسجل المشرون عدداً كبيراً من اعمال العرافة الاخرى وكلها مطبوعة بالطابع السحري فهي تبدأ بتلاوة تعويذة سحرية على الكائن او الشيء المستعمل . وفي الكونجو العليا يأخذون قدراً مملوءاً بالماء المستعمل من المستنقع او من الغابة ويلقون فيه شيئاً من السحر ويضعونه فوق النار وبعد فترة يتساءلون هل الاعداء سيقتلونهم في الموقعة . فاذا شرع الماء في الغليان واخذ في الارتفاع حتى وصل الى حافة القدر ، كان معنى ذلك سيدسقط من بينهم بعض القتلى وحينئذ يعدلون عن الحرب . واذا لم يصعد الماء وجهوا اليه هذا السؤال « وهل سيقتل بعضهم في الموقعة ؟ » فاذا صعد بعد ذلك دل على انهم سيقتلون بعض الاعداء . وحينئذ يتأهلون للحرب . وتوجد طريقة مشابهة عند قبائل الزولو .

وتجري العرافة على حوادث المستقبل من كل نوع كمعرفة ما اذا كان المريض سيبرأ او معرفة جنس الطفل الذي سيولد ، او اذا كان المحصول سيجود ، او اذا

كان المطر سينزل ... الخ ولكن كثيراً ما يراد منها أيضاً اكتشاف شيء مخبوء او الحصول على خبر هام عن حادثة ماضية كأن يكون هناك مثلاً مسافر لم يرد عنه خبر منذ زمن طويل ويراد معرفة حاله ، او كأن يفقد شيء ويراد معرفة مكانه وما اذا كان قد فقد او سرق ! او كأن يقع امر ضار بالهيئة الاجتماعية ويراد معرفة مرتكبيه . وفي غينية الجديدة تعد معونة الساحر امراً عظيم الأهمية في البحث عن معرفة السارق . فاذا سرق شيء ما ولم يستطع صاحبه تعيين السارق ذهب الى من يملك الطلسم القادر على الكشف عنه . فيأخذ هذا الاخير فأساً ويضرب بها نباتاً متسلقاً معيناً . وكلما ضرب ضربة نطق باحد الاسماء . فاذا اصابت الفأس النبات كان الاسم لشخص بريء ، واذا اخطأته كان صاحب الاسم المذكور في هذه اللحظة بعينها هو السارق . وهناك طرق مختلفة لمعرفة السارق . والعمليات العرفانية عند الاسكيمو مقصورة على الطبيب . واذا اراد هذا ان يقوم بعملية من هذه العمليات وجب عليه ان يجعل نفسه في حالة نوم اصطناعي او في حالة خدر او تجلي ، اي انه ينتقل الى عالم القوى الخفية ويتصل بها اتصالاً روحياً فيسمع الاموات ويراهم ، ويقطع في اقل من لمح البصر ابعاد المسافات بطريق الهواء دون ان يراه . وهناك عرافة تجري بواسطة بلورة او مرآة او سطح سائل . وفي جرينا لاند اذا ذهب احد الاهلين الى البحر ولم يعد في الميعاد المنتظر زعم الاهلون انهم يستطيعون اكتشاف ما اذا كان قد مات او ظل على قيد الحياة . فيأتون بأقرب شخص للغائب ويأمرونه بأن يميل رأسه فوق طست خشبي مملوء بالماء ، ثم يقرعون رأسه بعضاً ويزعمون انهم في هذا الاثناء يلمحون الغائب في هذه المرآة مقلوباً بزورقه في قاع الماء او جالساً مستقيماً في زورقه وهو يحركه بمجذافيه .

ويعتقد الاهالي بان هؤلاء المطيبين والسحرة على وجه العموم موهوبون ببصيرة خاصة ، وان عينهم تدرك ما لا يراه الآخرون وكذلك يعدونهم فوق البشر في حياتهم . بل وبعد موتهم في كثير من الاحيان وهم يستطيعون في بعض الاحيان ان يميزوا الحياة من مجرد منظرهم ويشق مواطنوهم في شهادتهم كل الثقة (١) .

(١) اقتبست معلم مات هذا الفصل من كتاب « العقلية البدائية » للاستاذ ليفي بيل .

الأعمال التي تتميز بها أديان الشعوب المتوحشة

ان الشعوب المتوحشة تمارس بعض الاعمال التي تتميز بها ولا غنى لهذه الاديان عنها مطلقاً . وقد انتقلت هذه الاعمال الى اديان الاقوام المتحضرة فتضاءل بعضها في الاديان المتكاملة بينما ظل بعضها مسيطراً عليها ويعتبر من اهم مميزاتهم . وتتجلى هذه الاعمال الدينية بالسحر والطقوس والقربان مؤيدة بقصص الاساطير .

- ١ -

السحر - وكان للسحر شأن عظيم في الاديان القديمة سواء أ كانت بدائية أو متقدمة وظل الساحر يتصدر مقامه في الاديان على مر السنين والساحر عند الشعوب البدائية يقوم مقام الكاهن في الاديان المتقدمة . ومقام الساحر لدى البدائيين عظيم ، فهم يجلونه ويعتقدون بأنه ملهم بسر من اسرار القوى الخفية ، ويلجأ اليه الناس في كل الاحوال . فهو الذي يستطيع ان ينزل المطر ويساعد على الصيد الوفير ويعافي المرضى ويحول دون السحر الضار ويكشف عن الاسرار . وجاء في الانسكلوبيديا البريطانية عن السحر ما يلي : (١)

(١) الانسكلوبيديا البريطانية : مادة السحر .

« السحر كما عبر عنه فرايزر ليس مجرد مظهر من مظاهر الاعتقاد او جزء من جهاز العمل في الانسان بل السحر عبارة عن فن تنقلب به النظرية والعقيدة الى عمل. وما السحر الا فعل عملي مستمر والسحر يجلب المطر للزرع ويوقع الصيد في الفخ ، ويضمن الاستقرار للبيت ، وخفة الحركة للزورق ويمنح الشفاء ويسلط المرض والموت ويكتسب الحبيب ، ويمنح المهارة في الحرب والسرعة في السفر والجمال في الاعياد او في الرقص . والسحر في الوقت نفسه ينطوي على الاقرار بما فوق الطبيعي . والايان بالقوة السحرية التي يدبرها الانسان لعزل فعل قوى العالم الخارجي . وتمتد جذور السحر في مختلف فعاليات البشر . وما السحر الى طريقة لاستخدام قوى الطبيعة او تغييرها لتصبح خاضعة لارادة الانسان بغية المحافظة على رفاهه وصياغة قسمته .

وسائط السحر : ان كل فعل سحري - كما بينه ماليوفسكي - يتميز بامور تقال (قول) وامور تعمل (عمل) وبشخص يقوم بخدمة (الساحر) . لهذا تكون التعويذة او التعزيم والطقوس والقائم بالعمل امور رئيسية في السحر . فالتعويذة او التعزيم هي الكلمات بموجب قاعدة عرفية . والطقوس - القيام بمجموعة ترافق سحرية التعويذة والغرض الاسامي من الطقوس هو نقل التعويذة الى الموضوع الذي يراد التأثير فيه . والساحر وهو القائم بالعمل - وبما ان للسحر اهمية خاصة ينبغي للقائم به ان يعمل بدقة .

جوهر القوة السحرية - يذكر الدكتور (ماريت) ان جوهر الفكرة السحرية هو اعتقاد الهمجين بقوة غيبية ، قوة فوق بشرية ، غير مادية تبث الحياة في كافة الموجودات . وذكر الاستاذ رجر باستد في كتابه مبادئ علم الاجتماع الديني ما يلي :

« ليس تعريف السحر بالامر اليسير وشأنه في ذلك شأن تعريف الدين لانه عندما تنتصر ديانة على ديانة اخرى ، فمن عادة الديانة المنتصرة ان تصف شعائر الديانة المنهزمة بأنها شعائر سحرية . ومن جانب آخر تختلف اساليب السحر من بلد الى بلد آخر . فالساحر المصري القديم يستخدم الوصول الى نتائج سعيدة

اما الكلداني فيستعين به على حماية نفسه من تأثير العوالم المشؤومة التي تكتنفه من كل جانب . ومن الممكن على وجه الخصوص ان ترى في خرافات عدد كبير من الشعوب طبقات متتابعة من السحر يتراكم بعضها فوق بعض ويمكن ارجاع جميع الانواع المختلفة من السحر الى نوعين من التطبيق ، فهناك انواع من السحر تستعين بتوسط الارواح . وهناك انواع اخرى منظمة يراد بها التأثير في الطبيعة تأثيراً مباشراً . والسحر المسيحي سحر غير مباشر . فكان الساحر يعقد ميثاقاً مع الشيطان . والسحر اليوناني يتضرع الى الشياطين وارواح الموتى واما ارواح شبيهة بالجن . وتتدخل بعض القوى غير الشخصية في السحر الشيطاني فمن الممكن ان يستحضر الساحر الروح ، فلا تأتي هذه من تلقاء نفسها ، بل ترضخ لقوة الالفاظ او الارشادات التي تتحكم فيها . واكثر من ذلك فاحياناً يتغلب تأثير احد الطقوس والدعوات السحرية على ما تبذله الروح الشريرة من جهود . لأن التعاويذ تطردها على الرغم من صريف اسنانها » .

ذكر فريزر انه لا يوجد الى جانب السحر الذي يستخدم الحركات سحر آخر يستخدم الالفاظ . فلنفحص هذا النوع من السحر لعله يوصلنا الى نشأة السحر . يقول (إليه Allier « يبدو ان الترنيم واللعن والمباركة هي الاشكال الثلاثة الرئيسية التي يتشكل بها هذا النوع الثالث من السحر (١) »
 فاذا قال المرء للسهم : « اذهب في خط مستقيم واقتل » ظن أنه يساعد السهم على القيام بمهمة القتل ... ويلجأ الانسان في كثير من الأحيان الى بعض الأقوال التي تنقل إرادة الأشخاص أو قوته الى شخص آخر . ضرب (برجسون) بالمثل الآتي : « هذا رجل بدائي يرغب في قتل عدوه ولكن العدو بعيد عنه .. وقد استولى الغضب عليه فيقوم بحركات كما لو كان يهاجم عدوه الغائب . فيشد باصابعه على الضحية التي يعتقد بانه يقبض عليها او التي يرغب في القبض عليها .. انه يفعل ما في طاقته ، انه يرغب ويتطلب من الاشياء ان تفعل باقي العمل (٢) .

١ - النوعان الاخران السحر بالمحاكاة والسحر بالاتصال .

٢ - مبادئ علم الاجتماع الديني تأليف روجر باسند . - ترجمة الدكتور محمود قاسم-

مبادئ الفكرة الدينية التي يقوم عليها السحر - وشرح السر جيمس فريزر في كتابه المنشأ السحري للملكية قائلاً : « ان الفكرة البدائية التي يقوم عليها السحر تنحصر في مبدأين :

اولاً : المبدأ القائل بان كل شبيه يجذب اليه شبيهه (شبيه الشيء ينجذب اليه) او ان المعلول يشبه العلة .

ثانياً - المبدأ القائل بان الاشياء متى اتصل بعضها ببعض الآخرمة واحدة فان بعضها يؤثر في البعض الاخر حتى اذا انقطع الاتصال (الاحتكاك بينها) .

فالقانون الاول يسمى قانون التشابه او المحاكاة ؟ والقانون الثاني يسمى قانون الاتصال او العدوى . وفي الحالة الاولى يعتقد الساحر بانه يستطيع ان يحصل على اي فعل يرغب فيه بمجرد محاكاته (تقليده) وفي الحالة الثانية يستنبط بان كل ما يستطيع الحاقه شيء مادي سوف يؤثر ذلك ايضاً بالشخص الذي كان في وقت ما على اتصال بالشيء المذكور ، سواء كان ذلك الشيء جزءاً من الجسد او لم يكن . ويدخل في ضمن سحر المحاكاة او التشابه - الرقيات (التعويذات) التي تستند عملياتها الى اساس قانون التشابه .

ويدخل ضمن سحر العدوى ، السحر الذي تستند عملياته الى قانون العدوى ثم يقول فريزر : « والخلاصة ان السحر ما هو الا تزييف أصولي لقوانين الطبيعة . كما انه في الوقت نفسه دليل خادع للسلوك وعلم كاذب ، فضلاً عن انه عقيم وغير مثمر . وإذا نظر الى السحر على انه قاعدة من قواعد القوانين الطبيعية التي تحتم تسلسل حوادث العالم فيسمى حينئذ (السحر النظري) واذا نظر الى انه يتابع للمدركات التي يرى الناس انها توجه طوالهم فيسمى حينئذ (السحر العملي) » . الى ان يقول فريزر : « على ان التحليل بين كلا المبدأين لم يكن إلا تطبيقاً خاطئاً لتوارد الافكار . ان سحر التشابه (المحاكاة) يعتمد على توارد الافكار ، بينما سحر العدوى يعتمد على توارد الافكار بالعدوى . ويخطيء سحر المحاكاة بدعواه ان الأشياء التي كانت في وقت ما متصلة تظل في حالة الاتصال . ومع

ذلك يحدث في التطبيق ان هذين النوعين من السحر يتحدان، او بالاحرى سحر
المحاكاة يكتفي بذاته، بينما سحر العدوى يقتضي أحياناً ممارسة سحر المحاكاة»^(١).
وكتب الاستاذ (موريس لينارت)^(٢) بحثاً في تاريخ الأديان العسام عن
المعلومات التي لا بد من معرفتها لدراسة دين الاقوام المتوحشة وجاء في بحثه عن
السحر ما يلي :

« كثيراً ما يقال ان السحر فن يؤثر في الخلوقات وفي الطبيعة بطرق غيبية
لغرض الحصول على نتائج خارقة للطبيعة ، كما ان السحر فن يستطيع الانسان
به ان ينفذ الى الكائنات - وهو بطبيعة الحال عضو من اعضاءها - بواسطة
الانجذا وبطريقة مباشرة . والسحر يجري مفعوله بتعديل ايقاع الطبيعة العادي
ويؤثر في انسان مصاب باضطراب نفسي بتعديل ايقاع وجوده الاعتيادي ولهذا
يعتبر الاستهواء بتأثير الاوزان الشعرية وايقاع الطبل والانجذاب الموسيقي
والتلاشي بالافتتان والموت ، او بالعكس التحمس للاقتناع بتأثير ايمائه او جبره
نحسه او سعده ... يعتبر كل ذلك مؤثرات سحرية .

ومهما كانت هذه الوجوه مختلفة يجوز عملياً اعتبار السحر عملاً ينطوي على
اقتناع الانسان بانه يؤثر في الخلوقات وفي الاشياء باعمال مختلفة تنبثق من ارادته
ولذلك يتجلى السحر عند البدائيين بمثابة مركب من الاعتقاد والممارسات تساعد
على ابداعات في المجالات التي لا تصل اليها يد الانسان . كالمطر والخصب
والانجذاب والاضرار والنجاح .

هكذا يؤكد الانسان رغبته بطرق التعبير الوحيدة التي يجوزها .
أ - بالصدى من جهة ، اي الصوت والكلام والغناء وامثالها كالطبل وغيره .
ب - بالتصوير من جهة اخرى اي التمثيلات بطريقة تصور الغرض المطلوب
او ترمز اليه .

ومن هنا نشأ الاعتقاد بان احجاراً مصنوعة او غير مصنوعة تخفي حيواناً او

١ - المنشأ السحري الملكية

٢ - مبادئ علم الاجتماع الديني .

تسهل اقتناصه ومن هنا أيضاً نشأ الرقص بالاشارات والتزيين وجميع الصور المختلفة التي تدخل في نطاق السحر بالمحاكاة والواقع ان البدائي يرى في كل ذلك اشارات وطرزاً للتعبير عن فكره . واذا ما وضعت هذه في المكان والزمان المطولين فانها تسجل تأكيدات ، كما يؤكد اتم التأكيد الصوت والغناء والتعزيم الذي يقال في المكان والزمان المطولين . »

وذكر الاستاذ روجر باستد عن السحر ما يلي :

« وكان سحر البدائيين ينطوي على تجارب ماهرة وخاصة بالادواء والسموم وتمثل هذه التجارب في نشأتها عدداً كبيراً من الملاحظات ولكن معارف هؤلاء البدائيين لم تتقدم في فهم ذلك . فالزنجي في وقتنا هذا يعتقد بان عصارة النبات في ذاتها ليست هي التي تيمت وتشفي ، بل يرجع ذلك الى احد طقوس السحر الذي يخلع على النبات طابع القدسية . ثم يقول : « فاذا اردنا ان نعثر الان على التفكير السحري ما يشبه ان يكون صدى اخيراً له . فمن الواجب الاتجه صوب العلم . بل يجب علينا ان نتجه من باب اولى صوب الموسيقى والشعر . فالترنيم هو نفس الاساس الذي قام عليه السحر . فمن المهم كما يقول المصريون القدماء ان يكون الصوت (مضبوطاً) لان الصوت هو الذي يثير القوى الخفية . فالسحر نوع من الموسيقى المتحجرة كما قال (كومباريو) وقد اوقف ابن (استيلوكوس) شخص اسطوري (يمثل الدهاء والسحر) بغنائته الدم الذي سال من (اوليسوس - Ulissus) وكان (اورفيوس) يذهب الخوف من البهائم بموسيقاه وقد حطم يوشع اسوار مدينة اريجابه وللهنود كما للصينيين اغانيهم التي ترتبط كل اغنية بفصل من فصول السنة . وتتخذ سبيلاً الى ضمان سير الشمس على اكمل وجهه والى اسقاط المطر » ^(١) وذكر موبس لينارت . « ان السحر يستقي معينه من مجال الارادة الفعالة والمجبرة . وبذلك يؤثر بالضرورة في تفكير البدائي . ومن المعلوم ان تفكير البدائي هذا لم يكن تفكيراً عقلياً ولما توارد تلك الصورة عن طريق الاقتناع بفعاليتها فلا تعكس احكاماً ثبينة فحسب ، بل احكاماً قديمة

اكتسبت قيا نموذجية .

ومن ممارسات السحر ان ساحراً يرى سلحفاة ثم يجد لها يؤكل واخيراً يتقبل هدية مكونة من تيس سمين ، فينتبه الى هذا التطابق الذي اتاح له ان يأكل الطعام بشراهة . فيضيف الى مجموعة عظامه السحرية قشور السلحفاة ورسغ التيس . ولما يرمي الساحر عظامه هذه ليستشيرها ويرى ان قشر السلحفاة سقط الى جانب رسغ التيس يستنتج منه ، كما حدث له قبلاً انه سيتم الحصول على خير كثير من اللحم . ويلاحظ من هذا المثال الدور الفعال الذي تلعبه وثنية تداعي الافكار فالعظام تلخص تصورات كثيرة ويرسم ترتيبها بداية يصبح الساحر مفتاحها . وعلى هذا المنوال يشهد السحر الذكاء اولاً ومن ثم يسيطر عليه ويقيده وذلك انه يجعل التلقائية تقوم مقام التجربة . والسحر والعلم شيان متضادان ومع ذلك فان السحر كان نقطة انطلاق لكثير من الاكتشافات التكنولوجية العلمية . وقد يصبح كذلك في المستقبل وبالسحر يتعامل الانسان مع كوائن متنوعة . القوى الغيبية او الجن ويشعر بانطباعات قوية كل القوة . وينال الطاف هذه القوى ويعمل بواسطتها ويحملها على العمل كما يشاء ويعدد ساحراً يأمر ويسيطر ويطلب بالحاح الاعتراف بالذنوب وينفذ ويزاول السحر الضار ويسلط الموت ويظل متصلًا بالأرواح .

ومن اختصاص الساحر ان يشاهد في الأشياء علامات تصلح للكشف . لهذا سمى الناس الكعوب في الموزامبيك (بولا Bula) أي الكلام كناية عن أنها تتكلم لأنها واسطة للحصول على الأنوار الخارقة . لقد أجاب أحد البدائين من فاتحي الفأل الى مبشر قائلاً : « انتم ايها المسيحيون تعتقدون بكتابكم المقدس ان كتابنا المقدس أرفع وأسمى وهو كعوبنا (أعظامنا) ويستدل من هذا الجواب الى ان البدائين يعتبرون السحر من الأمور الدينية ^(١)

الأساطير : ان الاسطورة من مستلزمات الدين ، زعم انها ليست من صميم الدين . ولكن لا يوجد دين من دون أساطير . والأسطورة عبارة عن قصة أو قصص تروي أعمالاً كثيراً ما تعتبر مستحيلة الوقوع . وعلى الرغم من أنها مستحيلة الوقوع فإن الذين يحكونها لا يخامرهم شك في صحتها . ومع ان الأساطير تنقل أخبار الآلهة وتروي القصص عن أعمالها فإنها لم تنطوي بالذات على أمور العبادة وقواعد الإيمان . وعندما تشير الاسطورة الى اعمال الطبيعة المتكررة تستهدف ان يكون وصفها مجرد رواية عما حدث قبلاً في العهد الاسطوري : ولما يذكر (هسيود - Hesiod) ان النهار ابن الليل بشير يريد بذلك ان ولادة النهار المتجددة والمتكررة في جميع الاوقات ما هي الا حنكة الكوائن الالهية منذ اقدم العصور . والانهار التي تستمد مياهها من السماء وتنتهي في البحار المحيطة ترمز اليها الاسطورة التي زعمت ان الانهار ولدت من الالهة (اوقيانوس) .

جاء في كتاب اساطير العالم ان كلمة (ميث - Myth) الشائعة في كافة اللغات الاوروبية مشتقة من الكلمة اليونانية (ميثوس - Mythos) التي تعني كما يظهر من متن هومروس - منشد الياذة والاوزيسة الملحميتين اليونانيتين - مجرد الكلام والبيان ولم ترد هذه الكلمة بمعنى القصة الا متأخراً . والاسطورة حكاية ذات طابع خاص ، ورواية تلعب الالهة فيها ادواراً رئيسية . اما علم الاساطير (الميثولوجيا - Mythology) فانه يصنف المواد الاسطورية ويدرسها مستنداً الى قواعد رصينة من التحليل والتدقيق وهناك علمان للاساطير .

الاول - علم الاساطير المقارن - وهو الذي يدرس الاساطير ضمن فروع جنس بشري معين .

الثاني - علم الاساطير العام - وهو الذي يحاول الكشف عن اساطير عالم

مترامي الاطراف وينبغي الحذر من الآراء المبتكرة التي يدعيها علم اشتقاق اللغات (الفيلولوجيا) بانه بمجرد تحليل اسماء الآلهة يستطاع الوصول دائماً او في اغلب الاوقات الى الكشف عن منشأ تلك الاسماء وتاريخها وقد مرت فترة طويلة بين المبدأ المتواضع في الميثولوجيا العلمي الذي شرع به فلاسفة اليونان في (أيونيا) - ضفة الاناضول في بحر إيجه - وسقراط . وبين علم الاساطير المقارن في يومنا هذا وكان لدى اليونان طريقتان في تفسير الاساطير وهما - الاولى الطريقة الرمزية، والثانية الطريقة الافيمرية (كتاب عن اسم افيروس - Evhemeros) المعاصر للاسكندر الكبير) ويبدو ان التفسير الرمزي للاساطير هو من صنع الفلاسفة الطبيعيين اليونان الذين احوالوا الكون المرئي الى عدة قوى او عناصر ، ومثلوا آلهة الاولمب العظام بتلك القوى . فجعلا (هيرا - Hera) اله الهواء وبوسيدون - Posidon اله الماء ... الخ وجعلوا لكل رمز معنى فالاسطورة اليونانية مثلا التي تمثل (كرونوس) يأكل اولاده ترمز الى فعل الزمن (كرونوس) الذي يطوي اجزائه طيا . والاسطورة المصرية التي تظهر لنا (اوزيريس) وقد قطع جسمه قطعاً دفنت في انحاء متفرقة من مصر ترمز الى خصوبة التربة وانتشار زراعة الحبوب فيه . لأن اوزيريس يعتبر اله الخصوبة واله القمح هكذا ترى المدرسة الطبيعية في الاساطير وابطالها رموزاً وتعبيرات عن مظاهر الطبيعة وبذلك تنقلب الالهة عندها شمساً واقماراً وكواكب . اما طريقة افيميروس فقد اجملها في كتاب وضعه عن الهة الاولمب صور فيها تلك الالهة هيثة رجال ونساء عاشوا في الازمنة القديمة حياة حافلة . ومن ذلك يتبين من الطريقة الافيميرية ان جميع الآلهة كانوا اناساً ماتوا فألهم الناس بعد موتهم^(١) و اشار الاستاذ موريس لبنارت الى تصوير البدائيين للاساطير وذكر كيف انهم يشبهون كل جزء من اجزاء العوارض الطبوغرافية بعض من اعضاء الجسد فقال :

يتصور البدائيون ان الطبيعة ذات روح تحيي نفس الحياة التي يحيونها هم .

١ - علم الاساطير العالم لفير بانكس La mythologie universelle fairbankrks

وان المشابهة بين الانسان ومظاهر الطبيعة تركت اثرأ في اللغات فاللغة الافرنسية
مثلا تتضمن عدة كلمات تسمي اجزاء الجبل باعضاء البشر كالرأس والرقبة والظهر
والبلعوم والثدي والضلع والكفل والكتف والقدم والهيكل العظمي ... الخ. ان
هذه الكلمات المستعملة للتعبير عن اجزاء لتدل على ان الاجداد الاولين يشبهون
تلك الاجزاء باعضاء بدنهم وبذلك جعلوا الجبل شخصاً له رأس وظهر ورقبة
وكفل وكتف .. الخ. ومن اساطير البدائيين ان انتشر وباء في احدى جزر ملائيزيه
وقتش سكان الجزيرة بعقليتهم البدائية عن سبب هذا الوباء والاسباب عندهم كلها
غيبية فوجدوا ان زورقاً قد سحب الى الارض واسند الى جوف صخرة كانوا
يعتبرونها سن اله . فسرعان ما ربطوا بين الوباء وبين الالم الذي اصاب سن الأله
وما ان سحبوا الزورق من اليابسه وانزلوه الى البحر الا وزال الوباء . والبدائي
لا يتصور وجود مخلوقات لا روح لها. ما دام لها روح فلا بد ان يكون لكل
المخلوقات ارواح وليس لدى البدائي مقياس يفهم به ان ثمة موجوداً لا يخضع
للارادة الحية . لهذا لا يتردد في الاعتقاد بان قمة الجبل رأس بطل من الابطال
الغابرين .

والاسطورة تكتنف العالم البدائي كما يكتنف ضباب الصباح منظر البلد .
فتصور الالهة وقوى الطبيعة بصورة توافق هواها وهي من ثم توضيح تكوين
الخليقة والنظام المستمر للموجودات وبهذا الاستمرار تبرر النظام الحالي اذ تجعل
لكل شيء سبباً لا يشك البدائي في صحته اطلاقاً . ان كل عرف في الجماعة
البدائية وكل عارضة لا بد ان يكون لها سابقة في العهد الاسطوري . وما
سبب الموت في نظر البدائي الا خطأ احد الاجداد السالفين في تبليغ رسالة الاله
المتعالي . ويعتقد الملايونيون ان التضاد بين الشمس والقمر ناشئ من عدم الامانة .
وهاك اسطورة تشير الى ذلك . ويرى الاسكيمو ان التضاد ناشئ من ارتكاب
الزنا . والاسطورة بارجاع المخلوقات وما اعتاد عليه الناس حالياً الى ما سبق
قبلا الى نماذج تحدث فيما بعد بلا انقطاع . تؤيد ديمومتها معتمدة على نظام سام ،
مما حمل الناس على الخضوع للتقاليد الموروثة . والحق ان الانسان بنخلقه لاسطورته

قد حبس نفسه في دائرة اذ وجد نفسه فيها بحيث لا يقدر على الخروج منها الا
اذا عصى اسطورته (٢) .

- ٣ -

الطقوس : لا يوجد دين بلا طقوس فهي من مستلزمات الدين وتتجلى العبادة
باجراء الطقوس وتضع الاساطير بعض اسس الطقوس ومظاهرها ويستمر اداء
الطقوس لان الاسطورة اكدت اجراءها فيما مضى . وقد اوضح الاستاذ موريس
ليان اهمية الطقوس لدى البدائيين فقال : « ان الطقوس تؤيد الاحتياج الذي
يجعل الانسان والطبيعة يتعاونان . والطقوس اسلوب من التعبير للنفوذ في العالم
الذي لا يخضع للتجربة ولاجراء مقايضة معه . ان البدائي لا يشك في أنه يؤثر
بنفسه في خصوبة الحقل حينما يؤدي المراسم الدينية لهذا الغرض ولا يشك كذلك
في انه يؤثر في نوع الطوطم حينما يحاكي مظهر الطوطم بالزينة والدهان والحركة
فينتقل اليه ويتمثل به كأنما اصبح هو والطوطم شيئاً واحداً، وحينما تجود الارض
الام وتعطي ثمرتها فإنها تعيد الى البدائي ما قدمه قبلها . فيغدو ذلك بمثابة
تبادل تقديم الغذاء بينها . ويشاهد هذا نوعاً ما في عرف شائع في جزيرة (كيواي)
حين يحتفل الناس بالعيد المكرس لتمجيد خصوبة البساتين . ورجولة الفتیان الذين
اطلعوا على الاسرار يعتبرون رفض (الساجوا) اهانة للاخ البكر لان الساجوا
مثيل للاقرباء القدامى الذين قتلوا واكلوا لينقلوا الى احفادهم قوة جدهم الاسطوري .
ان هذا الاتصال بين الناس والبطل الاسطوري يدل على استمرار الاتحاد بينهما
وما الطقوس التي تقام من اجل ذلك الا لغرض تحقيق الاتحاد .

ولكن الطبيعة بالاصل متغيرة وهي تصرف عطاياها بغير انتظام مما يسبب
العذاب للانسان في الاغلب . لذلك نراه ينظر اليها ويحاول اقتناعها بان تجود

٢ - من مقال لموريس لينارت - في كتاب تاريخ الاديان اتمام .

عليه بما يتوقعه منها فالبحارة في بحر المرجان اذا بوغثوا بهدوء البحر يوقعون اصواتاً الى جانب الزورق ويصفرون ساعات عديدة يستدعون بهذا العمل الريح التي قد لا تتأخر عن الهبوب . وبهذه الطريقة وامثالها يتوجه البشر الى الطبيعة وييدي لها ما يرغب فيه بتمثيل الاسطورة وتكرارها اذ يعتقد بانه لا بد ان تتحقق ولاجل استئزال المطر يلتحف شيوخ الارونتا ويغطون رؤوسهم بزغب يمثل صورة السحاب . ويوقع الفتيان ايقاعاً بمصادمة الاغصان يستدعون به الريح لتكون فاتحة وابل المطر . ويسقي الرجال بدمائهم الشورنجا التي تمثل الجذ الذي يجدونه ذاكرين كيف كان ومنوهين بعهد الذي كانت فيه نعم الامطار فياضة . وبذلك تكون الاسطورة قد اعيد بناؤها - الرغبة والصورة والرسم الحي حيث يعرض الناس على الطبيعة العمل المرغوب فيه وتغدو الصورة غير ذات وضوح اذا جاز للانسان لغة غنية يستطيع بها ان ينال مراده بالكلمات التي يعرف كيف يتلفظها والكلام يضمن له حقيقة ما يعبر عنه ، وبالكلام يستغنى عن الايماءات اذ تقوم مقام مراسم قديمة معقدة بحرق الاشواك . ان الرقية هي الطقس الرئيسي عند البولنزيين ويعرف الدور الذي تلعبه في سحر الشعوب الاكثر تقدماً . وكما ان الكلام يتعدى الحياة فكذلك باستطاعته ان يحطمها ويفنيها واللعنة بنظر البدائي واقعة لا شك فيها فيعتقد البدائي بانه لن يعيش بعدها . والاعتراف بمخالفة يجعلها بمثابة لاشيء . والعادة هذه شائعة لدى عدد كبير من الشعوب المنحطة بوصفها علاجاً ملطفاً ضد ضرر المرض والتعاسة وهكذا يرجع الطقس الشفوي الى مجموعة احكام سعد او شؤم ومع ذلك فانه لمن العسير ان يتمنى المرء ان تسير الامور بانتظام اذا لم يكن هو خاضعاً للنظام الاجتماعي ومن هنا نشأت حالات العفة والصوم والامساك عن الطعام ... الخ من الحالات التي كونت شعائر التطهير والتقديس والتكريس وفضلاً عن ذلك فان لهذه الشعائر اشكالاً ايجابية مثال ذلك ان الاتصال الجنسي بين ازواج شرعيين يعتبر في افريقيا رمزاً لبناء قرية وبعكس ذلك يهدم الاتصال غير الشرعي كل شيء ويخل بالنظام وكان من امر ذلك ان الزنا والسفاح كانا سبباً لكثير من التبدلات ووضع الانظمة الجديدة .

ان الاتصال بالعالم الخارج عن مجال التجربة وبالمخلوقات غير الشخصية يتطلب وسائل الاتحاد بها التي تضمن نتائجه . مثال ذلك ان قبائل البنانز في جنوبي افريقيا تستعمل التراب الابيض^(١) للاتصال بالاجداد وبالنفوس ويطي رجال البكاكه سيقانهم واهل موزامبيك رؤوسهم به . وهناك رقص افريقي معروف يرقص الناس واجسادهم مطلية ببياض . وفي (مانز جومبا) في الكمرون توضع انبوبة في فم الميت المدفون على عمق بضع سنتمترات من ارض البيت يتلقى الناس لعاب الميت . اما في الجابون فيضع الجالوبي عصا في التراب الابيض ويجعلها في فم الميت وبذلك يتشرب التراب بكل ما ينبثق من الميت ويعتقد الجالوبي ان هذا التراب غدا دواء لانه اختلط بالجلد وامسى هو في اتحاد مع الجذ ويسمع نداءه ويتلقى نصحه . والتبغ اساس الحياة الطقسية لدى (الكرولو - Crolo) في امريكا ولدى الشامان في سبريه وفي الجابون .

يرمي الناس في الماء امعاء اول سمكة اصطادوها وبذلك يظهرون احترامهم وتبجلهم لقوى الماء . مقربين لها جزءاً مما نالوه وفي جميع التقدّمات وعند توزيع الطعام يخصص جزء منها بصورة عامة الى الارواح فتوضع حصتها الى جانب او فوق متكأ صغير . ولا يجوز تقديم التقدمة في الاغلب الا فوق قطعة مصنوعة من حشيش سحري او فوق حصير . وليست هذه التقدّمات البسيطة سوى قرابين ومن الطقوس سكب نبيذ النخيل فوق القبر السوداني وبذلك يصبح شراباً مقدساً . والبيت الماعوري في نيوزيلندا يكرس بضحية بشرية تدفن تحت العمود الرئيسي . والزوارق والاكواخ في باروتسلاند تحتاج الى رش دم ينفجر من اصابع طفل قلعت اظافره تبركاً .

القربان - القربان من اهم الشعائر الدينية فالاديان كلها ابتداء من اكثرها بدائية الى اسمها تكاملاً جعلت القربان من اولى طقوسها . لقد عرف هيوبرت (Hubert) ماوس (Mauss) القربان كما يلي :

« القربان عمل ديني - بتكريس ضحية - لتعديل حالة المقرب المعنوية ، او

١ - التراب الابيض مقدس لانه يحتوي بقايا العظام التي اصبحت رمياً ويعتبر من المواد الطبية .

تغيير الموضوعات المادية التي يتوخاها المقرب . والقربان يتناول القدسية او يهدف الى ازالتها وهو في الوقت نفسه طريقة لضمان الاتصال بين المجال المقدس والمجال الدنس (غير المقدس) وذلك بتحطيم شيء ما في اثناء المراسيم . ويمكن تصنيف القربان الى ما يلي :

١ - مناسبة الطقس الديني .

٢ - الغرض من القربان .

٣ - الموضوع المادي المراد انجازه .

٤ - شكل الطقس .

أ - ان التفريق بين القرايين الدورية والقرايين العارضة امر مهم عند الهندوس وفي اغلب الاديان الاخرى والاولى اجبارية اما الثانية فاختيارية .

ب - الغرض من القربان اما ان يكون للتقديس او لازالة القدسية . وفي الحالة الاولى يرتقي المقرب الى مرقى عال او يغدو باتصال وثيق بالالهة وفي الحالة الثانية اما ان يكون الغرض تجريد المواد المادية من بعض قدسيتها لتكون صالحة للاستعمال البشري - وفي هذه الحالة ليس ضرورياً ان يكون القربان ذا حياة - واما ان يكون الغرض ان يفقد المقرب ذاته جزءاً من قدسيته او من دناسته وفي حالة الرغبة في وقوع التقديس تخرج القدسية من الضحية وينتقل الى المواد وفي حالة الرغبة في ازالة التقديس تخرج القدسية من المواد وتنتقل الى الضحية ..

ج - يجوز تصنيف القرايين الى :

اولاً - قرايين ذاتية او شخصية حين يريد المقرب تحقيق القدسية وفقدانها .

ثانياً - قرايين موضوعية اذ يوجه بها تيار المانا الى شخص اخر او مادة

اخرى . وفي هذه الحالة لا يحصل تأثير المانا الا في المقرب نفسه .

ان التميز بين المقدس والدنس في العبادات البدائية غير واضح . لهذا نجد في

العبادات المذكورة ضربين من القربان المطهر :

١ - تطهير الدنس وجعله صالحاً للاستعمال .

٢- ازالة القدسية بحيث تصبح المادة صالحة للاستعمال البشري او على العكس^(١) و ذكر روجر باستد ان القربان عمل طقسي كتحطيم كائن حي او يظن انه ينطوي على الحياة - وقد اعتقد الانسان انه يستطيع بهذه الوسيلة ان يؤثر في القوى الخفية . اما لينجو منها او ليرضيها ويتصل بها او ليتحد بها . اذن فليس القربان نوعاً خاصاً من الطقوس ولكنه جنس يحتوي على انواع عديدة منها وهي : قربان الشكر وقربان الرجاء وقربان التكفير عن الذنوب . ويرى تايلور ان القربان بحسب نشأته هدية ذات غرض تقدم للارواح : « اعط لكي تعطى » واخيراً فقد يقدم الانسان عواطفه للالهة بدلاً من الاشياء المادية ويصبح القربان تنسكاً^(٢) و ذكر تايلور : « يبدو ان القربان طقس يرجع الى دور الحضارة السحيقة ويحتل في النظام الروحي (الروحانية) ما احتله الدعاء الذي ما برح وثيق الصلة بالقربان منذ عدة قرون . وكما ان الدعاء سؤال موجه الى الاله كانه بشر ، كذلك القربان عطية تقدم الى الاله كأنه بشر ان الملتمس الذي ينحني امام رئيسه واضعاً هدية تحت قدميه ورافعاً اليه عريضة بما يرى يدلنا على منشأ القربان والصلابة . ورغم ان القربان كان في مراحل البدايات امراً مفهوماً الا انه طرأ عليه تبدلات كثيرة على مر القرون ليس من ناحية المراسم المتخذة فحسب بل من ناحية النية التي ينويها العابد في تقديم القربان .

ويذكر تايلور سبب تقديم القربان فيقول : ان الرجل الفقير يقدم هدايا الى الرجل الغني او المتنفذ لينعم بذلك ببعض المنافع^٣ او ليتجنب بعض المصائب ليطلب العون منه او ليسأله الصفح عن اهانة . فاذا وضعنا الاله مقام الرئيس واذا تصورنا الوسائط اللازمة لايصال الهدية الى الاله نجد انفسنا امام مذهب منطقي لشعائر القربان وتفهمنا سببه .

وتصنف التقدّمات التي تقدم الى الآلهة كما تصنف العطايا الارضية وهي -

١ - العطية العارضة التي تقدم بسبب حادثة ما .

٢ - الضريبة الدورية التي تدفع من قبل التابع الى متبوعه .

١ - من مادة القربان في الانسكلوبيديا البريطانية .

٢ - مبادئ علم الاجتماع الديني .

٣ - الاتاة التي تدفع لضمان الامتلاك وحماية الثروة المكتسبة ويقول تايلور ان لكل هذه الانواع من العطايا دون شك ما يقابلها من القرابين .
ويعارض باستد رأي تايلور في ان القربان كان في اول الامر هدية ويقول :
« ليس من الممكن ان يكون القربان في اول الامر هدية . لان الهدية تفترض وجود عاطفتين :عاطفة الملكية الفردية وعاطفة الاعتراف بالجميل نحو الآلهة .
ولكن هاتين العاطفتين ليستا بدائيتين ، ومن المحتمل ان يكون القربان اقدم عهداً من الملكية الفردية » . والقربان بنظر باستد شيء آخر غير الهدية انه وجبة طعام . فاله العبريين وآلهة الالمب تتغذى بقتار الضحايا . وهذا الطابع الغذائي شديد الوضوح في مثال اراقه الدماء التي يبدو انها متى تسربت الى باطن الارض شربتها الآلهة الارضية ولكن الى جانب هذه القرابين التي تبدو فيها الآلهة تلتهم كل شيء ، توجد قرابين اخرى تقنع فيها الآلهة بجزء من الضحية كالشحم والدم اذ يأكل الناس كل ما بقي بعد ذلك . وهكذا كان الاتحاد يتم بين القوة الالهية وبين المؤمنين بها عن طريق تناول الطعام بعينه (١) .

وتتجلى في القربان فكرة التخلي عن اثن شيء كما جاء في التوراة فقد ضحى ملك المؤابيين بابنه البكر حينما كان على وشك ان يخسر المعركة . وهناك ضرب آخر في القربان وهو تقديم جزء من جسد المؤمن التي تمثل الجسد وفي القرابين الجنائزية الشائعة لدى اهل جزيرة (نيكوبار) ما يدل على ذلك . اذ يوضع في القبر كل ما يملكه الميت واحدى عظام اصبع ارملة وهي دون شك تمثل جسد الارملة بكامله . وفي جزيرة (تونجا) عادة شائعة يبدو انها تستند الى فكرة التضحية هذه فهم يقطعون جزءاً من الاصبع الصغير بفأس او بقطعة حجرات طرف حاد كدليل على تقديم قربان للالهة . كما توجد عادة دينية تجوز تقديم شخص بدلاً عن آخر (٢) » .

١ - كتاب تايلور .

٢ - الحضارة البدائية الجزء الثاني - لتايلور .

الدعاء او الصلاة^(١) يعرف تايلور الصلاة بانها « الرغبة الصادقة للروح سواء تفوه بها امرؤ او لم يتفوه » فهي من هذه الناحية اشبه شيء بحديث بين روحين وبما ان الدعاء يوجه الى الارواح البشرية سواء كانت تركت اجسادها او تأهت فانه يعتبر مجرد امتداد للصلاة اليومية القائمة بين البشر . ويظل التماثل قائماً حتى في الحالات التي يتجلى فيها الشخص في صلته الى احدي الارواح العظمى . او الى احد الكائنات الروحية . ولا يغير من ذلك ان لهذه الكائنات الروحية الخالصة قوى كبيرة هائلة تفوق بكثير قوة روح الفرد وتعالى عليها . واعتبار الدعاء عملاً موجهاً الى الآلهة او الارواح او تخاطباً بين النفس الانسانية والكائنات الروحية هو الذي يربط الدعاء بالنظرية الروحية . وليس من شك في ان الدعاء كان معروفاً في كل المجتمعات المتأخرة في المراحل الاولى . ولم يكن الدعاء يهدف في الاصل الى اية اهداف او اغراض خلقية بل كان يتعلق بمطالب الناس من الارواح .

فالزولو مثلاً يخاطبون اجدادهم طالبين منهم العون والثروة والصحة والنجاح ويعتقدون ان مجرد التفوه باسماء هؤلاء الاجداد يوحى الى ارواحهم بما يرغبون اذ للارواح قدرة خارقة على التعرف بشكل تلقائي بما يدور في خلد الناس واذهانهم حين يتوجهون بالدعاء اليها حتى ان الزولو يفضلون الا يتفوهوا برغباتهم اذ كثيراً ما يخطيء المرء في معرفة اين توجد منفعته وانما يكتفون بان يطلبوا من الارواح ان تمنحهم ما تعتقد بان فيه خيرهم وصلاحهم تاركين لها ولقوتها العاقلة الكبرى وحكمتها المتناهية امر تحديد هذا الخير والصلاح .. ومعظم صيغ الصلاة

١ - يستعمل الغريون كلمة واحدة للتعبير عن الدعاء والصلاة ومن نظرهم الدعاء والصلاة شيء واحد

الموجودة عند الشعوب المتوحشة بسيطة وقصيرة لا تتعدى كلمة او بضع كلمات .
كأن يتضرع الرجل - كما هو الحال عند الزولو « يا اهل بيتنا » ويعتبرون هذه
العبارة الغامضة الموجزة صلاة كاملة تنقل الى ارواح الاجداد كل رغباتهم - او
يصيح الرجل قائلاً (بقره) او (اولاد) حين يسعل مثلاً ويعتبر هذه الصلاة
مستجابة للارواح التي توجد بكثرة حين السعال . ولكن الصيغ التي تستخدم
في الصلاة تتعقد في العادة بتعقد تصورات الناس عن الارواح وعن وجود الاله
الاعلى كما تتعقد مطالبهم بتقدم الحضارة . ولكن الصلاة كما تظهر في الشعوب
المتأخرة تعكس على العموم كثيراً من ملامح الصلاة في الشعوب الاكثر تقدماً
فعلى الرغم من التقدم الحضاري الهائل الذي احرزته البشرية في تاريخها الطويل
فان الانسان ما يزال يستخدم في صلاته صيغاً ويطلب مطالب اشبه بالصيغ
والمطالب التي توجد عند الشعوب البدائية فاذا كان الرجل البدائي يطلب بقرة
او ولدأ او ارزأ وفيراً مثلاً . فان المتحضر يسأل ان يتحسن الجو كما يطلب
الاذى للاعداد ويلتمس طول العمر والصحة والسعادة للاصدقاء (١) .

النظورات البدائية

معاني بعض التعابير عند البدائيين

يرى (برجسون) ان تفكير البدائيين لم يتحرر تحرراً تاماً من الغريزة الحيوانية ومعنى هذا انه يهدف الى العمل اكثر مما يهدف الى التأمل ومعناه ايضاً عملياً اكثر منه نظرياً . لهذا لا يوجد لديهم تصورات عقلية محددة واضحة كل الوضوح ، او معاني متدرجة كما ينبغي . كذلك لا يوجد لديهم من باب اولي مذاهب دينية بل يوجد لديهم فقط ردود افعال فطرية تعبر عن نشاطهم النفسي تجاه الاشياء . اي استعدادات عقلية .

ويقول برجسون ايضاً : يجب على المرء ان يحيا قبل ان يتفلسف . ولقد كانت هناك ضرورة حيوية نجمت عن الاستعدادات والاعتقادات الاولى . ان الذكاء البدائي لا يفعل شيئاً سوى ان يعبر ببعض التصورات عما توحى اليه الغريزة .. »

وبصدد التعابير الدينية التي يستعملها البدائيون يذكر باستد ما يلي : « كلما استطاع الانسان السيطرة على الطبيعة وكلما استطاع ان يتحرر منها وجد فراغاً من الوقت يفكر فيه ، وهكذا متى درسنا الشعوب التي نعدها همجية في الوقت الحاضر وجدنا انفسنا امام موقف وسط . اي امام تصورات وسط بين الحركة والتفكير . ومن هذه الملاحظة نستنبط النتيجة الاتيتين :

اولاً - من العبث ان نبحث عن التفرقة في المعاني الكلية الدينية بين ما كان بدائياً وبين ما تفرع عن الاصل البدائي فاي المعنيين الكليين اسبق من الاخر؟ معنى الروح او معنى المانا؟ اننا نجد ان هذين المعنيين متلازمين في كل زمان ومكان دون ان يكون هناك ما يسمح لنا بالتفريق بين ميلاد كل منهما .

ثانياً - يجب من ناحية اخرى الحذر من تحديد هذه المعاني اكثر مما ينبغي ومن الرغبة الملحة في العثور على مذهب دين فيما وراء المعاني والصيغ ، ولو كان هذا المذهب ساذجاً او مناقضاً للعقل . ومن المستحسن ان نترك حول المعاني الدينية هامشاً من الشك وهالة من الغموض . (١)

اوضح سوندر بلوم في كتابه «مختصر تاريخ الاديان» معاني بعض التعابير الشائعة لدى البدائيين نذكرها كما يلي :

- ١ -

القوة القادرة والمانا - Mana - كل حادثة عند البدائيين وكذلك كل شيء عندهم يدعو الى الحيرة والدهشة . ان ثورة غبار في الطريق وقوة بدنية غير مألوقة وخلا عضويًا كالصرع والدمامة ومهارة نادرة وكل جديد مها تكرر في اوقات معينة يظل في نظرهم لغزاً من الالغاز او شيئاً غيبياً . وكذلك الولادة والموت وبعض المشروبات كل ذلك ينطوي على طابع خارق عند البدائي . ان الشعوب والقبائل غير المتحضرة تستعمل في لغاتها كلمة او كلمات متعددة للتعبير عن امور تعني شيئاً هو في الوقت نفسه خارق ومتعدد وعظيم وسري (غيبي)

١ - مبادئ علم الاجتماع الديني .

وقدير وفوق الطبيعة . والتعبير الذي يطابق هذه الكلمات بأحسن صورة هو تعبير (القدرة) . ويطلق مصطلح الـ (مانا) على الشيء الموهوب بخاصية وقدرة خارقة .

ويرى سوندر بلوم ان معرفة (المانا) تسبق معرفة الروحية . ان مفهوم المانا لا يفترض بالضرورة وجود الروح والنفس في كافة الأشياء . وليس المانا كياناً يتألف من مجموع الأرواح او النفوس الكامنة في البشر والحيوان والأشياء . كما ان الأرواح والنفوس لم تكن تطوراً أو تحولاً للمانا . والواقع ان بعض البشر وبعض الحيوانات وبعض الأشياء تكون موهوبة بالمانا أو أنها تملك المانا بينما لا يملكها غيرهم . وكذلك تكون المانا بجزءة بعض أرواح الموتى والأحياء^(١) .

وكان المبشر (كودرنجتون) أول من أشار الى تعبير المانا الشائع عند الملاينيين بمعنى القوة السحرية . وهي قوة مختلفة عن كل قوة مادية وتسبب هذه القوة بشق الطرق الضرر أو النفع . ومن الخير كل الخير للإنسان ان يستخدمها ويسيطر عليها . وعرف « كودرنجتون » المانا « القدرة » أو التأثير الخارق (فوق الطبيعي) الذي يلعب دوره للتأثير في كل ما هو خارج عن قوة البشر العادية وعن تطور الطبيعة المعتاد . ويرى الملايني ان كل حراثة وكل صيد يجري وكل جدال ليس مديناً للمهارة التي يبدونها الحارث أو الصياد أو المقاتل ولكنها مدينة للمانا التي اكتسبها المرء بواسطة تيمة أو تأييد صادر من روح أو نفس . وليس الثراء الا من فعل المانا . وتعني كلمة مانا في بعض الجزر الاوقيانوسية المال ذاته . والمانا سواء كانت نافعة أو ضارة هي قوة غير متأثرة وغير شخصية . ويبحث الملايني عنها في كل الأحوال ليستغلها ويعمل الآخريين يخشونها ويستفيدون منها عند خرقهم النظام الاجتماعي (التابو) ويعمل الساحر بواسطة المانا . ان هذه الخاصية في المانا التي تعمل بدون وساطة من أية نفس أو أي مخلوق شخصي والتي تلعب دوراً مهماً وتظهر في كل حركة فكرية دينية أو سحرية

عند الملازيين ، وقد جلبت انتباه العلماء وساعدت على معرفة معاني مشابهة شائعة في أمريكا كالتعبير (اورندا ومانيتير وأكان) او تعبير ارنجويلتا Arongovilta في اوستراليا ، او (أوندا) عند الأقزام و (هاسنا) في مدغشقر . وذكر هيوبرت وماوس ان مفهوم المانا أوسع من مفهوم المقدس وبرأيها ان المانا عمل روحي يؤثر من بعيد في المخلوقات المتصلة بالتشابه والتعاطف ... والأثير الذي لا يوزن وهو قابل للاتصال وينتشر بذاته في مجال هو نفسه مانا وعالم منطو على نفسه حيث يجري كل شيء كأنما المانا تعمل فيه » وبالجملة ان المانا ضرب من التفكير الاجماعي .

ويعبر باستد عن المانا كما يؤمن بها أهل الجزر الشرقية في المحيط الهادي بأنها تلك الآثار التي يمكن التعرف اليها في فكرة القوى الخارقة للعادة وفي فكرة القوة المغناطيسية ، أو بالاختصار في الآراء التي تقدم عليها علوم الغيب في العصر الحديث ^(١) . ويقول سوندر بلوم : لا شيء أتمن من المانا . إن من وهب قوة المانا يستطيع ان يمنح القوة الحياتية والنجاح والسعادة لنفسه ولصالح قبيلته . ان جميع التدابير التي تتخذ اكتساب المانا يحوز اعتبارها من الأمور الدينية ^(٢) . ويستطرد سوندر بلوم قائلاً : « في الدين يتوجه المرء الى القوة والى القوى القادرة وكأنه يتوجه الى شيء متعال من أجل الدعاء والخضوع . اما في السحر فيتعامل المرء مع القوة القادرة بدون احترام ولا خوف بوصفها واسطة او اداة لا غير . ويجوز للقوة القادرة ان تكن في مادة ما ، فتصبح تلك المادة وثناً او رقية . فتكن مثلاً في حجرة غريبة الشكل وفي قطعة من جلد حيوان وفي صورة ، وفي كيس جمع فيه المتطبب مواد مختلفة موهوبة بقوة قادرة كأنياب حيوان ومخالب وشعر وجذور .. وغير ذلك والقوة الكامنة في شجرة فاكهة او في أية شجرة تلفت النظر قد تمثل بهيئة وكر طير عليها او رخم . وكذلك قوة الحصاد (نفسه) قد استقرت في خدمة خاصة وقد تكن في شجرة من اشجار الغابة .

١ - مبادئ علم الاجتماع .

٢ - مختصر تاريخ الأديان

ويرى البدائي ان الذين تتجلى فيهم بصورة دائمة قوة فوق طاقة البشر انهم اكثر خطراً .

التابو - Taboo : ان القوة القادرة خطرة من جهة وثمينة من جهة اخرى ويجوز مقارنتها بالكهربائية التي تقدم خدمات لا حصر لها . ولكنها تسبب المخاطر ، ولهذا يقتضي عزل المواد والاشخاص ذوي القوة القادرة ولمسهم بحذر ويقظة . والمانا في نظر البدائي معدية والذي اصابته العدوى لانه لمس شخصا موهوباً بالمانا ينبغي له ان يتخذ تدابير خاصة للتخلص من تأثير السائل المهلك . ان فكرة القوة هذه اوجدت في حياة الشعوب البدائية عدداً كبيراً من الاوامر الصارمة اكتفت بطابع سري . ولاجل التعبير عن خطر هذه القوة استعمل البولنزيون كلمة (تابو) وهي تعني ثمة شيئاً معتبراً وشيئاً يلفت النظر (غريب) يقابل كلمة محلل ويتعامل معه بحرية . اذن تعني كلمة تابو عملياً : « انك لا تجرؤ او انك لا ينبغي لك . » ان كل شيء خارق للعادة وجديد وغير معروف ويكون تابو . لهذا يصبح الاجنبي والمولود الجديد تابو . وكذلك يعتبر الكهنة والرؤساء تابو لان فيهم قوة المانا . وكل ماله صلة بالامور الغيبية وعبادة الالهة وكذلك بعض الاطعمة وبعض الحيوانات والنباتات تابو ، وثمة اناس لم يكونوا عادة تابو ولكنهم يغدون تابو في بعض الظروف والجثة تابو والرجال في الحرب والصيد تابو والنساء في وقت الحمل تابو . وقد يكون الرجل والامرأة تابو الواحد ضد الآخر وبصورة خاصة الحماية والصهر وبالعكس . وتكون بعض الحيوانات تابو لبعض العشائر ولا تكون لعشائر اخرى .

ويعتقد الناس في زيلنده الجديدة بان من صدر منه ذنب حيال التابو يعاقب بصورة تلقائية . واذا عرف احد الزوج انه اكل لحمًا محرم اكله (تابو) يمرض فوراً وقد يموت من جراء ذلك . وفي مرحلة متقدمة من التطور اصبح التابو شيئاً مقدساً او شيئاً دنسا . وما ان بلغ التطور في مفهوم التابو تلك المرتبة حتى تغيرت مدلولات التابو فأصبح (تابو) ضد اعتيادي ومقدس ضد دنس او دنيوي ونجس ضد طاهر) ولما تقلبت الاعتبارات الاخلاقية بعد ذلك اصبح التضاد بين المقدس

والطاهر من جهة والنجس والدنس في جهة اخرى . ان كلمة تابو تعبير من لهجة قبائل تونجا في جزر اميس وهي مركبة من (تا-) اي المعتبر و (بو -) للتشديد والتابو بقدر ما يستطاع تعريفه هو النهي او الأصح هو الانتباه الذي يفرضه القانون الديني لمراعاة الحدود بين الاشخاص العاديين والاشخاص الموهوبين بقوة عليا . وعرف (جودجون - Gudgeon) التابو انه : « عكس التنفس بحرية وهو عالم الانقطاع والانكماش وهو المنهيات الشعائرية في كل نظام ، منهيات الطعام والكلام والمنهيات الاجتماعية » ويعرفه ماوس « انه نهي جماعي يتمركز في موضوع مشبع بالتقديس . »

ويقابل مفهوم التابو كلمة (نوا - Noa) التي تعني الواسع والمشارك وغير المخصص وبذلك تحدد مجالين احدهما سام وهو مجال المقدس والحياة فيها تشحن المرء بطاقة المانا وتجعله بمعزل عن الآخرين ومتفوقاً عليهم . اما المجال الثاني فسفلي وواسع جدا . وهو ساحة الدنس حيث لا يشحن المرء فيه بطلمس الحياة الا بقدر ما يستطيع به ان يعيش . ويتضمن مفهوم التابو في الاصل معرفة المقدس وغير الطاهر ومع ذلك ان مفهوم الطاهر ومفهوم المقدس يظلان متلازمين متصلين . فكلمة (ساكر - Sacer) اللاتينية تعني المقدس والملعون في الوقت نفسه . وجاء في التلمود ان الكتاب المقدس (العهد القديم) يدنس ايدي من يحملة ، وحدث من ثم تشابه بين المقدس والنجس ، ويجوز معاملتها كليهما بلباقة لأن كليهما ممنوع وخطر . وكذلك يوجد تطابق بين الدنس والطاهر ، والشيء المعتاد دنس بمعنى (محلل) يجوز الا يحدث خطرا حين استعماله ، كما يجوز الا يحدث خطرا ان أكل الحيوانات الطاهرة محلل . وجاء في الاصحاح العاشر من سفر اللاويين ما يدل على ان المقدس غدا ضد المحلل والنجس ضد اللاهر ووردت الآية للتمييز بين المقدس والمحلل وبين النجس والطاهر .

الروح : ان الروح في الانسان مبدأ التغذية والنمو وهي تحس وترغب وتعمل وتحل في الجسد بهيئة كائن مادي ولطيف . وتستطيع الحركة بحرية تامة في اللحم . وفي حالة الموت تترك الجسد مع آخر نفس . والبدائي في الاكثر يميز

بين ارواح متعددة لانسان واحد لهذا يقتضي التمييز بين الروح التي ترى في الاحلام والروح التي تحوم في الافاق بلا قيد ، والتي لها صورة انسان وتذكر كنهه اي نفس وتسكن الارواح بعد الموت في الحدائق والاحجار والاشجار وفي الادوات التي استعملها الميت في الاحتفالات السرية ، كما انها تحوم بحرية في جسد امرأة فتولد من جديد . ويمكن لروح الميت ان تختار مسكنها في الحيوانات ايضاً . وبعد ان تعيش الارواح في الارض تستطيع السكن في الهواء ايضاً ويسمع نجيبها في العاصفة - وتسكن في باطن الارض وفي جزيرة بعيدة .

ان الفكرة التي يتصورها البدائيون (عن مثوى الروح او الميت تتوقف الى حد ما على الطراز الذي تعامل به جثة الميت فتدفن او تلقى خارج القرية او الخيم لتصبح طعمة للطيور والحيوانات السائبة والمفترسة . او انها تحتفظ في الاشجار وتدفن او تحرق وبالامكان سرد تفصيلات كثيرة عن الطريق التي تسلكها الروح للذهاب الى مملكة الموتى وعن المخاطر والحوادث المتنوعة التي يجابهها الناس . ولا يجري التمييز بين اعمال الموتى الحسنة او السيئة تبعاً للتعبير الاخلاقية انما يجري ذلك تبعاً للمانا التي كان يملكها الميت ونظراً لقابليته ومنزلته في الحياة الدنيا . ويصبح من طبقة الوجاه او تلك الذين قتلوا في المعارك او حينما كانوا في صيد البر والبحر معرضين انفسهم للاخطار . وكذلك النساء التي تموت بعد الولادة ، ومراسم الجنازة ايضاً تأثير في مصير الميت . والميت الذي لا يدفن تظل روحه هائمة وتعتبر حياة الآخرة امتداداً للحياة الدنيا . ولكنها بشكل معدل (١) .

دفن الموتى : وكانت طريقتان للدفن شائعتين في القديم فالحضارة التي تعرض موتاهها على النار المحطمة تتصور ان الميت ترك الاحياء تماماً . اما الحضارة التي تحرص على ان يظل الجسد على حالته من دون ان يمسه شيء فتمتد بان الميت سيعود الى المكان الذي خرج منه لهذا تودعه حضن الام ذات النعم . وبفضل اقامته في حضن الإله الام اصبح الميت اقوى مما كان عليه في حياته .

(١) مختصر تاريخ الاديان : سوندر بلوم H M.R

وهناك مجال لاستعطافه بالقرابين التي تقرب اليه والاثاث الذي يجهز به ويدفن في قبره . ويعتقد ايضاً باستجلاب حسن رضائه اذا حى اهله لحده وحافظوا على جثته من التعرض لها .

اما العقل الهندي الاوروبي فكان بعيداً عن تفهمه لفكرة الفناء بشكل مادي بالدفن وكان يرى ان سمعة المرء في حياته هي التي تمنحه الخلود لاعيشة القبر لهذا كان الرومان يحرقون موتاهم وذلك لتحطيم الوجود المادي على المحرقة وكانوا مقابل ذلك يحتفظون بصورة مستعارة لوجه الميت تصنع بصب الشمع على وجه الميت وبجرق الجثة تتحطم طبيعة الميت المادية ولكن خطوط القناع تبقى محفوظة وبذلك يحتفظون بالمظهر الروحي للميت .

- ٤ -

اعتقاد البدائيين بالنفوس : وتتميز النفس في نظر اللاهوت وما وراء الطبيعة بوحدتها وبساطتها المطلقة ولكن لم يكن الامر كذلك دائماً . وقدل بحوث علماء الاجناس المعاصرين على ان فكرة الروح كانت عند البدائيين شديدة التعقيد . فعند اهل لاوس مثلاً يصل عدد النفوس لدى الشخص الواحد الى ثلاثين نفساً . واذا لم نذهب الى هذا الحد واقتنعنا بصدق وثائق الرواد والمبشرين وجدنا ان الشعوب غير المتحضرة تفرق بوجه عام بين النفوس الآتية :
اولاً - **النفس الجسدية :** تحتفظ الجثة بعد الموت بوجودها على هيئة شبح من الاشباح او هذا شأنها على الاقل ما دامت لم تتحلل بعد . ومن هنا نجت مجموعة مزدوجة من الاحتياطات ، فهي اما ان تقوم على قطع الاعضاء وكسر العظام والتعجيل بفساد الجثة لانهم يخافون الميت الذي ينقلب شبحاً خيفاً

وكابوساً مزعجاً وسبباً للكوارث ، او تقوم على تخفيف الجثة . وتحنيطها والاحتفاظ بها اطول مدة ممكنة على نحو يتيح لها اكثر مدة ممكنة من البقاء في القبر .

ثانياً - النفوس الخاصة : وقد توجد الى جانب الشبح مجموعة كبيرة من المبادئ الحية التي ترتبط بمختلف اعضاء الجسد . وهكذا يصبح دهن الكليتين والقلب والكبد والامعاء واصبع القدم - لدى الشعوب التي تألف السير لمسافات طويلة - والذكر والدم الحار مقاماً للنفوس الخاصة .

ثالثاً - النفس الخارجية يتخيل البدائيون ان النفس شيء مادي محدد بالذات وان لها حجماً معيناً يستطيع الانسان ان يحتفظ به في علبة او في اناء من الخرف ومن الممكن خدشها ورضها وتمزيقها ، فاذا اطلت النفس في جسد الانسان اصبحت عرضة للعطب اكثر مما لو وضعت في مكان أمين خفي ولذا كان البدائي يخرج روحه من جسده ويضعها في امان في مكان مريح كأن توضع في حقيبة .

رابعاً - الظل : يرى غير المحتضر او شبه المحتضر ان نفسه ظله فاذا مشى احد على الظل بقدمه او ضربه او اخترقه ، شعر صاحبه بالجرح كما لو كان جسده هو الذي تلقى الطعنة . واذا جرد من ظله كما كان يعتقد امكان ذلك مات .

خامساً - الاسم : ويعد الاسم هو الآخر جزءاً لا يتجزأ من الشخصية ، ويعرفه الاسكيمو بأنه نوع من النفس يرتبط به مقدار خاص من الحيوية والمهارة . ويقول (جوانيه) ان الصينيين القدماء يرون ان الاسم هو النفس العليا ذاتها وانه هو المصير نفسه والحياة عينها . وتوجد هذه العبارة مدونة في معبد اوفو المصري : وهي « تجزيك الآلهة خير الجزاء اذا ذكرت اسمي . » فالشخص الذي ينطق اسمه لا يدركه الفناء . (١)

(١) مبادئ علم الاجتماع الديني .

طقوس المرور - تلقين الاسرار (الارشاد) - الجمعيات السرية - ان الفرد حين ولادته يعتبر غير موجود اجتماعياً والطقوس هي التي تستدعيه الى الوجود فيسمى باسم حيوان او اسم آخر . وبهذه التسمية يصبح صورة شخصية جديدة معينة ، ولا يكتسب بذلك حالة اسطورية ويعمل طول حياته تبعاً لهذه الحالة فالمرور من سن الصبا الى سن البلوغ يتطلب بصورة عامة طقوسا عديدة تسمى مراسم الارشاد او الاطلاع على الاسرار وحين يصل الشاب سن البلوغ يقتضي ارشاده باطلاعه على الاسرار . وذلك بتلقينه اياها في اجتماع سري يحضره الشيوخ . ومع ذلك فان الانتاء الى جمعية البالغين لا يعني اطلاقاً انه انتمى الى البالغين الذين يحاطونهم ، انما يعني الانتاء ايضاً الى الموتى الذين يعيش معهم . وبعد ان يلقن الاسرار يسمح له بأن يقضي وقته في مشاغل القبيلة المحلية ، والاشترك في الاحتفالات الدينية . والاحتفالات المذكورة تطعن رغبات الجماعة من جهة وتدعم السلوك الحسن من جهة اخرى وتنتوي على الرقص والتمثيل وبالائمات والتطورات والتنكر والسخرية . ويصاحبها الضرب على الطبل وموسيقى آلية . والنساء والاطفال بصورة عامة لا يشتركون في هذه الاحتفالات . وقبل اجراء مراسم تلقين الاسرار يجب على الشاب ان يختار بعض الاختبارات البدنية الشاقة كالصوم والختان وكسر الانياب وقلمها واستنزاف الدم ... الخ وفي غنيمة الجديدة يضعونه في بلعوم الغول المصنوع من لحاف الشجر ، بينما يرقص الناس ثم يجرونه ، وبذلك يرمزون الى ان الجد الاسطوري والطوطم قد ابتلعها الغول وبعثا الى حياة جديدة . وفي افريقيا يطلون الشباب المرشحين لحفلات الارشاد بتراب ابيض يمثل الموتى . ويقصد بهذه الاحتفالات الشاقة معرفة مدى تحمل

الشباب للام ليستحق ان يكون عضوا في جماعة البالغين المطلعين على الاسرار .
وهناك احتفالات اخرى ورقص للحصول على المطر والخصوبة في الحيوان
والنبات وكذلك تجري الاحتفالات للفوز بالنصر في القتال . وتوجد احتفالات
خاصة بالانتماء للجمعيات السرية في بولنيزيه وملانزية ولا سيما في افريقيا الغربية
وفي محلات اخرى . وليس لهذه الجمعيات شأن من الناحية السحرية والدينية
فحسب بل من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ايضا . وثمة طقوس
اخرى تسمى طقوس الافتراق كناية عن افتراق الميت عن الاحياء تجري في حالة
الموت . وهي طقوس الجنائز التي لها علاقة بضروب شتى من عادات المآتم ،
وتتضمن مراحل عديدة ، مرحلة تحطيم الجثة ومرحلة نقل الميت الى قبره
وطقوس الطعام وطقوس تصفية تركة الميت . والمرحلة الاخيرة حفلة
العيد التي تتجلى بالرقص وتحرير (ابراء) الاماكن المجاورة للميت في المكان
والزمان مما اصابها بالموت وعندئذ يكون الميت قد استقر في مقره الاخير .

ولا يطاء الرجل الارض دون تحفظات وفي بعض الحالات يقتضي تجميد احد
الحواس ، لهذا يحدث في الكمرون ان يطلب عدم سماع هدير الشلالات فيزعم
الناس انهم لم يسمعو هديرها ، وفي الحياة الاجتماعية يحرم على بعض اعضاء
الجماعة الاختلاط بعضهم ببعض كما انه يجب الا يرى بعضهم بعضاً .

السحرة والكهنة : ويعتقد البدائيون ان المطب والساحر الموهوبين بالمانا
يملكان قدرة تكاد تكون غير محدودة . فيستطيع الساحر ان يقتل عدوه من
بعيد بمجرد ان يومي اليه بعصاه وبوسعه ان يشفى المريض من بعيد ويكشف
عن المجرم ، ويقدر على تقييد العاصفة وينزل المطر ويطلب الى الشمس ان تنشر
نورها ويمنح البركة والخصوبة . ان مزاوله الاعمال السحرية من اختصاص
الطاعنين بالسنن من الرجال والنساء . والمرء الخبير والكفؤ وهو من وهب القوة
القادرة او الذي يمت بصلة خفية بالقوة القادرة فيحوز قابليات وطاقات لا
حصر لها . وبذلك يمكنه ان يكون كاهناً او ملكاً وقاضياً ومطيباً وصاحب
صنعة في الوقت نفسه .

وما دام هذا الشخص يستخدم قابلياته الثمينة في صالح الجماعة
فانه يتبوأ أعلى مرتبة من مراتب الشرف ولكنه يرتكب اعظم جريمة اذا هو
استغل قابلياته في سبيل منفعة الشخصية او ضد ابناء جماعته مدفوعاً بدافع
الغيرة والحسد . ولذلك جعل الدين السحرة الذين يمارسون السحر الاسود -
السحر الضار - من ألد اعداء الجماعة فاذا بوغت الساحر وهو يستخدم السحر
الاسود يعاقب توأ بالحنق .

أديان الشعوب المتوحشة

ان الشعوب المتوحشة الحالية تسكن في قارة اوستراليا وجزر الاوفيانوس وفي اواسط افريقيا وفي جنوبها وفي قارتي امريكا . وتختلف هذه الشعوب الى حد كبير في المفاهيم الدينية ولكنها من حيث الاساس تتفق الى حد ما في الاعتقاد بالقوى غير المرئية ، وفي بعض الازواج الدينية ، وممارسة الطقوس . والاختلاف في المفاهيم الدينية ناشىء عن عزلتها عن الشعوب الاخرى وعدم اختلاطها مع الشعوب المتقدمة في الحضارة ، وتفاوت درجتها في الثقافة وتباين المناطق التي تسكنها وشروط البيئة التي تعيش فيها . ويبدو ان سكان قارة اوستراليا واهل جزيرة طاسمانية وبعض الجزر المنتشرة في المحيط الهادي اكثر تلك الشعوب تأخرأ في المفهوم الديني ، وقد يحاكيها في ذلك سكان جزر اندمان واقزام افريقيا وشعب ارض النار في جنوبي قارة اميركا الجنوبية ، وسنبداً بذكر شعوب اوستراليا وجزر الاوقيانوس .

دين الشعوب في قارة اوستراليا

- ١ -

سكان اوستراليا الاصليون : ان اوستراليا جزيرة كبيرة كانت بمعزل عن العالم المعمور ، ما عدا ناحيتها الشمالية القريبة من اسيا ولهذا فان المدخل الوحيد الذي يمكن ان ينفذ منه الناس والافكار الى اوستراليا هو ناحية الجزر القريبة من

رأس (يورك) في شمال أستراليا . وتقع نصف قارة أستراليا في المنطقة الحارة ولذلك كان مناخها حاراً او دافئاً . وتقع الجبال فيها قرب السواحل وتندعم الانهار فيها ، والنهر الوحيد هو نهر (مري) ورافده (دارلنج) اما المجاري الاخرى فوديان جافة ما عدا موسم الامطار اذ تصبح زاخرة بالمياه . والمطر ينزل فيها قليلا وبدون انتظام ، لذلك اضطر السكان الاصليون الى حياة التنقل . وقد خلقت الحاجة منهم اناساً ماهرين في معرفة مواطن الماء . وتكثر في أستراليا المناطق القاحلة . والتربة مشبعة في بعض الاماكن بالاملاح مما سببت قلة النبات . ان طبيعة القارة ومواردها الضئيلة ارغمت اهلها الاصليين على ان يكونوا صيادين قبل كل شيء ومن امهر الصيادين .

ويعتقد ان اول من دخل أستراليا من السكان هم اولئك الذين استوطنوا جزيرة طاسمانية عندما كان مضيق (تورس) في الشمال ومضيق (باس) ما يزالان جزءين من اليابسة ولما هبطت الارض وانفصلت طاسمانية انعزل اهلها عن بقية سكان القارة ولا يوجد اليوم احد من اولئك الطاسمانيين . وبعد انفصال طاسمانية نزح الى أستراليا جنس جديد دخلها من الشمال وصار يعرف بالاستراليين الاصليين وذلك قبل ان تهبط الارض في شمال راس يورك وقبل تكون مضيق تورس ، فلما تكون هذا المضيق انفصل الاوستراليون عن يليهم الى الشمال كما انفصل الطاسمانيون من قبل ، ولبثوا قروناً عديدة دون اي اتصال بالعالم الخارجي لبعده القارة عن العمران في جميع الاتجاهات اذا استثنينا شمالها الشرقي . وقد حرمتهم هذه العزلة من ان تصلهم افكار من الخارج . فبقوا على حالتهم المتأخرة ، ولم يحدث تغيير كبير في طريقة حياتهم . اما سكان الشمال فان ثقافتهم وطرق حياتهم اعترها بعض التغيير لقرهم من غينية الجديدة وجزر مضيق تورس التي كان اهلها يجوبون البحار في زوارقهم المنحوتة من جذوع الاشجار . ومن المحتمل ان عدد السكان الاصليين في أستراليا لم يكن كبيراً في يوم من الايام . ويقدر انه كان في سنة ١٧٨٨ يتراوح بين مائتي وخمسين الفاً الى ثلثة الف ومنذ دخل الجنس الابيض اخذ عدد هؤلاء في التناقص حتى انه لا يقدر

اليوم باكثر من خمسين الفا من الخالصين ، واربعة عشر الفا من المهجنين . ويرى العلماء ان سكان اوستراليا الاصليين ينتمون الى جنس واحد هو المعروف باسم ما قبل الدرافيدي وهم دون شك من اقدم شعوب العالم . ويحيا سكان اوستراليا حياة التجول ، كل قبيلة في المنطقة التي تدعي ملكيتها ولا تقيم في مكان واحد ، الا ريثما يندر الصيد او يفيض الماء . وطالما كان الصيد والماء وفيرين فانهم يتجولون في منطقتهم هنا وهناك جماعات صغيرة لا تزيد احداها على عائلتين او ثلاث . وتكون العائلة عادة من الزوج وزوجته او زوجاته واولادها، وقيمون مضارب موقفة بجوار موارد الماء . ويعتمد سكان اوستراليا الاصليون في غذائهم على لحوم الاسماك والسحالي والضفادع والثعابين والديدان والحشرات وعلى الخضرا البرية ، وبعبارة اخرى على كل شيء غير سام يصلح للأكل . ومهارة الاوستراليين في قتل الحيوانات البرية والايقاع بها باسلحتهم البدائية امر عجيب حقاً فان كل ما كان في متناول ايديهم من المواد الاولية يصنعون منه اسلحتهم لم يكن يعدو عن الاحجار والاصداف والعظام والاسنان والخشب والياف النباتات المتنوعة . ولا يعرف استعمال القوس منهم سوى سكان كوينزلاند الذين هم من سلالة البابو^(١)

- ٢ -

ديانة سكان اوستراليا : ان الطوطمية هي النظام الديني المرعي في اوستراليا . وقد علم ان العلماء الذين زعموا ان الطوطمية هي الدين الابتدائي الاول اقتبسوا ادلتهم من دراستهم للشعوب الاوسترالية بالدرجة الاولى . والطوطمية تختلف في اوضاعها بعض الاختلاف بين القبائل الاوسترالية والقبائل المتأخرة منها

١ - الشعوب البدائية .

كالارونتا مثلاً ما تزال تختلف باوضاع طوطمية بدائية. ومن القبائل من تمسكت كثيراً باحكام الطوطمية ولا سيما بالمحرمات ومنها ما تساهلت وحللت اكل لحوم بعض الطواطم . فقبايل الارونتا مثلاً وهي متأخرة جداً تجهل الحمل بواسطة اجتماع الرجل بالامراة ويعتقد الناس بان الحمل ينشأ من حلول روح الحمل الذي شرعت فيه لأول مرة الامراة بحركة الجنين في بطنها .

الاحتفالات الدينية : ان اهم ما يلفت الانظار لدى الاوستراليين الاحتفالات الدينية التي تقام من وقت لآخر سواء كانت تجري للافراد او احتفالات اجماعية يشترك فيها رجال العشيرة ولقد استخرج دركهايم من دراسته للطوطمية دستوراً اجتماعياً يتلخص بما يلي : « لا فرد ولكن جماعة » وجعل الدين من مستلزمات الحياة الاجتماعية وأقر بأنه لا يمكن لاية جماعة بشرية ان تستغني عن الدين، ولهذا يستحيل ان تعيش بلا دين . وبعد دراسته للعادات الجارية عند الشعوب الاوسترالية وتعمقه في البحث توصل دركهايم الى ان لسكان اوستراليا مظهرين بارزين من العبادة وهما عبادة ايجابية وعبادة سلبية ولكل من هاتين العبادتين مراسم خاصة تمارسها الشعوب الاوسترالية .

العبادة السلبية : يصنف دركهايم الاشياء الى صنفين : صنف مقدس وهو ديني وصنف غير مقدس وهو دنيوي ، فالمعبود وما يتصل به من موجودات ، قدس ، وما عدا ذلك فدنيوي بمعنى غير مقدس . والخطيئة في نظر البدائي من سكان اوستراليا تقرب غير المقدس من المقدس اي جعل المقدس لا مقدس . ولهذا يصبح اول شروط الدين الحيلولة دون تقرب الامور المقدسة ومنع الاتصال بين الديني والدنيوي . ولاجل ممارسة العبادة يتوجب على العابد ان يتخلص من غير المقدس اي ان يتطهر من الدنس . ولا يستطيع العابد ان يتقرب من المقدس وهو المعبود ويختص به ، الا اذا تخلص من اللامقدس ليكون مقدساً بعض التقديس ، وبعد هذا التمهيدي يرى دركهايم ان في عبادة سكان اوستراليا الطوطميين مرحلتين لكل مرحلة منها غاية دينية . لسنا في صدد تصويب رأي دركهايم او تفنيده

لان دركهايم وهو عالم اجتماعي يحاول ان يجعل فكرة الاجتماع هي الحجر الاساسي في بناء الدين ، ولكننا نذكر رأيه بمناسبة الاحتفالات الدينية لدى الشعوب الاوسترالية وهي ظاهرة بارزة فيها .

ان الاحتفال الذي يجري لغرض تجريد الفرد مما يحول دون اشتراكه في الحياة الدينية مع الجماعة إذ لا يسمح له بالاشتراك إذا كان ما يزال غير مستكمل شروط ممارسة الأعمال الدينية ، وعليه ان يقوم ببعض الأعمال لكي يهسيء نفسه لذلك . والأعمال هذه من العبادة السلبية وهي أولى مراحل التعبد . أما في المرحلة الثانية فيكون الفرد قد تجرد من اللامقدس ويستطيع حينئذ ان يشارك زملاءه في الاحتفالات الاجتماعية في أوقات معينة . وهذه الاحتفالات من أعمال العبادة الايجابية فكأن الأولى من أجل الفرد والثانية من أجل المجتمع .

مستلزمات العبادة السلبية : ان أول ما ينبغي للفرد في العبادة رعاية أحكام التابو رعاية تامة ، وذلك بامتناعه عن المحرمات إطلاقاً . في الحقيقة لا يستطيع الفرد ان يخطو الخطوة الاولى للتقرب من المقدس إلا برعاية أحكام التابو . ولذلك كانت مخالفة التابو من الذنوب التي يعاقب عليها المخالف عقاباً معنوياً كأن يمرض أو يفشل في مشاريعه أو يموت . وإذا كانت المخالفة شديدة فيعاقب عليها عقاباً مادياً كأن يقتل أو ينبذ أو يطرد من الجماعة . ان أشد التابو تحريماً عند الاوستراليين هو مس الدنس للمقدس ، لهذا كانت الشورنجا ، وهي المادة المقدسة من الطوطمية لا يجوز للنساء والصبيان رؤيتها ، حتى ولا يجوز للرجال أنفسهم مسها إلا بعد اجراء بعض الطقوس التي لا بد منها . ان روح الميت مقدسة لأن الروح تظل ملاصقة للجثة ، لذلك ينبغي لف عظام الجثة ، ولا يجوز نقلها الا بعد لفها بلحاء بعض الأشجار . وكذلك ينبغي الابتعاد عن المكاتب الذي حدثت فيه الوفاة ، لان الناس يتصورون ان روح الميت تقيم فيه . فلماذا ينقلون مسكنهم الى مكان آخر . ويحدث أحياناً انهم يحرقون المسكن بما فيه ولا يعودون اليه إلا بعد مرور مدة من الزمن . وهناك تحريم لبعض الأطعمة

اي تابو الطعام ، ومن الطعام ما حرم اكله للجميع ولا سيما للنساء ومنها ما يجوز والفتى قبل ان يبلغ السن المعين رغم رعايته لاحكام التابو رعاية تامة ينبغي له ان يمتاز الاختبار المعين سواء اكان الاختبار مادياً ام معنوياً ، وبدون اجتيازه هذا الاختبار لا يبلغ الحياة التي تؤهله الاشتراك في الاحتفالات الدينية والاجتماعية ولا رؤية بعض المقدسات . وينبغي للفتى في هذا الاختبار ان يتحمل الرياضات البدنية الشاقة بصبر وتحمل مراسيم تهيئة الفتى للدخول في الحياة الدينية : تجري بهذه المناسبة طقوس سلبية عديدة يضطر فيها الفتى المرشح الى العزلة ويحرم عليه رؤية النساء ، ومن لم يكن قد دخل الحياة الدينية فيعيش في عزلة في الادغال ويشرف عليه شيوخ ويُعد تحت رعايتهم ومراقبتهم ، ويقضي بضعة اشهر في حالة الانزواء . ويجب عليه في هذه الفترة ان يتجنب كل شيء يخالف التقاليد المرعية ويحرم عليه جميع انواع اللهو والغسل . والغرض من كل هذه المحرمات احداث تغييرات معينة في حياة الفتى لتهيأ للحياة الدينية . وكان قبل ذلك يخالط النساء ولا يشترك بامور العبادة ، اما الآن فقد اختير وقد انتمى الى جماعة الرجال المسموح لهم بالاشتراك في الحياة الدينية فكأنما ولد الفتى من جديد لقد قتله (بونجيل او بايام او دارملون) الكوائن العليا فبعث فرد جديد حل محل المقتول . ان التعذيب من جملة الرياضات الدينية التي يُختبر بها الفتى المرشح والغرض منه تهيئته لمجاهدة المخاطر في الحياة الدينية . فيعذب الفتى نفسه عذاباً يئماً ليكون ذا مناعة في القتال . ان العوم في النهر الجامد وفتح جروح في السواعد والسيقان وقلع الاسنان وتشريح بعض اجزاء البدن بالصوان او آلة جارحة اخرى وضرب الفتى بالعصا وعضه بغتة كل ذلك من ضروب التعذيب الذي يجب على الفتى ان يتحملة راضياً وبرباطة جأش وتكون بعض الاختبارات طويلة الامد تبدأ في نحو السن العاشرة ولا تنتهي الا بعد العشرين ويقصد بهذه الاختبارات معرفة مقدرة الاحداث على التحمل من جهة وتعويدهم الطاعة لمن هم اكبر منهم سناً من جهة اخرى ، كما انها ترمي الى تعليمهم تقاليد القبيلة وتوكيد ضرورة مراعاتها مراعاة تامة . واذا ما انتهى الفتى من المرحلة الاولى تكسر

اسنانه الامامية او يختتن . وتقام مراسم خاصة يرمز بها الى ان الفتى قد بعث للحياة من جديد وانه تحرر من سلطة النساء فيطلقونه على الاسرار والطقوس الدينية . ولا يسمح للفتى ان يتزوج الا بعد ذلك .

الطقوس الايجابية : وهي نوع من العبادة تجري في اوقات معينة وفي اماكن خاصة يشترك فيها الرجال الذين تم اختيارهم وسمح لهم بالاشتراك . ومهما كانت العبادة السلبية ذات شأن ومهما ادت الى نتائج ايجابية مباشرة فانها بحد ذاتها لا شيء وغايتها كما اسلفنا جعل الفرد مستعداً للاشتراك في الحياة الدينية ، اما العبادة الايجابية فهي بنفسها تشكل الحياة الدينية . وكان العلماء قبلاً يعرفون بعض الشيء عن الاحتفالات السلبية الخاصة بالفرد وقام العلماء في المدة الاخيرة بدراسات مفيدة في استراليا وظهر لهم ان لدى سكان استراليا احتفالات اخرى عامة يشترك فيها الرجال في اوقات معينة كأنها اعياد يحتفل فيها الناس تسمى هذه الاحتفالات (انتثريوما amuigtmI)

يظن ان هذه الكلمة تعني التعليم . ان الأوقات التي تجري فيها الاحتفالات ذات علاقة بالمواسم . وهناك موسمان يجري فيها الاحتفال : وقت الجفاف الذي يستمر في استراليا مدة طويلة . وموسم المطر الذي لا يستمر إلا مدة قصيرة . وفي استراليا ما ان تبدأ الأمطار بالهطول إلا وتنفجر النباتات كأن عصا سحرية فجزتها فتتكاثر الحيوانات . ويجري الاحتفال بمواسم (انتثريوماً) في بداية هذا الموسم . وبما ان وقت نزول المطر غير ثابت فإن موعد البدء في المراسم أيضاً غير ثابت ، لذلك يثبت رئيس العشيرة الوقت المناسب للمباشرة بالاحتفالات لأن لكل عشيرة انتثريوماً خاص لها .

وتجري المراسم في مرحلتين : ويظن انها تجري لأحياء ذكرى الأجداد الاسطوريين الذين تعتقد العشيرة انها نزلت من صلبهم ، ولذكرى حياتهم في الأرض والآثار التي خلفوها في الأماكن التي عاشوا فيها . وتتميز هذه الآثار بالأحجار والصخور ويعتقد الناس ان الأجداد نصبوها . وانها تكونت من نفسها في الأماكن التي غاص فيها الأجداد . أو انها تمثل الحيوانات والنباتات التي اتخذها

الأجداد طواطم لهم . ومن اجل ذلك يعتقد الناس انها تتصف بكل صفات الحيوانات والنباتات المذكورة ، وتبدأ المراسم في الوقت الذي يعلنه الرئيس . ويجتمع أفراد العشيرة الذين يشتركون في الاحتفال في المحل المعين ، اما افراد العشيرة الأخرى فيقفون بعيداً عنهم . ويترك المحتفلون محل الاجتماع تاركين فيه بضعة رجال ثم يبدأون بالمسير وهم عزل من السلاح وعراة من كل زينة ، يسرون بصمت مهيب . ويمرون بالأماكن التي يظن بأن ذكريات الأجداد ترفرف فيها ، وينتهي مسيرهم في مكان توجد فيه صخرة منصوبة محاطة بأحجار صغيرة مدورة ويضرب الرئيس الصخرة بخشبة ثم ينشد نشيداً يحث فيه الحيوان (الطوطم) على أن يبيض ويضرب الأحجار أيضاً ويعمل الرجال مثله ضاربين الأحجار بسيقان اقتطعوها من شجرة في طريقهم . وينشد الجميع النشيد ثم يزورون محلات اخرى مشابهة للمحل الذي تركوه . ويبدو ان الغرض من ضرب الأحجار ازالة الغبار الخيم عليها . ويعتقد الناس ان كل ذرة من الغبار تحتوي حياة ، وبنثر الغبار تنتشر بذرات الحياة في الأطراف وتمهد السبيل لتكاثر الحيوان الطوطم . أما قبيلة الأرونتا فتعتبر الدم العنصر المهم في هذه الاحتفالات لهذا يسقون الأحجار المقدسة بدماء يستنزفونها من بعض رجالهم . وبعد أن تشبع الأرض بالدم يرسمون به خطوط الحيوان الطوطم ثم يجلسون القرفصاء حوله وينشدون الأناشيد وتختلف المراسم باختلاف الطوطم . سمكة او ثعبان أو كنجر ... الخ.

ولما تنتهي مراسم المرحلة الأولى تبدأ المرحلة الثانية ليس في هذه المرحلة ما يدل على المراسم ولكنها مرحلة دينية تشدد فيها المحرمات (التابو) كأنما ازدادت قدسية الطوطم . وإذا كان يسمح قبل المراسم في المرحلة الأولى بأكل الطوطم برعاية بعض التحفظات فلا يسمح الآن أكله اطلاقاً . ويتصور الأهليون ان مخالفة هذا التابو يزيل حكم مراسم المرحلة الأولى ، ويجول دون تكاثر الحيوان والنبات . ولا يجوز للمشاركين بالاحتفال أكل الحيوانات التي وجدوها في الأدغال بل يجب عليهم ان يأقوا بها الى محل الاجتماع . والكنجر هو طوطم عشيرة (انديارا - Indiará) وحين تنتهي مراسم المرحلة الأولى في هذه العشيرة يذهب الفتيان الى

صيد الكنجر ويجلبون معهم ما اصطادوه الى محل الاجتماع فيقطع الرئيس ودو محاط بشيوخ العشيرة قطعة من لحم الكنجر ويطلي بدمه جسد من اشترك في المراسم ثم يوزع اللحم عليهم . ويزين بعض الرجال جسداهم برسم الطوطم . ويقضون الليل بالغناء والنشيد الذي يمجّد بطولة الكنجر في الزمن القديم ، ويستمر الصيد بضعة ايام يصطاد الفتيان الكنجر اكثر فأكثر ويأكلون لحمه مجتمعين كأنما اشتركوا بأكل لحم القربان واتحدوا به كما يجري في الاديان الاخرى . وهذه الاحتفالات تجري للتذكير بالحياة الدينية التي قضاها الاجداد قبلا ولحث الحيوانات والنبات على التكاثر . فتمثل هذه الذكرى بالعباب مضحكة او حماسية يقوم بها ممثلون يمثلون ادواراً مختلفة من حياة الاجداد الدنيوية .

وتجري مراسم اخرى في وقت الجفاف وهي لا تختلف كثيراً عن الاحتفالات الاولى والغاية منها حث الاجداد على انزال المطر . وتقضي شعوب اوستراليا بعض لياليهم في حفلات راقصة تسمى (كوروبري - Corroberee) قد تستمر بضعة ليال متعاقبة يقيمونها عادة في الليالي التي يكون القمر فيها بدرأً ويضيفون الى ضوءه اضواء مشاعل نار يوقدونها ، ويغني الشيوخ والنساء ويضبطون الايقاع بينما يقوم الفتيان بالرقص والتمثيل بعد ان يخططوا اجسادهم برسوم ذات أشكال خاصة . والحفلات هذه كثيرة ما تمثل تقاليدهم وعاداتهم وأعمالهم السحرية .

اعتقاد الاوستراليين بوجود اله متعال : سبق ان ذكرنا ان النظام الديني السائد في اوستراليا هو الطوطمية . ويتراءى للباحثين ان الاوستراليين لا يدركون من أمور الدين إلا هذا القدر المحدود ، ولكن العلماء الذين خالطوا سكان اوستراليا الاصليين اعترفوا بأن هؤلاء البدائيين بعض الاساطير والمعتقدات تدل على سمو ادراكهم الديني . وقد أشرنا قبلاً عند بحثنا عن نظرية التأليه الى اعتقاد الاوستراليين بوجود إله متعال . ويكاد يكون لكل قبيلة أو عشيرة معتقد بكائنها الأعلى . يتصور الناس في الأغلب بأنه يقيم في السماء ويسمونه بأسماء مختلفة كأب العالم وأبو الكل والأب والسيد ويصفونه بصفة الفاعل والمخالق والهي والعليم والبصير الخ ... يتكلم بالرعد ويرمي الصاعقة وينزل

الغيث . وبلغ الإدراك الديني في بعض العشائر من السمو أنها جعلت لأعمال
الإنسان الحسنة عاقبة ، واعتقد احد القبائل ان كائنها الأعلى يعامل الناس حسب
أعمالهم ، فيرفع الصالحين الى حضرتة في السماء . ومن الطبيعي ان
يشخصه الناس ويتصورونه بصورة بشر ، فيكون أحياناً ضخماً الجثة وله أزواج
وبنين . الخ . ويعتقد بعضهم ان أرواح الموتى تعرج اليه ، ومنهم من اعتقد
ان الكائن الأعلى هبط الى الأرض وخالط الناس ثم غضب عليهم وعرج الى السماء
فلم يعد يهتم بشؤونهم .

وفي جنوبي أستراليا تسكن قبائل (نرّينيرة Narrynere) يدعى كائنها
الأعلى نرّنديره Nurrndere ، وهذه القبائل أساطير عن حياة نرّنديره في
الأرض تروي انه فاعل كل شيء ، اخترع السلاح ووضع الشعائر وصنع علامة
السماء ، وعرج الى السماء ، وتزعم بعض الاساطير ان الكائن الأعلى
(بيلالينا Pulyalina بصورة رجل عظيم ، تزوج زوجين هربتاً منه ، فغضب
عليها ومسحها حجارة . وتكون الكوائن الأوسترالية في الأغلب آلهة خيرة
علمت البشر السحر لخير الناس . واذا ما استعملوه لضررهم تعاقبهم . وما عدا
اعتقاد الأوستراليين بالكوائن العليا يتصورون ان هناك نفوساً تسكن الزوايا
والجبايا . فان كل دغل وكل منبع وكل صخرة تسكنها نفوس عديدة شريرة .
ويرون في كل حادثة من حوادث الطبيعة فعل تلك النفوس ، فهي تبذل جهودها
للإضرار بالناس بما لا يتصوره العقل من الشرور .

دفن الموتى : وعندما يموت شخص تدفن جثته عادة . ولكن بعض قبائل
المناطق الوسطى تترك الجثة معرضة في مكان خاص أو فوق شجرة اما قبائل
نيوساوث ويلز فتحرقها . والحزن على الميت يعبر عنه بأحداث ندبات عميقة في
الجسد وحلق شعر الرأس .

السحر : يلعب السحر دوراً هاماً في حياة الأوستراليين ويكاد يؤثر في كل
ما يأتون من أعمال ، ويستطيع الساحر ممارسة السحر الأسود ضد أي شخص
أساء اليه . أما السحر التطبيقي فلا يمارسه إلا المحترفون . ومن المواد التي تنسب

أليها قدرة سحرية خارقة بلورات الكلوراتز وشحم الكلى البشرية . ويمر ممارس السحر باختبار خاص يشتمل على تمثيل القتل وإعادة الحياة ، كما ان استئزال الغيث من الأمور التي يمارسها الناس في كل مكان .

دين الطاسمانيين : طاسمانية جزيرة واقعة الى أقصى جنوبي أستراليا . والآراء عن دين الطاسمانيين متضاربة . زعم بعض العلماء ان الطاسمانيين لا دين لهم . والقائلون بهذا الرأي هم الذين حصروا مفهوم الدين وضيقوا أفقه . لهذا أكد الثقة ان الطاسمانيين يعبدون الأرواح التي تعمل في الخفاء ، وتضر الناس ، وتمتاز من بين هذه الأرواح (الروح العظمى) ، ويعتقدون بأنها شيطان شرير يعمل في الليل لأن الظلام مملكته ، ومع ذلك فهناك علماء يرون ان للطاسمانيين كائناً أعلى يعمل في النهار وهو خير . وبما ان الشعب الطاسماني شعب دخيل على الجزيرة ، كما أشرنا قبلاً ، يتساءل العلماء : هل ان فكرة الكائن الأعلى أصيلة غير مقتبسة ، أم أنها فكرة دخيلة ، ويرى الأب انها أصيلة .

ومن العلماء من قال ان الطاسمانيين يعتقدون بالملائكة والأرواح الحارسة ، كما يعتقدون بحشد من الكوائن القادرة يكونون اعتيادياً أشراً ويقومون في شقوق الصخور وفي الكهوف ويقطنون أحياناً جذوع الأشجار المجوفة وفي الوديان المنعزلة . ويعزون سلطة كبيرة لبعض تلك النفوس ولو ان أغلبها يشبه بطبيعته وبأفعاله كثيراً العفاريت الموهوبة .

دين الشعوب المقيمة في اوقيانيا

يطلق اسم اوقيانيا على الجزر الكثيرة المنتشرة في المحيط الهادىء وتقسم هذه الجزر الى اربع مجموعات : ماليزية ، وميكرونزية ، وملازنية ، وبولينزنية . وتتألف مجموعة ماليزية من جزر اندونيسية وهي : سوماتره ، وجاوه ، وبورنيو ، وتيمورو سلبس وغيرها . اما مجموعة ميكرونزية الواقعة الى الشمال الشرقي من مجموعة ماليزية فهي مجموعات من الجزر الصغيرة منتشرة في المحيط الهادىء كجزر كارولين وجزر مارشال وجزر ماريلن وغيرها . اما مجموعة ملازنية فواقعة الى غربي ماليزية وجنوبي ميكرونزية وتتألف من جزر غينية الجديدة وهبريديا الجديدة وجزر سلامون .. وغيرها . وتقع مجموعة بولينزنية في الشرق وتشمل منطقة واسعة تمتد من جزر جيلبرت شمالاً الى نيوزيلنده جنوباً . ومن جزيرة كلدونية الجديدة غرباً الى جزر ماركز شرقاً . وتدخل جزر هواي وفيجي فيها من حيث المعتقدات الدينية . وتدخل جزر الفلبين ضمن ماليزية من حيث الاعتقاد . ان عرق شعوب اوقيانيا خليط من عدة عروق : العرق الاوسترالي ، وعرق البابو ، والعرق المتكون من اختلاط هذين العرقين في بولينزنية وملازنية . وقد اختلط دم العرق الاصفر في ماليزية وكذلك العرق الآري المهاجر من الهند . والعرق الاوسترالي يبرز في هولنده الجديدة وطاسمانية ، ويظهر عرق البابو بوصفه البارز في غينية الجديدة وفي ملازنية وميكرونزية يختلط عرق اهالي هذه الجزر بعرق البابو . ودفع المايليزيين عرق اسود بلامح زنجية دفعهم من السواحل الى الداخل . يبدو ان عرق البابو كان فيما مضى يمثل اهالي جزر ماليزية جميعاً ولكنه اضطر الى الانسحاب الى جزر اخرى امام

سيل العرق الماليزي ، والعرق الماليزي من اصل اسيوي تسلل الى الجزر من شبه جزيرة تله .

وقد انتشر الاسلام في جزر ماليزية في القرن الخامس عشر وتوطد في جزيرة جاوه تم انتشار في الجزر الاخرى ، وانتشرت النصرانية فيها بعض الانتشار . ويظن ان الصلات بين الهند وبين هذه الجزر بدأت في القرون الاولى للميلاد . فانتشرت حضارة الهند خصيصاً في جاوه ومادوره وبالي ، وتمثلت بتماثيل (لنجا - Linga) الانصاب التي تمثل الذكر وهي من بقايا العبادة القديمة في جنوبي الهند ، وعلى الرغم من انتشار الاسلام والمسيحية في ملائيزية فقد ظلت بعض القبائل متمسكة بالمعتقدات القديمة كالبتاك في جزيرة سومطرة والدياك في بورنيو .

- ١ -

والطوطمية شائعة الى حد ما في الجزر الاوقيانية ويعتمد دين الملائيزيين والبولانيزيين بالدرجة الاولى على حكم التابو ، وتشبه معتقداتهم الطوطمية بعض الشبه معتقدات الطوطمية عند سكان امريكا الاصليين . وتوجد في ملائيزية جمعيات سرية يتألف اعضاؤها ممن حاز قدرة المانا ويرى (ويلكن) ان الذين بقوا على دينهم من الملائيزيين يعتقدون بعقائد الروحية . والاعتقاد بارواح الموتى وبالارواح بوجه عام شائع بينهم كثيراً . ومع ذلك هناك ثمة اوضاع تدل على عبادة بعض مظاهر الطبيعة ، ويجوز القول ان الاعتقاد بالارواح البشرية قد تنامي كثيراً في الجزر كلها .

ومن معتقداتهم ان لكل انسان عدة ارواح استقرت في جسده وفي قلبه وظله . والروح تترك الجسد في النوم وتستحيل الى مخلوق آخر ، وتغدو طيراً في الاغلب لهذا يقدمون الرز للطيور . والاعتقاد بالتمثيل بصورة حيوان يكاد يكون منتشراً في كل جزيرة ، ويستطيع الساحر ان ينقلب الى نمر . ويخاف الناس من ارواح الموتى كثيراً ولا سيما اذا ماتت الحامل حين وضع حملها وعندما

تكون نفساء فانهم يخافون من شرورها ويبدلون قصارى جهدهم في ارضائهما .
ويؤمنون بالقوى الخارقة كالسحر كثيراً جداً . والساحر عندهم يرث السحر من
اجداده ، ويتلو التأمم فيأتي بارواح الاجداد ، يطلب عونها في شفاء المرضى .
واذا مات احدهم يقيمون له طقوس العزاء للحيولة دون تعرض الارواح الخبيثة
لموتى ، ولمساعدة الروح على سفرها الى بلد الارواح الكائن في احدى الجزر
القريبة . ويعتقدون ان للحيوانات وللنباتات ارواح ولهذا يقدسونها . والرز في
مقدمة النباتات التي توجه اليها فروض العبادة . وتقرب القرايين للارواح وهي
تأخذ بعضها وتترك الباقي في محلاتها لتأخذها حيث تعود الى الارض .

وما تزال آثار الوثنية باقية لدى بعض المسلمين الماليزيين فالوسمة والشعارات
والاسلحة واللباس والزينة عند الامراء تعتبر بمثابة اوثان ولها قوة سحرية . وعلاوة
على معتقدات الروحية والوثنية فان هناك بعض الاساطير تدل على عبادة الطبيعة
الهة الجبال والمياه والشمس والقمر . ويعتقد الناس في جاوه بحورية تسكن في
قصرها الفخيم في أعماق البحار وتقود هذه الحورية جيشا من الارواح وتتجول
بين الصخور في الشواطئ . ومما يدل على عبادة الحيوانات ان الناس في جاوه
وصومطرة يبجلون التاسيح ويعتبرونها حماة لهم ، ولا يجوز قتلها وتقرب اليها
القرايين ويفسر العلماء هذا التبجيل انها تمثل الاجداد .

ويعتقد الملايويون ان الروح حين تترك الجسد تبدل اسمها فتكون (تندالو -
Tindalo ونتمان Neteman) ويعبدون هذه الارواح ويوجهون الدعاء والهبات
اليها ويقدمون لها القرابين . ولأجل ان تنال الروح مرتبة العبادة ينبغي ان تكون
قد وهبت قدرة المانا في حياتها . لهذا توجه العبادة الى التندالو التي نال صاحبها في
حياته مرتبة التقديس بفضل المانا . وبذلك يظهر اعتقاد الملايويين بالمانا . والواقع
ان الاب كودرنجتون اكتشف المانا باختلاطه بالملايويين ودراسته لأحوالهم .
ويتصور الملايويون انه ليس باستطاعة المرء ان يتوفق في الصيد لابقوة المانا .
والمانا هي التي تجعل البساتين تفيض بالفاكهة وهي التي تكثر بفضلها قطعان
الماشية ، واذا فشل المرء في اعماله فذلك لأنه غير موهوب بالمانا ، وبالمانا تصيد

الشبكة عدداً كبيراً من السمك ويثبت الزورق في البحر . ويحدث في ملائزمية انه اذا حضر الموت احد الوجهاء بيدي رغبته في ان يكون الحيوان الفلاني او النبات الفلاني ، فتقوم اسرته بتقديس ذلك الحيوان والنبات . وتوجد في ملائزمية جمعيات سرية لها اعضاؤها الموهوبون بقدره المانا، ويعرفون هذه الاسرار ويحافظون على سريتها ولا يريدون ان يطلع عليها الآخرون .

ورغم ان سكان جزر الاوقيانوس متأخرون في الناحية الدينية اذ ان اكثرهم كما ظهر لنا لا يتعدى اعتقادهم عبادة الارواح فلهم ادراك بالكائن الاعلى . وقد سبق ان أشرنا الى هذه الكوائن العليا عند بحثنا نظرية التأليه . وفي الجزر الصغيرة كجزر (فلور ومومبا وسافو) آلهة عليا . وفي جزيرة غينيا الجديدة والجزر الغربية كوائن عليا ، وفي جزيرة ماريان من مجموعة جزر ميكرونيزية كائن اعلى ، يعتقد الناس بأنه وجد قبل الارض والسماء لأنهما خلقا من كتفه . وفي جزيرة (توبي) يتكلم الكائن الاعلى بالرعد ويتقرب الى الناس بالزلازل . وفي جزيرة (ياب) يسكن الكائن الاعلى في السماء وبصورة رجل له زوجة وولد ويعتقدون بأنه انهى الطوفان .

- ٢ -

دين البولنيزيين

ان مئات من الجزر البركانية والمرجانية المنتشرة في المحيط الهادي من هواي الى زيلنده الجديدة ومن مجموعة جزر جلبرت الى جزر الفصح تكون المنطقة التي تسمى بولينيزية ورغم ان هذه الجزر متفرقة بمسافات بعيدة فان سكانها يتشابهون باللغة ويمتون الى ارومة مشتركة . وكانت الافكار الدينية في حياة البولنيزيين قد لفتت الانظار قبلا . والامر البارز في دين البولنيزيين ان جميع اعمالهم تقريبا سواء في الحياة العامة او في الحياة الخاصة تتصل بالدين ولا يربح اطرم تصور الا للدين صلة به . والالهة تتدخل في اعمالهم ومشاكلهم

ولهوهم ولا حدود للتدخل الالهي في امورهم ولا يقوم البوليني في ابي عمل من دون ان يرجع ذلك الى الالهة فتعيين الرئيس والشروع بالحرب والخروج منها ، ومرض الاقرباء وموتهم كل ذلك يجري بمشيئة الالهة . واذا ما ارادوا ان يقطعوا شجرة ليصنعوا منها زورقاً او يبنوا بها بيتاً يستشيرون الالهة قبل ان يسكوا بالفأس واذا قطعوا شجرة برمتها يقدمون قطعة منها الى الالهة ، ولا ينقلون الزورق من محله بعد صنعه قبل ان يتوجهوا الى الالهة بالدعاء .

ان حكم المانا والتابو جاري في بولينزية وتوجد مماثلة بين دين البولينزيين والاديان المتوحشة والبربرية الاخرى ، فالروحية وعبادة الطبيعة والسحر والكهنة تسيطر من حيث الاساس في المفاهيم الدينية . وللبولينزيين الهة متعددة تسمى (اتوا - Atoua) ويسمون الارواح الحارسة وارواح الموتى (تكي - Tiki) . وقد تنامت الاساطير كثيراً عندهم وقد ادعى (جرلان - Gerland) الذي درس احوالهم دراسة عميقة انهم مرو بثلاث مراحل :

في المرحلة الاولى كان الناس في عجز تام امام قوى الطبيعة والحيوانات المفترسة ، وكان الخوف والفرع هما اللذان ولدا الاعتقاد بالنفوس (تكي) والتكي ارواح حارسة تصورها الناس بهيئة حيوانات .

وفي المرحلة الثانية تسامت مدارك الناس فأخذوا ينظرون الى مظاهر الطبيعة بجمرة ووله وكانت مراقبتهم لمظاهر الطبيعة قد ولدت في نفوسهم فكرة الالهة العظام .

وفي المرحلة الثالثة ترك الالهة مقامهم للأرواح والعمالقة وانسحبوا من الميدان . ومما يلفت النظر عند البولنزيين انهم يشموا ابدانهم بالوشم لاغراض دينية . ولا يوجد بلد شاع فيه الوشم كبولينزية ، ويعتبر الرجل الذي لم يوشم كأنما قد خرج من حضيرة الدين لهذا ينبغي لكل رجل ان يحدد وشمه وذلك من واجب الدين . ويعتبر الوشم اعظم العبادات ولذلك يجري براسم دينية . ويقوم به كهنة مختصون ينشدون بعض الادعية اثناء عملية الوشم فيرسمون صورة المعبود

الذي احتمى به الرجل ويرسمون ايضاً معبود القبيلة او شعاره . وبذلك يكون الرجل قد احتمى بمعبودين : معبوده ومعبود القبيلة ، والرسوم التي ترسم بالوشم تكون في الاغلب صور الحيوانات كسام ابرص والحية والسمكة والطيور وغير ذلك مما يدرك على انها صور طواطم . والختان فريضة دينية عند البولنزيين .

الآلهة البولنيزية: تكشف الاساطير عن وجود عدد كبير من الآلهة وانصاف الآلهة والابطال والجان ، ولا توجه العبادة الا الى عدد قليل منها ، ومما ادى الى كثرة الآلهة انتشار البولنزيين في مناطق واسعة وانعزالهم في الجزر . وعلى رأس الآلهة العظمى البولنزية يتصدر (ايو - IO) مقام الاله الاعلى وظل هذا الاله مدة طويلة مجهولاً من الاوربيين لان العوام لا يعرفون عنه شيئاً ولا يصنع تمثال باسمه ولا توجه اليه عبادة ولا تقرب اليه ضحايا ولكنه هو الاله المعروف من قبل خواص الماعوريين الذين يعتبرهم الاهالي ممن تقدم في مراتب الدين ووهبوا قدرة خارقة ، وقد احتفظ هؤلاء بسرية هذا الاله وابو ان يعرفوا العوام به . ويتضرع الى هذا الاله في الشدائد بلغة فخمة يصعب جداً ترجمتها وقد سمي باثني عشر اسماً تدل على صفاته وهي :

« ايو العظم ، ايو الذي لا يتبدل ، ايو مصدر جميع المعارف القدسية والخفية ، ايو مبدع كل شيء ، ايو الذي لم يولد ، ايو ذو الوجه الخفي ، ايو الذي يستمع الى القضايا العادلة » ، هكذا يكون ايو العظيم العليم القوي ، اصل الاشياء النفس الحية في كل الموجودات وبهذه الصفات يغدو ايو من اولى الآلهة المتعالين وليس ايو بنظر الماعوريين (أتوا) اي اله فحسب بل هو الجوهر الاعلى والاسم الذي لا يمحي والقديم قبل الخليفة وقد خلق الساء من جوهره وانبثق الخير منه . ان الآلهة السبعين العليا انبثقت منه وهذه الاوصاف والمفاهيم تعالى على جميع الآلهة العليا وغدا مصدر فلسفة سامية . والواقع ان الماعوريين الخواص هم الذين احتفظوا بسرية وجوده وتشددوا في المحافظة عليها مما يدل على ان منشأ هذا الاله يرجع الى عهد بعيد جداً . ومع ذلك فقد وجدت اثار هذا الاله العظيم الشأن في تاهيتي وهواي ايضاً والاله الاعلى في تاهيتي (تانجالويا - Tangaloo) وفي جزيرة

سامويه الاله الاعلى (تانجارويا - Tangaroya) . وقبل ان يتعرف العلماء على اسم ايو كان تانجالويا يعتبر الاله الاعلى في جميع جزر بولينيزية ، ويبدو انه يختص بالوهية السماء والبحار .

وشرحت الاساطير كيف خلق تانجالويا الكائنات ، وتزعم ان الكون قشر بيضة باضها تانجالويا ، فقشر البيضة الكون وباطنها مسكن تانجالويا وهو يرزق الحيوانات البرية والبحرية في مسكنه ، ولدى سكان نيوزيلنده ، اسطورة عن الكون تزعم ان (باباورانزى) ابي السماء والارض كانتا متحدتين ولكن ابناهما فرقا بينهما فكانت السماء وكانت الارض ، اما الاساطير الماعورية فيبرز فيها اسم (ماوي - Maui) وهو شخصية مقدسة لدى البولينيزيين ومن الصعب جداً التفريق بينه وبين تانجالويا ، ويبدو من قصصه انه إله شمس لانه يتجول في السماء كل يوم ويموت في السماء ثم يبعث صباحاً ويعود يتجول في السماء . هو الذي اصطاد البيضة من البحر المحيط والذي سرق النار من الشمس والذي دل الناس على العبور من جزيرة الى اخرى ، والذي علم البشر الزراعة وجعلهم يتقنون صنع مواد الحضارة وهذه الاساطير يغدو ماوي البطل الاول الذي علم الناس شؤون الحضارة ، والبطل الذي قاد الناس في الهجرة ويظن ان في هذه الاساطير شيئاً من الحوادث التاريخية المتعلقة بالهجرة . ولايو ايضاً شأن في الاساطير يجده الناس باناشيد الحلقة في تاهيتي باسم تانجارويا وفي سامويه باسم تانجالويا^(١) ويعترف البولينيزيون باله النار (ماهويكو = Mahuiku) ويزعمون ان البراكين مسكنه في باطن الارض ويقولون ان ماوي ذهب الى ذلك المحل لي جلب النار الى البشر . ومن اساطيرهم ان الاله (توراتي - Turati) والاله (رواهاتو - Ruahatu) وهما الالهان الرئيسيان في البحار يبعثان القروش (كلاب البحر) لانجاز اوامرهما والاله (هيرو - Hiro) ينفذ الى اعماق المحيط ويسكن في كهف تحرسه الغول .

١ - وفيما يلي قصيدة شعرية عن الخالق تاعارويا : « وكان اسمه تاعارويا وكان في البدء في العدم حيث لا ارض ولا سماء ولا بشر ، ونادى تاعارويا ولكن ليس من مجيب وهو وحده موجود وصار الكون والصخور تاعارويا بذاته ، والرمال تاعارويا هذا هو الاسم الذي اختاره بالذات » .

ويستفيد الـه الريح من غياب هـيرو ، فيكسر قيد عاصفة شديدة ليحطم السفن التي اجر بها اصدقاء هـيرو ولكن هذا الاله ايقظ احدى النفوس الثانوية فصعد بسرعة الى سطح الارض وهدأ الامواج الساخطة .

وهناك ثالوث انبثق من ايوا وهو الثالوث الذي يجمع بين ثلاثة آلهة . -
(تانا - تو - رنجا - Tana - Tu - Ronga) والثالوث هذا معترف به في هوايي وزيلنده الجديدة ، وهو يؤلف المرتبة العليا في المراتب المقدسة . وورد في الاساطير الماعورية اسم تانو وهو يعني الانسان . وهو المولد والمنشأ والمبدأ الذكر ومحبي الاشياء والبشر لانه اقتبس نسمة الحياة من ايوا ونفخها في الصورة التي صنعها من التراب ذلك لما تنفست الصور ودبت فيها الحياة . وفي شمال زيلنده الجديدة يقف الناس امام شجرة قديمة جداً ويقولون « هذا تانا جدنا » وبهذا الوصف اصبح تانا جامي الادوات المصنوعة من الحشب وهو الـه الحصوبة والـه الغابات وهو كذلك الـه اليوم الطالع والـه الشمس . اما الاله (رونجا) فله علاقة بالمطر والرعد . ويرد اسمه في الاسطورة الماعورية حينما افترقت السماء عن الارض والـه الزراعة ومثيله في هوايي (لونو - Lono) الـه الحصاد والمطر الذي يجي الزرع وبهذا الوصف يقدم الناس بكر فاكهتهم اليه ، واما (تو) فهو الـه الحرب ويمثل الجانب الايمن من الجسد اي الجانب الذي يطعن بالرمح في القتال والى جانب هذه الالهة توجد الالهة (هينا - Hina) اول امرأة وهي اكثر الشخصيات شعبية في الاساطير تمثل القمر ، ويبلغ عدد الالهة في تاهيتي وحدها نحو من ثلثائة وسبعين الهاً لكل منها صفة خاصة وبذلك يكون لكل مهنة الـه خاص : الـه الصناع والـه الواشمين والـه الرقاصين وحق المنبوذين لهم الـه ، كما ان للسراق الـه وهو هـيرو . وهذه الالهة في المرتبة الثانية وقد ازداد عددهم لان لكل جزيرة وكل وادٍ وكل اسرة وكل جمعية اختصت بـاله . ويأتي بعد الالهة انصاف الالهة وهم ابطال من البشر بلغوا مرتبة من الحرمة والتبجيل راح الناس يعبدونهم ، ولعل ماوي منهم . ومما يلفت النظر عدم تمثيل الالهة العظام في بولينزية . يقابل ذلك ان الالهة الثانوية مثلت بصور مختلفة والتمثال يختلف شكله

باختلاف الجزيرة التي يعبد فيه من العصا المجردة الى الرأس المنحوت ومن هياكل (تكي) المصنوعة من اليشم في زيلنده الجديدة ، او اقنعة من الريش او منحوتات في هوايي ، وتماثيل خشبية الصنعة في جزر مار كيز . وفي ساموية وتونجا التماثيل بشكل احقر من الحيوانات كسام ابرص وفار و طير . ويعتقد البوليزيون ان الالهة تقيم في السماء .

مفهوم الاخلاق لدى البوليزيين : وبينما يقول فرايزر انه من العبث البحث عن فكرة الخطيئة والمغفرة عند الماعورين يؤيد (ماوس) ان الادراك الخلفي والشعور بسلطة القانون والخوف من مخالفته هي من المفاهيم المتأصلة بقوة في نفوس الماعورين ، ويدعي ان لدى الماعورين تعابير مجردة تعبر عن مفاهيم خلقية . ان كلمة (هرا - Hara) تعني ما يصيب الانسان من مصيبة بسبب مخالفته لاحكام التابو وتقصيره في احترامه اناساً مقدسين . اما كلمة (كينو - Kino) فتعني الخطيئة التي ترتكب ضد قواعد الآداب والعادات والمجاملات حيال الرؤساء . اما كلمة (هي - He) فتعبر عن الخطأ العلمي او التقصير في الشؤون السياسية . كأنما التعابير الثلاثة (كينو وهي وهرا) تعبر عن ثلاثة مجالات سياسية : - اخلاق قبلية و اخلاق ارستوقراطية و اخلاق دينية ، والغاية منها احترام قدسية المانا سواء عند من اكتسبها او من حرّموا منها ولكنهم ذو صلة بالاشخاص المقدسة . والعنصر الاكثر تمييزاً في دين البوليزيين هو ارتباط الدين والاساطير بالتنظيمات الارستوقراطية لاننا امام جمعية بشرية منقسمة حقاً الى طبقات . - طبقة ارستوقراطية حاكمة وطبقة العوام والاسرى .

ويمكن للرئيس ان يجمع بيده السلطة الزمنية والسلطة الدينية فيكون الملك والكاهن الاعلى ويمكن ان يكون الكاهن رئيساً . ويحتل الرئيس مقاماً طقسياً فعلاً وعن استحقات وهو شخصية مقدسة . ان جميع الاسرات الملكية في هوايي وفي سامويه الهة من حيث التقديس والتبجيل ، وبهذا التقديس والتبجيل وضعت احكام التابو . والماعوري يخضع لاحكام التابو منذ مولده حتى مماته ، وكلما ارتقت

منزلة الشخص كلما ازداد حكم التابو لديه . ويعتبر الرئيس مخلوقاً مقدساً محترماً موهوباً بقوة خارقة للعادة ، وبوصفه الوسيط بين الآلهة والبشر وبما انه سليل الآلهة فانه يمتاز بشعائر دينية عديدة . وفي ساموية يتزوج احياناً باخته للمحافظة على نقاوة الدم . فالنذور والرقبات والتعليم كل ذلك من نعم المانا التي يتمتع بها بمقدرة عظمى فضلاً عن ان ماناه بجد ذاتها عظيمة . حرمت عليه احكام التابو ان يمس الاطعمة المطبوخة ، وينبغي له ان يأكل بمفرده . وبما ان رأسه محترم خاصة فلا يجوز لاحد ان يقص شعر رأسه سوى الكاهن شريطة ان يكون من ذوي المراتب العالية وذلك بعد ان يمارس شعائر الوقاية العديدة . ان مجرد اطلاق اسم الرئيس على بعض الاشياء مهما كانت ، يجعلها مقدسة ومحرمة . ويعتقد الناس بان فضلات طعامه اذا مسها احد بضمه ولو عرضياً يموت . ان ناراً نفخ فيها جمرة نار استعملها لاشعال غليونه تصبحان غير صالحتين للاستعمال ، ويقتل من يستعملها .

ان عقيدة التابو وهي الشيء المحرم اطلاقاً - منتشرة كثيراً في بولينزية . وهي ذات علاقة بالتنظيمات الارستقراطية والامتيازات الاجتماعية التي يمتاز بها . ان الاشخاص والاشياء والحادثات تنقسم الى حالتين : حالة التابو وحالة نوا . والتابو كما اشرنا قبلاً يعني المقدس والمحرم ، والنوا يعني الدنس وغير المقدس ، اي الذي يجوز التقرب اليه . ومن احكام التابو ما هو عام ومنها ما هو خاص او موقت ، وما له صلة بالعبادة تابو ، حتى الامراء والاشراف يعتبرون تابو . اما النساء فلم يكن تابو الا في بعض الاحوال وبموجب شروط . وهناك جماعات الاروعيين الذين انتشروا من تاهيتي الى جميع الجزر الاوقيانية ويعتبرهم الناس في بولينزية من المتقدمين في الدين والمرشدين وهم بشخصهم وبما يملكون تابو . لهذا لا يتعرض الناس اليهم مطلقاً . لأن الاساطير زعمت انهم من سلالة الاله (عورو) وقد حبتهم بقديسة ومن اجل ذلك كانت اوامرهم ونواهيهم تابو . ولا يمكن الانتفاء الى طائفة الارعويين الا بعد ايفاء مراسم عديدة والقيام برياضات بدنية والتمسك باحكام اخلاقية لمدة طويلة . والدرجات في الطائفة

سبع والاعضاء المنتمون الى كل درجة لهم نقوش خاصة تميزهم عن رجال الدرجات الاخرى اما الذين ما يزالون في الدرجة السفلى فيتجولون في الجزر يرقصون ويغنون وينشدون الملاحم الالهية .
وفيا يلي مثال يوضح التضاد بين المفهومين تابو ونوا وهما من الاحكام الصارمة لدى البولنيزيين :

هذه جماعة من الماعوري تركوا قريتهم واستعدوا للقتال . وقد انتخب كاهن قدير ليرافق الحملة اول اعماله فحص الكواكب وحالة السماء ومعاينة رؤوس الحزاب ، او اجبار عصا الفأل على الكلام وذلك لاجل الزحف بنصيب اوفى من النصر . ان مصير القتال لا يتوقف على ما تقدمه القيم الشخصية من مهارة فحسب انما يتوقف على المانا، او بالاحرى ان القيمة الشخصية ما هي الا مظهر من مظاهر المانا التي تعزز المقاتلين بالقوة وتحطم الاعداء ولهذا السبب يطلب الكاهن ان يمر الحاربون من بين سيقانه لكي تتسرب قوته اليهم ويتلو (الكاراكيا - Karakia) على الاسلحة لكي يدخل فيها (يوموتو - Uemutu) الاله الذي يجعل الرماح مؤثرة . ثم يرش الماء المقدس حتى يبصر عيونهم ويجعل أرجلهم نشطة وسواعدهم قوية واجسادهم مرنة. وعلى هذه الصورة يذهب الماعوري الى القتال فيخلصه الى (تو) وبانثائه عضواً في اسرة هذا الاله وبذلك يغدو بحالة المانا. وفي هذه الحالة يخضع الى منهيات متعددة : الامساك عن اكل الطعام المطبوخ والامتناع عن المناسبات الزوجية ... الخ . والغاية من كل ذلك زيادة قوته الشخصية التي تركزت في نطاقه (حزامه) بصورة خاصة . هذه مقطوعة ينشدونها :

فكر في قتلي ولكني نهضت

وجه تو في غضب

وجه تو في لهيب

يا تو قسم السموات

امنحني القوة لاقاوم

لاثبت في مكاني

لاتنجب الضربات

وليكن (مارو) ٥ - الجزء المقدس من نطاقه - ولتتهب .

فاذا انتهى القتال والمحاربون تحت تأثير الاله تو المحطم ينبغي الان الدخول تحت تأثير اخيه (رونجا) الذي يتصدر السلام . وعندما يعود المحاربون الى بيوتهم وقد احتكوا بالدم وبالموت مشحونين بفرع الاعداء القتلى . وقد شحنت اسلحتهم بقوة قادرة واصبحوا هم انفسهم تابو . لهذا يقتضي ان يخرجوا من حالة القدرة القدسية ويعودوا الى الحالة الاعتيادية ليمارسوا حياتهم اليومية ويتعاملوا مع مواطنيهم واهلهم ، ولهذا يفرض عليهم العزلة حتى يتطهروا فيرفع الكاهن التابو عن الطعام المطبوخ ويزيل خطر الاسلحة فيكسر بعضها ويغسل الاخرى . ويبتهل الى الريح الذي يحل رباط التابو . ويربت على الافخاذ لحمل القوة على الهرب ثم يُبكون الموتى ويلبسون لباسهم المعتاد . هكذا يعودون الى حالة السلام ، وبعد ان يجتازوا الساحة المقدسة بتلك المراسم يعودون الى الحياة العامة وتظل بعض المنهيات نافذة المفعول الا انها تقل شيئاً فشيئاً حتى يعودوا الى حالة نوا الاعتيادية .

والذي يخالف احكام التابو يخسر حماية الآلهة . واذا ارتكب المرء (هارا - Hara) اي طلسم حياته - فيغدو (نوا) اي دنساً ، واذا ارتكب الرئيس الهارا يخسر ماناه ، فيصبح المرء في تشوش عقلي قلقاً ضعيف الفكر . واذا ارتكب الكاهن الهارا يغدو اعمى النفس ، عاجزاً عن البصيرة النافذة . ان مخالفة احكام التابو تؤدي الى خاتمة قريبة بمثابة عقاب مميت . ويعرض المخالف نفسه للامراض والمصائب والموت . والعبد الذي يمس طعام الرئيس يهلك . وكذلك الفتاة التي أكل الفاكهة المحرمة (التابو) من غير علم تموت ايضاً . وكتب (مويرنهوت - Moernhout) : « ان الذي يخالف احكام التابو لا يمكن ان يسلم من العقاب اطلاقاً لان عذاب الضمير يؤدي في الاخير الى موت المخالف » وذكر « ان الجرائم الوحيدة التي يعاقب من أجلها في هذه الدنيا وفي الآخرة هي عدم رعاية الشعائر القدسية وإهمال الآلهة وإهانتها . والذين يشعرون بأنهم متهمون بتلك الذنوب لا يسعون لتسكين غضب الآلهة في حياتهم إلا فيما ندر ، وإذا داهمهم المرض

ينسبون ذلك الى سخط الآلهة .

حالات العبادة : المعابد - ان الأماكن المقدسة منتشرة في أنحاء بولينزية ، ويدعى هذا المكان عند الماعوريين (وهاره كوره Whare Kura) والبيت الذي يرقص فيه ابن هاواي رقصة (هولوا Hula) ، والحظائر التي يصنع فيها صائدو الاسماك في ساموية زوارقهم ، كلها أماكن مقدسة أقيمت باجراء بعض الشعائر أو فوق القبور . وتوجد فيها أحيانا مصطبة القرايين والتقدمات المقدسة . وتسمى هذه الاماكن في المنطقة الشمالية في بولينزية ، في جزر ماركيز وجزر سوسيته (مارايه Marae) وهي تشبه المعبد . والمعبد في تاهيتي بلا سقف وهو عبارة عن بقعة أرض جردت من الحشائش وسويت ، وتكون الارض أحيانا أعلى مما يحيط بها من الارض ومرصوفة . والمعبد مستطيل الشكل يحيط به جدار واطىء مبني بالحجر المرجاني أو أحجار مستخرجة من قريب ، وفي الارضية تكوم في احد الجوانب ، أحجار ضخمة بشكل هندسي يشبه الهرم المدرج أطلق عليه السياح اسم المذبح ، ويسميه الاهلون (اهو Ahu) وهو الركن المهم في المارايه ولا يجوز لأحد ان يتسلقه باستثناء بعض الذوات المهمين وحاملي الضم والوثن ، وخصص اهو للآلهة . والوثن او الضم الذي يمثل الاله الرئيسي هو اكبر الأوثان في المارايه ويكون من قطعة خشب غير مصنوع ملفوف بالأقمشة الثمينة وبذلك يبدو بمظهر انسان مغلف .

الكنهنة : إن الكاهن هو الحارس الطبيعي للمارايه . وبما انه المكلف بتأمين الاتصال بين القوى العليا والشعب وهو يقوم بتقديم القرابين ويتلقى اوامر الآلهة وينفذها . وفي هذا المعبد تجري المعجزات ، ويخاطب الماعوريون كهنتهم باحترام مهيب . والكاهن الماعوري رجل اكتسب بمهارته العلم ونال هبة القيادة . اما (توهنجا اتوا Thouhounga Atoua) أي الكاهن الرئيسي فهو خبير ديني واستاذ تكنولوجيا في الأشياء المقدسة ، والرئيس الديني للطائفة . وهو الذي يستطيع ان يجعل الذين خالفوا بعض أحكام التابو يجعلهم (نوا) ، وهو الذي يعين اوقات العبادة والمراسم الدينية والاقوات المناسبة للأسفار البحرية .

وبوصفه طبيباً يشخص المرض ويوصي بما يجب اتخاذه من عناية . ويتعلم المرشحون للكهانة في بيت شيد بمراسم دينية خاصة ولا يدخله من كان (نوا) أي النساء والطعام المطبوخ ، اما المسموح لهم بالدخول فيه فيتجردون من لباسهم ويستمر بعض المرشحين ستة اشهر في التعليم ، ويبدأ نهارهم ببزوغ اول شعاع من أشعة الشمس فيحيونها بالأناشيد والأدعية كما يلي :

أيها الاله أبو اطررد الظلام وليغسل نورك عما قريب افكارنا كما يغسل ماء النهر أجسادنا . امنحنا هبة الدعاء اجعل منا مبشرين بك وخطباء لك .

ولتنفذ الى اعتمق جذور فكرهم وأعماق قلوبهم .

أيها الاله ابو الحكيم . يا ابو سيد المعرفة يا ابو غير المخلوق . »

ثم يشرع التلاميذ بالدراسة في وهاره كورا او في الغابات ، ويتلقى المرشحون للكهانة من اساتذتهم جميع المعارف الدينية الخاصة بقبيلتهم وهي تراث ما ورائي اسطوري فياض ، ويجري الفحص بعد انتهاء التعليم . ويذكر مورينيهوت في هذا الصدد ما يلي : « ان أدنى غلطة واقل تردد لا يؤديان الى رد المرشح باهانة فحسب بل يؤديان الى صخب الشعب وسخرية המתحدين ان اي خطأ واي غباء يدلان على الشؤم يقابل ذلك ان معرفة كاملة في امتحان المرشح وفي اتقانه للغناء المقدس لا ترفع الناجح السعيد الى اولى مراتب الشرف بين الناس بل تجعله مخلوقاً مقدساً بنظر الجميع ومحوباً لدى الآلهة . » والمواضيع التي تعتبر ناجحة تجهز الناجح بحجرة قدسية رمزاً لانخراطه في سلك الكهانة وزمرة التوهنجبا . ويجري له نوع من التعميد وترفع قيود التابو في المراسم ويرتدي اللباس الاعتيادي . ثم يلقي الكاهن المشرف على التعليم موعظته الاخيرة : - « يا أخي تمسك بدقة بالتقاليد المقدسة التي علمتك اياها . ان اجدادك حافظوا عليها في داخل بيت المعرفة المقدس . واذا تجرأ احد على نشرها فلتخنقه الشمس » ... والقمر ... وليس انا الذي أحكم عليهم بل (تانا) أبونا مصدر جميع تراثنا المقدس .. »

الطقوس: - يحفظ الكهنة عدداً كبيراً من الكواكية وهي صيغ طقسية

بالمئات تنشد او تتلى بأنعام خاصة . ويرافق الكواكية في الأغلب تقديم التقدّمات والقرايين . وهناك أدعية للآلهة العظام ، ومنها :

« أنقذونا ! أنقذونا ! هذا مساء الآلهة ، كن قريباً مني يا سيدي . احفظني من شر الرقيات ومن الموت المفاجيء ومن السلوك السيء ومن أعين الناس ومن الدسائس الخفية ومن الشجار على حدود الارض . وليسد السلام حولنا من بعيد يا الهي . احفظني من المقاتل المرعب الذي يتلذذ ببث الرعب والذي ما برح شعره منفوشاً . ولنعش انا ونفسي بسلام ولنسترح هذه الليلة يا إلهي » .
ولا يلعب القربان دوراً مهماً في الطقوس . ويقدم للآلهة الازهار العادية وبكر الغلات ويقدم لها الطعام الخ .. ان الضحايا البشرية الشائعة في جزر مار كيز وزيلنده الجديدة تكاد تكون مجهولة في المحلات الأخرى . ولا يوجد في القصص القديمة ما يدل على ان الضحايا البشرية أدخلت حديثاً . والضحايا الاغلب هم أسرى الحرب والمجرمون والعبيد ، وحينئذ لا توجد تكون الضحايا من العامة الذين يعينهم الكاهن ، وتنقل الضحية الى المعبد ولا تؤكل إطلاقاً ولا سيما حينما تقدم الضحايا الى الآلهة :

الحياة النفسية : يرى الماعوري ، وهو أكثر تطوراً في الادراك الديني بين البولونيزيين ان طبيعة الانسان مركبة من اتحاد عناصر عليا وسفلى والعناصر العليا لدى الانسان تنطوي على :

١ - مبدأ حيوي فردي لا يستطيع مفارقة الجسد ويموت معه . ان هذا المبدأ يتجلى بالحياة الإلهية والقدرة اي المانا .

٢ - (الهاو - Hau) ، اي شخصية حيوية ووجود جسماني . ان اغتصاب الهاو من شخص ما يؤدي الى اطلاقه .

٣ - المعرفة السماوية (فاناجا - Vanaga) ان كل هذه العناصر مستقلة وتصدر من مملكة النور .

٤ - الروح الفردية (فايروا - Vairua) وهي الظل والصورة غير المادية

وتسمى أيضاً (اتا - Ata) بمعنى شكل وهيئة وهي كلمة تعني الظل في بعض اللهجات الملايكية .

٥ - الشكل الروحاني (كهوا - Kehua) .

٦ - (تينو - Tino) التشخيص الجسماني .

ان كلمة فايروا (الروح الفردية) تكون (وايلوا - Wailua) في هاواي و (اوكانه - Ukane) في تاهيتي وجزر ماركيز . والكلمات هذه تعني الروح ولكن ماذا يفهم الاهلي من هذه الروح ؟ ما هو الطابع المادي والروحاني لها ، وفي صدد ذلك ذكر عالم كان قد تفهم جيداً العقلية الماعورية ان التعبيرات التي يستعملها الاهلون تعني في الوقت نفسه تمثلات مادية وصفات غير مادية وتمثلات غير مادية لموضوعات مادية . وسواءً اكانت الروح مادية او روحانية فانها تتشرب الجسد كله وتظل مقيمة في جميع اجزائه حتى في جزئه المنفصل كالشعر والاذن والاسنان والافرازات والخراج ، لهذا من الخطر جداً ترك هذه الاجزاء تقع في ايدي اي كان . ويتصور الماعوري ان بعض اجزاء الجسد زاخر بالجوهر الروحاني . ويرى ان الروح (فايروا) استقرت في ذروة الجمجمة . والروح تستطيع ترك الجسد ويحدث هذا في النوم خاصة لهذا يهتم البوليزيون كثيراً بالايقظوا النائم فوراً خشية ان يصب جوهره الحيوي السوء حين عودته الى الجسد وخشية الا يعود الشعور الى النائم مما يسبب نكبة له . ويعتبر الناس المرض دوماً بمثابة ترك الروح للجسد .

الموت : يحدث الموت بانفصال الروح عن الجسد لمدة طويلة او لمدة لا رجعة فيها . ولا يعتقد البوليزيون بالموت الطبيعي ، والموت بنظرهم ناتج عن انتقام العدو ومن طالع سيء . ما هو مصير الروح بعد الموت ؟ يزعم سكان (بوموتو - Paumotu) كما ذكر كايو - Caillot) ان الروح بعد الموت تقوم بسياحة بعيدة المدى وتقتحم في طريقها الموانع قبل ان تصل الى مقرها الجديد والاخير . لهذا من واجب اقارب الميت ان يهدوا كل ما يقتضي لسياحته والا يعرضوا انفسهم لانتقامه ويعتقدون ان مقره الاخير في جوار المناطق التي تغرب فيها الشمس في

الاسفل من احشاء الأرض التي جاء منها اجداده. وتسمى هذه الأرض (هوايكي Hawaiki) وهي في البداية والنهاية ، هي الأرض التي خرج منها الاجداد وعادت اليها ارواحهم . ويبدو ان هذه الأرض واسعة وفيها مناطق عديدة اكبرها منطقة الليل (بو Bo) الواقعة في مركز الأرض وتنطوي على بقعتين متميزتين : بقعة الليل الطيب (بوبروتو Bobrotu -) وبقعة الليل الخبيث (بوكيرو Bokiro -) ، ويوجد في هاتين البقعتين كل ما في العالم الدنيوي من مواد . وتوجد في البقعة الاولى بحيرة جميلة زاخرة بالمياه الزرقاء الساكنة بينما لا توجد في البقعة الاخرى سوى بحيرة نار مرعبة في حالة الذوبان . ويدعي البوموتيون ان البقعتين آهلتان ولكن الثانية اكثر ازدحاماً من الأولى لأنها المسكن الاهلي لأرواح الموتى ، ويكاد جميع البوموتو يعودون اليها ليلاقوا اجدادهم فيها ويرافقوا آلهة الليل الخبيث والموتى الذين اهل اقرباءهم قبورهم تظل ارواحهم هائمة بلا ملجأ معرضة للجوع والعطش ويتضح مما ذكرنا ان البوموتو يقرون بوجود عالين في الآخرة عالم النور وعالم الظلام عالم الخير وعالم الشر والاول الجنة (باباراجي - paparagi) والثاني جهنم (كوروروب Kororub) ويتصورون ان محلهم تحت جزر المحيط الهادي في باطن الأرض . في أرض هوايكي ولهذا يسمونها الأرض في الاسفل . « واذا كانت السماء مقر الالهة فان اسفل الأرض مقر الموتى ويحتفل الناس بمنازة الميت وقبل كل شيء ينبغي مساعدة الروح في سفرها الى العالم الاخر ولأجل ذلك يجتمع اقرباء الميت واصدقاؤه لعدة ايام يحيم عليهم الحزن الذي يظهر بالبكاء وبانشاد الاناشيد المسلية وبالرثاء ، وينذلون جهدهم لمساعدته في عالمه الجديد فيقدمون اليه الطعام ويبعدون عنهم التأثيرات المضرة بالرقص ويحطمون قسماً من اشياؤه الذاتية دليلاً على الحزن من جهة ولكي يستفيد منها من جهة اخرى . ويهدمون احياناً مسكن الميت ويقتلون بعض عبيده وينجحون نساءه وتجري عملية البتر باسمه ، فتقطع الاصابع وتكسر الاسنان وتمزق الاذان ... وتوزع الاطعمة بنذل .. ويدفن اهل فيجي وسامويه موتاهم متوجهين نحو الشرق

والقدم موجه الى الغرب لانهم يعتقدون مسكن الموتى في الغرب ، ويتصورون ان الجثة بهذا الوضع تنهض بسرعة وتسير بوجهها لملاقاة روحها وتعتقد قبيلة تونجا في نيوزيلنده بان ارواح الرؤساء والمحاربين تشكل طبقة إلهية ثانوية مرتبتها احط من مرتبة الالهة الاسطورية العظام ولكن فعاليتها كثيرة وقدرتها كبيرة. ويوجد الاعتقاد ذاته عند الماليزيين الذين يتضرعون لارواح اجدادهم ويلتمسون منها حياة سعيدة ومعاونة حينما تنزل الكارثة وتحل المصيبة (١).



(١) اقتبست معلومات هذا البحث من كتاب تاريخ الاديان العام المجلد الاول .

الأساطير في أوستريا وأوقيانيا

- ١ -

التكوين عند البولنديين : ان أغلب البولنديين يجعلون بدأ الكون عماء (بو Po) ومنه انبثق النور والحرارة والرطوبة بالتوالي ، ومن ثم ولدت السماء والارض . اما السماء فإنه ذكر يدعى (رونجي) واما الارض فامرأة تدعى (بابا Papa) وهي كلمة تعني الأم . وسبق ان ذكرنا وجود الإله الخلاق (ابو) أو (تاكارويا) الذي أخرج الارض من البحر المحيط العظيم الذي كان يغشى الكل . وفي جزيرتي سامويه وتونجا ان ذلك الإله لكي ينجز عمله بعث طيراً ساعياً اخذ على عاتقه العمل . ان هذه المعلومات كلها اهلية عريقة لا يجوز الشك فيها اما خلقة البشر فقد جاء في اسطورة ان (تانا) وهو اله خلاق خلق الزوج الاول وجبلها من الصلصال . اما في جزيرة هاواي فيعزون خلقة البشر الى ثالوث من الالهة « كانه وكو ولونو » . وفي زيلنده الجديدة تحكي الاسطورة ان تانا اكتفى بخلق المرأة الاولى وسرعان ما تزوجها ، ويفهم من ذلك ان خليطاً من دم إلهي ودم بشري يجري في شرايين البولنديين ويزعم الماعوريون ان البشر تحور من نبات مائي بينا اهل هاواي يزعمون انه استحال من دودة تدعى الكرمة . وتروي الاسطورة ان رونجي وبابا ظلا في اول الامر متشابكين مما جعل اولادهما الست يعيشون في ظلمة شديدة فاعتزم خمسة منهم

ان يقتلوهما او يفرقوا بينها ، ولكن السادس اعترض على ذلك . لقد حاول اربعة منهم عبثاً ان يفرقوا بينها ولكن الخامس (تاما هوتا - Tanemahuta رب الغابات والطيور والحشرات نجح وفرق بين رونجي وبابا اي السماء والارض وفضل الرب السادس (تاوهيرا - ما - تيا - Tawhira ma-tea) رب الريح والعواصف ان يصطحب اياه . اما الآخرون فاقسموا الارض والاقيانوس ، واعتزم اله الرياح ان ينتقم لابويه من اخوته فهزم اربعة منهم ولم يتغلب على الخامس (تاماتا وبينجا - Tamatau penga) ابي البشر وقد ادى هذا القتال العنيف الى غمر اكثر اجزاء الارض بامواج المحيط . وهناك اسطورة اخرى لدى البوليزيين عن افتراق السماء عن الارض . ويزعمون بوجه عام ان امرأة طاعنة بالسن ضربت السماء بمدق الهاون فاضطرتها الى الانسحاب وشاعت هذه الاسطورة في الفيلبين ايضاً . ويتصور البوليزيون ان سطح الارض كان فيما مضى مطموراً بمياه المحيط المالحة ولكي يعللوا وجود الجزر زعموا ان موي اصطاد الارض من اعماق البحر ، وكانت مأثرة موي الثانية بحته عن النار وحصوله عليها من اظافر جده . وهو كائن يسكن في جهنم . وفي حكاية اخرى ذهب موي بنفسه الى إله النار وانتصر عليه وخلع احد ساعديه ، ويضاف الى الرواية احياناً ان موي حينما اخذ النار كاد يسبب حريقاً للمياه ولكنه تضرع الى المطر فانقذ العالم . ويروى في جزيرة هاواي ان موي واخوانه رأوا جزيرة من بعيد حيث كان بعض الطيور يشعلون ناراً ولما رأى احد الطيور اقتراب القادمين اطفأ النار فوراً ولم يستطع موي الحصول على قبس منها الا بالخدعة ، فتعلم سر النار وعرف انها تحصل من ذلك خشبتين . وفي عهد متأخر ذهب الناس الى ان البطل موي ذاته فرق السماء من الارض . وفي نهاية المطاف راح موي يبحث عن الخلود لدى جد اخر هو السعلاة . اقتضى ان يفاجئها حينما كانت تغط في نومها دون ان يوقظها وفشل موي في تشبته لان السعلاة استيقظت نتيجة خطأرقائه وانتاب موي الحزن لانه اخفق في ان ينال الخلود. ومن الجدير الاشارة الى ان اسطورة الطوفان معروفة لدى البوليزيين بصورة مختلفة ولكنها بدرجته من الاصلالة

يستبعد معها اي تأثير مما جاء في العهد القديم . وقد انتشرت هذه الاسطورة في مناطق واسعة من زيلنده الجديدة الى هاواي .

اساطير الملاينيين - يفترض الملاينيون البحر المحيط اصل مبدأ الكون المرئي ويشير بعضهم الى الشعبان العالمي ، تصوروه في اول الامر لايضاح البحر وجزره واصطاد الهان خلاقان (تو كابينانا - To-Kabinan) وتو - كارفوفو - (To-Karvuvu) الارض من البحر كما فعل مويي البولينييين . اما خلقه البشر او المائة الاولى فتزعم الاسطورة انها صنعاها من خشب فوهبها الاله الخلاق الحياة . ويزعم اهل جزيرة هبريد الجديدة ان الزوج الاول ولدا من صورتين رسمها إله خلاق فوق التراب ودب فيها الحياة بدم إلهي . وهناك اسطورة تزعم ان الإلهين الخلاقين اللذين جاء ذكرهما القيا في البحر جوزتين من جوز الكوكو ، فانبثق منها امرأتان واصبحتا زوجين لآخوين . ولكنه توجد ايضا روايات تروي ان الزوجين البشريين الاولين ولدا من بيضتين . واخيراً هناك روايات تفترض ان البشر ولد من نبات او من حجر . وفي جزيرة الاميرالية ان الشمس والقمر فطران رميا الى السماء . وفي غينية الجديدة يعتقد الناس بان القمر افلت من مزهرية ابتدعها بعض الصبيان رغم التحريم البات . لهذا يشاهد دوماً في الكوكب اثار الايدي التي حاولت ان تمسكه . وجاء في رواية اخرى ان العجوزه سرقن النار ورمت ما بقي منها الى السماء فصنعت بها الشمس والقمر . ويحكى آخرون ان الشمس كانت في البدء كائناً بشرياً ولد من ساق امرأة بصورة خارقة (معجزة) .

ويعتقد اكثر الملاينيين ان الليل لم يكن في كل الاوقات وان ثمة إله خلاق يدعى (كات - qat) اتى به . وفي رواية منشأها غينية الجديدة ان الكلب جهز البشر بالنار . وعلى كل حال ان النار تعتبر في اغلب الاحيان في حوزة عجوز تسكن في احدى الجزر . وفي بعض الاحيان يساهم الشعبان في مأثرة الحصول على النار ، فيزعمون ان النار ينبغي البحث عنها في بطن شعبان . وفي بريطانيا الجديدة يزعمون ان إلهاً خلاقاً يدعى (أماكونج - Emakong) نفذ

الى العالم الاخر الواقع في قعر احد الانهر وجلب منه النار والليل والصراصير
وبعض الطيور .

ويعرف الملازيون اساطير عن منشأ الموت ، ففي جزيرة الاميرالية يعزى
هذا الشر الى جنون اخي كات الذي دفن البشر الذين خلقهم . وفي محلات اخرى
يعزى الموت الى مشيئة إله شرير عارض ارادة إله اكثر رأفة بالناس اراد ان
يمنحهم الخلود وطلب ان يساعده على تبديل جلودهم كما تفعل الحيات . ويحكى
في جزيرة الاميرالية ان الموت نشأ من جحود الانسان لشجرة قامت بجراسته
فوجد ان يقدم للشجرة خنزيرين ابيضين ولكنه اخلف وعده ، وقدم لها خنزيراً
ابيض واخر اسود طلاه بالجلص ، ولكن الشجرة لم تكن مغفلة لذلك اخبرته بالا
يعتمد عليها فيما بعد . هكذا راح الناس يموتون منذئذ .

ويعزى الطوفان احياناً الى انتقام حوت شيطان . اشرنا قبلا الى رواية
منتشرة في بريطانية الجديدة تروى ان (تو - كابيناانا) خلق المرأة الاولى
وحاول اخوه كارفوفو ان يقلده فخلق امرأة اخرى ثم دفنها وبذلك سبب موت
البشر . ولما اوصى تو كابيناانا اخاه تو كارفوفو ان يرعى امه ، حرق هذا امه حية .
ولما خلق كابيناانا سمكة نافعة لتدفع الاسماك الاخرى الى الشاطئ حتى تقع بيد
الصيادين خلق لارفوفو القرش (كلب البحر) . وهناك قصص اخرى تروى
اعمال إلهين متضادين ويسمونها في جزيرة الجذام (تاجرو - Tagro) وسوكه
ماتوا - Sukematua) خلق اول الفواكه الصالحة للأكل بينما خلق الثاني
الفواكه غير النافعة . ويحدث ان يكون للآله الخالق عدة اخوة يبغضونه وهو
اصغرهم واعقل منهم يحكي كيف انهم تأمروا على قتله ولكنه افلت من الشرك
الذي نصبوه له . وفي رواية اخرى يروى ان الإله الخلاق كان اختطف العنكبوت
وجعله نفسه الإله .

اساطير اوستراليا : ان اساطير الاوستراليين تشبه اساطير الملاينزيين والبولينزيين ، مثال ذلك اعتقاد الاوستراليين بان الاوقيانوس كان في البدء يغمر سطح الارض كله . ويتصور الناس في مقاطعة فيكتوريا ان الشمس بالاصل لم تم اطلاقاً. وتعلل الاسطورة خلق البحر بوجود بحيرة كبيرة في بئر اكتشفته بعض الطيور مما ادى الى فيضان وتشكل البحر . ويتصور الناس ان النار كانت في اول الامر مخبأة في جسد حيوان ما يكون ثعباناً احياناً . ولما حصل البشر على النار لأول مرة كاد يصيب العالم حريق عام . ويرون ان للقمر والثعبان نصيباً في منشأ الموت ، لقد أدا ان القمر البشر بالموت ليعاقبه على رفضه ان يحمل الثعابين التي تعتبر كلاب القمر . ومع ذلك فان من الصعب ان ينكر المرء بان ليس للاوستراليين بعض الاساطير الاصلية بعض الاصلية ويكفي ان نذكر ما يلي : يفترض الاوستراليون ان الاجداد الطواطم ولدوا من التراب ويتصورون ان البشر الاولين خلقوا غير كاملين وان الالهة السماوية قامت بمهمة جعلهم كاملين . ويعتقد الاهلون في منطقة (ملبورن) بأن (بونجيل) الكائن المتعالي جبل البشر الاولين من الصلصال ونفخ فيهم الحياة ، ويعتقد الناس في مقاطعة كوينزلاند بأن القمر خلق البشر الأول من حجرة وخلق المرأة الاولى من شجرة . وفي مقاطعة فيكتوريا يعزى أحياناً خلق البشر الأول الى ابن بونجيل .

وللاوستراليين روايات عديدة عن الطوفان وجاء في احدي الروايات ان المياه جميعها ابتلعها ضفدعة واستطاعت سمكة الانقليس (جري) ان تضحكها فتدفقت المياه توأ من فم الضفدعة وسببت فيضاناً عظيماً . وفي رواية اخرى ان البشر عوقب بالطوفان لأنهم اصطادوا غولاً بحرياً . اما الاسطورات الباحثة عن

حصول البشر على النار فكثيرة ويفترض الناس بصورة عامة ان النار كانت بجيازة احد الحيوانات وان حيوانات اخرى سرقتها وحملتها الى البشر . وتحكي الرواية عن سرقة بسيطة تارة وتشير تارة اخرى الى خدعة جعلت صاحب النار يضحك فلم ينتبه . اما حامل النار فهو بوجه عام طير الغراب . وفي خرافة شائعة في كوينزلاند ان النار كانت موجودة في السماء وان طائر المليك اول من حملها إلى البشر . وتروي احدي قصص الخلق كيف ان الكريكي أشعل النار بذلك قطعتين من خشب .

- ٣ -

اساطير ميكرونزية : نجد في ميكرونزيه أيضاً اسطورة الحلقة التي تزعم انه في البدأ لم يكن سوى بحر محيط واسع . وتنسب خلقة الأرض وما فيها الى إلهة تدعى (ليجوبوند - Ligobund) او الى إله يدعى (لوا - Loa) او الى عنكبوت ، لقد خلق هذا العنكبوت الشمس والقمر بعدما نسج حلزونين في السماء . وفي رواية اخرى ان خالق العالم المرئي هو طير الصاعقة الذي يدعى (تابويرك -- Tabuerik) ، وفي الأساطير الاهلية في جزر كارولين الغربية ان الالهة ليجوبوند هي جدة الجنس البشري الذي نزل من صلب اولادها الثلاثة . وفي اسطورة تحكي في جزر كارولين الوسطى ان (ليجوباب - Ligobab) ابنة الاله الخالق (لك - Luk) جبلت بعد ان ابتلعت حيواناً صغيراً في الماء الذي شربته .

ولايضاح منشأ الموت تصور الناس في ميكرونزيه ان جدالاً نشب بين الهين

الاله (اوباجات - Obagat) نصير البشر وطير كان يعارضه . و اراد اوباجات ان يكون البشر خالداً واشتدت رغبته في ذلك فبعث ابنه بالذات لبيحث عن ماء الخلود ، ولكن الطير الخبيث دبر اراقة الماء حين عودته لهذا غدت الشجرة التي مسها الماء خالدة بينا البشر اصبح فانياً . وفي قصة اخرى ان المسؤول عن كارثة الموت اخ واخته طلبت جدتها منها ان يدفنها بعد موتها والا يدفنها في اليوم السابع لكي تصبح شابة جميلة ولكن لسوء الحظ اهمل الفتى والفتاة رغبة جدتها المقدسة ولم يباشرا عملية الدفن الا بعد مدة متأخرة جداً ومنذ ذلك الوقت يموت الناس . وفي جزر جلبرت يقولون ان الزوج البشري هبط من الشمس والقمر وهناك اكثر من حكاية عن كيفية حصول البشر على النار . وفي رواية ان اوباجات هو الذي علم البشر اشعال النار بذلك قطعيتين من الخشب . وهناك رواية تزعم انه اكتفى بان بعث الى البشر طيراً حاملاً النار السماوية . لقد شاعت اسطورة الطوفان في ميكرونيزيا ايضاً وتزعم الاسطورة انه لم يتمكن احد من التخلص من الكارثة الا بعض الناس الذين تسلقوا جبالاً شاهقة جداً .

- ٦ -

اساطير ماليزية : ولا تمثل شعوب هذه الجزر عرقاً واحداً وهم خليط من ماليزيين وصفر واوروبيين سكنوها منذ القرن الرابع عشر . ومن الناحية الدينية يجدر الاشارة الى تأثيرات الاديان الهندوسية والبرهيمية والبوذية وتأثير الاسلام الذي انتشر فيها في القرون الوسطى . يعتقد اغلب الماليزيين ان الجنس البشري نزل توأماً من صلب بعض الكوائن العليا الذين تركوا مساكنهم . وجاء في رواية مناقضة انه لم يكن في البدأ سوى

المحيط الاول وبعض الصخور في الوسط ، وقد ولد الالهة الاول او بالاحرى
الإلهة الاولى من هذه الصخور . وقد اخذ (ليمو - اوت - Lumimu-ut) على
عاققه خلق الكائنات . ويعتقد الكايمان في بورنيو ان البشر الاولين كانوا اولاد
شجرة الكرمه . ويعرف سكان بورنيو اسطورة افعى البحر الضخم الذي توج
رأسه بالمجوهرات والذي حمل العالم . والافعى لا يساعد على ايضاح حادثة
المد والجزر فحسب بل الزلزال ايضاً . وليس ما يدعو الى الاستغراب ان
اندونيسية تعرف البيضة الكونية المذكورة في الاساطير الهندية . وبصدد نشأة
البشر فان عدداً غير قليل من الروايات تجعل البشر يولد من شجرة سموها طائراً .
ويعتقد الناس في الفيلبين ان الزوج البشري الاول خرج من بيضة او من بيضتين
باضها طائر ومع ذلك فان الاهلين في ماليزية لا يجهلون اسطورة خلق البشر من
الصلصال مباشرة بفعل بعض الآلهة الخلاقين وفي جزيرة بورنيو سجلت كثيراً من
الحكايات الثانوية . منها ان الها رحيا جبل الزوج البشري الاول واضطرب
العمل في غيابه مما ادى الى نتائج سيئة كالمريض والموت . وهناك حكاية تروي ان
الاله الرحيم هاجمه خصمه وقتله وقطع جسده آلاف القطع فنشأت من هذه
القطع الحيوانات المضرة التي انتشرت في الارض .

ويروى ان الشمس والقمر زوجان ولكنهما ككثير من الأزواج البشرية
تخاصما وانتهى الخصام بأن ترك القمر زوجته وفي جزيرة سلبس يروى ان
الشمس والقمر انبثقا من نبتة سماوية بينا روايات اخرى تزعم انها عيننا بعض
الكواكب البدائية . وفي الفيلبين يعتقد الناس كما في بولينزيا بان السماء والارض
كانتا قبلا متهاديتين جداً ولكن احد الالهة عندما قام من عرشه دفع السماء الى
ارتفاعها الحالي . ويعرف الناس في بعض انحاء اندونيسية اسطورة الطوفان وهي
الكارثة التي لم يسلم منها الا بعض الناس الذين التجأوا الى ذرى الجبال . ولما مرت
الكارثة اذن للحياة ان تجري من ثقب في سطح الارض . وقد حصل البشر على
النار بمساعدة بعض الحيوانات . وفي رواية بواسطة الكلب والوعمل وفي رواية
اخرى ارسل احد الناس الى السماء ليحصل على النار . وشاهد هذا الساعي ان

الالهة يشعلون النار بواسطة حجرة او قطعة من حديد الصلب وبصدد الموت يروى في جزيرة بورنيو ان الكائن الاعلى بعد ان اتم عملية الحلقة اعلن ان كل من يبدل جلده يغدو خالداً ولم يسمح للشعبان ان يقول ذلك مرتين وبما ان البشر لم يكن عندئذ موجوداً لم يستفد من هذا العرض . وهذا هو السبب بان البشر ظل فانياً . بينما يحدد الشعبان شبابه بتبديل جلده (١) .

دين المالاغاش (سكان مدغشقر)

ان جزيرة مدغشقر افريقية من الناحية الجغرافية ولكنها من الناحية الدينية لا علاقة لها باديان الاقوام الافريقية المتوحشة . وبالحيقة ان سكان مدغشقر الاصليين يتون عرقاً واعتقاداً الى سكان جزر الاوقيانوس . ولدى قبائل المالاغاش توجد فكرة التوحيد بصورة غامضة . ويعتقد الناس باله خلق العالم المرئي يدعى (زنهاري - Zanahari) ولكنه لا يعني فعلاً الا الشيء القليل لان الناس يعتقدون بانه لشدة رحمته لا يصدر منه الشر . - يضاف الى ذلك اعتقادهم بانه بعيد كل البعد بحيث لا يهتم بشؤون الارض . ولهذا السبب لا يتوجه الناس اليه بالعبادات النظامية . ان عقيدة خلود البشر تفوق اعتقادهم بالكائن الاعلى اضعافاً مضاعفة وتبلغ عندهم هذه العقيدة ، حداً يزعمون معه ان الموتى يستطيعون ان ينجبوا اولاداً . ويعتقد المالاغاش ان الناس لا يموتون الموت الطبيعي الا في اقصى حدود الشيخوخة (وهذا اعتقاد الناس في اغلب انحاء افريقيا) وكان من نتيجة ذلك ممارسة طقوس كاملة للكشف عن الاشرار الذين يسعون لتسليط الامراض . ولديهم مفهوم (فادي - Fadi) وهو فكرة تتصل تماماً بفكرة التابو الشائعة لدى البوليزيين .

(١) مقتبس من كتاب اساطير العالم Mythologie Universelle Krapp Fuirbanks

دين الشعوب المتوحشة في افريقيا

يتناول بحثنا دين الشعوب المتوحشة القاطنة في جنوبي أفريقيا وفي وسطها وغربها من الزوج والأقزام وغيرهم . أما الشعوب القاطنة في المناطق الأخرى من السود والزوج فاعتنق أكثرها الإسلام واعتنق بعضها المسيحية والذين حافظوا على معتقداتهم القديمة من سكان تلك المناطق تأثروا بدين من جاورهم من المسلمين . لهذا تغيرت معتقداتهم الى حد ما . والزوج القاطنون في غربي افريقيا شاعت الوثنية عندهم .

ان الشعوب الافريقية - ما عدا مصر القديمة - لم تمثل في اي وقت وحدة قومية كانت او لغوية او دينية وبوجه عام يمكن تمييز ثلاث مجموعات قومية كبيرة المجموعة الحامية في الشمال وبعض القبائل الشرقية الشمالية كالمسالي والصومال والجالا ... الخ ومجموعة البانتو في افريقيا الشرقية والجنوبية ومجموعة الزوج . ان الزوج الأصليين يحتلون اواسط افريقيا أي المنطقة التي تمتد جنوباً الى الدرجة العشرين من العرض . والشعوب التي تسكن جنوبي افريقيا تنقسم الى ثلاثة شعوب . شعب الهوتنتوت وشعب البانتو وشعب البوشمان . والبوشمان قصار القامة ويبدو أنهم والأقزام ينتسبون الى شعب عريق في القدم حافظوا على خصائصهم العريقة بعض المحافظة . اما الشعوب التي سكنت اواسط افريقيا وغربها فاختلطت بالأقوام الساكنة شمالي القارة من النوبيين والليبيين وغيرهم .-

دين الشعوب في جنوبي افريقيا : - ان الشعوب الساكنة في هذه البلاد هم شعب البانتو في الشرق وشعب الهوتنتوت في الغرب وشعب البوشمان في الوسط . لقد اطلق التجار العرب على البانتو اسم كافر . لأنهم وجدوهم من الكفار واستعمل البرتغاليون كلمة كافر بعد أن حوروها الى لفظة (قافر) فأصبحت اسماً لشعب البانتو عند الاوربيين أما البانتو فيسمون أنفسهم (ابانتو - Abantou) أي الناس . اما اسم الهوتنتوت فقد أطلقه الهولنديون على شعب الهوتنتوت لانهم يتكلمون كلاماً لكنا . بينما يسمي هؤلاء أنفسهم (كوي - كوين Koi - Koin) الاقزام الافريقيون . - يقتصر وجود الشعوب البدائية من الاقزام في يومنا هذا على المناطق المنعزلة عن العالم حيث الحصول على الطعام أمر شاق ويعبر عن هذه المناطق اسم «الاقالم الصعبة» . ومنها منطقة الغابات التي تنمو نمواً عظيماً وتغطي السهول الاستوائية في العالم كحوض الكونجو في افريقيا . وشبه جزيرة الملايو وجزر (اندونيسية في آسيا وحوض الأمازون في اميركا الجنوبية . ومن مميزات السهول الاستوائية اشتداد الحرارة وغزارة الامطار مما جعل تلك المناطق ذات قوة تساعد على نمو جميع انواع النباتات ونضوجها . وتعيش في هذه المناطق شعوب من الاقزام فالذين يعيشون منهم في الغابات الافريقية يطلق عليهم اسم (نجريللو - ^(١)) تصغير كلمة (نجر - ^(٢)) أي زنجي بينما يسمي شبيهم في جنوبي شرقي آسيا (نجريتو) - ^(٣) كالاندمان في جزر اندمان في المحيط الهندي (سيانج -) ^(٤) في شبه جزيرة الملايو وايبتا -) ^(٥) في جزر الفلبين و (التابيرو -) ^(٦) في غينيا الجديدة اما الذين

- 1 Negrillo 2 - Negro 3 - Negroto - 4 Semang - 5 Aeto 6 -Tapiro

يعيشون في غابات الامازون فقبائل من هنود امريكا قصار القامة .

ان اقزام افريقيا يعيشون بوجه عام في حوض نهر الكونجو وينتشرون في ناحية الشرق الى اوغندا في غابات ايتوري . ومن ناحية الشمال الى جوار بحر الغزال ومن ناحية الغرب الى الكونجو الافرنسية والكاميرون وحدود انجولا . ان انقى هؤلاء في وقتناهم الذين يقطنون في غابات ايتوري . ويختلف طول القزم الذي اكتمل نموه من اربعة اقدام واربع بوصات الى اربعة اقدام وتسع بوصات ، ولون جلدهم بني ، وان الأقزام الذين يعيشون على أطراف الغابات أكثر قتامة ، ويرجع ذلك الى ان دماءهم خالطها الدم الزنجبي . ويعيش الأقزام على الرعي . وادعى بعض العلماء ان الأقزام من أشد الشعوب بدائية واعتبر ان مفاهيمهم الدينية أصيلة لم تتطرق اليها عقائد الشعوب الأخرى . اما البوشمان فهوطنهم الحالي صحراء (كلهاري) في جنوبي افريقيا ، وهي تمتد من اورنج في الجنوب الى مستنقعات (أو كافنجو) وبحيرة (أنجامي) في الشمال ، ويبلغ متوسط طول الرجل خمسة اقدام ؛ ولون بشرتهم أصفر أو قاتم مشرب بصفرة ، ويعيشون على الصيد ، وهم من حيث الادراك أحط من الهوتنتوت . ان المفاهيم الدينية لدى الهوتنتوت غامضة الى درجة ان الباحثين ظنوا في أول الأمر ان لا دين لهم . ولكن الواقع ان لدى البوشمان والهوتنتوت معتقدات دينية بدائية . مزيج من بقايا الطوطمية والروحية . يضاف الى ذلك اعتقاد بكائن أعلى .

ويطلق اسم بانتو على جميع الشعوب ذات البشرة القاتمة الذين يستعملون لفظ (نتو) مثل (أم نتو) رجل و (ابانتو) رجال . ويظن ان ظهور البانتو يرجع الى ١٠٠٠٠ سنة ، وانهم نشأوا في منطقة البحيرات الاستوائية الافريقية نتيجة التزاوج بين الزوج والحاميين . وهم لذلك يزاولون رعي الماشية والزراعة . وينتمي سكان حوض الكونجو في الأصل الى البانتو . ومن قبائل البانتو في جنوبي افريقيا قبائل (بابانجي^(١)) تسكن في أقصى جنوبي افريقيا

و (أوفاهرورو^(١)) و (باتونجو^(٢)) و (وزولو^(٣)) في أقصى جنوبي
أفريقيا و (أومبا^(٤)) سكنة السواحل الشرقية . ويبدو من قصص البانتو أنهم
كانوا فيما مضى من أهل الشمال نزحوا شيئاً فشيئاً إلى الجنوب . لعل ذلك لتضيق
الشعوب الشمالية في أعالي النيل . لهذا انتشرت لغة البانتو في كثير من الجهات
وكونت اللهجات المختلفة التي يتكلم بها شعوب أفريقيا^(٥) .

- ٢ -

نبذة من معتقدات البانتو والهوتنتوت والبوشمان في جنوبي أفريقيا - ان اثار
الروحية بارزة لدى هذه الشعوب والاعتقاد بالقوى الروحية من أسس القيم لدى
قبائل البانتو . وما الطقوس والشعائر لديها الا وسائل تهدف كلها الى غاية واحدة
وهي تزويد الحياة البشرية بمدد من القوة وضمان بقائها الى اطول مدة . فالمرض
والألم والاعياء والفشل في العمل كل هذه الاعراض تدل على نقص تلك القوة .
فيشاهد الفرد من قبائل البانتو يعترف بأنه مات وانتهى ان هو شعر بأي عرض
من تلك الأعراض ويستدل من ذلك ان هذا الاعتقاد لا يختلف كثيراً عن اعتقاد
البولينزيين بالمانا ويرى البانتو ان الكائن الحي هو القوة . وقد تتركز في اجزاء
رئيسية من البدن كالعين والكبد والقلب والجمجمة مع مشاركة اعضاء الجسد فيها
بدرجة أقل وتبقى تلك القوى حتى لو فصلت عن الجسد مثل قلامة الظفر او

١ - Ova - Herero .

٢ - Batongi

٣ - Zulu

٤ - Awemba

٥ - الديانات في أفريقيا السوداء

حصل الشعر حتى الأشياء التي يملكها الشخص ويستعملها باللس تقبس جانباً من قوته . وتظهر تلك القوة في كلامه وإيماءاته وتعتقد قبيلة الزولو ان ظل الانسان يغدو في النهاية عند موت الجسد (اتنجو^(١)) أي روحاً . وعندما يرى الناس ان ظل الرجل أخذ يقصر يتنبأون بأنه سيموت ويعبرون عن ذلك بقولهم (ذهب ظله) أي مات . ويرى الزولو انه الى جانب العالم المحسوس يوجد عالم آخر وهو عالم الأرواح يتصورون ان الارواح تظل تحيا متصلة بعالم الجان . ويزداد اعتقادهم بقدرتها الدائمة على اصابة الناس بالشرور – وتعرف القوى الحيوية لدى الاقزام باسم (مجة^(٢)) تبيض في دكنة الظلام وتسير في الدم . فاذا مات الشخص انفصلت عنه وانتقل جزء منها الى الطوطم ويتسرى الجزء الآخر مع انفاس الاب المحتضر فيتلقاه ابنه البكر .

وتعتقد قبائل (كيوكيو) في كينيا ان لكل شخص نفسين احدهما تنفصل عن الجسد لتنضم الى اجدادهما والاخرى نفس جماعية وهي جزء من الاسرة التي تحل في جميع جسد اعضاءها بصفة مؤقتة الى ان تحل فيما بعد في جسد احدث مولود في الجماعة . وتعتقد قبائل (اوفيمبوندو) في انجولا البرتغالية ان اشباح الموتى تجتاح في الليل أزقة القرية في جلبه وصياح لتسرق الماشية والطيور ثم تختار لنفسها بيتاً فيكون ذلك نذيراً بمرض الساكنين فيه . ويضاف الى هذه المظاهر الروحية المظاهر الطوطمية فيشاهد آثارها في غربي الكامرون بتحريم أكل الخنزير والسلحفاة والفهد على الرجال وتحريم لحوم الضأن والتموس والقرودة والسماك والأفاعي على النساء . ويعتقد الناس بأنه اذا انتهك شخص المحرمات تنزل به الكوارث كالممرض وسوء الغلة أو العقم في زوجاته وماشيته ويزعم بعض الناس في غربي الكامرون انهم يقدرون على التقمص في صورة الحيوانات والتحالف معها . ومن الممكن ان يتحول الانسان الى فهد او سلحفاة او ثعبان ويدعي الاقزام في منطقة جابون انهم ينتسبون الى فيل يعتبرونه

Ittengo – ١

Megebe – ٢

ملكاً على الحيوانات . ورغم ان قبيلة (باسوتو - (١)) في جنوبي أفريقيا أصبحت مسيحية فانها ما زالت تسمى نفسها باسم الحيوان كالتمساح والوعل والاسد والقرد . ومما يدل على آثار الطوطمية ايضاً الاعتقاد بأن البشر نشأ من جذع شجرة او من حيوان ومن عادات قبائل كيو كيو في كينيا انهم اذا قطعوا الأشجار لتمهيد الارض للزراعة ، تركوا شجرة سليمة بين مسافة واخرى حتى تلجأ اليها النفس الساكنة في الاشجار المقطوعة بعد ان يقدموا لها الضحايا ويتضرعوا اليها ان تترك مقرها وتنتقل الى الاشجار التي لم تقطع . ان عادة الزواج من الخارج شائعة لدى الهوتنتوت . فإذا أراد أحدهم ان يتزوج اختار زوجته من العشيرة التي لاتنتمي اسرته اليها او من قبيلة غير قبيلته ولدى البوشمان يختار الزوج زوجته من الجماعات المجاورة . (٢)

الموت ومصير الميت - تعتقد قبائل السوازي في جنوبي افريقيا ان الانسان يتركب من جسد ونفس مترددة . ولا بد من تجيل كليهما بعد الموت . ولا سيما اذا كان صاحبها من الرؤساء ولذلك تحفظ أجسادهم . وتوضع جثة الملكة في كفن من جلد ثور اسود والموت في نظرهم عرض من أعراض الضعف في اسرة الميت يضطر الى مراعاة حداد طويل . وفي غربي الكامرون يبقى الميت في مسكنه وعندما يتحلل جسده تنتزع جمجمته اذ يزعمون انها مقر الروح فتوضع في مسكن الاسرة او تدفن على عمق قليل من سطح الارض ، وتحفظ الاسرة بهذه الجمائح لاستشارتها في المرض وفي الشدائد ويقدمون لها الشراب والطعام ويقم بعضهم بيوتاً في الغابات لتأوي اليها الارواح التائهة . والمرء في هذه الشعوب يرى نفسه بين عاملين شديدين : عامل الرغبة القوية في الفوز بالقوى الحيوية التي كانت لابائه والحاجة للاحتماء بها ، وعامل الفرع من سخطها . لهذا حلت قبائل البانتو هذه المشكلة فاجمع رأيا على أكل لحم الميت ليلة ماتمه ثم حرق عظامه . وبهذه الطريقة يفيدون من قواه الحيوية بادماج لحمه في اجسادهم . وفي الوقت نفسه

١ - Basuto

٢ - الديانات في افريقيا السوداء .

يضمثون استحالة عداوته لهم ومن عادة البوشمان دفن الجثة قرب الكوخ بوضع النائم على جنبه وتدفن جميع ممتلكات الميت معه . ثم توضع حجارة على القبر خشية ان تأكل الحيوانات الجثة . ثم ينتقلون من ذلك المحل ولا يعودون اليه قبل انقضاء عامين .

الالهة - للهوتنتوت ثلاثة الهة وهي (يوتكسو^(١)) و (تسوي جواب^(٢)) و (هتسي ابيني^(٣)) وللبانتو في جنوبي افريقية الاهان وهما (موريمو^(٤)) و (ام كلومكولو^(٥)) وزعم بعض العلماء ان (تسوي جواب) يمثل القمر ولكن انصار نظرية التأليه من العلماء يعتبرونه الكائن الاعلى للهوتنتوت . ان اعتقاد البوشمان بالكائن الاعلى ينجلي بوصفهم اياه باوصاف تدل على مقامه كالهـ خالق السماء والنجوم والنور والحيوان ومنزل الغيث ومطلق الصاعقة ولا يرى الخ . اما اله الهوتنتوت فيسكن السماء وهو احد اباطهم القدامى . جرح في ركبتيه في احدى الحروب ، يلقبونه بالرسول الاكبر . وله رسول بينهم يعرف باسم الساق ، ولا يؤدون له فروض العبادة ويعترف الاقزام باله عظيم الشأن بعيد كل البعد عن الناس ولا يعنيه شيء يتقربون اليه ببواكير صيدهم وبسائر فاكهتهم ولقبيلة (داماره) في جنوبي افريقيا اله خالق يسكن فيما وراء النجوم حيث يأوي الى الموتى ظلال الاشجار . ويصفونه بانه امهر الصيادين . وفي غربي الكامرون يسمى الكائن الاعلى (نيامي) اسمه شائع بلهجات مختلفة في افريقيا الغربية والوسطى وخاصة في حوض الكونجو من هريرو الى الكامرون ، خلق الارض ولهذا ظن الناس انه يعيش في باطنها الى جانب الموتى ويقول اخرون انه يحيا في اعلى عليين وراء القمر او فيما وراء طبقات السماء ويزعمون انه هبط الى الارض

Utikxo - ١

Tsui-goab - ٢

Hetsi-ibibi - ٣

Morimo - ٤

Umkulu-Mkulu - ٥

على نسيج العنكبوت حاملا الرجل والمرأة ليسكنها الارض . وهو البصير ولا يستطيع احد ان يصل الى مقامه . واذا ظهر الهلال رفع الداعي اكفه بالضراعة اليه قائلا : « اني لست من عبادك الجشعين » ويعللون اعتزال اله السماء وابتعاده عن الناس بانهم عصوه بقتل الحيوان وسرقة النار ولما كان قادراً على كل شيء فهو مكثف بذاته لا يحتاج لاحد ولا يذكره الناس الا قليلا .

ويمثل بعض قبائل البانتو الكائن الاعلى في جنوبي افريقيا باكوام الحجارة المنتشرة على الطرق واذا مر الزولوبها رمى حجره فوقها تبركاً . والكائن الاعلى تيلو^(١) لدى قبائل البانتو الجنوبية يمثل السماء وهر السماء والكائن السماوي المسيطر على الظاهرات الجوية : الغيث والصاعقة والرعد والبرق وعند قبائل البانتو الشرقية في كينيا في منطقة البحيرات اسم الكائن الاعلى (مولونجو^(٢)) مسكنه السماء ويعتقد الناس بانه ينزل المصائب عليهم : الجفاف والمجاعة والابوثة وهو المسيطر على الظاهرات الجوية . لهذا حينما يدمدم الرعد يقولون « مولونجو يتكلم » ويعتقد اهل كينيا ان لهذا الاله اربعة عروش يقع احدها على قمة جبل كينيا وهو قادر على كل شيء وحاضر في كل مكان . ولا يعبد الا فيما ندر . ولكنهم يذكرونه كثيراً . وهناك الهة ثانوية عند البانتو وقبائل جنوبي افريقيا الاخرى . تعتبر في الاغلب الهة صيد يقرب اليها جزء من حيوان الصيد وتقدم الجمجمة قرباناً لها . ويزعم البوشيمان ان النجوم والقمر الهة عظيمة تقدم بالصيد والمطر .

Tilo — ١

Mulungo — ٢

دين الشعوب في افريقيا الاستوائية - ان الغابات الاستوائية الافريقية تقع في الناحية الغربية من افريقيا وتغطي النباتات الضخمة الكثيفة الاقليم الذي تجري فيه روافد نهر الكونجو الشمالية وكذلك الاقليم الواقع حول الاجزاء السفلى لروافده الجنوبية . وتمتد محاذية لضفاف خليج غينية حتى جامبيا . والقبائل التي تسكن هذه الغابات - ما عدا الاقزام - اهمها قبائل (بوشنجي) وقبائل (بولوكي) في حوض الكونجو وقبائل (يورويا) في غاناه وقبائل اشانتي في ساحل الذهب . ان سكان غاناه زنوج حقيقيون بينما سكان حوض الكونجو ينتمون في الاصل الى البانتو والمناطق التي تغطيها الغابات مع عدد من الجماعات المستقلة كاشانتي وداهومي وبورويا .

اعتقاد هذه القبائل بالارواح والموت - تعتقد قبائل اشانتي باربعة عناصر روحية : الدم الذي ينتقل من الام ، ونفس تنحدر من الاب بعد موته . والنفس الالهية تأتي من الاله وتعود اليه ، والاخيرة نفس الطباع او الشخصية الخلقية . وتزعم ان شخصية الصبي لا تتحقق الا بعد بلوغه سن المراهقة . اما قبل ذلك فالاطفال لا ينتسبون الى هذا العالم ولا يمكن ان ينسب اليهم خير او شر . اما قبائل يورويا فتميز ثلاث انفس من بينها نفس تسمى نفس الطير . تفارق الجسد في النوم . يمكن اقتناصها بالسحر . اما قبيلة (ابوي) التي تسكن المنطقة الواقعة شرقي قبائل يورويا فتمتد بان للرجل قريناً يتبع طبعه وحظه . واما قبائل (ايوه) في جنوب توجولاند فتمتد في نفسين هما روح الحياة وروح الموت تعرج الاولى الى السماء وتهبط الاخرى الى الارض وراء نهر عريض حيث منازل الموتى موطن الزمهرير والكتابة . وتعتقد قبائل (الفون) في داهومي ان لكل

كائن انساناً او حيواناً او نباتاً اربع انفس : نفس شفافة ونفس كثيفة ونفس غير مرئية التي اذا انفصلت عن الجسد حدث الموت . ونفس كاملة وهي التي تحل في جسد اخر حينما يموت الانسان والنفس الشفافة لا تستيقظ في المرأة الا بعد زواجها . اما الاعتقاد بالموت وعالم الموتى فيختلف باختلاف المناطق وتعتقد قبائل اسانتي ان روح الميت تذهب الى بلد الارواح الذي يشبه الى حد ما عالم الارض وتزعم قبائل ايوه ان الموتى يعيشون في باطن الارض او في قرص الشمس وقد تترأى اشباحها للحياء والذي يموت قبل اوانه (بفعل ساحر) يستطيع ان يتقمص جسد انسان او جسد حيوان . ومن المعتقدات الشائعة ان الاموات يظنون محافظين على مركزهم الاجتماعي الذي كانوا يتمتعون به في الحياة الدنيا . ولا بد ان يكون للعظماء عبيد وزوجات واتباع كل حسب مركزه مما ادى الى تقديم القرابين البشرية . وكان فيما مضى يذبح عدة اناس حين يموت الملك لكي يخدموه في عالم الاموات . مما يدل على عبادة الاجداد التي تتطلب من الناس نحر ضحايا بشرية لارواح السلف من الملوك . ويدفن الموتى في مكان يسمى غابة الاشباح ثم تنحرق شاة ويصب الخمر قرباناً للميت . وبعد الفراغ من ذلك يوضع نبات متسلق على الطريق ليحول دون مطاردة الموتى للناس . ورغم كل ذلك فالموتى لا يحجزون . بل انهم قريبون من الاحياء حتى ان الاحياء قبل كل طعام يضعون للموتى قليلاً من الحبوب ويصبون قطرات من الشراب الى جانب باسم الموتى . ولا ينظفون الصحون من فضلات الطعام بعد العشاء ويتركونها لارواح الموتى واذا اهل الاحياء واجباتهم نحو موتاهم انتشر المرض بينهم وحلت بهم المصائب . وتعتقد قبائل البولوكي وهي من القبائل البدائية في حوض الكونجوجو بان الموت يحل بالانسان بارادة الإله او بفعل ساحر او بفعل الانسان نفسه . فاذا غرق رجل بسبب غرق قاربه اثناء عاصفة فان الموت هنا من عمل ساحر لانهم يزعمون ان الحيوان لا يتعرض للقارب الا اذا دفعته الى ذلك روح شريرة . وعلى الكائن ان يكشف عن سبب الموت . فاذا قرر انه بسبب سحر ساحر ينبغي حينئذ معرفة المجرم . واذا كان الميت ذا مكانة تزين جثته وتكسى بالملابس

الجميلة ويثبتونها بوضع اقرب ما يكون الى الوضع الطبيعي . واذا كان من الفقراء فيكفي بلف الجثة بحصير . ويحفر القبر في البيت وتدفن الجثة خلال ثلاثة ايام وكانت العادة قبلا قتل اثنين من العبيد توضع جثة احدهما عند رأس الميت وتوضع جثة الآخر عند قدميه . وكذلك يأتون بزوجة احد الاقارب فيدفنونها مع جثة الميت اذا كان من الوجهاء ويعتقد البولوكي ان هناك مكاناً في بقعة ما من الارض تذهب اليه ارواح الموتى ويزعمون ان الحياة فيها لا تختلف عن حياة هذه الدنيا .

السحر والعرافة في جنوبي افريقيا وفي وسطها . - ان السحر والعرافة شائعان عند قبائل البانتو وقبيلة الهوتنتوت . ويعتقد الناس بان السحرة والعرافين يمتازون بقوة خارقة وهبتهم القدرة على مزاولة السحر والتطبيب والكهانة ، والكهانة عندهم خاصة بطبيعة معينة لا ينتمي اليها احد الا بعد اجتياز مراسم خاصة ويستمد السحرة قوتهم في السحر من ارواح الاجداد يتوسلون اليها بان تقدم بقوة من عندها وينشدون ويرقصون ويأخذهم الوجد . فيسقطون على الارض مغشياً عليهم وقد يؤدي ذلك الى الموت ومن واجبات السحرة مداواة الجرحى ومعالجة لدغ الثعابين والتاس النصر في القتال وانزال المطر . اما واجبات الكهنة فازالة السحر المضر والطلاسم ويعتقد البولوكي بان الساحر والكاهن او المطب يستطيع الاتصال بالارواح ومخاطبتها كما يعتقدون بانه يستطيع فعلاً رؤية الارواح التي فارقت اجسادها ويعيش الناس في فزع الارواح . ولا شيء يجعلهم في منجاة من اذاها غير ايمانهم بالساحر الذي يتحكم في الارواح الى حد القضاء عليها . لهذا لا يتردد الناس في تنفيذ ما يأمر به الساحر عن طيبة خاطر فيقطع جلده ويمتنع عما يجرمه الساحر باسم الآلهة ويدفع مقابل ذلك اجراً باهظاً .

وهناك اناس تخصصوا باعمال السحر يعرفون باسم المطبين او ممارسي الطب عن طريق السحر ويلقن هؤلاء علومهم الى اتباعهم الذين يكونون في الاغلب ابناءهم ويمارس الطب عن طريق السحر الرجال والنساء على السواء . ويمارس

هؤلاء السحر الاسود اي السحر الضار . والسحر الابيض الذي يعالج المرضى بالادواء ويطرد الارواح الخبيثة حتى يزول المرض والنحس . بينما يمارس السحر الاسود لتسليط الارواح الخبيثة على شخص بغية اصابته بالامراض والمصائب ومن اختصاص السحرة معرفة اسباب المرض ومعرفة علاجه وحماية الناس من شرور الارواح الخبيثة بالتعاون والطلاسم والاحجبة والتائم والتعاويد من الامور التي يعتقدون بانها تجلب البركة . والطلاسم هي الاشياء التي تجلب لحاملها البركة والسعد . والاحجبة تحمي حاملها من الشر اما التائم فمواد من اي نوع كان قد تكون صوراً او قرن حيوان او صدفة من الاصداف او اثناء تنسب اليها قوة خارقة اكتسبتها بسحر اودعه الساحر اياها .

ويعتقد البولوكي ان الارواح الخبيثة على استعداد للاضرار بالناس ، ولا يدخل احدهم الغابة بعد غروب الشمس خوفاً من اذاها ، ولا يقل عن ذلك خوفهم من الارواح التي تتقمص الاجساد (١) .

ومما يدل على آثار الطوطمية في تلك القبائل ان اليوروبا والغرن في داهومي والاشانتي يعتقدون ان هناك صلة وثيقة بين الانسان والحيوان لانها تزعم ان لكل انسان شبيهاً وقريباً من الحيوان . فاذا قتل حيوان ، قتل في الوقت نفسه قرينه . وتصور قبائل الاشانتي ان لبعض الحيوان كالفيل والوعل روحاً خبيثة فاذا قتلها الصياد يقتضى ان يؤدي مراسم الجنائز تسكيناً لغضبها ، ويحرم الاشانتي والغرن قتل الافعى لانه مقدس . وتسمي بعض قبائل يوروبا نفسها بالكبش او الفيل او القرد . وتجعل لاجداد العشيرة صلة بحيوان معين وزعمت الاسرة الحاكمة في داهومي انها انحدرت من اميرة واقعها نمر ، فاصبح النمر شعار الاسرة الحاكمة . ووشم افراد القبيلة اجسادهم بوشم صورة النمر .

الدين - في اواسط افريقيا وافريقيا الغربية . - نعي باواسط افريقيا من حيث الدين اعالي النيل وشمالى حوض نهر النيجر . ومن اهم القبائل الساكنة في هذه المنطقة قبائل الدنكا وقبائل اوبانجي وقبائل شارى وقبائل اخرى من السودان في جنوبي السودان وفي السودان الافرنسية ولهذه القبائل معتقدات بالروح والنفس مما يدل على آثار الروحية . تزعم قبائل سارا الساكنة في اطراف بحيرة تشاد ان الروح تنطلق الى جهة الغرب بعد الموت ولكنها تبقى في الوقت نفسه الى جانب قبر صاحبها وتستقر في الاوعية الجنازية التي ترسم عليها وجوه الرجال والنساء . وتعتقد قبائل اوبانجي بان النفس الادمية تتركب من قوتين الاولى متحركة طاغية وشهوانية . والاخرى ساكنة راسخة تحد من طغيان الاولى وتحدث التوازن في طبيعة الانسان . وتنطلق النفوس اثناء النوم الى شبيهاتها من الانفس فترقص وتعبث وتزواج بيد انها قد تقع حينئذ فريسة لارواح الموتى فتحاول الهرب والعودة الى جسد صاحبها فينقبض في نومه كرباً وضيقاً، اما اذا وقعت اسيرة في قبضة الارواح الاخرى فان صاحبها يموت . فان اصابها جرح اصيب صاحبها بمرض . وتعتقد السارا بان روح جد الاسرة تحل في احد احفاده . ومن معتقدات الاوبانجي ان ارواح الموتى تظل في المكان الذي مات فيه الشخص فاذا مات غرقاً ظلت روحه في ضفة النهر ، وترى قبائل الدنكا في اعالي النيل ان الموتى يفقدون قواهم كلما تقادم عليهم الزمن . الا انهم يعوضون عن ذلك برفع مراتبهم في عالم الاموات بفضل قدمهم . ومن معتقدات النوير في اعالي النيل ان من يموت في الادغال او تقتله الصاعقة ينال مرتبة ممتازة اذ تخرج روحه الى السماء وتسلط على الاحياء ويعتقد الاوبانجي ان لكل شجرة روحاً .

ومما يدل على الوثنية في تقديس قبائل (كوتوكو) في اطراف بحيرة تشاد - رغم اسلامها بعض انواع الصخور بالاشكال الكروية او المستديرة . ومن مقتضيات مراسم التتويج عندها جلوس الملك على حجر منها اعلاناً عن اعتلائه العرش . اما قبائل (كردى) فتعتقد بان في بعض الصخور حياة لانها حارة الممس في الليل وان لها قدرة الانتقال من مكان الى آخر حينما يحل الظلام . فإذا رآها احد وحاول الهرب منها فانها تطارده لتقتله . وتقصد النصب في هذه المنطقة . ويوجه اليها الدعاء اعتقاداً بانها مستقر النفوس . فالسارا مثلاً يعتقدون بأن سندان الحداد له روح وانه ينتقم ممن يؤذي الحداد . ويعتقد الاوانجي ان الارض هي الاب الاول للبشر . ويكاد اسمها يكون عندهم مرادفاً لاسم (ستو - ^(١)) بطل حضارتهم ويعتبرون قوس القزح والضباب الهين يرمز اليهما بكبش او افعى او ضفدع . والرياح إله لان له صوت باطني ^(٢) .

الاقزام في افريقيا - لفت الاب (شمت - Schmidt) في بحوثه عن اقزام آسيا وافريقيا سنة ١٩١٠ الانظار الى اتنولوجية الاقزام واعتبرهم يمثلون اقدم سلالات الجنس البشري وسنكتفي في هذه الحالة بذكر ما توصل اليه من معلومات عن اقزام (الايتيري - ^(٣)) وللاقزام كائن اعلى يسمونه (مونجو - ^(٤)) وآخرون يسمونه (توره - ^(٥)) ويزعمون بانه كوّن جميع الاشياء . وكل شيء يرجع اليه ، ولهذا تقدم له الضحايا وبكر المحصولات . ويرى توره كل شيء ويحس بكل شيء . ويلتمس الاقزام من كائنهم الاعلى (مونجو) الفوز بالصيد . فيتضرعون اليه قائلين (ابي ، صدي) ، ولا يؤكل بكر الثمار قبل ان تطرح في الغابة باسم مونجو ، ويقول القزم حين يطرحه : (مونجو ، هذا لك) ، ويخصص

Seto - ١

٢ - الديانات في افريقيا السوداء

Itiri - ٣

Mungu - ٤

Tore - ٥

بكر المحصول له ، لانه خلق اشجار الفاكهة وساعد على نضوج ثمرتها . وفي بعض القرى الفقيرة لا يقدم الناس بكر الصيد الا فيما ندر ذلك لان الكائن الاعلى يعلم برحمته ان الاقزام فقراء .

لقد شاهد الاب (سكبستا - Chebesta) ان للاقزام اعتقاداً بنفوس تستطيع فعل الشر فاذا وجد الشخص في الغابة واصابه فزع اسندوا هذا الحادث الى انه صادف روحاً . فاذا عاد القزم الى داره اشعل النار لطرد النفس الشريرة . ويسمى اقزام (بافوا جوده - (١)) النفس (بوخيا - (٢)) ويعتقدون بان الروح تترك الجسد بالموت ، وتخرج الروح من الانف وتذهب الى الغابة ، ويرون كثيراً من الارواح تحيط بالموتى ، فاذا كان الميت في حياته شريراً سارقاً او قاتلاً فان روحه تذهب الى النار الواقعة تحت الارض . اما الاخيار فيذهبون تواء الى (مونجو) ورغم هذا الاعتقاد فان الاقزام ليست لهم فكرة واضحة عن العالم الآخر . ويفرق الاقزام بين العمل الحسن والعمل السيئ ومن الاعمال السيئة القتل والسرقة والحسة ولعن الاولاد واضرار الناس بالسحر الاسود . ومن يضرب اباه وامه ومن يطلق زوجته ومن له علاقة جنسية ببنت عشيرته فهو (تابو) ولم يتمكن سكيبيستا التأكيد مما اذا كان هذا التحريم بامر مونجو . ولعل الاعتقاد بان الاخيار يذهبون اليه بعد الموت ، وان الاشرار يعاقبون بالموت ، مما يحمل على الظن بان هناك صلة بين احكام الاخلاق والكائن الاعلى الذي يعاقب من يرتكب ذنباً ، ومن روايات الاقزام ان اربعة اولاد قتلوا اباهم ففوجئوا بهبوب عاصفة شديدة في الغابة لا قوا حتفهم من جرائها . وبعد ان هدأت العاصفة ظهر قوس القزح الذي يرمزون به الى الكائن الاعلى . ومنذ ذلك الوقت يخشى الاقزام قوس القزح ، ومن معتقداتهم ان توره يعاقب الاشرار ويسلط عليهم الموت بواسطة السحرة لان الساحر مخلوق توره . واذا قتل الناس بسحره فبأمر توره . ويستخدم توره ايضاً لمعاقبة الاشرار . وهو الذي يمت البشر . وينسب الاقزام قوة مؤثرة

Bafwaguda - ١

Bukhema - ٢

للرقيات ولا سيما التي تخص الصيد ولعلمهم اقتبسوا ذلك من الزوج الذين اتصلوا بهم كثيراً . والسحر والتطبيب عند الأقزام شيء واحد ، وهم لا يهابون الموت ويضعون فوق القبور تقدمات وسلاح . ويظن ان التقدمات للموتى عادة اقتبسوها من الزوج .

وقد وجد الاب سكيستا آثار الطوطمية لدى جميع الاقزام الذين زارهم وان كانت ضعيفة ، وتختلف كثيراً عن طوطمية الاوستراليين ، ويرى أنهم اقتبسوها من الزوج الذين اتصلوا بهم باستمرار . ويظن ان ليس لطوطمية الأقزام طابع ديني ، وإن عادة الحتان التي يطبقونها في حفلات الارشاد (الاطلاع على الاسرار) لا بد انهم اقتبسوها من الزوج . ووجد سكيستا عند أقزام الجايون علماً بخلقة الكون ، يعزونها الى الكائن الأعلى . ويشيرون الى ذلك بقولهم (قال الكائن الأعلى ، فكان ما قاله .) وعندما يرى القزم قوس القزح يتحتم عليه ان يترك عمله ويأخذ قوسه الصغير ويرفعه الى السماء وينشد الأنشودة التالية :

(ايها القوس قزح ، انت الذي تسطع هكذا في الأعلى ، هكذا في الأعلى ، فوق الغابة ، على الغابة الكبيرة ، بين السحاب المدلهم وتقسم السماء المظلمة ، انت الغالب في المعركة ، وانت الذي تغلبت على الرعد ، على الرعد الغاضب ... (١))

دين الشعوب في افريقيا الغربية : نقصد بأفريقيا الغربية من حيث الدين ، المنطقة التي تتألف من نيجيرية وغانة وداهو وتوجولاند وساحل الذهب وساحل العاج وجمهورية ليبيرية وغيانية . ان أهل هذه البلاد زوج حقيقيون . والشعوب في هذه المنطقة تقدمت عندها المفاهيم الدينية وانتشرت فيها الوثنية . وكان لها تشكيلات دينية من المعابد والكهنة ... الخ . ومع ذلك فان آثار الروحية وبعض اثار الطوطمية ما زالت موجودة وقد انتشر الاسلام في الأطراف الشمالية منها .

الاعتقاد بالروح والنفس : - تسمى قبائل (دوجون) القوة الحيوية باسم (نياما - ^(١)) وهي قوة مخترنة في دم الشخص الحي ومظاهرها الحياة والحركة والكلام . وصفها احد العلماء بأنها طاقة دائمة لا شعورية . موزعة بين الحيوان والنبات والأشياء التي تعمر أرجاء الطبيعة . وظيفتها صيانة الجسد . وهي إما موقوتة فيه فيتعرض للموت ، او دائمة فيكتب له الخلود . ووصفتها السيدة (ديترلن - Dieterlen) بما يلي . - (ان القوة الحيوية نياما لها قدرة الانتقال من مكان الى مكان . وانها قابلة للتجزء وقابلة للتغير كما وكيفاً . وانها سريعة التأثير بشوائب النقص فتنتقل هذه الشوائب الى جسم صاحبها . فاذا انفصلت عن جسدها المعتاد اصبحت قوة خطيرة يخشى شرها ^(٢) . والنياما قوة تنتقل بالوراثة من الأب الى ولده وتتضاعف في أثناء الحمل بالنياما الموروثة عن احد الوتئ من ذوي القربى . اما النياما عند قبائل (مندنج - ^(٣)) والكيلى - ^(٤)) وقبائل (بامبارا) فهي عبارة عن تيارات ضارة تصيب الانسان وتلتصق به . ويتطلب التطهر والبراء منها أدعية طويلة معقدة . اما قبائل (ببارا - ^(٥)) فتعتقد بوجود نسمة مزدوجة لكل انسان ، اولاً النفس (في - Ni) وثانياً القرين (ديا - Dya) وتعتقد ان الطماطم إذا امتصتها المرأة كونت في بطنها رخواً يحيله الاتصال الجنسي إلى كائن حي . وهذا الكائن الحي يرث كلتا النفسين من آخر من يموت من الجماعة . ونسمة (ني) تطلق على الزفير والشهيق وهي التي تنطلق عندما ينام الانسان . اما (ديا) فهي قرين الانسان فان كان ذكراً فقرينه انثى وبالعكس . وهي الظل الذي يمتد على الارض والخيال الذي ينعكس على صفحة الماء . وللانسان وراء ذلك خليقتان هما (تيره - Tere) و (وانزو - Wanzo) اما تيره فهو الطبع الذي يفسد عندما يرتكب محرماً ويمكن أن تصبح تيرة قوة

Nyama - ١

٢ - الديانات في أفريقيا السوداء .

Mending - ٣

Kele - ٤

Banbara - ٥

مستقلة خطيرة نياما. واما وانتزو فيعبر عنها بالشر الغريزي وهذه يمكن التطهر منها في حفلات دينية خاصة . حفلات التلقين والارشاد والأطلاع على الأسرار والدم عندهم هو حامل الخصائص الروحية وناقلها . وللبصاق ايضاً عندهم قوة روحية . وعندما يموت الشخص تنفصم عنه نفسه فتذهب ديا الى الماء وتلتحق بالهة الماء . واما في فتحل في محراب الاسرة ، وتعتقد قبائل دوجون ان العنصر غير المتجسد في الانسان مركب من (خيال عاقل) يسكن الجسد وهو الذي يفارقه في النوم . ثم من (خيال غير عاقل) وهو الظل المادي . ثم من القوة الحيوية نياما . فالموت يطلق الظل الاول فيتجه للاتصال بالآلهة بعد رحلات طويلة . اما النياما فتفارق الجسد عن طريق الشعر . وتعتقد قبائل مندنج ان لكل انسان صورة او ظل (دا - Da) وله نسمة حية في تصعد الى السماء بعد الموت . واما دا فتظل في بيت الميت الى ان تتم مراسم الجنائزاة ثم تغادره وتظل هائمة على وجهها زهاء خمسين عاماً . تزور فيها مواطنها الاولى ثم تعود للحاق بالنسمة في . وقبائل لوبي ايضاً تعتقد بوجود عنصرين أحدهما الظل او الصورة او القرين والنسمة التي هي الحياة وبوصفها الكبد وعندما يموت الشخص يظل قرينه مع جسده مع تغير قليل فاذا تمت مراسم الجنائزاة انطلق الى العالم الآخر .

وتزعم قبائل الدوجون ان الروح تقيم في مسكن الميت حتى حفلة الذكرى الثانية للوفاة . فاذا تمت المراسم تنتقل الى خارج القرية حيث تسرح وتمرح وتزور مراع آبائها وامهاتها . ثم تعود الى حضيرة الاسرة فتمنح قواها الحيوية نياما الى مولود جديد فيها . فتضمن للقبيلة بذلك الاستمرار والبقاء . وأخيراً تتجه الى الشمال الى الجنة . (مانجا - Manga) حيث تتمتع بالخلود تحت ظلال الاشجار والنسيم العليل . أما قبائل البمبارة فتعتقد بان الروح تتقمص طفلاً يسمى باسم سلفه ويحمل كنيته وشعاره .

مراسم الجنائزاة والقرايين :- يرتبط الاحياء بموتاهم في الاسرة والقبيلة برباط وثيق من الواجبات فيجب عليهم قبل كل شيء ان يؤدوا مراسم الجنائزاة ليسهلوا للموتى رحلتهم الشاقة الى دار الآخرة . كما يجب عليهم ان

يقربوا القرابين وينحروا الضحايا حتى ينال الاحياء حماية موتاهم ويفوزوا برضائهم وحتى يتحاشوا غضبهم ولعناتهم . ثم يصونوا القوى الحيوية للموتى انفسهم . ان مراسم الجنازة لدى قبائل الدوجون طويلة ومعقدة . تبدأ بان يقدم القناع الكبير وهو رئيس السحرة والكائن الاعظم والطبيب الاكبر في القبيلة - بزيارة الميت . ثم تتجمع نسوة القبيلة حول مسكن الفقيد يولولن وينسدين . ويقوم رجال مسلحون باشغال سطح البيت . ثم تتلى تراويل بلغة سرية . ويشترك الجميع في الرقص وفي حركات تشبه المبارزة او مطاردة الصيد ثم يحمل جثث الميت ويدور به المشيعون يمنة ويسرة واخيراً ترفع الجثة لتوارى في مغارة منقورة في الصخر . وبعد ايام تبدأ مراسم الجنازة الثانية تحقيقاً للرحلة الابدية من هذه الدنيا . وينصب عادة محراب لكل ميت في بيت الاسرة الاصلي . ويكون نحر الاضاحي سنوياً من بشائر المحصول الجديد . فاذا اكرم الاحياء موتاهم اسبغ هؤلاء عليهم قواهم مقابل التكريم .

وفي قبائل البمباره توجد جمعية دينية لها سلطات روحية واسعة ، هي التي تباشر المراسم الجنازية . فيحرس الميت زملاؤه في الرتبة والسن ويحملونه الى مقره الاخير . ثم يناشده رئيس الجمعية قائلاً : - (اتوسل اليك الا تؤذينا ، فدعنا نعيش في سلام ووثام ليكن زرعنا نامياً ومحصولنا وقيراً . وامنحنا بركاتك ، فقد ادينا لك جميع حقوقك ونحرننا لك الضحايا .) ثم تذبح الذبيحة ويسكب دمها في القبر . ثم تحرق بعض ممتلكات الميت (السرير والحصير والمشط والشعر) ويوضع رمادها داخل القبر لتلحق به في الدار الآخرة وفي ساحل غينية يدفن مع الميت طعام وتبغ وافاويه وحلى من الفضة ويتقربون لالهة الارض بصب الخمر على الارض قبل حفر القبر . واما قبائل (منده) في سيراليون فانها تعيش في وثام مع ارواح الموتى وتتخذ منها الحماية والهداية ولكن بعض الموتى المعروفين بالشر في حياتهم والذين لا تقبل ارواحهم في مستقر الاموات . تعود ارواحهم الى المساكن وتداب على تهديد السكان واشاعة الفرع في نفوسهم وكذلك تصنع ارواح الموتى الذين يهمل اهلهم ان يدفنوا معهم

فضة وثماراً تكرمه لهم عند قدومهم للأخرة ليستعينوا بها على اقامة بيت لهم منها .

اثار الطوطمية - يقول الدوجون ان الحيوان قرين الانسان . - ويقابل كل جد من اجدادهم الثانية جد سماوي يشترك مع هذا الجد في الروح . وبذلك يستطيع ان يظهر في هيئة قرينه من الحيوان وكلما ولد مولود ولد معه صنوه من الحيوان الذي كان يعيش مع الاجداد وصنو آخر من الحيوان المقابل له ومن معتقداتهم ان اجدادهم تحولوا الى افاعي . اما الكباش في نظرهم فسخ تحولت اليه وتجددت فيه جنية الماء . وهم يمثلونه حاملاً بين قرنيه يقطينة تمثل قرص الشمس . وللحيوان في عرف البمبارة نفسان : - ني وديا مثله مثل الانسان العاقل . فاذا قتل صيداً تطارده روح تلك الفريسة في انحاء الغابة لتنتقم منه . ولذلك يجب على الصياد ان يؤدي مراسم خاصة قبل ان يقتنص فريسته ولكل اسرة قريب او نسيب من الحيوان يحرم عليها اكله والحدادون لهم قدرة على التحول الى ما يشاؤون من انواع الحيوان . وتزعم قبائل مندنج انها تحمى بعض الحيوان كالافعى والتمساح والحرباء والسلفحاة والثعبان والحيوان الخطر يحرم عليهم النطق باسمه ولذلك يسمون التمساح ظيباً . وتتركز نياما الحيوان المقتول في جزء من جثته كالاذن او الذنب او الشارب او الخالب . فاذا قتل الحيوان اصبح ذلك الجزء قوة تستغل في اغراض السحر . وتصور قبيلة المانجا صلتها بالحيوان في تماثيل مختلفة . فيتحدثون تارة عن ان احدى نساء العشيرة في الماضي السحيق انجبت حيواناً وتارة ان صيادهم القدماء استطاعوا مؤاخاة اصل هذا الحيوان وفي ساحل غينية يعتقد الناس ان كل الاشجار لها ارواح فاذا قطعت وجب تقديم القرابين لاسترضائها . ويوجد المعتقد نفسه عند قبائل الاوبانجي . وتعتقد المانجا والباندا في شمالي نهر الكونجو ان اكل نوع من الشجر جنية . فاذا قطع غصن منها ووضع الى جانب محراب جاءت الجنية للاقامة فيه . ان اكثر مواد السحر مأخوذة من خشب الاشجار وافرازها ومسحوق النبات لان القوة الكامنة فيها عظيمة . ذكرنا فيما سبق مجمل معتقدات الشعوب المتوحشة في افريقيا في مختلف

جهاتها وقد تبين لنا ان الشعوب المذكورة يكاد جميعها يعتقد في النفوس وفي قوتها واشتراكها في حياة الانسان . وتراءت لنا آثار الروحية بارزة فيها . وكان من الطبيعي ان يكون لسوتى وللآجداد والاسلاف حرمة لدى الناس وتكون في بعض الجهات موضوع عبادة بالتوسل اليها وتقديم القرابين باسمها ، هذا الى بعض آثار الطوطمية سواء في اعتقادها بالحيوانات والنباتات او بتبجيلها لبعض الاحجار والصخور . وهناك بعض المظاهر الدينية تكاد تكون شائعة لديها على اختلاف تأخرها في الحضارة او تقدمها مما يدل على عبادة الطبيعة نذكرها كما يلي :

عبادة الارض: سبق ان اشرنا الى ان الزنوج جميعاً وقسماً من البانتويزاولون مهنة الزراعة وكانت الارض لدى جميع الشعوب الزراعية موضع تقديس واحترام وقد ألهها كثير من الشعوب وعبدها باسم الآلهة الأم لهذا لا غرابة اذا رأينا ان الزنوج جعلوا الارض موضع تقديس وعبادة . وبما ان كل قبيلة تملك قطعة من الأرض فانها تتحالف معها . وبذلك يصبح اتحاد بين القبيلة والارض الخاصة بها . والتحالف يتم بين القبيلة والروح التي استقرت في تلك القطعة من الأرض . ففي شمال ساحل الذهب مثلاً يعتبر الناس الارض المعبود الرئيسي . ويزعمون انها تشمئز من إراقة الدماء عليها . فإذا قتل انسان سارعوا الى إقامة الشعائر لتجنب غضبها والتماس رضائها كيلا تحل المصائب بالقبيلة . ولهذا تقدم القرابين وتذبح الأضاحي تكريماً للارض في عيدين . عيد بذر الحبوب وعيد الحصاد . وتقدم قبائل لوبي الساكنة في المنطقة نفسها الحمر والحلوى وحب الذرة الى إلهة الارض التي يمثلها مذبح بشكل مخروطي مبني بالطين ، أقيم الى جانب شجرة عظيمة . فيأتي المذنبون الذين ارتكبوا المحرمات كالسرقة والقتل والزنا ويعلنون توبتهم ويلتمسون التكفير عن خطيئتهم وإلا عزفت الارض عن ابتلاع ماء المطر فيبور الزرع .

وتزعم قبائل (ايبو) في نيجيرية ان الأرض هي سيدة الكائنات الساكنة في باطنها ومالكة للأحياء والأموات فيها . فالقتل وسرقة الغلة والزنا وولادة

توأم وولادة مولود شاذ الحلقة تعداهانة لها . اما قبائل الأوبانجي فتعتقد بأن الأرض هي الأب الاول للانسان .

فكما أن للأرض شأناً عند الشعوب الزراعية فكذلك للماء شأن إذ بدونه لا ينمو الزرع ولا ينضج ، لذلك تقديس قبائل لوبي النهر وماءه ، وتزعم ان الجنس الأبيض يسكن مياه الأنهار . اما القبائل التي تزاول الزراعة وتسكن في المناطق الجافة كالدوجون والبماره فتعظم إله الماء والأنهار كثيراً ، فاذا فاض النهر سارعت قبيلة (منده) في سيراليون الى تقديم القرابين له . ضارعين اليه ان يروي اراضيهم وتزعم قبائل (بامون وباملكه) ان الصخور العالية تمثل الهة الارض والماء . وتعتقد قبائل البماره بالعناصر الاربعة . الماء والهواء والتراب والنار . كما تعتقد قبائل الدوجون بان الماء مكمل لقوة النار وليس ضدأ لها ، لان النار تحدث بخار الماء الذي يرتفع الى السماء ثم يعود الى الارض بهيئة المطر . وتعتقد بعض عشائر قبائل الدنكا في اعالي النيل ان النار من اجدادهم ، لذلك حرموا اطفاءها ، كما ان بعض العشائر تعتقد ان الماء جدهم .

وتعتبر بلاد الزنوج في افريقيا ساحة الوثنية . ففيها تختلف الاشكال الوثنية وتكون الاوثان صغيرة او كبيرة عامة او خاصة ، يسمي بعضها (جرى جرى Grigri) ويسمى البعض الآخر (يويو - Yuyu) يضاف الى ذلك ان كل قبيلة تسمي اوثانها باسماء مختلفة والاوثان مجالتها البسيطة عبارة عن قطعة حجر او قطعة خشب او قشرة او قوقعة ولكن بعض الاوثان يصنع من الحجارة او الخشب بصورة غليظة من دون ان تبدو فيها آثار الصنعة . وهناك اوثان تمثل صورة بشر برأسه واعضائه فهي اشبه بالاصنام .

الاعتقاد بالكائن الاعلى : - يبدو ان جميع شعوب افريقيا تعتقد بوجود اله متعال ، خالق للكون الا انها تختلف في تقدير سلطانه في امور الدنيا . والفكرة السائدة بينهم هي ان هذا الاله يبعد بعيداً جداً عن العالم بحيث يصعب على الناس الاتصال به . والاحرى ان توجه العبادة الى من دونه من الالهة .
لقد ذكرنا حين البحث عن نظرية التأليه ان أحط القبائل المتوحشة في افريقيا

وهي الهوتنتوت والبوشمان تعتقد بوجود كائن أعلى تسميه (كا آنج - Kaang) يسكن السماء هو خالق الحيوان ومنزل الغيث ومانح الحياة ولا يرى . اما الكائن لدى الهوتنتوت فيدعى (تسوى جواب) ، وكذلك لدى الأقزام فكرة عن الكائن الاعلى رغم انهم أقدم نموذج للبشرية البدائية . ويتضرع أقزام (نكولوتكو) الى الكائن الاعلى (نزامي) وهو بنظرهم خالق السماء والنجوم . اما أقزام (واروه) فيسمون كائنهم (اندجرا) واما أقزام (بوني) في افريقيا الشرقية فيبجلون كائنهم الاعلى باسم (واكا) وهو لا يرى . ويعتقد الاقزام بوجه عام ان الكائن الاعلى بعيد كل البعد عنهم . لا يعنيه شيء ، يتقربون اليه ببواكير الصيد وبشائر الفاكهة . وتسمى قبائل دوجون دائنها الاعلى (آما Amma) وهو الخالق يتضرع الناس اليه في كل مناسبة ويقدمون اسمه على اسم اجدادهم . وتقيم كل اسرة في بيتها مذبحاً باسمه ويقرب رب الاسرة القرابين اليه . وهذه الآلهة كاهنات يتعرضن لأزمات عصبية ، ويزعن ان في قدرتهن الكشف عن الغيب . اما قبائل الببارا فكائنهم الاعلى يسمى (فارو - Faro) ويزعمون انه خلق نفسه من السديم الازلي وصار اله الماء ، ثم تغلب على اله الارض (بيبا - Bemba) ونظم شؤون العالم . طعامه دم الاضاحي والطماطم وحساء الذرة . وهو الذي ينزل الغيث ويمنح البركة . ويسمى هذا الكائن باسماء مختلفة . لدى القبائل التي تسكن على امتداد ساحل خليج غينية . فقبائل اشانتي تسميه نانا وتسميه قبائل ايوه (ناوو - Nawu) وتسميه قبائل يوردبا (اولورن Olorun) وتسميه قبائل ايبو (شوكو - Chuku) ومع انهم يقدسونه ويصفونه بأنه ازلي وخالق الكون ولا نهائي . فيعتقدون بأنه لا يتم بتصريف شؤون العالم ، ويزعمون انه يسكن في السماء ولا تدركه الابصار . وقد اناط بالآلهة الثانوية شؤون الارض . ويفسر اهالي توجولاند ان الناس لوثوا سماءه بأيديهم القذرة لهذا ابتعد عنهم .

وفي غربي الكامرون يسمى الكائن الاعلى باسم (نيامي) وهو الذي خلق الارض لهذا يظن بعض الناس انه يسكن في اعلى عليين وراء القمر او فيا وراء طبقات السماء . وتؤمن قبائل اوبانجي بان الكائن الاعلى لا تنتاهى رحمته . لهذا

لا يخشونه ولكنهم يتقربون اليه باقوال و اشارات أصبحت تعرف به ، والقربان بعض فقات الطعام يلقي في الغاب . والقسم الاعظم باسمه (السماء ناظرة الى) والكائن الاعلى في كينيا والبحيرات يدعى (مولونجو - Molungo) وهو قادر على كل شيء وحاضر في كل مكان . ولا يتعبدون اليه الا قليلا ولكنهم يذكرونه كثيراً قائلين (حماني الله في ليلتي) وبيده انزال الغيث وقد يثلونه بالشمس . وتمتقد قبائل اعالي النيل بكائن اعلى سماوي وهو الخلاق ومنزل الغيث لا شكل له ولا تدركه الابصار وانما يدرك بالعقل وهو روح العالم مصدر الخير والشر ويتوجهون بدعائهم في اغلب الاحيان الى وسطائه من الآلهة الثانوية . فاذا عجز هؤلاء عن اجابة دعائهم انصرفوا عنها ولجأوا الى الكائن الاعلى في آخر الامر .

الآلهة الثانوية : ان الشعوب الافريقية التي تقدمت في الحضارة تمتدق بآلهة ثانوية الى جانب الكائن الاعلى ، او الآلهة الاعظم . وبينما نرى ان الشعوب الاكثر بدائية كالاقرام والهوتنتوت والبوشمان تكتفي بالاعتقاد بكائن اعلى تتفاوت ملاحظه وضوحاً وغموضاً ولا تفكر بعبادة الهة ثانوية ، يشاهد لدى الشعوب الاخرى اعتقاد بآلهة ثانوية صغرى تزعم ان الكائن الاعلى او كل اليها تصريف شؤون العالم . ويختلف عدد الآلهة هذه تبعاً للبلاد والمقاطعات فالشعوب السودانية في اعالي النيل تجعل اجدادهم الاسطوريين او ابطالهم المؤسسين لحضاراتهم الهة ثانوية . فلدى قبائل (لوبي) مثلاً يوجد عشرون الهة ثانوية يختص كل منها بمهمة كحماية الناس من المرض ومن اللصوص . ومنح العقل والخصوبة ووفرة الغلة .. الخ . ويكثر الاعتقاد بالآلهة الثانوية في خليج غينية . وتختلف اسماءهم باختلاف القبائل . ففي قبائل يوردبا يبلغ عددها اربعمائة تقوم بحماية القرى والعشائر ، اما الآلهة الثانوية لدى قبائل شانتي فصفتهم مائية . ولدى قبائل ايوه صفتهم زراعية . يضاف الى هذه الآلهة (الهة الارض) او (الهة الام) ويعتقد الناس بانها زوج اله السماء ومن الآلهة الثانوية اله الجددي واله الماء واله البحر ، اما في قبائل اوبانجي فيوجد ثلاثة الهة (اله السماء واله العواصف واله للانفس) اما اكثر الهة قبائل البانتو فآلهة صيد يقدمون اليها جزءاً من حيوان الصيد كالجمجمة مثلاً قرباناً لها .

الاعتقاد بالجن: يكاد الاعتقاد بالجن ان يكون عاماً لدى الشعوب المتوحشة في افريقيا ويسمونه (جن الغاب) ومنه ما يصعب تمييزه عن الالهة الثانوية ومنه ما يشبه الانسان والحيوان ولكن بلامح مخيفة ويسمى باسماء مختلفة فقبايل الدوجون تسمى جماعة من الجن باسم (يبان - Yeban) ويتصورونها بهيئة مخلوقات صغيرة الجسد مخيفة ولها رؤوس ضخمة تسكن الكهوف والاجام وقد تحمل منها . وجماعة اخرى تسمى (ادمبولو - Adumbulo) ويزعمون انها خلقت الموت، لها لحى طويلة واجساد ضئيلة . وجماعة ثالثة تسمى (جينان - Gynan) يتميزون عن غيرهم ان لهم ذراعاً واحدة وساقاً واحدة يستقرون في الاشجار ويسببون المرض اما قبائل المندنج يسمونها (وكلوو - Woklo - ou) تتجول حول البيوت لتسرق الطعام . والبمبارا يسمونها (داسيري - Dasiri) تحرس الدور واخرى تحرس الطرق ، ويقدم لها القرابين من فاكهة الكولا او من خيوط القطن للتخلص من شرها . وتزعم قبائل مندة ان لها جانا ينسبء الشخص بما يحدث في الاحلام اذا قدم لها قرباناً . تختلف هيئتها من سلسلة الى صفارة الى اشيب بلحية بيضاء . وفي ساحل الذهب تكثر الجنيات وعفاريت الغاب ، يتصورها الناس باجساد صغيرة ورؤوس كبيرة يكثف الشعر جسدهم وتتصور قبائل الاشانتي الجن ان لها قدماً في اعلى الرأس وساقاً معكوسة ، وكلامها الصغير، يستخدمها المطيبون في معالجة المرض اما قبائل السارا فتعتقد بمرودة تسمى (سو - Su) وتزعم انها عاصرت الكائن الأعلى قبل الحلقة . ويتصور جماعة اخرى من الجن تخشاها النساء خوفاً من ان تعتدي على عفافهن لأنها تستطيع ان تنفذ الى رحمها لهذا تلبس النساء منطقة تتدلى منها قطعة خشب بين الفخذين . اما قبائل اوبانجي فتعتقد بحشد من الجنيات وهي ارواح شريرة تجتمع ليلاً لتغتال نفوس الناس ولها صوت كواء القطط وتستطيع ان تحل في الاجساد ولا تطردها الاحفلات الزار . وتتصور ان جن الماء ابيض اللون تقدم اليه الدجاج الابيض والبيض والذرة^(١) .

١ - الديانات في افريقيا السوداء .

أديان الشعوب المنوحشة

- ١ -

المعابد والعبادة : معابد الزوج بأشكال مختلفة ، وقد تختلف من قبيلة الى أخرى ، فمعابد قبائل الدوجون بعضها دور مربعة الشكل ، مزينة بنقوش وصور رمزية ، وبعضها ذات ابراج عالية ، وبعضها تطل جبهته على حافة صخرة منقورة وصنع في داخلها المحاريب والمذابح ، وهي حجارة مقعرة أو منحروطة الشكل . يضاف الى ذلك ان بيت رب الأسرة نفسه يعتبر معبداً . ولقبائل لوبي مذبح أمام كل بيت ، وقد يكون على سطح البيت . وتوجد عند الأقوام القاطنة في سواحل خليج غينية معابد صغيرة لكل اله . وهناك معابد كبيرة تبنى بالطين وتزين بنقوش مختلفة الالوان . وتوجد مذابح صغيرة في المزارع أو في الغابات المقدسة أو في الاكواخ ويحتوي كل معبد على أدوات متنوعة ففي معبد إله الجددي أنواع من الجلود والعظام وأوراق من شجر معين وتراب من مكان معين . اما في أديرة قبائل اشانتي فتوجد أوانٍ من نحاس أو سلال تحتوي قطعاً من الحجر والاسنان والقرون . وفي أديرة داهومي توجد صور منحوتة لوجوه لا يرفع عنها الستار . ولقبائل أعالي النيل معابد لآلهتهم الثانوية والمعبد عبارة عن كوخ .

اما العبادة فتتلخص بالدعاء وتقديم التقدّمات وذبح الذبائح ، والقربان عبارة

عن صب الخمر على المذبح أو سكب خبيصة الذرة وصبغ المذبح بدم الضحية . والغرض من نحر الضحايا هو استعادة القوى الحيوية . والموت في عرف الدوجون يطلق القوى الحيوية للاموات ويشتمها ويحدث اختلالاً في توازن القوى . وإذا سكر الناس بالشراب وعربدوا واحتفظوا بالقوى الحيوية لموتهم فالوارضاء هم . ويذكر ان شرب الخمر الى حد السكر يكاد يكون فرضاً دينياً على الطاعنين بالسن ، لأن عربدتهم تبدو اختلالاً في الظاهر ، ولكن الحقيقة انها وسيلة من وسائل الاحتفاظ بالنظام الطبيعي لتوزيع القوى . والمرض وارتكاب المحرمات تسبب فقدان القوى الحيوية ، ولا يمكن استعادتها إلا إذا سال دم الضحية فوق المذبح وطلبي به . وبذلك يستعيد العابد القوى التي فقدها كما يستعيد أجداده قواهم . والمثل الشائع بين زنوج الدوجون « ان كل فرد يمنح الجميع ويأخذ من الجميع » ، اما زنوج البمبارا فيتخذون من الحجر أو الشجر أو أماكن الماء مذابح لذبح الضحية ، وكذلك ينحرونها في المذابح الموجودة في المعابد العامة والمذابح الخاصة . إن كل بالغ إذا كان رب أسرة ومالكاً لبيت وأجريت له عملية الختان هو أهل ليقوم بالضحية . ويعتقد الناس بأن القوى الحيوية للضحية تنتقل إلى المعبود الذي تقدم اليه الضحية ، ويضحى عادة حيوان من الحيوانات الداجنة طيراً أو كبشاً أو ثوراً إلا إذا كان المقدم صياداً فلا بد أن يقدم فريسة صيد لربه . ويوزع لحم الضحية على الحاضرين ، وفيه رمز الاتحاد الروحي بين الجماعة ، وكانوا فيما مضى يقربون ضحية بشرية في الاحوال الخطيرة التي تهتم البلاد . والعبادة البيئية تستهدف الاحتفاظ بالقوى الحيوية للأسرة وتجنب كل مصيبة تصيب الجماعة . وتفرد في كل بيت حجرة تضم المذابح الخاصة بكل فرد من أفراد الأسرة والمزارع العامة للجماعة . ويوضع في فناء البيت الكرسي الخاص برب الأسرة مرتكزاً على جثة ضحية بشرية وعلى بضعة اشياء رمزية . ويحيي أفراد الأسرة هذا الكرسي ويقدمون له القرابين من شراب أو فاكهة أو ضحايا . والغرض من ذلك ان يزيدوا قوى رئيسهم . وفضلا عن هذه الشعائر البيئية توجد شعائر جماعية للقرية توجه للمعبود او للاجداد تقدم فيها ضحايا من

الضان او الطير أو تقدمات من القطن وفاكهة الكولا . على ان تكون جميعها ذات لون أبيض وتدفن في أسفل المذابح الخاصة بالاجداد جمجمة وأدوات زراعية . وهناك أعياد يحتفل بها وهي بمثابة عبادات . ان أعظم عيد عند الدوجون وأهمها عيد (سيجي) يحتفل به في نهاية كل ستين عاماً، احتفالاً بتبديل القناع الأكبر القديم بالقناع الاكبر الجديد ، والقناع الأكبر هو حامل روح الجد الأول للقبيلة . وفي هذا الاحتفال ينحصر جماعة من المراهقين حملة الاسرار الدينية لخدمة القناع وحراسته . والقناع عبارة عن تمثال من الخشب يمثل أفعى هائلة تنتهي برأس دقيق . ويضحى وقتئذ حيوان أو طير لتنتقل روح تلك الضحايا وتحل في تلك الأفعى الخشبية . وتستمر هذه الاعياد اثنين وعشرين يوماً يقضونها في التنقل والرقص وشرب الخمر ويقصد بها في الوقت نفسه تجديد الهيئة الاجتماعية بامدادها بقوى مجددة لحيويتها ولعرى الاخوة والاتحاد الروحي بين أبناء القبيلة باشتراكهم في هذا الشراب ، أما الاقنعة الاخرى العادية وهي من خشب طري فتتخذ أشكالاً رمزية معروفة تمثل الحيوان كالوعل او الأرنب او القرود او النمر او الطير وهذه الأقنعة هي أدوات الرقص في الاحتفالات . وفي البلاد التي يسود فيها نظام الملكية ولا سيما في اشانتي وداهومي تحتل عبادة الملوك القدماء مقاماً سامياً لأن الناس يعتقدون بأنه يتوقف على رضا هؤلاء الموتى العظام نعمة خصب الأرض وتكاثر النسل . والعبادة الرئيسية لدى قبائل الأيبوهي عبادة الأرض ويعتبر كاهن الأرض هو صاحب السلطان في تنفيذ الشرائع المدنية والأخلاقية . والمعبد في غربي الكامرون يقع في مكان قريب من القرية عار من الشجر والنبات بشكل دائرة يحيط به سور من الشوك . وعبادة الاجداد لدى قبائل اوبانجي تقام حول فرع ذي شعب من فروع شجرة مقدسة بالقرب من بيت الاسرة . وتعلق به جماجم الصيد وأدواته وتوضع فيه القرابين ويتجمع حوله أفراد الاسرة في الولائم الدينية ويقام مذبح الاجداد حول بيت رئيس العشيرة .

وعند قبائل البامبارا تقام عبادات موسمية الى جانب العبادات اليومية

الاعتيادية فمثلا في نهاية كل شهرين تجمع قامة القرية التي يزعمون ان فيها قوة حيوية كبيرة ثم تحرق بعد ذبح الضحية وتنحر الضحايا قبيل موسم الامطار وبعده حول شجرة مقدسة او على شاطئ نهر . وكذلك تقام شعائر لاستقبال العام الجديد وتوديع العام القديم والطقوس الزراعية عند البامباره كثيرة أما العبادة عند السودانيين في السودان الافرنسي فتجري على أساس محلي هو الاسرة والقرية من دون حاجة الى كاهن وتقدم قبائل منده القرايين في زمن الحرث والبذار او الحصاد . او إذا انتشر بينهم مرض وتقام حفلات العبادة حول قبر او في مكان مقدس ثم ينادون اسماء موتاهم بترتيب الاقدمية ويدعونهم ويقدمون لهم تقدمات من الارز والدجاج ثم تقام ولائم يقدم فيها الاطفال على الكبار وأخيراً يترك شيء من الطعام بعد الاحتفال لتلتقطه الطيور او يأكل منه عابر سبيل . أما قرايين قبائل لوبي فخمرأ او حساء ذرة او دجاجة وكل ذلك مقرون بالدعاء . وتوضع في داخل البيت أصنام من الطين تمثل الهة الاسر الحليفة . ويتولى رب الاسرة اقامة الشعائر الدينية بالنيابة عن اسرته وتحتفل قبائل السارا باعياد دينية زراعية لاله الذرة وبيتل الى هذا الاله في وقت بذر الحبوب . وتقدم بواكير الغلة قربانا له ولهم أقنعة يلبسونها في الاحتفال الزراعي الديني ولكل أسرة قناعها الخاص .

أما الاقزام فليس لديهم حسبما يظهر شعائر دينية كثيرة ولقبائل أعالي النيل عيدان في كل عام . عيد موسم نزول المطر وعيد موسم نضوج الثمار . ورؤساء القبائل هم الذين يقدمون التقدمات وينحرون الذبائح في الاحتفال بعيد المطر وما يلفت النظر من هذه القبائل ظهور المتنبيين الموحى اليهم . وتنحر قبائل الكيو كيو الذبائح للاله وتتوجه اليه بالدعاء من حالي الوباء والجفاف .

الكهانة . - ان الكهانة من مقتضيات العبادة لدى الزوج القاطنين على سواحل خليج غينية في افريقيا الغربية وان رب الاسرة في بعض القبائل هو الذي يقوم باقامة الشعائر الدينية وتمتيز العبادة في تلك الانحاء بوجود الكهنوت والجمعيات الدينية للالهة فلكل اله كهنوت خاص به تقدم للكاهن الهدايا المتنوعة كالماعز والدجاج والزيت وخرمة الذرة او غيرها من الخمر والاقمشة ولكل اله يوم خاص يعبد فيه . ولا يجيب الاله على سؤال سائل إلا بلسان كاهنه او في المعابد البيئية يقيم الصلاة اكبر الاعضاء سناً وهو عاري الكتفين رمزاً للتبجيل والتعظيم وتبين موهبة الرجل للكهانة وهو في سن مبكرة . ويستمر في مهنته الدينية مدى حياته . وغالباً ما يكون للكاهن مهنة اخرى كالصيد والحداة او العرافة او بيع التائم إذ ان لكل اله تائمه ومخلفاته الخاصة وفي داهومي يلقبون الكاهن باسم حارس المقدسات والكهانة اما ان تكون وراثية واما تدل عليها ظواهر مس الجن والكاهن هو امين الصدقات والندور . وقد تستغرق مدة التدريب على الكهانة من سنتين الى ثلاث سنوات يطلب الى المرید مراعاة العفة التامة والامتناع من شرب الخمر والشراهة في الطعام . او الاشتباك في شجار ويعيش المریدون في رعاية كاهن ويلقنون في السنة الاولى شعائر التطهر وينزؤون في الغابات المشحونة بالاشباح والاطياف وفي السنة الثانية يتعلمون الكلام والتائم والمحرمات (تابو) الدينية وفي الثالثة العرافة والكهانة . ويقوم الكاهن بخدمة بيت الاله (معبده) وتقديم طعامه من الندور والقرايين والضحايا كما انه يعتبر لسان الاله . وهو وحده الذي يعبر عن ارادته بصوت خاص .

ويجوز ان يكون للاله كاهنات من النساء ويخضع المریدون لتدريب جماعي في الاديرة ووصف احد الباحثين اديرة داهومي قائلاً . « ان دير اله السماء مكان

مكشوف في الهواء الطلق يحيط به سور وحوله اكواخ يعيش فيها المريدون وفي وسط المكان شجرة ضخمة عظيمة الفروع وارفة الظلال يطل على جذعها بالدم وحولها صف من مذابح وأدوات مقدسة من عصي واعلام وآنية مقلوبة تحت أغطية من القش . وتجثو الكاهنة على ركبتها عند اقامة الصلاة بينما تدق الطبول وتنشد الاغاني في سكون الليل . (١) ان مدة الترهيب في الدير للبنات أطول منها للصبيان فقد تستمر ثلاث سنوات وغالباً ما يطلب الكاهن الى احدى الاسرات ان تخصص أحد أطفالها للخدمة الدينية . ويحرم على كل انسان من غير رجال الدين ان يدخل الدير او يتصل بساكنيه . وعندما يلتحق المريد بالدير يقص شعره ويعري صدره الى وسطه . ولكل من البنات والصبيان مكان خاص به . فالعفة واجب مقدس وعقوبة من ينتهكها الإعدام . وتدور الحياة في الدير حول إداء التراتيل والصلاة والرقص والتشيف الديني والتدريب على الورع . كما يتعلم المبتدئ صناعة أدوات من نسيج الألياف النباتية لاستعمالها في الأعياد . وتوشم اجساد المبتدئين ورقابهم وصدورهم وظهورهم وأفخاذهم وهي الأعضاء التي تقع عليها عقوبة الضرب من الاله إذا افشوا الأسرار المقدسة التي تلقفوها . ويسمح للمبتدئين الخروج من الدير بعد تسعة أشهر بشرط ان يخفوا ويتنكروا فيتصورهم من يراهم أشباحاً وارواحاً . وعند انتهاء التدريب يحتفل بالخرجين احتفالاً عظيماً تحضره جميع الأسرات فيقضون وقتهم بالرقص وصب الخمر قرباناً للاله ويدفع أهل الخريج فدية عنهم لأنهم يعتبرون أسرى جيء بهم من بعيد . وكثيراً ما يعود بعضهم الى الدير ليقضوا فيه فترات للخلود والتعبد (٢) .

ويشارك في هذا الاحتفال الديني الصبيان من السن الخامسة الى السن الخامسة عشرة . ويعتبرون رغم اختلاف أعمارهم طبقة واحدة ويقوم بينهم نوع من التضامن . وإذا ما انتهت مدة الاختيار يكون الفتى والفتاة قد بعثا الى حياة جديدة كأنها مآتا وخلقا خلقاً جديداً . فانقطعت صلتها بالماضي وقد وصف احد

١ - الديانات في افريقيا السوداء .

٢ - أيضا .

الباحثين هذه المراسم في قبيلة مانجا وقال . -

« انه عند بدء فصل الجفاف يقام لهذا الغرض معسكر بظاهر القرية في غابة صغيرة على مقربة من نهر ، حيث يحشد الصبيان الذين ستجري لهم عملية الحتان . وهناك ينامون على اسرة من جريد وحشوات من اوراق الشجر يشدون اليها كل ليلة ليظلوا راقدين على ظهورهم ويقام في وسط المعسكر محراب مقدس هو عبارة عن فرع شجرة مطوق بطوق من نحاس وأول ما يدخل الشباب المعسكر يفرض عليهم الصوم ثلاثة ايام يتدربون فيها على الرقص ثم يغتسلون في النهر ثم يقومون باستعراض رياضي مارين بين صفين من المراهقين الذين اجتازوا التلقين قبلاً ويضربونهم بالسياط ثم تبدأ عملية الحتان وهم وقوف على شاطئ النهر وترمي غرلتهم في مياه النهر وتضمد جروحهم وفي المساء نفسه يرغون على الرقص دون أي اهتمام بما ينزف من دمهم . وبعد انقضاء اثني عشر يوماً داخل المعسكر في تمرين وتدريب يسمح لهم بالخروج الى الصيد . ومن تقاليد هذا الاحتفال طلاء الرأس والجسد بغيرين أبيض اللون على صورة وشم متنوع الاشكال ويلبس كل شاب إزارا من ليف الشجر ويعلق على رأسه وبدنه اوشحة وزينات تقليدية مختلفة . ويتناول التعليم تدريجياً على الرقص الديني وارشاداً في التعاليم الاخلاقية والعادات القبلية ووصايا عملية في الحياة وتنبئها إلى المحرمات وتربية جنسية ويعاقب كل من يرتكب عملاً شائناً في تلك الفترة او كان ارتكب قبلها ومن بين العقوبات القيام بجمع عسل النحل البري والتعرض الى لدغ النحل والسخره في اعمال الحقل تحت ضرب السياط . وقبل ان يخرجوا من المعسكر تصبغ اجسادهم بطلاء ابيض ثم تمحي اسماءهم القديمة ويتسمون باسما جديدة ويحرم عليهم مخاطبة الناس الا بعد ثلاثة ايام رمزاً الى انهم قد ماتوا ثم بعثوا من جديد . وبعد ذلك يحرق المعسكر بكل ما فيه من ملابس قديمة ثم يفرج عنهم بعد هذا الامتحان العسير . ويسمح لهم بالعودة الى اهلهم .

اما احتفال تلقين البنات فيستمر شهراً تقريباً كاملاً في مكان منزول ويفرض عليهن قضاء الوقت في الغناء والرقص ، ثم الاغتسال في النهر وتجري لهن

عملية الختان بواسطة احدى عجائز الحي ، ويلقي ما اقتطع في النهر كما جرى للصبيان ، وبعد تضميد جراحن يرقصن في الليلة نفسها ، وتطلى اجسادهن بالزيت وتصبغ باللون الاحمر ويتلقين كذلك تعليماً وتدريباً خاصاً بهن^(١) .
ومن القبائل من لا تعرف عادة الختان ويعوض عنها في حفلات التلقين اختبارات اخرى . فعند النوير توسم الناصية بألة حادة . وعند قبائل سارا توسم الحدود وتقلع بعض الثنايا السفلى وتجعل بعض الثنايا العليا من الاسنان مدببة . ويطلب من الشبان في التدريب شرب حساء فيه مواد غريبة ، ويزعمون انه حساء يحول قلب الشبان الى قلب رجال ، ثم يسمونهم بالاسم الجديد .
وحفلات التلقين تقام عندهم كل ثلاث سنوات مرة وتستمر شهرين . وفي جنوبي الكونجو تبدأ حفلة تعليم الفتاة عند ظهور اول طمث اما الهوتنتوت فتحور عملية ختان الفتيات الى مط اشفار عضو التأنيث حتى يتوارى . ويحظر على النساء في كل الحالات حضور حفلات تلقين الذكور . كما يحظر على الرجال حضور احتفالات تعليم البنات .

الجمعيات الدينية : توحد الجمعيات الدينية في غربي افريقيا وفي وسطها وكذلك في افريقيا الاستوائية وتسمى باسماء مختلفة باسماء مؤسسيها او اسماء اخرى وتلعب دوراً مهماً في الحياة السياسية والتقاليد الموروثة لدى القبائل وتحافظ على العرف الاجتماعي والاساطير وتتخذ المقررات السياسية وتنظم العمل وتقيم العدالة عند القبيلة . والغرض من تلقين الاسرار في المرحلة الاولى هو فسح مجال لمن تم اختباره - الاشتراك في هذه الجمعيات ، ولا يتم الانتماء اليها الا بعد النجاح في الاختبار الذي يجري وفق طقوس معلومة وفي السودان الغربي تنتشر هذه الجمعيات ويقوم الاحتفال بعبادة معبود ، وتجري مراسم التلقين للانتماء اليها . ويختص الاعضاء ذوو المراتب الدينية الرفيعة فيها بمعرفة نظام الكون والرموز المقدسة وفي قبائل البامبارا تتألف الجمعية من جميع المراهقين المختونين في القرية ويتولى حراسة المعبد وادارة شؤون التراث القبلي ومعبدتها

١ - الديانات في افريقيا السوداء .

الكبير وتسمى (كومو) يقبل في عضويتها كل من تم ختانه في دفعة واحدة . ويقام لذلك احتفال ديني في الليل . وفيه توضح للاعضاء الجدد الادوات والاثاث التي خلفها السلف . ويلقنون مغزى الرموز والتشكيلات القبلية ويؤخذ عليهم الأيمان واليهود بالايبوحوا بشيء من الاسرار التي اطلعوا عليها وينتهي الاحتفال بالتآخي فتذبح عنز يشرب الجميع دمها رمزاً للاتحاد الروحي ، وكلما تقدم سن هؤلاء كلما ازدادوا اطلاعاً على الاسرار الخفية العليا . واذا حنث احدهم وباح باسرار الجمعية يحكم عليه بالموت . ان اهم اعمال جمعية كومو هو تنظيم الحياة في القرية ولا سيما المواسم الزراعية المقدسة . ويعتبر مجلس الكومو الحارس للتقاليد الاجتماعية وهو العمود الفقري في مجتمع البمبارا . وتشبه جمعية (بورو) في قبائل وندي جمعية كومو . وتفرض على من يرشح للعضوية العزلة التامة في الغابة بضعة اسابيع وتحمل وخزات ووسم في الصدر والظهر والعنق . ويزعمون ان هذه من عمل الجن ويلقن المبتدئ في هذه العزلة تقاليد القبيلة والاناشيد والرقص الديني وآداب السلوك وضبط النفس والتعاون واطاعة الآباء . وللنساء جمعية منفصلة قائمة بذاتها ، وتسمى الجمعية عند قبائل لوبي (ديورو) ولها كاهنها الاعظم يعاونه كهنة آخرون ويجري في كل سبع سنوات احتفال ديني لتجديد المواثيق بين القبيلة وبين الارض . ومن الامور التي تفرض على الاعضاء شرب الماء المخلوط بالطين والغسل والتطهير بماء النهر المقدس وطلاء الاجساد بغرين النهر . واخافتهم بالغول يهددوهم بأنه سيهاجمهم في الظلام . لهذا تطلق في الليل اصوات منكرة مفرعة يزعمون انها صوت ذلك الغول . وبعد هذا الاختبار تحلق رؤوس المبتدئين وتبدل اسماءهم باسماء اخرى ثم يتدربون على الرقص ويلقنون الرموز السرية .

وفي شواطئ خليج غينية تكون الجمعيات بمثابة اندية خاصة لا ينتمي اليها الا من يصلح لذلك وهي اشبه بجمعيات سرية ولها نفوذ سياسي واجتماعي كبير . ومنها جمعية (اورو) عند قبائل يوردبا تمثل ارواح الاء والاجداد وتعتبر عن ارادتهم . يحكم اعضاؤها بالموت على كل من ينتهك تقاليد القبيلة ومقدساتها وفي

قبيلة ايبو تسمى الجمعية (ممو - Mmo) تزعم انها لسان حال الارض وو كيلة الآباء والاجداد لصيانة التقاليد الموروثة واحترام العادات المقدسة. تطرد الزانية من بيت زوجها وتعذب المهتمين بالسحر وتقوم بمراسم الجنازة وتوجد في داهومي جمعية تسمى ميثاق الدم . وفي افريقيا الاستوائية تعتبر الكامرون مركزاً للجمعيات السرية . وتملك كل جمعية ارضاً خاصة بها وفي وسطها دار للاجتماعات ولكل منها اقنعتها الخاصة ولباسها ورقصاتها ورموزها السرية وفي مناطق اخرى توجد جمعيات سرية . ومنها جمعية (نجوا - Ngoua) السرية تجري ثلاث درجات من التلقين للانتماء اليها . وهناك جمعيات يزعم اعضاؤها انهم يستطيعون ان يتحولوا الى افعى او فهد . ويذكر احد الباحثين ان جمعية (بويتي - Bouety) في جنوب الجابون تمارس شعائر التلقين باربعة مراحل وتشمل حفلاتها الرقص والانايد وتناول نوع خاص من النبات يحدث غيبوبة لمن يأكله وله تأثير خاص بحيث يطلق العناصر التسعة المكونة لكل شخص والتي تقابل عدد الطبقات المؤلفة للكون حسبما يدعون . ولا يستطيع الشخص اطلاق العناصر العليا الا ان تكون من كبار المطلعين على الاسرار . اذ ان بانطلاق العنصر السابع تظهر له الالهة الخالفة (دنستونا) وبعد الانتهاء من الاحتفال تبدأ مرحلة التلقين التي تستغرق عاماً كاملاً.

- ٤ -

الاساطير الافريقية . - لدى الشعوب الافريقية المتوحشة اساطير تشير الى اعمال الكوائن العليا التي اعتقدت بها فاسطورة تصور الكائن الاعلى (او مكلو مكلو) كاول البشر الذي اوجد الاجناس وتصور (نيامي) الكائن الاعلى عند الاشانتي انه اقترن بالارض ثم افترق منها . وتزعم قصة اخرى ان السماء هي التي افترقت لانها غضبت لمخالفة بعض احكام التابو . وتجعل الاسطورة

الاله (تيلو) رب الصاعقة والمطر وتصوره بأنه ابو التوائم السهاوي وابو كل التوائم الذين يولدون . وفي اسطورة شائعة لدى شعب الزامبيزي الاعلى تروي كيف ان البشر سعى لقتل (نيامي) بالتسلق الى السماء وكيف انهم فشلوا في محاولتهم هذه كما فشل اعداؤه من الآلهة .

وتزعم قبائل (بوشونجو) ان الههم (بومبسا) خلق الشمس والقمر وثمانية انواع من الحيوانات . ومن ثم خلق البشر . وتزعم قبائل (باجونجو ^(١)) (وواسانية ^(٢)) ان البشر نزل من صلب الاشجار اما الزولو فيزعمون انه نزل من صلب شجرة مع حيواناته ويزعم الداماره انه خرج من صخرة وتدعى (اينانجاس ^(٣)) ان البشر الاول خرج من ثقب في الارض مع الحيوانات الداجنة وما يزال الناس يشاهدون هذا الثقب . وتروي قصة شائعة لدى المسامى انه لم يكن في البدء الا رجل واحد يسمى (دوسوبو - ^(٤)) مع بقرته الوحيدة وفي ذات يوم هبط ابناء السماء الاربعة مع اختهم من السماء وشاهدوا دوسوبو وبقرته فعمشقتة الفتاة ولما عاد الاخوة الى السماء اخبروا اباهم بما شاهدوه . فاراد الاله المتعالي ان يختبر الرجل قبل ان يعطيه ابنته وشرط عليه ان يتحمل بعض الاختبارات ، الاول ان يلتهم كمية كبيرة من الطعام والثاني ان يعثر على بقرته الخاصة من بين قطعات عديدة من البقر . ونجح الرجل في الاختبار بفضل سحر ابنة السماء . فزوجه الاله منها وامهره جميع الحيوانات الداجنة والبنذور والنباتات النافعة . والاسطورة هذه شائعة كثيرا في اوجنده .

ووجدت قبائل الهريرو تعليلاً لتعدد الوان البشر . فزعموا ان اجدادهم بعد ما قتلوا الثور الاول أكلوا كبده مما جعل لونهم ولون احفادهم داكناً وبما ان

Bagongo — ١

Wasanye — ٢

Anyamjas — ٣

Dosobo — ٤

قبائل (ناما - (١)) أكلوا الرثة وشربوا الدم فغدا لوهم مشرباً بالحمرة منذ ذلك الوقت . ولدى قبائل (ناندي - (٢)) خرافة تشبه خرافة المسامي عن الحيوانات الداجنة . وتعتقد قبائل الجالا ان الزوج البشري الاول هبط من السماء وتروي حكاية تحكى عند المسامي ان التوائم ولد من ركبة انسان وبذلك تشير الى الزوج البشري الاول . وتزعم قبيلة اخرى انه ولد من ركبة امرأة وهذه الاسطورة شبيهه عند الهوتنتوت .

اما الموت وسببه فقد حارالبداثيون فيها وتصورا وتصورات عديدة ليعلوا سببه وتروي قبيلة (مساوي) ان اله السماء الرحيم امر ابنته وصهره الا يرجعا الى السماء اطلاقاً وسبب ذلك ان احد ابناؤه (نما) أي الموت كان غائباً وكان الاله الرحيم يخشى من ان هذا الابن اذا اطلع على زواج اخته غير المتكافي ينتقم عاجلاً . وبينما كان (كنتو - (٣)) الصهر في طريقه الى الارض تذكر انه ترك وراءه في السماء الحبوب للطيور الداجنة وعبثاً طلبت زوجته الا يرجع ولكنه اصر على العودة ولما دخل السماء وجد فيها الموت الذي تعقبه وراح بعد مدة يحدد اولاد كنتو الواحد بعد الاخر فأخذ الناس يتضرعون الى إله السماء ليرأف بهم وبعد تردد بعث الاله الرحيم ابناً آخر ليجبر الموت على الرجوع الى السماء ولكن الموت كان اخذ من اخيه فاختمى وعاد الاخ الى السماء من دون ان ينال مبتغاه ولم ير كنتو في آخر الامر الا ان يرضخ الى الامر المحتوم ويتسلى بانجاب اولادا كثر مما يتمكن الموت من سلب أرواحهم . وتوجد أسطورة لدى قبيلة تسكن في جنوبي غربي بحيرة فيكتوريا تزعم أن الموت (لوفو (٤)) رجل أحد جانبيه نتن تلتهمه الدود وجانبه الآخر سليم ويغسل خدمه جانبيه على التناوب ، والذي يأتي لرؤيته في النهار حيث يغسل الخدم الجانب السليم ويشاهده يناله الحظ

Nama - ١

Nandi - ٢

Kinto - ٣

Lou fou - ٤

السليم ، اما الآخرون فتحل بهم المصائب . أما قصة الموت في مقاطعة الجولا فيروها الناس كما يلي : (لما سلب الموت روح أحد الأخوين هجم الأخ الآخر على الموت . وحاول الموت عبثاً أن يبين له بأنه لا شأن له بذلك لأن الناس يموتون بتأثير السحر الذي يزاوله السحرة الضارون . ولكن الاخ ظل يهاجمه حتى أذن له بزيارة بلد الموتى للبحث عن أخيه . ولكن ما أن وصل إلى بلد الموت إلا وأصيب الأخ بجذبة أمل لأنه وجد أخاه يعلن مخلصاً بأنه مرتاح جداً من حالته ولا يرغب مطلقاً في العودة الى بلد الأحياء) .

وفي أسطورة شائعة في ساحل العاج ان قبيلة (ني ^(١)) فكرت في ان تسد الطريق الوحيد الذي افترضت ان الموت يسلكه في طريقه الى بلدهم . وكادت القبيلة ان تنجح في مشروعها لو لم يحل دون العمل صبي خائن . ويزعم الهوتنتوت ان القمر بعث الارنب الى الناس ليقول لهم : (كما أموت انا وأبعث ، كذلك تموتون لتبعثوا) . ولكن الارنب حثث منه أو لاهمال قال للبشر : (كما أموت انا ولا أبعث كذلك تموتون ولا تبعثون) . وتروي قبائل (ناندي ^(٢)) ان الكلب لعب عليهم ذلك الدور الحثيث لأن أجدادهم قصروا فيما يجب ان يقوموا به من واجب الاحترام نحو الساعي الكلب . وفي أسطورة أخرى ان الإله الأعظم بعث الحرباء لتخبر البشر أنهم خالدون ولا يموتون ، ولكنها أهملت تبليغ الرسالة وقضت وقتها باللعب ، فغضب الإله وبدل رسالته وبعث طيراً ليحمل للبشر رسالة بأنهم حين يبلغون سن الشيخوخة يغيرون جلودهم ويجددون شبابهم ولكن لسوء حظ البشر ان الطير صادف ثعباناً في طريقه يلتهم جثة ، ولكي يأخذ الطير نصيبه منها أخبر الثعبان بالرسالة ، ولهذا أخذ الثعابين يغيرون جلودهم ويغدون خالدين ، بينما يموت البشر . والاسطورة عند المسامي تروي ما يلي : (ان الإله لي - ايو ^(٣)) قال ذات يوم : إذا مات طفل ينبغي له ان يقول حيناً ترمى الجثة (البشر يموت ويعود ، القمر يموت ولا يعود) وبعد مدة

Ne - ١

Nandi - ٢

.Le - Eyo - ٣

مات طفل ولكنه لم يكن ولد لي - ايو) لهذا اُكتفى بالقول (يموت البشر ولا يعود ، يموت القمر ويعود) وبعد مدة مات أحد اولاد لي - ايو ولكنه حينما تلفظ الصيغة قال له الإله : لا جدوى من ذلك ان الناس من الآن فصاعداً يموتون . وفي أساطير اوجنده ان الشمس والقمر اتفقا ذات يوم على قتل اولادها ولم تتأخر الشمس عن تنفيذ هذا الاتفاق . ولكن القمر فكر من جديد واعترم تغيير رأيه ، لهذا ليس للشمس اولاد بينما كان للقمر جميع الاولاد ، أي النجوم . ويزعم البوشمان ان الشمس ذكر طارد القمر ذكر ايضاً - ومزقه فلم يبق منه إلا قطعة صغيرة . ثم تركه يستريح ليأذن له ان يكبر حتى يتكامل ويغدو بديراً ثم يباشر بتمزيقه من جديد . وفي أسطورة شائعة لدى البانتو ان للقمر زوجتين . إحداها تريد له الخير وتطعمه كما ينبغي وبذلك يتكامل القمر فيبدر . أما الأخرى فتكاد تمته جوعاً . هذا هو سبب تناقص جرم القمر . ويزعم البوشمان ان الشمس كانت في البدأ من سكان الأرض ولكنها أقيت أخيراً الى السماء لتنشر النور . ويعتقد الناندي والمسامي والأشانجا ان الشمس والقمر يعيشان حياة زوجية . ويضيف المسامي قائلين ان هذا الزواج ليس أكثر سعادة من أغلب الانكحة البشرية ويعتقد سكان (لوانجو Luango) ان قوس قزح يقيم في مخبأ دودة الارضة فيخرج من ليلتهم الناس . اما المسامي فيقولون ان أحد محاربيهم هجم على قوس قزح وبعد ان قتله أخرج من بطنه العالم الذي ابتلعه وفي أنحاء كثيرة من افريقيا يعرف الناس طير الصاعقة فيزعم الزولو انه من نوع مالك الحزين ، لأنهم يعتقدون بأن هذا الطائر يأتي بالمطر . ويزعم (الوشيجا^(١)) ان الصاعقة فأس الآلهة ، ويعزو الناس في حوض الكونجو الزوابع الى مطاردة في الجو (٢) .

١ - Wachega

٢ - أساطير العالم .

التكوين وأساطير الحلقة : وللشعوب الافريقية على اختلاف تأخرها في الحضارة وتقدمها معتقدات في التكوين وآراء في نشوء الحلقة ، فمن آراء ساذجة الى معتقدات متكاملة ، وحاول الزوج ان يعللوا وجود الجنس البشري ويحددوا مدى صلته بالكون فأسعفهم خيالهم بضروب شتى من التفاسير والأساطير . وهذه التفاسير والأساطير تختلف اختلافاً عظيماً بين بلد وبلد آخر ، بل قد يحدث اختلاف في التعليل بين أبناء القبيلة الواحدة . فتقع العامة بالتافه من القصص بينما يعتقد الخواص من المطلعين على الأسرار بتفسيرات مغايرة يحرصون على كتمانها على ان هذه المعتقدات المتعددة المعقدة عن التكوين لم يكتشف منها حتى الآن إلا قدر قليل في مناطق محدودة ونذكر على سبيل المثال قصص التكوين عند شعبين من شعوب أفريقيا الغربية وهما قبائل الدوجون وقبائل البمبارا . يزعم الدوجون ان الاله (اما) خلق النجوم بأن قذف في الفضاء كرات من الطين وخلق الشمس والقمر بأن صنع كرتين بيضاويتين أحاط احدهما بدائرة من النحاس الأصفر وأحاط الاخرى بدائرة من النحاس الأبيض وتعتقد بأن الجنس الاسود ولد في الشمس والجنس الأبيض ولد تحت القمر . ثم القى اما كرة من الطين دحا منها الارض وبسطها من الشمال الى الجنوب بصورة انثى ثم اقترن بها فولدت (ابن) آوى . ثم ولدت عدد من الجن (نومو - Nommo) فرأى احدهم امه عارية فكساها كساء من لحاء الشجر . غير ان ابن آوى لما رآها عارية اغتصبها فسال منها دم الطمث . وهكذا ارتكبت الخطيئة الاولى وهي مصيبة الاقتران بالمحرم . فتدنست الأرض . ثم خلق اما الانسان من الطين مباشرة جنساً واحداً كل واحد منهم يجمع بين طبيعتي الذكر والانثى حتى اذا اجريت عملية الحتان

ثمّيزت الأثنى عن الذكر ويزعم الدوجون ان نشأة قبيلتهم ترجع الى ثمانية أجداد كانوا يسكنون في السماء ويأكلون من أنواع الحبوب المباحة لهم فلما نفذت الحبوب اجترأ اثنان منهم على أكل الحبوب المحرمة ثم هربا من السماء وهذه كانت فرصة اتحت للأب لتنظيم الكون بشكل سلة من الطين مقلوبة قعرها بمثل السماء وقاعها هو الشمس والسماء أربع جهات لكل منها سلم فالشالي يحمل البشر والأسماك والجنوبي يحمل الحيوانات الداجنة والشرقي الطيور والغربي الوحوش والنباتات والهوام . ثم استولى المؤسس الاول على النار وخلق منها كور الجدار فرماه الجن وهشموا أعضائه فأصبحت ذات مفاصل فهبط من السقف وابتكر أول حقل فنشأت الزراعة ثم تبعه بقية الاجداد . غير أن الجد الثامن وصل الى الارض قبل السابع فغضب السابع وتحول ثعباناً فقتله الناس وأكلوه واستسلم هو لهم وتحمل خطاياهم وضحى بنفسه لخلاص البشر وكان الثعبان قد ابتلع الثامن ثم لفظه من فيه في صورة حجر فرجع الثامن هكذا الى الوجود ويسمى هذا الجد (ليه - Lebe) وترتيبه في الوجود التاسع لانه تجسد مرة اخرى فبعث من جديد .

اما قبائل ببارا فتنصّر التكوين بصورة اخرى تكاد تكون فلسفية وترغم الاسطورة انه في البدء كان فراغ هائل يتحرك بذاته على محورين حازونيين يدوران في اتجاهين متعاكسين فانطلقت من بينها قوة هائلة (زو - Zo) نشأ منها العقل (يو - Yo) فلما دار الجهاز في الجهات الاربع تكونت منه عوالم أربعة فالعالم الحالي هو الثالث والرابع هو عالم المستقبل ثم تبع ذلك نشأة مخلوقات . أولها اثنان وعشرون عنصراً هي الخصائص العامة للكائنات وهي عناصر التفكير ثم تلا ذلك سقوط مادة ثقيلة (بمبا - Bemba) في ذلك الفراغ فتولدت منها الارض وفي الوقت نفسه يقوم جانب من العقل (فارو - Faro) ويعلو فيخلق السماء ثم تهبط هذه القوة من جديد على الارض بهيئة مطر فتتمدها بالحياة فيظهر بالتوالي : العشب ثم العقرب ثم السمك والتمساح وحيوانات اخرى مائية وكان الانسان في بدء خلقته حيواناً مائياً خرج من الماء . ويقول البمباريه

ان الصيادين هم اول مخلوقات ثم يتحول الاله (بمبا) وهو رمز الارض وترتبها الى بذور البالانزا (اكاسيا) ثم يخرج بمبا من شخصية زوجه . موشو كوروني - وكان الرجال في اول خلقتهم مخلدين فلما بلغوا التاسعة والخمسين عادوا أطفالاً في السن السابعة وكانوا يعيشون عراة كسالى لا يؤدون عملاً ولا ينطقون الا مهمة ولما طلب بمبا ان تقترن النساء كلهن به ثارت امرأته موشو كوروني فأعمتها الغيرة فجابت العالم صارخة منتقمة من الرجال والنساء بتر أعضائهم التناسلية وهكذا بذرت بذور الاضطراب في الخليقة وانتشرت التعاسة والموت فيها وتلوثت الارض الطاهرة وأخيراً ماتت موشو . واكتشف بمبا ما للدم من قيمة حيوية فطلب الى الرجال ان يقدموا ضريبة من دماهم فلما استنفد دماهم او كاد لجأوا الى فارو فهدهم هذا الى ثمرة الطماطم التي تتحول في أجسادهم الى دم وجنين ثم حمل فارو حملة شعواء على بمبا حتى هزمه وأبطل عبادة البالانزا ولكن الشجرة أذرت الناس بأنهم منذ يومئذ لا يكونون خالدين .

ثم انفرد فارو بتنظيم الكون بعد ان هزم سلطان المادة فخلق الليل والنهار والفصول والسموات السبع وطبقات الارض السبعة وجعل الناس شعوباً وقبائل وبين لهم المحرمات ومنحهم الارزاق من البذور الثمانية . وهو اله الماء الذي يملك في قبضته الينابيع الاثني عشر التي سيطلقها بمبا لتغرق الارض تمهيداً للقيام بمخلق جديد وعالم المستقبل وهناك معتقدات اخرى في الحلقة . ويعتقد المسامي كباقي الافريقيين ان الارض كانت موجودة دائماً رغم انها كانت في البدء قاحلة غير مسكونة . وتبدأ قصة الحلقة بمحاربة الاله للتنين وتنتهي بقتله والجنة الارضية ولدت في دم التنين . وجاء في القصة ذكر الجنة وسقوط الناس منها باغواء الحية وان الحيوانات الداخنة هبة الاله ارسلها للبشر من السماء مباشرة . والمسامي ككل الشعوب الراحية تذكر زمناً كان قتل الحيوانات فيه محرماً وأكل لحومها حرام . ويرون ايضاً ان الاله جعل الحيوانات تابو . وان الامرأة اول من خرقت حرمة هذا التابو . ويظهر ان الطوفان كان بسبب قتل النفس لأول مرة وتعتقد

قبائل اللوي بأن السماء عبارة عن قبة معتمدة على الارض . ويسكن فيها الانسان الاحمر والانسان الاسود يسكن تحت الارض . اما الكردي فيزعمون ان النار كانت اول بدء الخليقة ثم أرسل الله الطوفان وكانت الجبال من رواسبه . ويشبه أهل داهومي العالم أرضه وسماءه بوعاء وغطائه . فالقسم الاعلى هو الجو . وخط الاستواء هو الارض المسكونة وما تحت الارض هو عالم الغيب . ويعتقد المانجا ان الاله خلق الذكر والانثى من الطين . ثم حلت بذريتهم كارثة أبادتهم فلم يبق منهم غير (سيتو - Seto) واخته فارتكب معها خطيئة انتهاك المحرمات وقتل الموت الذي كان حيواناً مفترساً فأصبح شيئاً لا يرى . ورزق الله سيتو البنذور ومعرفة تدجين الحيوانات . ثم خرق سيتو الوعاء الذي يخزن الماء فتفجرت منه الانهار . ثم اكتشف النار وعرف حيل الصيد ثم صعد الى السماء وصار نجماً (الجوزاء) .

وبين قبائل البانتو توجد تفسيرات مختلفة في الحلقة . منها ان العالم انشأه الاب الاول الذي يشبه ان يكون السماء . ومنها انه انشأته الام الاولى . ومنها ان العالم أنشأه الزوجان الاولان من البشر ، او زوجان من الكائنات . سماء وارض ، شمس وقمر ، قمر ونجوم وهناك اعتقاد بأن العالم خلقه اله خلاق ويظن الباسوتو في افريقيا الجنوبية ان العالم أزي ما عدا البشر والحيوانات . وهناك معتقد لدى الجابون ان الخالق نفخ في الظلام وانبتق من زفيره امرأة بيضاء تحمل الشمس في يمينها والقمر في يسارها ويجري من ثديها الأيمن سيل من الدم ومن ثديها الأيسر سيل من اللبن . وتستمد الكواكب نورها من هذه المرأة . وتشبه زفرة الخالق النطفة الحية التي لقحت الليل . فتكونت النجوم واتخذ الكون شكل زهرة تسكن على اوراقها اجزاء العالم . ثم اقترنت الشمس بالقمر فانجبا لها قسم الكون الى ابعاده الثلاثة . الطول والعرض والعمق التي سكنها ثلاث جماعات من الآلهة ثم خلق الذكر والانثى ثم طرد الزوجان من سرّة الارض حيث شجرة الحياة وأصبحا غير خالدين ثم تكاثر النسل بالتزاوج بين الناس وبينهم الآلهة . (١)

(١) الديانات في افريقيا السوداء واساطير العالم

دين الشعوب الأهلية المتحضرة في أميركا

الشعوب الامريكية : ادعى بعض العلماء ان الشعوب الامريكية الاهلية نشأت من اختلاط العرق المغولي بالعرق الماليزي . ومنهم من قال انها تفرعت من العرق المغولي . ولكن علماء الاثنوبولوجيا والمتبعين دراسة الأقسام الامريكية الاهلية يزعمون ان العرق الامريكي الأهلي من العروق المستقلة ، نشأ في افريقيا وتطور فيها دون ان يختلط بعروق العالم القديم ، أي اوروبا وآسيا وافريقيا . ومهما يكن الأمر فان الهنود الحمر في امريكا يحوز القول عنهم انهم يكونون عرقا واحداً . وإذا لم يكونوا في البدء عرقاً واحداً فانهم دون شك كونوه على مر الاف السنين ، حيث عاشوا في عزلة عن شعوب العالم القديم . وقد ساعد على هذه الوحدة العرقية عدم وجود موانع جغرافية تحول دون تنقل القبائل من الشمال الى الجنوب ومنه الى الشمال هذا هو سبب التشابه في اللغة والأساطير بين تلك القبائل الذي لا مثيل له في أي مجتمع من آسيا واوربا وافريقيا .

ويرى علماء الحياة ان البشر دخل امريكا من مضيق بيرنج بين سيبيرية في آسيا وألاسكا في امريكا . ويرى بعضهم ان العرق الامريكي والمغولي نشأ من عرق واحد ثم تطور كل منهما مستقلاً ، هذا في آسيا وذلك في امريكا . ولقد تأكد للعلماء الباحثين عن الشعوب الامريكية الاهلية ان الشعوب الاسيوية الشرقية كانت لها صلات بامريكا الغربية . كما ان أهالي جزيرة أيسلندة كانوا يعرفون بلاد جرينلانداً قبل اكتشاف امريكا بزمن طويل ، يبدو ان هذه الصلة والمعرفة لم تكونا بدرجة تؤثر معها في معتقدات الشعوب الامريكية وفي ثقافتهم . لهذا اعتبر مؤرخو الاديان ان دين الامريكيين وثقافتهم أصليان لا

علاقة لها بأديان العالم القديمة وثقافته . ان الشعوب التي تسكن امريكا الشمالية في السهول تعتبر من الشعوب التي تعيش على الصيد . وجمع المواد الغذائية مما تجود به الطبيعة . وكانت الجماعات البشرية التي تعيش في أقصى شمال أميركا الشمالية على شواطئها المطلة على المحيط المتجمد الشمالي قد اطلق عليها اسم خاص هو (اسكيمو) لما كان يتميز افرادها من طرق خاصة وكذلك لمظهرهم الغريب . اما سائر السكان الاصليين في أميركا الشمالية فقد أطلق عليهم الهنود الحمر وهو اسم يدل على ان الكاشفين الاولين كانوا يعتقدون انهم وصلوا الى جزر الهند الشرقية (اندونيسية) .

ويتشابه الهنود الحمر شعباً كبيراً . بالرغم من التناسق العام في ملاحظهم توجد اختلافات تظهر بوضوح اذا شوهدت عن قرب فبعضهم طويل القامة وبعضهم قصيرها . وأقصر شعوب أميركا في القارتين الشمالية والجنوبية يعيش في أقصى الشمال وأقصى الجنوب (وفي الأقاليم المدارية في أميركا الجنوبية) . ويتفق الثقاة على ان هذه الشعوب أتت في الأصل عن طريق مضيق بيرنج في سلسلة من الهجرات كانت اولها منذ بضعة آلاف من السنين . ويمكن تقسيم أميركا من الناحية الغذائية (صيد ، جمع غذاء ، زراعة) إلى تسع مناطق غذائية فعلى شواطئ المحيط المتجمد الشمالي يقع موطن الأسكيمو الذين يعيشون على صيد الحيوانات المائية . وفي جنوبهم كان الهنود الحمر يعيشون على صيد الكاربو وجمع محصولات نباتية برية . وفي الجهات الشمالية من ساحل المحيط الهادىء . توجد منطقة كان سمك السلمون أهم مادة غذائية لسكانه وفي جنوبها اقليم يعتمد سكانه في غذائهم على انواع البندق العديدة والحبوب البرية . والى شرقي هذا الأقليم كان يوجد اقليم (البين) والجاموس الوحشي وإلى الشرق منه توجد منطقة زراعة الذرة على ان اقليم الزراعة الكثيفة الذي كانت الذرة أهم محصولاته كان يمتد من المكسيك إلى شيلى عبر أميركا الوسطى . وفي أميركا الجنوبية المدارية كان السكان يعيشون على صيد الحيوانات الصغيرة ولكن كثيراً منهم كانوا أيضاً يزرعون المانيوق وأخيراً كان في جنوب القارة اقليم يعيش سكانه على صيد الجواناكو .

وهو حيوان مجتر من فصيلة الابل ، ونستطيع ان نجعل المناطق التسع المذكورة في خمس مناطق تسكنها شعوب من الصيادين وثلاثة تسكنها شعوب من الزراع . وواحدة يسكنها من جامعي الحبوب البرية . وكان أشهر الشعوب الزراعية بين سكان أمريكا الشمالية والجنوبية شعب (الانكا) في بيرو في أمريكا الجنوبية وشعب (المايا) في شبه جزيرة يوكاتان في جنوبي شرقي المكسيك وشعب (الأزتيك) في المكسيك ومما لا ريب فيه ان الشعوب التي كانت تعيش في المكسيك وفي بيرو كانوا متقدمين في الحضارة لهم نظم اجتماعية راقية وثقافة متقدمة وزراعة وحرفة ومعابد ضخمة وتماثيل ضخمة . ان اللغات العديدة في أمريكا تنقسم الى شعبتين ، اللغة المكسيكية في الشمال واللغة البيروية في الجنوب التي تتكلم بها الشعوب المتقدمة في الحضارة كالازتيك والمايا والانكا . وهناك لغات ابتدائية أخرى تتكلم بها الشعوب الاخرى .

ويطلق على الهنود الحمر في أمريكا الشمالية اسم (الجلود الحمر) ايضاً نسبة الى لون جلدهم النحاسي . وهم يتميزون عن الشعوب القاطنة في المنطقة الجبلية الغربية . وينقسم الهنود الحمر الى عدة قبائل ، وتنقسم القبائل الى عشائر ، ولا ينتمي الهنود الحمر الساكنون في السهول جميعاً الى شعب واحد أو يتكلمون لغة واحدة . ولم يصلوا جميعاً الى المناطق التي سكنوها في وقت واحد . فقبائل الشين Cheyenn مثلاً لم تقطن في السهول إلا بعد ان اكتشفت القارة الامريكية . وفيما يلي أشهر أسماء القبائل الحمر سكان السهول من الشمال الى الجنوب : (بلاكفوت Blackfoot) و (كري Kree) في كندا ، و (كرو Crowo) و (داكوتا Dakota) و (باوني Pauonee) و (شين Cheyenn) و (كيوا - Keowa) و (كومانش Comanche) في الولايات المتحدة . أما هنود السواحل الذين يعيشون في كولومبيا البريطانية فيقسمون من الناحية اللغوية الى الأقسام الآتية : قبائل (تلينكت Tlinkit) و (بلاكولا Bellacoola) و (الهايدا - Haida) و (التشمشيان Tsimshian) و (الكواكيتول Kuakiutl) و (بلاكولا Bellacoola) و (نوتكا Nootka) و (النالش Nalish) .

والشعب المكسيكي الاهلي ايضاً ينقسم الى عدة قبائل . ويبدو ان الشعوب الامريكية اختلط بعضها ببعض من الحروب والغزوات التي كانت تشب بينها . وتنقسم شعوب امريكا الجنوبية الى عدة قبائل تختلف بعضها عن البعض الآخر الى حد ما بتأثير البيئة التي عاشوا فيها . ومما يلاحظ ان الشعب الذي سكن المنطقة الجبلية في الشمال الغربي كان أرقى من الشعوب الأخرى . ويوجد شبه بين سجايا العرق الامريكية وسجايا الشعوب الماليزية (١).

- ٢ -

اديان الشعوب الامريكية المتوحشة : تختلف اديان الشعوب الامريكية باختلاف البلاد التي سكنت فيها ودرجة الحضارة التي بلغتها ويمتاز دين الهنود الحمر في امريكا الشمالية بالطوطمية . ان لفظة الطوطم ، كما سبق ان بينا ، كلمة شائعة لدى قبيلة من قبائل الهنود ، وهي من لغتهم . ويضاف الى ذلك ان الهنود الحمر يمارسون عبادة الارواح ويطلقون عليها اسم (مانيتو Manitou) ويطلق على أعظم روح من هذه الأرواح اسم (الروح العظمى) تمثل في الأغلب بصورة حيوان ، وتعزى اليها جميع الأوصاف التي توصف بها الكواكن العليا . ويكاد لا يكون لهذه الأرواح شخصية تميزها أو صورة تتصور بها . ويظن ان الارواح المذكورة لها صلة بالمظاهر الطبيعية كالسواء والقمر . كما ان لها علاقة بأرواح الأجداد ومما يدل على الطوطمية عند الهنود الحمر إقامة عمود الطوطم (الواتنيجا) أمام الدار . والأعمدة هذه تنقش نقشاً جميلاً ويرسم عليها رمز

١ - الشعوب البدائية .

الطوطم الشخصي لصاحب الدار وزوجته . والداخل الى الدار يمر في الأغلب من فم مفعور لحيوان خرافي هائل . هذا فضلا عن انقسام القبائل الى عشائر واتخاذ كل منها طوطما من الحيوان والنبات واتخاذ سنة الزواج من الخارج ، ولا تخرج الطقوس الدينية التي يقيمونها للروح العظمى عن نطاق الكهنة والسحر وتمثل هذه الروح احيانا بصورة انسان ويعزون اليها كثيراً من الاساطير وللريح الغربية التي الهوها مناقب حماسية تصورها بصورة بطل . ويعتقد الهنود الحمر ان للروح العظمى اما او جدة . ويقربون القرابين من البشر وياكلون لحم القربان . ويعتبرون تعذيب الجسد من العبادة ومن ذلك انهم يعرضون اجسادهم لبخار الماء المغلي . ان اول حدث في حياة الطفل عند الهنود الحمر هو ثقب اذنيه لتوضع فيها الخلى . ويقوم بهذه العملية المطبب ويستعمل لهذا الغرض قطعة من العظم رفيعة . وثاني حدث هام في حياة الطفل هو تسميته . وهو حدث يحل في موعد من عمر الطفل يختلف من قبيلة الى اخرى . ويلعب الصبيان والبنات معاً ويعيشون معاً الى السن العاشرة او الحادية عشرة . ولا يتلقون نوعاً خاصاً من التعليم لكنهم يعرفون في النهاية كثيراً عن طريق تقاليد اباؤهم . وكلما تقدمت السن بالصبي مر بانواع مختلفة من الترويض الغرض الاول منه تمرين الجسد على الحشونة وتعويد صاحبه على تحمل التعب والحرم ان فالصبيان مثلاً يرغبون على الاستحمام في الماء البارد في الصيف والشتاء وعند خروجهم من الماء يلهبون بسياط من أغصان الشربين . وحينما يبلغ الصبي سن الحلم يفرض عليه نوع من العزلة وبعد انتهائها يدخل في مصاف الرجال ويكون له روح او ارواح تتولى رعايته ويسمح له بالانضمام إلى بعض الجمعيات السرية . ان الأساطير الشائعة لدى الهنود تدل على تطور الفكرة الدينية بينهم وتبحث هذه الأساطير عن التكوين والطوفان وخلقة البشر . ومنشأ الحضارة ومن أساطيرهم ان الروح العظمى هي التي خلقت الكون ولكنها لم تقدر على خلقه إلا بعد جدال عنيف مع الماء دام زمناً طويلاً فالماء عندهم هو العدو الاول في الكون وهو قوة مخربة . اما معتقداتهم في خلقه البشر فهي ان الناس خلقوا من الأشجار وفي اسطورة عند قبيلة (اهت - Aht) في

جزيرة فانكوفر في أمريكا الشمالية تزعم انه كان من قبل بشر بهيئة طير وحيوان وسمك وان أجساد الحيوانات المذكورة تتقمصها ارواح الهنود . وفي اسطورة اخرى ان القمر هو الذي خلق الأرض والبشر . والقمر (وهو مؤنث عندهم) هو الأم العظمى للبشر . وهي التي خلقت الشمس واقتسمت معها العالم . وهناك أخبار تدل على ان للهنود الحمر فكرة عن كائن اعلى . وإذا سمع رجال قبيلة الجونكين البيض يتكلمون عن الههم يتصورون انهم يشيرون الى الههم الخلاق (آتا هو كان - Atahocan) ولما تحدث احد المبشرين الى هؤلاء عن الخلاق فاطر السموات والأرض راحوا يهتفون (آتا هو كان ، آتا هو كان) هذا هو آتا هو كان) ويعتقد الهنود الحمر في كندا بوجود خالق أعظم من الشمس والقمر والنجوم . وفي ولاية فرجينيا يعتقد الاهلون بألهة متعددة ويصفونها بأوصاف مختلفة وهي تمثل عندهم مقاماً سامياً . ومع ذلك فانهم يعتقدون باله متعال خلق الآلهة الرئيسية أولاً ثم خلق الشمس والقمر والنجوم التي هي آلهة ثانوية . وتعتقد قبيلة (كريك - Greek) بروح عظمى صاحبة الحياة ويقولون انها روح الكون وملكوته يوجهون اليها الدعاء . ويعتبرون الشمس والقمر والنجوم رسل الروح العظمى ووزراءها .

يودع الهنود الحمر جثث موتاهم مقرها الاخير بطرق شتى . فالمعتاد عند قبيلة تلنكت وتسمشيان هو احراقها ولكن التسمشيان كانوا احياناً يدفنونها . وكانوا في بعض الاحيان يمارسون نوعاً من التحنيط . اما قبيلة هايدا فكانت تودع جثثها الكهوف او تضعها في توابع فوق أعمدة وكانت جثث مشاهير الزعماء تلبس أحسن ملابسها وتترك في مجالسهم بمنازلهم سنة كاملة ثم تنقل بعدها إلى مقرها الاخير . وكان الكواكيوتل يحرقون الجثث أحياناً . ولكنهم كانوا اعتيادياً يضعونها فوق الاشجار او في الكهوف ، او في قارب اذا كانت جثة زعيم . اما النوتكا فكانوا يدفنون الجثث في الكهوف . او يضعونها في صناديق او يلفونها في اكفان من لحاء الشربين ثم يتركونها فوق الاشجار . ويعتقد الهنود الحمر في مقاطعة كولومبيا البريطانية ، كغيرهم من الهنود ، انهم محاطون

من كل جانب بكائنات غيبية وبات في امكانهم الاتصال بتلك الكائنات بواسطة المطبيين والسحرة ويكون (الشامان) اي المطبب والساحر عندهم رجلا او امرأة ورث مهنة الطبيب عن ابيه . ولكن بعض المطبيين المشهورين لم يرثوا المهنة . ويعتقد الناس بأن الشامان ورث القدرة الطبية والسحرية من الارواح استجابة لدعائه وصيامه . والهنود الحمر كسائر الشعوب البدائية ينسبون المرض الى تأثير السحر من جانب الاعداء او الى غيبة الروح مؤقتاً او حلول روح خبيثة في الجسد . ويتضح من البحث ان بين الشعوب الامريكية الاهلية من لا يزال يدين بدين بدائي ومن تقدم في الحضارة فتكامل دينه من حيث اساطيره ومؤسسته ومعتقداته واخلاقه كدين الازتيك والمايا والانكا في المكسيك وفي بيرو .

- ٣ -

دين شعب (كراجا - Karaja) - ولما اكتشف كولومبوس امريكا وراح الاسبان يتوغلون في البلاد تبين لهم ان البلاد تسكنها شعوب عديدة وكان من اكثرهم عدداً قبائل (توبي - Tupi) و (جوارني - J. arni) وكانت قبائل كراجا تقطن على ضفاف نهر اراجويا في امريكا الجنوبية ، ولعلها اتت الى ذلك المكان عن طريق البحر . ومن المحتمل انها فرع من الامة الكبيرة (كارايب - Karaipe) لوجود شبه بين لغة الكراجا وبين لغة الكارايب وعرقهم . يسكن الكراجا في يومنا هذا على طول نهر اراجويا وهم ليسوا من هنود الغابات ولكنهم هنود انهار .

القصص الشعبية والسحر لدى الكراجا : - من الصعب جداً معرفة

معتقدات الكراجا لأن رجالهم لا يجيبون على الأسئلة التي توجه اليهم من الاجانب وقد استطاع احد المبشرين ان يعيش بينهم ويقتبس منهم بعض المعلومات . ان اخبارهم الشعبية تنطوي على قصص الالهة والابطال وحكايات عن الحيوانات وروايات عن الصيد البري والبحري . ومن بين ذلك ملحمة (كانا شيوو - Kanachiyw) واسطورة اخرى تروى مجيء الكراجا الى الارض . وتوجد في البلد الذي يعيش فيه الكراجا جزيرة (بانافال - Banafal) واقعة في نهر اراجويا وهي اكبر جزيرة نهريّة في العالم وفي وسطها بحيرة تحيط بها اشجار باسقة والاسماك فيها كثيرة . وتعتبر هذه البحيرة عند الكراجا حرام (تابو) وفيما يلي خلاصة الاسطورة :

كان شعب الكراجا قبل عدة سنوات لا يعلمون عن سطح الارض شيئاً . وكانوا يعيشون في اسفل البحيرة في كهوف تتصل بسطح الماء بمنافذ هوائية كالمداخن . وكانت حياتهم سعيدة ورتيبة . وكانوا يرضون ولكنهم لا يدقون طعم الموت اطلاقاً وفي ذات يوم مرض ابن الرئيس فلم يفد معه الدواء والسحر . ولذلك اعتزم الشبان الصعود الى سطح الماء فتسلقوا المدخنة للتفتيش عن الدواء . ولما خرجوا الى سطح الماء دهشوا للمناظر الخلابة التي شاهدوها فرأوا لأول مرة اشجاراً باسقة ومراعي خصبة وفضاً من الحيوانات من كل نوع . وكم كان فرحهم عظيماً بالحياة في هذه البقعة السهلة ، وبينما هم في غمرة من السعادة اذ ظهر لهم (بورور - Borore) الوعل المتوج رأسه بأخشاب كبيرة وخاطبهم - لان الحيوانات كانت تتكلم وقتئذ - وسألهم عما يريدون فأخبروه انهم يبحثون عن دواء لابن رئيسهم ، فدلهم الوعل على العسل المعطر (تيوبا - Tyuba) فرجعوا الى وطنهم فرحين مستبشرين واستعملوا الدواء فشفي ابن الرئيس . ولكنهم ضاقوا ذرعاً في بحثهم الكئيب فاقنعوا مواطنيهم على الخروج . وبقي الساحر في الملجأ بعد ان لعنهم . صحيح ان القوم عاشوا رداً من الزمان في رخاء ولكن الامراض اخذت تفتك بهم واخذ الموت والبؤس ينكدان عيشهم . فحاولوا ان يعودوا الى ملجأهم ولكنهم عبثاً فتشوا عن المنافذ وبذلك صحت

نبوءة الساحر الذي لفت انظارهم الى ما سيلاقونه من محنة وبلاء .

وفي اسطورة اخرى مغزى لاكتشاف البشر النور وفيما يلي خلاصة القصة :

ان بطل القصة (كاناشيو) بطل الكراجا العظيم لم يكن هذا الهاً ولكنه كان رجل الكراجا وكان قوي المراس وطيباً جداً . ومن مآثره انه كان متزوجاً وقد كبر حموه وشاخ من دون ان يرى النور اذ كان يعيش في ظلمة دائمة وكانت البيوت وقتئذ تنار بالنار فاضطر الشيخ الى الخروج من البيت ليبحث عن الحطب فاصطدم بمجذع شجرة فسقط واصيب بجرح وغضب على صهره قائلاً له (تزوجت بابنتي وانت قوي وانا طاعن بالسن ، اعطني النور لأستطيع ان امون ناري وانور داري) فاقسم كاناشيو الا يعود الا ومعه النور . وفكر في ان يأخذ ورقة (ايمبا هوبا - Imbahuba) التي كانت ساقها الطويلة على شكل انبوب فادخل الانبوب في فمه ثم انبطح على الارض جثة هامدة . فاجتمع النمل حوله وتساءلوا هل هو ميت ؟ فقالت نملة فلنكن حذرين وليأتي العقاب الاسود اولا ثم حام العقبان حوله وتساءلوا كما تساءل النمل وقالوا فلنقض عليه فقال احدهم انتظروا ليأت العقاب الرئيس فاتي الرئيس وهو يتبختر وكان عقاباً ابيض وانقض لتوه على الجثة ووكر فوق صدرها فما كان من كاناشيو الا وقبض على مخلي العقاب ونهض فرحاً وطلب منه ان يزوده بالنور . فانكر العقاب معرفته بالنور . ولكن كاناشيو الح عليه فاجاب العقاب انه لا يعرف الا نوراً ضئيلاً لا يغني فتيلاً فقال له كاناشيو انه . وحينئذ ظهر في السماء نور صغير ذهبي . وكان هذا النور (تاكيينا - Takiina) النجمة وبما ان العقاب كان يسير بسرعة ادمى كاناشيو زبلة العقاب فاخذ يعرج لتوه وتباطأ في سيره . فصرخ كاناشيو قائلاً للعقاب ان لديك نوراً وانواراً اخرى . فاجاب العقاب ان ليس لديه منها فقال له تكذب فاني (لا اخلي سييلك ما لم ترنيه . واذ ظهر في السماء فوق الاشجار قرص كبير اصفر ، هذا (اراندو - Arandu) القمر . وكان العقاب يسير بسرعة فادمى كاناشيو زبلة الساق مرة اخرى فابطأ سيره فصرخ فيه هذا لا يكفي اريد نوراً آخر . انكر العقاب ولكنه حيال الوعيد بنتف ريشه

اطلع نوراً فوق الاشجار لونه احمر في البداية ثم ازداد وانتشر فوق الغابة وعلى
النهر وفوق كل الارض وراح يزداد اكثر فأكثر حتى برز قرص ساطع هذا هو
(جيويو - Djyu-u) الشمس . وكان العقاب يسير بسرعة فادمية زبلته مرة
اخرى فأخذ العقاب يعرج خفيفاً ولكنه ما زال يسير بسرعة فادماه من جديد
في وسط السماء وهذا هو السبب في ان الشمس تسير على قدمها لانها عرجاء .
وقد سر كاناشيوو بنجاحه واخلى سبيل العقاب الابيض وعاد الى بيته فاستقبله
اهله باحتفال وراحوا يرقصون . انه لمن الصعب معرفة هوية كانا شيوو . يزعم
الكراجا انه خالق نهر اراجويا . ولكي يجمع فيه سمكاً كثيراً رمى فيه قطع
الصخر التي شكلت مسابيل سريعة الجريان حالت دون افلات السمك . ومن
اوصافه انه سيد كافة الحيوانات وبهذا الوصف يكون كانا شيوو الاله الخلاق
ويقول الناس ان له عدة اولاد سكنوا السماء فاذا بكوا نزل المطر . ويحتال عليه
اخوه (شانديو - Chandyu) احياناً وهما اخوان متخاصمان . لان شانديو
خبث الاصل ولا يفكر الا بالشر . وهو شيطان الشر ولا يرأف بابيه ، وهناك
خرافة تزعم انه قتل اباه اذ طلا وجهه بالراتينج لما كان نائماً فاماته . ولا يجوز
ذكر اسمه امام الكراجا لانهم يخشون بأسه كثيراً . ان السحر شائع لدى الكراجا .
والساحر يطبب ويعالج الامراض ويتخذ التدابير للحصول على صيد كثير في البر
والبحر وينزل الغيث . ولدى الكراجا نوعان من الرقص . رقص للتسلية ورقص
للسحر . ولعل رقص التسلية ايضاً منشؤه سحري . ويتساءل الباحثون هل للكراجا
دين بالمعنى المفهوم ؟ ما هي فكرتهم عن الإله ؟ من الجائز ان يوصف كانا شيوو
بانه اله بوصفه القادر وقد يكون الهاً خلاقاً في بعض الاحيان ان كانا شيوو
يسكن في السماء . وتدعى السماء عند الكراجا ببيت كانا شيوو ولكن اخاه
يستهزئ به ولا يتوجه الناس الى كانا شيوو البتة ولا يتضرعون اليه في وقت الشدة .
كذلك لا يوجه الدعاء لآخيه شانديو ولا تجري احتفالات باسمه واذا جرى ذلك
فلغرض مقاومته والتقليل من نفوذه الضار ولدى الكراجا اثار روحية معقدة
ومتردية (١) .

١ - تاريخ الاديان العام الجزء الاول .

دين شعب (لا كاندون - Lacandon) ان شعب لا كاندون يعيش جماعات صغيرة في الغابات الرطبة على الحدود المكسيكية - الجواتالية . لقد حافظ على دينه الاصيل ولم يتأثر مطلقاً بالبعثات التبشيرية وهو من الهنود الامريكين الذين يثلون آخر بقايا حضارة المايا العظيمة ولما هاجر اهل المدن الكبيرة حوالي القرن السابع الميلادي من المحتمل ان القرويين الصيادين الذين كانوا يعيشون معيشة بدائية في الغابات الواقعة على اطراف المدن ظلوا في اماكنهم . يتكلم شعب لا كاندون لغة المايا ويعبدون الهة مشابهة في الاكثر لآلهة المايا في شبه جزيرة يوكاتان في المكسيك .

الآلهة . - ان مجمع الآلهة اللا كاندونية يختلف باختلاف المناطق واللا كانديون في الشمال الغربي يعبدون آلهة متعددة تتصف نوعاً ما بصفات واضحة وتؤلف اسرات يتحدث الناس عن انسابها .

اما الآلهة في الجنوبي الغربي فيبدر انها جرى فيها تبسيط ازال الغموض حولها . اما الاله الذي يتركز فيه اهتمام الناس فهو الشمس . وتكاد الآلهة الاخرى تنكسف امامه . ويتصور اللا كانديون الآلهة مثلهم بهيئة رجال ونساء يعيشون وياً كلون ويتزاوجون كالهنود ولكنهم يختلفون عنهم بالقدرة الخارقة للطبيعة وبالخلود واغلب هذه الآلهة رحيمة رغم انها تغضب بسرعة فتطلق قيود البلايا وتسلطها على الناس . والحيوانات الطوطمية ليست موضوع عبادة ولا توجد اية نواهٍ (تابو) حياها . ومن النادر الا يخصص لكل إله مكان يقيم فيه . وتكون هذه الاماكن اعتيادياً الكهوف الواقعة على شاطئ البحيرات . وتكون احياناً في خرائب مدن المايا القديمة .

ويبدو ان اعظم إله يعيش في خرائب المعابد هو (اتشاكيوم-Atchakyum) وينسب اليه بناء مدينة (ياكيشيلان - Yaxchilan) ويتمتع بسلطات واسعة ويعيش في ياكيشيلان إله (تشاكبات - Tchakmpat) وهو إله بالغ القدرة ورئيس اتحاد قبائل (اتشيبلام - Atchiblam) اما الاله (كيتشوك تشوك - Kitchoktchok) فهو إله مايا القديم الذي تبدل اسمه واصبح له عبادة خاصة . وفي الناحية الشمالية الغربية من بلاد اللاكاندين توجد بحيرة كبيرة ومحاطة بحرف صخري عال. حفرت فيه كهوف لتكون بيتاً للاله (متسابوك-Metsabok) وهو إله المطر . وفي (تسيبانا - Tsibana) اتحاد عشائر إله النار (كاك - Kaak) واخيراً يأتي إله الشعبان الغامض الملامح ويسمى (كبون - Kimbon) وفي الناحية الجنوبية الشرقية للبحيرة المذكورة تقام صخور في وسط الغابة وفيها كهوف أيضاً قصر الاله (كاناناك أش - Kanankach) اي حامي الغابة وهو رب الاشجار والغابات ويوجد في عالم باطن الارض إلهان متخاصمان الكبير اخو اتشاكيوم لهذا يسمى (يوسوكوم - Usukum) والثاني يسمى (كيسين - Kisin) وهو اخو زوجة يوسكونيكوم - ان كيسين إله شرير ومفزع وهو الذي يسبب الزلازل بهذه الاعمدة التي تسند الارض ويسلط الامراض الفتاكة ويطعن البشر بسهام غير مرئية . اما (يوسكونيكوم) بما انه غير راض عن افعال كيسين الشريرة فإنه يلعب دوراً مهماً وحينما تهبط الشمس (كين - Kin) نحو المغرب وتدخل تحت الارض يحملها يوسكونيكوم على اكتافه ليساعدها على ان تسير في طريق معكوس تحت الارض وفي الليل يرتاح إله الشمس باكله الطعام الذي هيأته له زوجته إله باطن الارض . ثم يستمد إله الشمس قوته ويستمر على سيره . ويحمل الشمس يوسكونيكوم لكي تطلع في الصباح من الباب الشرقي . والشمس بشر بلون وضاء يشع رأسه بالنور ، وزوجته القمر (انا - An) او (او كنا - Okna) .

الطقوس والمراسم الدينية ، العبادة . - ان المعبد لدى اللاكاندونين عبارة عن كوخ بشكل مستطيل مسقف بالاوراق التي تنحدر حتى تلمس الأرض لكي

تُخفي ما في الكوخ من أدوات مُختلفة كالطببول والمعالف للتقدمات ... الخ .
 ويمثل كل إله كوب مصنوع من الفخار ويثبت فوقه رأس منحوت تدل خطوطه
 ولونه على اسمه . والمراسم من حيث الأساس عبارة عن تقدمات من نجور نباتي
 (كوبال - Copal) وذرة ولحم . وفي بعض الحالات تبغ . ويحرق الكوبال
 في المبخرات ويرمى فيها حبات من الذرة . او يوضع طعام بين شفاة التائيل
 او الطيور وفي المراسم الكبرى تستعمل مياه التطهير الطقسية بكثرة . ويتصور
 اللاكانديون العالم الآخر مشابهاً كثيراً لعالم الدنيا ولكنه عالم يغمره الحزن وليس
 فيه ما يواجهه الناس من مصاعب في حياة الدنيا . ويقضي الموتى فيه حياة لا تلتق
 فيها ولا هوم . ومن الصعب ما يتصوره الاهلون عن الجهة التي يقع فيها عالم
 الموتى . ومن الناس من يجعلها تحت الارض ومنهم من يرى انها في السماء .
 ويدفن الموتى في التراب ويقام فوق القبر ملجأ يتألف من سقف من ورق يستند
 الى الاوتاد ويعتقد اللاكانديون بان الموت معدي . وينسبون الى الارض خاصية
 منح الفيض والبركة للنباتات للنساء ايضاً وقد تبتلي الارض النساء بالعقم وبالمرض
 وبالموت . ولذلك حينما تقع حادثة موت في المعسكر يتركه الهنود حالاً ويفتشون
 على ارض لا شر فيها (١) .

al-maktabeh

- ٥ -

دين اليانا Yamana : تسكن قبيلة يمانا في أقصى أرض النار في امريكا
 الجنوبية وهي كسائر الشعوب البدائية تعيش على ما تجود به الطبيعة . وبالنظر
 لوضع البلاد الجغرافي تعيش على الاسماك بصورة خاصة . وتقوم هذه القبيلة على

١ - تاريخ الاديان العام .

نظام الجماعات التي يتألف كل منها من أسرتين إلى أربع أسر . ومن أحكام النظام الاجتماعي فيها الزوجة الواحدة . ان الفتيان والفتيات احرار في الزواج وليس لأبائهم إلا النصيحة . وكانت نفوس اليانا في سنة ١٨٧٠ زهاء الفين وخمسمائة نسمة وقد انخفض هذا العدد منذئذ . لقد اخترنا هذه القبيلة لأنها درست دراسة مستفيضة من قبل بعثة (جيغليمو كوبرس Gueglielmo Koppers) .

ومارتينو جيسنده Martino Gusende من سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٣ وكانت هذه القبيلة تعتبر من القبائل التي لا دين لها . وظل هذا الظن قائماً مدة طويلة . واستطاع المبشران المذكوران أن ينالا ثقة الأهلين والاشترك في أعيادهم السرية ، وحضرا الاحتفالات الطقسية واطلعا على ماهية دين اليانا .

الكائن الاعلى : هناك اسمان يذكرهما الأهلون بتبجيل وخشوع وهما : (واتاوينو Wataui ennewal) و (هيتابوان Hitapuan) ، والاسمان يعنيان (الأب ، أبي ، أب لي) ولا علاقة لهذه التسمية بأعمال المبشرين ؛ كما اعتقد الأب جيسنده في بادئ الأمر ، إذ ظن بأن ذلك نشأ بتأثير المبشرين المسيحيين ، ولكنه ظهر له بعد ذلك بأنه اعتقاد قديم كان شائعاً لدى اليانا قبل مجيء المبشرين الى ارض النار . وكان الكابتن (فيتزوري Fitzory) قد جلب أربعة صبيان من اليانا الى إنجلترا سنة ١٨٣٠ وكان عمر احدثهم عشر سنوات ، وكان يشعر بعمق بكائن أعلى . اما الثاني فكان عمره خمس عشرة سنة ، وكان قد أظهر شعوراً قوياً نحو الكائن الأعلى . ان اعتقاد صبيين عمرهما عشر سنوات وخمس عشرة سنة بوجود كائن أعلى لدليل على ان هذا الشعور لا يخص جماعة محدودة من الناس ، أي جماعة المطلعين على الاسرار ، إنما هو شعور عام منتشر بين اليانا ، وكان الأب جيسنده في إحدى جولاته في البلاد لغرض دراسة اللغة وليمسح الأساطير قد اطلع على اسم واتاينووا بمثابة سبب الطوفان شبيه بإله المسيحيين ، وذكر ان ذلك قد يكون بتأثير مسيحي ، ولكنه بعد ثلاث جولات قام بها الأبوان من شباط الى نيسان سنة ١٩٢٢ توصل الى معرفة تامة بالكائن الاعلى ، فاقتنعا بان اليانا يعتقدون بوجوده . وشرح الأب كوبرس ملاحظاته

في كتابه (١) وبين فيه كيف ان الاهلين كانوا يذكرون اسم واثاوينوا ويصفونه بصفات الكائن الاعلى ولما وجه سؤالاً إلى امرأة عجوز من هو واثاوينوا؟ اجابت انه الاله الشبيه باله المسيحيين . وعندما يقول الاهلون « واثاوينوا عاقبة » يقصدون بذلك ان واثاوينوا بعث الموت لمعاقبة المجرم على أعماله ومما ذكره جيسنده ان الاسم الخاص للكائن الاعلى هو واثاوينوا يصفونه انه في السماء وهو القديم الخير والقادر وهو أقوى الموجودات .

الادعية والتضرعات والتظلم : وقد سجل العالمان المذكوران نماذج من ادعية وتظلمات وتضرعات والتماسات يوجهها اليانا الى كائنهم الأعلى ومن جملتها :

(لماذا الأب في الاعلى عاقبني ؟) واليك تظلم امرأة قد امارت واثاوينوا طفلها (اعطيتني طفلاً وبعد مدة قصيرة اخذته مني ؟) (لم اكن اعتقد بأن ابي يعاقبني بهذه القسوة) (فكر يا ابي الكائن الاعلى باليتامى الذين فقدوا آباءهم) (ان جميع مخلوقات من صنعه ، ولم يبق من اولادي الا واحد ، وانا اخاف عليه) (امنحني صحواً - هواء جيداً) وهو دعاء يقولونه حينما يريدون الشروع بعمل ما (ابي انقذ قاربي) وهذا دعاء يقال وقت التهلكة . (شكراً لأبي شكراً للقديم الخير) (شكراً لك يا ابي لانك جعلت الهواء صحواً) (الأب كان رؤوفاً بنا وقد انقذت رحمته قاربنا) (نحن ممنونون من الأب) (ان الهواء صحو ، واثاوينوا رؤوف) ؟ (لم اتمنى أن أرى واثاوينوا وجهاً لوجه ولكن اني ارى نفسي معه ؟) ومن اوصاف الكائن الاعلى انه القديم الذي لا يتغير ويذكر كوبرس انه لا يعلم احد من ابناتى الكائن الأعلى . ويدل اسمه على انه دائم القدرة ويبيده الحياة والموت يستطيع شفاء المرض وانقاذ الناس من الاخطار ومن قدرته ان يجعل الهواء صحواً . يملك كافة الاشياء وهو سيدها وصاحب جميع الاشياء ومملكها . وان واثاوينوا اعظم كل النفوس . وهو من حيث الاساس إله رحيم . ومما يدل على ذلك يخاطبونه كأنه اباهم . وبما انه يميت الناس حتى الاطفال

١ - تاريخ الاديان العام .

٢ - Unter feurland indianeren

فيصفونه (بأنه المميت في السماء) وهو نفس (روح) لا سبيل الى رؤيتها. يرى كل شيء وهو حاضر في كل مكان .

وحينا تجري مراسم الاطلاع على الاسرار او التلقين لادخال الشبان في جمعية رجال القبيلة ويؤكدون للشباب ان واثونيووا يرى كل شيء ولا تخفى عليه خافية ، ومن اوصافه انه المميت يعاقب في هذه الدنيا من يسلك سلوكاً سيئاً ومن يهمل متابعة الاوامر الاخلاقية واذا اقتضى فان واثونيووا يعاقب بالموت حتى قبل اوانه ، فيسلط الموت على اولاد الشخص الذي يريد معاقبته ، ويفرق اليمانا الروح عن الجسد ولكنهم لا يعرفون اذا كان الاخيار يكافئون والاشرار يعاقبون في الدار الآخرة .

ليست صورة واثونيووا محاطة بالاساطير وقد جمع جيسنده سنة ١٩٢٠ نحو من اربعين اسطورة خاصة بسكان ارض النار . ان الاساطير والقصص عن الارواح والكوائن تتجنب الاشارة الى واثونيووا . ويرى الاهلون انه لمن المحاقة السؤال عن واثونيووا فيما اذا كان متزوجاً ويحييون بدهشة. « واثونيووا متزوج » ويلخص الاب كوبرس قائلاً ان واثونيووا اذن حائز على جميع الاوصاف الحقيقية التي يتصف بها كائن أعلى. ومن اوصافه انه باعث القوى العظمى وانه فوق الكل مبدع القوانين الخلقية . حامي الاخيار ومستعد لمساعدتهم ، ولكنه في الوقت نفسه جبار وشديد العقاب حينما يقتضي ان يعاقب .

منشأ الاعتقاد بكائن اعلى : وكان شعب ارض النار يعتبرون منذ زمن طويل قوماً لا دين لهم لهذا يجب معرفة فيما اذا كانت فكرة الكائن الأعلى قد نشأت بتأثير مسيحي . ويذكر كوبرس بهذا الصدد ان جواب الاهلين على ذلك كان (اننا لم نتعلم من المبشرين ، ولكننا دائماً نعتقد بذلك) . وبما يلفت النظر ان كل ما يخص الكائن الأعلى من صفات وخصائص وما جاء في الادعية من كلام لم تكن بلغة اجنبية . ولو كانت تلك المفاهيم بتأثير المبشرين المسيحيين لاقتضى ان تترجم المسميات من اصلها المسيحي . فانها بالعكس من كلام ومبنى لم يستعمل في اللغة الدارجة وبين كوبرس ان الكلام المستعمل في الطقوس عند

اليانا كلام احتفظ به قديماً . والخلاصة ان لليانا مفهوم معين وواضح عن اله واحد يعتقدون به ، وان فكرة الكائن الأعلى ليست مستوردة .

ولقبيلة اليانا اساطير غنية واليانا كما اشرنا قبلاً يفرقون بين الروح والجسد والتفريق هذا واضح وتسمى الروح بوجه عام ما يفهم منه التنفس ويتصورونها شفافة خفيفة غير مرئية كالهواء . ويعترفون بان روح البشر تختلف عن ارواح المخلوقات الاخرى ، ومع ذلك يرون ان روح الكلب لوفائه ونفعه تختلف عن ارواح المخلوقات ، والروح تحيي بعد الجسد وتهاجر الى الشرق فتستطيع العودة ولا سيبا في الليل . ولليانا فكرة غامضة عن المحل الذي تذهب اليه ارواح الموتى وما ينتظرهم هناك من حالات ان الغموض الذي يحيط بمصير الروح جعلهم يحزنون لحالات الموت . وقال احدهم للأب كوبرس : اننا نحزن حينما يموت احد وسبب ذلك اننا نجهل فيما اذا كانت ارواحنا يمكن ان ترى وتتكلم وفيما اذا كانت سعيدة او شقية لا نعرف اي شيء عن ذلك .

لهذا اننا نشعر بحزن عميق حين يموت شخص عزيز علينا . « وكذلك يجهل اليانا اذا كانت تجري محاكمة الميت بعد الموت . إن جل ما يعرفونه ان الأشرار لا يسمون من العقاب في هذه الدنيا . لأن وانا وينووا يميتهم وهم شبان او انه يسلط المرض على أولادهم يضاف الى ذلك ان من عمل عملاً سيئاً يصبح عدواً للقبيلة . وكان اليانا الى زمن متأخر يحرقون أجساد الموتى . اما الآن فانهم يدفنونها . وإذا مات الساحر يجري له احتفال خاص ، يصبغون جثته ويرسمون فيها اشارات تدل على منزلته . واليانا كسائر الشعوب البدائية يختلفون بمراسم اطلاع الشبان على الأسرار لما يبلغون سن الرشد . ويعرضونهم الى رياضات جسمانية اليمة . وينبغي للمرشح ان يتحملها بصبر وجلد لكي يستحق شرف الانتاء الى الجمعية ويصبح عضواً نافعاً في القبيلة . وهناك وصايا للشبان والفتيات تستحق الاعتبار . وهي ذات مغزى أخلاقي واجتماعي ومن جملة ما يوصون الفتيات به « اذا تكلمت امرأة عنك بسوء اسكتي ، لأن الكلام يؤدي الى الخصام . »

الأوصاف البارزة في دين اليانا : - ان دين اليانا دين حقيقي وخاص وهو

مشبع بتأثير وشعور وعلى الرغم من التعقيد الذي يحيط به فان جذوره ترجع الى عهد قديم . أما العناصر الطارئة فتؤخره كالادوار الاسطورية فانها دخيلة وليست ذات صلة بالنواة البدائية التي تتركز في الكائن الاعلى بوصفه القادر والعليم والبصير . وهو خير مستعد للمعونة والمساعدة . وتتجلى هذه الصفات من التضمرات والأدعية التي توجه اليه . يضاف الى ذلك انه اله قدير وخيف لأنه مستعد للعقاب . وهناك امران يتجلى بهما لطفه : -

اولاً - ان اسمه يعني الأب او أبي او أب لي .

ثانياً - ان الحمد والشكر له على ما أفاض من نعم وما استجاب من طلبات مما يحمل على الافتراض ان للاعتراف بالجميل قيمة لدى انا وانيوا . ان صورته منزهة عن الأساطير لا زوجة له ولا ولد هو الذي يمنح كل النعم ويراقب اعمال البشر ويشرف على سلوكهم وهو المنتقم . ان كثرة الاسماء التي يستدعي بها اليمانا الكائن الاعلى ونماذج الأدعية التي توجه اليه تبين ان هذه الفئة القليلة من الهنود الامريكيين تنسب اليه كافة حوادث الحياة السارة والحزنة والكائن الاعلى هو القادر الحقيقي والوحيد . ان وصفات السحر لا تأثير لها اذا خالفت رغبته ولا توجد ثمة أدعية او أية عبادة توجه الى الكوائن الاسطورية . ولا أثر للروحية مطلقاً عند اليمانا خلافاً لرأي تايلور وينقص دين اليمانا عنصران مهمان متوفران في أي دين . - ليس لليمانا فكرة واضحة عن الخلق وعن مصير الروح بعد الموت وكذلك ينقص دين اليمانا الاساطير الدينية الخاصة بالطبيعة والطوطمية وعبادة الاجداد بمظهرها الاجتماعي وهذا الدين بكامله الواضح قد أحكم نظرية تدين البدائين الذين ينبغي أن يكون سكان أرض النار النموذج لهم . ان اعتقاد اليمانا باله واحد كما بينا بتفصيل واثبتنا مفاهيم النظرية التطورية التي يزعم أنصارها ان الدين تطور من مفهوم الى مفهوم آخر كما ادعى أنصار تلك النظرية (١) .

دين الشعوب الأمريكية الأصلية

لقد ذكرنا آنفاً نماذج من الأديان البدائية في أمريكا الجنوبية في مناطق مختلفة واستعرضنا دينين لشعبيين بدائيين وهما الكراجا والياما ودين شعب لا كاندون وهو كما تبين شعب يمت بصلة إلى شعب الياما المتحضر ونعود الآن للبحث في أديان الشعوب المتقدمة في الحضارة كشعب الأزتيك وشعب المايا وشعب الأنكا .

- ١ -

دين الأزتيك Aztek : كثيراً ما أجريت مقارنات بين أقوام الأزتيك والرومان . ويمكن في الواقع إجراء هذه المقارنة . وكان الأزتيك كالرومان يتبنون في فتوحاتهم الهة وأساطير شعوب أخرى فتحوها بلادها ويتقبلون دياناتهم ولهذا غدا دين الأزتيك ديناً متساهلاً حيناً برز للعالم لأول مرة في بداية القرن السادس عشر لما استولى الأسبان على بلاد الأزتيك . وقبل أن يصبح الأزتيك سادة في كل أنحاء المكسيك كانوا قبيلة بين القبائل الأخرى ، لها آلهتها الخاصة . ولما صارت المكسيك المركز السياسي والعقلي للجميع جرت محاولات للتقريب بين الهة القبائل المختلفة والسعي إلى التآليف بينها يصبها في قالب واحد ولكن

عملية التأليف لم تكن قد تمت . وظلت مدينتنا (تكسكوكو وشوبالا) مركزين روحين مستقلين وكذلك مدينة (تلاكسكالا Tlaxcala) التي كانت تحيي حياة منعزلة .

مجمع الهة الازتيك : تنقسم الهة الازتيك بوجه عام الى مجموعتين الاولى لها علاقة بالصيد ولا سيما صيد اليحمور (حيوان لبون) وهي آلهة حربية ، تحب سفك الدماء وتتطلب احياناً ضحايا بشرية يتلذذ الاله بسلخ جلودهم ومن هذه الآلهة . (كاما كستلي - Camaxtli) اله قبيلة (ميكسواتل - Mixcoatl) واله قبيلة اخرى و (هوينزيبوشتلي - Huitzilpochtl) اله قبيلة الازتيك والاله (كسيب - Xip) الذي يبدو انه يلعب دوراً وسطاً بين هذه الالهة والالهة الاخرى ، وهو يتلذذ بسلخ جلود الضحايا البشرية ، ولعله استعير من بعض قبائل اواسط المكسيك وهم اقدم اهالي الهضبة العليا .
اما المجموعة الثانية فذات علاقة بالزراعة والمطر لأن البلاد شبه حارة وقليلة المياه بصورة عامة . يضاف الى ذلك الهة جديدة .

الالهة الارض (الارض الأم) ينبغي ان يكون لها شأن كبير فيما مضى وتسمى (تيتوئي مام Mam - Teteoi) (امنا) واسماء اخرى . لقد ساهمت هذه الالهة في خلقة الكون باسم (تونا كاشواتل - Tonacachuatl) قرينة الاله (تونا كايتهكوهتلي - Tonaca tecuhtli) ويجب ارجاع اصلها الى اقدم القبائل المستوطنة في المكسيك . وتعبد القبيلة (اوتومي - Otomi) زوجاً من الالهة (الاب القديم والأم القديمة) نزل الجنس البشري من صلبها وتركا للالهة نصيباً من حصاد الذرة . أما الهة الماء (تلالوك - Tlaloc) فان تماثيلها المصنوعة من الفخار كثيرة في الخرائب ولما وصل الاسبان الى المكسيك كانت عملية التأليف بين الالهة في مجمع الالهة الازتيكي ما تزال جارية ، ما عدا الهين كانا في حالة خصام وهما (تيزيكات ليبوكا - Tezecat lipoca) و (كويتزال الكواتل - Quetzal coatl) يتنافسان على التفوق في المرتبة . ويبدو ان الاله الاخير كان ذا صلة وثيقة باله المايا (كوكلوكان - Kuklucan) بينما كان الاله الرئيس

لدى قبيلة (ششيامك) واهلها هم صيادون مستواهم الحضاري متخلف وكانوا قد استولوا على الهضبة المركزية في القرن الثالث عشر .

الهة الصيد والحرب : ان صلة اله الازتيك (هويتزيبولوبوشتلى) وثيقة باله القبائل الاخرى المتصفة باوصافه وهو اله الضحايا الوحيد التي تنحر بسكين من حجر ، ويصادف عيده في يوم تكياتل في التقويم السنوي والسكين المذكور ذو صلة مشتركة باله الصيادين والمحاربين (مكسكوتل - Mexcoatl) في قبيلة شيشامك وهو يمثل بالاهه انثى تسمى (ايتزبالوتل - Itzpalotl) الفراشة) اما الاله هويتزيبولوبوشتلى فهو اله قبلي عند الازتيك وبأمره شرع الازتيك بالهجرة فقادهم الى شواطئ بحيرة تكسكوكو ليشيدوا عاصمتهم فيها . ان معنى اسمه اللغوي (طير ذباب الايسر) والجهة اليسرى في مفهوم الازتيك الكوني . وهو ذو صلة بالحبوب ولعله ذرطابع شمسي وعندما تقدم الضحايا باسمه تعرض قلوبها على الشمس . ويعرف ايضاً باسم (مكسيتل - Mexeitl) ويصور احياناً بصورة عقاب رمز الازتيك في القوة والشجاعة وبصورة الشمس ايضاً وتزعم الاسطورة ان العذراء الام (كواتليكو - Coatlicu) حملته لما تلقت من السماء كوة الريش ووضعتها في صدرها وقبل ولادته بمدة قصيرة حاول اخوانه ان يقتلوه ويحولوا دون ولادته . يسمى هؤلاء الاخوة باربعائة الجنوب اي نجوم السماء الجنوبية ولكنه رغم ذلك ولد مسلحاً فاستخدم النار والشعبان فقتلهم ، يمثلونه برجل محارب ، والقسم الأعلى من وجهه مصبوغ باللون الاسود ويقبض بيده اليسرى على ترس ان (كسيوه كواتل Xiucoatl) بوصفه إلهاً قبلياً فقد شيد معبد مكسيكو باسمه . اما كسيب فهو إله وسط بين الآلهة الحربية والهة الزراعة . ان المحاربين المنتصرين يضحون باسمه الأسرى ويسلخون جلودهم ويكتسونها أو يحملونها بمثابة غنيمة . ويرمز كسيب من جهة أخرى الى سنبلة الذرة الناشئة التي ما زالت في غلافها كالإله المغلف بالجلد المسلوخ ويتضرع الناس اليه بوصفه الشارب الليلي ويطلبون منه انزال المطر ويضحون له بتلك المناسبة أسيراً يربطونه باطار خشبي ويطنعونه بالسهم فيستنزفون دمه الى

الأرض كما تنزل رذاذ المطر . ويمثلون كسيب لابساً جلد ضحية بشرية ويظهر من الجلد عيون وفمه ويدها ورجلاه ، ويصبغون الجلد باللون الاحمر .

الهة الزراعة : ان أهم إله ذي صلة بالزراعة هو بلاريب (تلالوك) الإله القديم لقبيلة (تيولييهكان Teolihecan) ويتميز عن الآلهة الأخرى بعينه الكبيرتين وباسنانه الطويلة . هو إله المطر والمياه والصاعقة والسحاب ولذلك فهو إله قمم الجبال . ويتمثل طوراً بإله واحد وطوراً بعدد كبيره من الآلهة تلالوك التي تعيش على ذرى الجبال وتنزل المطر . وهو في الوقت نفسه إله خير وإله شر يخشى الناس بأسه ، لذلك يعظمونه ويجلونه ويضحى باسمه بالأطفال الذين يموتون غرقاً في البحيرة ، والدموع التي تسكبها الضحايا فأل خير يبشر بنزول المطر . وتمثل زوجته المياه الجارية ، أي الأنهار والمجاري في الوديان ، وتشاركه اخته العمل وتدعى (سبعة ثعابين) ويمثلونها حاملة سنبله الذرة وهي إلهة الخصب . والثعبان مثال الماء والخصوبة في الزراعة . ويحمل تلالوك أحياناً ثعابين حول عينيه ، ان سلطة تلالوك تمتد حتى العالم الآخر ، حيث يحكم في المحل الذي يتميز بالفيض والبركة يدعى (تلالوكان Tlalocan) ، وباستثناء الأطفال الذين يموتون غرقى والمجاربين الذين يقتلون في ساحة الوغى والنساء اللاتي يمتن وهن نفساء والذين يصاحبون الشمس في السماء ، فان جميع الموتى الآخرين يذهبون الى تحت الارض ، الى جهنم التي تدعى (ميكتلان Mictlan) أما إله الموتى فيسمى (ميكتلان تكوهتلي Mictlan Tecuhtli) .

الهة الخصب والبركة : ان الآلهة التي تعبد خصيصاً في (كوا وهواك - Cuauhnahuac) تسمى (كسوشي كوتزال Xochi quetzal) ، وتوجد في معبد إلهة الأتيكي ، تعتبر زوجة إله الذرة سنتكوتل وهي تنصدر تفتح الأزهار والاعباد والموسيقى (وتمثل بريشتين فوق رأسها ، اما قرينها فهو (كسوشي بللي Zochi pilli) ومن آلهة الذرة والارض ينبغي الإشارة الى (اكسيلونن Xilonen) و (تلازوليتوتل Tlazolteotl) ، والأخيرة الالهة تنصدر الحب الجنسي والاعتراف والتوبة . ومن جملة حاصلات المكسيك الزراعية

نوع من النبات يستخرج منه عصارة سكرية وبعد ان يتخمّر يصبح مشروباً مسكراً يسمى (بولكو Pul quo) ان السكر عند قدما المكسيكيين يعاقب عليه بشدة . ولا يشرب المشروب إلا الشيوخ .

الكواكب : ان القمر (مترتلي Metztl) يعتبر لدى الأرتيك الناظم لتبدل النبات بصفحاته المختلفة ويلعب دوراً مهماً في الأساطير والطقوس ورمزه الارنب وفي الكتابات الأرتيكية يمثل القمر في الأغلب بسطح دائرة رسم فيه صورة أرنب . اما الشمس (توناتيه Tonatih) فيتصورونه ضمناً لدم الضحايا لهذا يمثل في تقويم المكسيك ساحباً لسانه ومطالباً بالضحايا . اما كوكب الزهرة فهي احد تقمصات كويتزال كواتل . والاله (تزكاليپوكا Tezcalipoca) يعني اسمه المرأة ، يمثل بوجه عام حاملا المرأة ، إذ يرى بها حوادث العالم ، وبها يرى كل شيء ، ويعلم كل شيء . يكافئ الناس ويعاقبهم ، ويتراءى مجالس اعترافاتهم وتوبتهم ، ويشاركه في ذلك الاله (تلازول تئوتل Tlazoteotl . يخافه الناس كثيراً وله سلطان نحس ، يتراءى للمحاربين ليلا ليلهمهم الشجاعة ويفتك بمن يقاومه وهو سيد الحياة والموت وسيد الشبان ، ويتجول في الطرقات ليلا بوصفه إله الليل . اما كويتزاكوتل Quetzacoatl فأكثر تعقيداً من منافسه كويتزال كواتل ، ويعني اسمه الطائر (كيتزال Quetzal) وهو مبدع الصناعات والحضارة التي تمركزت في مدينة (تولا) وقد طرده منافسه الساحر وتزعّم الاسطورة ، انه ترك مدينة تولا وسار الى شرقي المكسيك وسمى باسمه المحلات التي مر بها ، وغاب اخيراً في عرض البحر في خليج المكسيك . وجاء في الاسطورة انه سيعود ومركز عبادته في (شالولا) حيث أقيم فيها هرم ضخم . ويظهر هذا الإله غالباً بهيئة إله الريح الذي يمثله بقلع بجهاز بانوبين الواحد فوق الآخر . وقد كرس له معابد مدورة بلا زوايا حتى لا تصد مهب الريح . وكانت عبادته شائعة لدى قبائل أخرى بأسماء مختلفة . ويظهر بصورة مشؤومة ايضاً . وبهذه الصورة يسلط الموت وينزل المصائب أحياناً على من يسمهم كوكب الزهرة بنوره . ان اقتران الزهرة بالشمس حيناً تكون في الاسفل

يعده الناس عهد شؤم وهو اعتقاد يشترك به شعب المايا .

الاساطير : ان مفهوم المكسيكيين القدماء للتكوين يعكس شهوتهم المفجعة وتفكيرهم في الضحية . وتبدأ خلقه الكون بتقديم الإله (ناناهاواتزين -- Nanahuatzin) نفسه ضحية ببلء اختياره وذلك بعد ان يلقي نفسه في النار . وكذلك يضحي كيتزال كواتل بابنه الذي أصبح الشمس وتعاقبت بعد ذلك اربع شمس او عهود وانتهى كل منها بكارثة . وفي نهاية العهد الاول افنى البشر النور . وفي نهاية العهد الثاني خربت الريح العالم وتحول البشر الى قرود . وانتهى العهد الثالث بمطر من النار . أما العهد الرابع فانتهى بالطوفان واما عهدنا الحالي فسينتهي بالزلال . ان اول الضحايا التي قدمتها الالهة غدت الشمس بدمها وقلبا .

وتصور الناس العالم الارضي مكوناً من تسع طبقات اما السماء فمكونة من ثلاث عشرة طبقة . ان الازتيك ككل الهنود في امريكا يهتمون اهتماماً خاصاً بالجهات الاربع ويمثل كل من هذه الجهات شجرة تمتاز بلون من الالوان ويختص كذلك باله وسلسلة من السنين نذكرها فيما يلي . -

الجهة	اللون	الاله	السنوات
الشمال	الاحمر	ميكنتلايكوهتي	تكبائل - Tecpatl
الجنوب	الابيض	تلالوك	توكهتلي - Tochtli
الشرق	الاصفر	تونايتوه	اوكاتل - Ocatl
الغرب	الازرق	الاهة الخصب	كاللي - Calli

العبادة والطقوس : - ان الحياة الطقسية وحياة الازتيك العامة تنظمان بموجب تقويم التنبؤ ويسمى (تنالاماتل - Tnalamatl) ويوجد مثل هذا التقويم عند شعب المايا والتقويم عبارة عن تسلسل « ٢٦٠ » يوماً يعين بعدد من الواحد الى الثالث عشر ويخصص اسم لكل سلسلة من العشرين سلسلة وبذلك يصبح تقويم الازتيك مؤلفاً من عشرين سلسلة مدة كل سلسلة ثلاثة عشر يوماً ولكل سلسلة اسم خاص ورمز خاص . فمثلاً السلسلة الاولى تسمى سيباكتلي -

Cipactli أي التمساح والثانية اله الرياح والثالثة الدار والثامنة الارنب والتاسعة الماء وهكذا اخذت السلسلة اسماء الكلب والقرد والحشيش والعقاب والمطر والزهرة ... الخ ان كل يوم من هذه الايام يكون يوم نحس او يوم سعد . ولا يجوز القيام بعمل ما دون الرجوع إلى نبوة متخصص . ويعتمد هذا الحخير على التقويم ويتنبأ بالنجاح او الفشل . وفي كل اثنين وخمسين سنة تجري مراسم تجديد النار . فقطفاً كل النيران وتشعل من جديد النار المقدسة . وذلك بأن يضحي الكهنة بأسير في منتصف الليل على رابية قريبة من مدينة مكسيكو . فيشعلون النار فوق صدر الاسير وتوزع النار من هناك بالمشاعل .

التوبة والاعتراف . ان من اهم خصائص دين الازتيك وجود الرياضة والاعتراف وفي اثناء المراسم العديدة يستنزف الناس الدم من لسانهم ومن آذانهم وسيقانهم باشواك نبات خاص ويقوم الكهنة في بعض الحالات بنصيب كبير وذلك بثقب لسانهم وامرار قضبان القصب من الثقوب ومن الرياضة الجسمانية الصوم بصرامة وشدة . ويجري الاعتراف في يوم معين يدعوه تلازدل تثوئل وتزكات ليوكا ومن قبل الكاهن بموجب التقويم ولا يبرأ المتهم امام الله فحسب بل امام العدالة البشرية ايضاً ومع ذلك فان البراءة لا تمنح الا مرة واحدة .

الضححايا البشرية : - يبدو ان تضحية الضحايا البشرية التي امتاز بها دين المكسيك القديم ازدادت اكثر فأكثر كلما تطورت الحضارة الازتيكية وكثر عدد الشعوب التي خضعت للازتيك وبموجب المنقولات الموروثة ان الملك (أهويتزوتل) حينما ارتقى العرش سنة ١٤٨٦ ضحى بعشرين الف اسير . وتجري التضحية البشرية على الوجه التالي : - يؤتى بالأسير الى قمة الأهرام ويلقى هناك على صخرة محدبة . ويبقر الكاهن صدره ويقلع قلبه ويعرضه على الشمس . وجدير بالذكر ان الازتيك لا يقتلون اعداءهم ولكنهم يقتلون الاسرى بالجملة . وهناك قربان اكثر خطورة وأعظم شأناً هو تصور الناس ان الضحية تمثل الاله الذي يقدم اليه القربان . مثال ذلك تضحية الشاب للاله تزكات ليوكا الذي يتركونه سنة معزراً مكرماً . يتذوق أحسن الطعام ويكتسي لباساً مزيناً برموز ترمز الى

اوصاف الاله وبذلك يكون شبيه الاله وفي نهاية السنة يعرفونه من لباسه وزينته ويضحون به فوق هرم بعيد دون ابيه وفخفخة وتستهلك الجثة توأ في مائدة طقسية ويقلع قلب الضحية ويسلخ جلدها وهناك تضحية اخرى تسمى احداها بالعب المصارعين إذ يتقاتل المضحى به مع محاربين من الازتيك . واخرى تجري بقطع الرؤوس وتضحية ثالثة ذات علاقة بالطقوس الزراعية .

الكهنة : - ومن الطبيعي ان شدة التزم الطقسي في دين الازتيك يتطلب وجود هيئة كهان كبيرة . ويوجد كهنان عظيمان يسميان ليتزال كواتل يتقدمان على طائفة الكهنة . ويمارس احدهما بصورة خاصة عبادة الاله (هويتزل لوبوستلي) أما الآخر فيختص بعبادة تلالوك . ويأتي من بعدهما سلسلة مراتب معقدة . وتوجد مدرسة لتعليم المستجدين في الكهانة والاشراف بوجه عام حتى اذا لم يوقفوا انفسهم للكهنوت فيجب عليهم ان يكتسبوا معلومات دينية وافية . يضاف إلى ذلك ان ملك الازتيك وناثبه لها طابع ديني بين ومن مهام الكهنة الرئيسية التنبؤ الذي يعتمد على التقويم وأخيراً يوجد سحرة يؤجرون خدماتهم في التنبؤ عن المستقبل ومعالجة المرضى وهناك بعض الفتيات يوقفن أنفسهن لخدمة الاله الى ان يتزوجهن (١) .

- ٢ -

دين شعب المايا - Maya . - ان الوثائق الخاصة بدين المايا تختلف اختلافاً كبيراً من حيث ماهيتها وقدمها والبلد الذي يجري البحث عنه . لقد خلف لنا نحاتو المايا تماثيل الهة لا نعرف عنها شيئاً . هناك كتاب قديم يبحث عن دين فئة خاصة من اسرة المايا تدعى (كويشه - Quiche) وكتب اخرى تعكس الصور

١ - تاريخ الاديان العام - الجزء الاول -

الحديثة عن دين المايا في شبه جزيرة يوكاتان في جنوبي شرقي المكسيك . واللاكانديون الذين سبقت الاشارة اليهم وهم قبائل اهلية صاحبة دين انحرف عن دين المايا القديم . ولا بد انه اختلف عنه كثيراً لهذا يصعب جداً تشخيص تلك الالهة المنحوتة .

مجمع آلهة المايا . - ان آلهة المايا تتمثل في جوانب المعابد وفي النقوش وتكون على الاكثر هيئة مخلوقات نصف بشرية ونصف حيوانية . أو انها بلامح غريبة وخطوط غامضة تمتاز بها كل الآلهة .

الهة الزراعة . - تحتل هذه الالهة مقاساً ممتازاً في مجمع آلهة المايا . والمطر ذو اهمية بالغة في كل بلد زراعي ولا سيما اذا كان مناخه حاراً . والمطر في هذه البلاد اما ان يكون نافعاً فيساعد على نمو الزراعة ونضوجه واما ان يكون ضاراً اذا رافقته عواصف هوجاء . وبما ان شعب المايا شعب مزارع فقد اهتم باله المطر الذي يقارن بالاله تلالوك الازتيكي . ويسميه الناس في يوكاتان (شاك - Chac) وهو كتلالوك يساعده في عمله عدد كبير من الشاك الثانويين وهو في الوقت نفسه إله الصاعقة وبهذا الوصف يمثلونه قابضاً على فأس من حجر رمز الصاعقة . والاله الآخر له صلة بالخصب وهو (آه بولون تزاكاب - Ahbolontzacab) ولا بد ان يكون الاله الممثل في المباني الضخمة بأنف مقسم الى فلق عديدة . وللماء ايضاً الالهة يتوج الثعبان رأسها . ومن جملة الالهة حماة الزراعة اربعة آلهة تقف في زوايا العالم الاربع لتدعم السماء . ولجميع هذه الآلهة علاقة باله الذره (يوم كاكس - Yomkaax) الذي يحتاج في اعماله الى مساعدتها ويمثل في اعلى الخوذة بصورة سنبل ذرة وعلى رأسها كتابة هيروجليفيه (الكتابة الصورية التي امتازت بها مصر القديمة) كانت فيما مضى تعبر عن الذره ذاتها الالهة الشريرة ان دين المايا دين ثنوي بكل معنى الكلمة . ان إله الذرة يحميه اله المطر والخصب وهو في قتال مع القوى الشريرة . والاله الشرير الرئيسي (آه بوش - Ahpuch) المائل للاله الازتيكي ميكتلان تكوهتلي إله الموت يمثل بمجموعة عارية عن اللحم ويحكم إله الموت في جهنم وتسمى (ميتنال - Mitnal) ان قبيلة كويشه تسمى عالم

باطن الارض (كسي بالبان - Xibalban) والاله الرئيسي فيها الحطاف (كامازوتز - Camazotz) ويضاف الى هذه الآلهة الالهة الموت والشر (يوكستاب - Yuxtab) شفيعة المنتحرين ولا سيما الذين يشنقون انفسهم . وتمثل في النقوش مجبل ملتف حول رقبتها .

الكواكب والسماء . - تسمى الشمس في يوكاتان (كينكل - اهاو - Kinicl-ahau) وتتميز بشكل حازوني وبالكتابة الصورية الهروغليفية الشمس (كين) المرسومة في لباسها وعلى رأسها . والازتيك يجعلون صلة وثيقة بين الشمس والحرب والصلة بينهما عند المايا اقل وثوقاً مع ذلك يشاهد احياناً على تروس المحاربين صورة الشمس . ويوجد إله للسماء والهة خاصة بالنجوم فنثلايمثلون إله نجم الجدي برأس قرد . ويبدو ان المايا في زمن الفتوحات جعلوا الاله (يوتزامانا - Yutzamana) في المحل الاوسط في مجمع الهتهم . ولعل هذا الإله هو نفس الإله الذي يظهر في الكتابات وفي المباني الضخمة بانف اقنى وناصية بارزة وفم واسع بلا اسنان عدا ناب واحد ويظهر انه شريك عدة نجوم وانه يحمي إله الذره . وهو بلا ريب إله سماوي . وكان ذا صلة وثيقة بالاله كنيكل اهاو الاله الشمس ومن جملة الابداعات التي تنسب اليه الكتابة الهيروجليفية .

الاساطير . - ان شعب المايا والكويشه كشعب الازتيك يعتقد باربعة ادوار متعاقبة وينتهي كل منها بكارثة عظيمة وفي اساطيرهم ان الطوفان هو الذي أنهى الدور السابق للدور الحالي . ونطلع على الخرافات الكونية في كتاب (بوبل فوه - Popl vuh) الباحث عن اساطير الكويشه ولقد تعاون ثلاثة آلهة في خلق الارض في بداية الدور الاول وهم (هون اهبو - Hunahpu) و (جو كوماتز - Gukumatz) و (هراكان - Hurakan) وهذا الاخير إله العاصفة وقد اشتقت كلمة (اوراجان - Ouragan) العاصفة من اسمه ويعتقدون بان اول انسان صنع من التراب . ولكن الالهة لم يرتاحوا من عملهم هذا فحطموه ولم يبق من ذلك الانسان الاول الا عدد قليل انقلب الى قرده . اما الجنس البشري الحالي فقد صنع من الذرة التي اكتشفها

الالهة وللجهات الاربع شأن عظيم عند المايا والاربعة (باكاب Bacab) تسند السماء على اكتافها في اربع زوايا العالم ، وقد وضع الى جانب كل منها شجرة عظيمة تمتد جذورها الى باطن الارض . ويلتجأ الى فروعها ارواح بعض الموتى ولا سيما المنتحرين وجعلوا الكل جهة لون والساند باكاب وعدة سنوات ٠ -

الاله الساند	اللون	الجهة
كاوزيكال - Kauzical	الاحمر	الشمال
هوزانيك - Hozanek	الاسود	الجنوب
هوبنيل - Hobnil	الاصفر	الشرق
زاكزيني - Zaczini	الابيض	الغرب

العبادة والطقوس : ان التقويم الطقسي (تزولكيل - Tzolkil) يقابل تقويم الازتيك تونالاماتل وهو المسيطر على الحياة الشعائرية عند المايا ، ويستخدم كأساس للتنبؤ ، ويتضمن (٢٦٠) يوماً بما في تقويم الازتيك كل منها يعين بعدد من واحد الى ثلاثة عشر ، واسم يختص بسلسلة من عشرين سلسلة ومن جملة التكاليف التي يفرضها التقويم في بعض اوقاته .

شهر (بوب - Pope) وهو الشهر الاول يجري فيه التطهر بالصوم والبخور وإشعال النار الجديدة واعادة صبغ الدور . والشهر الثالث (زيب - Zip) يحتفل فيه بعيد الاله يتزامنا ويفرض فيه الكهنة الكتب المقدسة على الشعب ويتنبأون بواسطتها بحوادث السنة مستندين في ذلك الى الحسابات الفلكية والشهر هذا مخصص للمراسم التي تجري باسم الهة الصيد البري والبحري . وكذلك للاله زوجها . اما الشهر السادس ففيه يجري الاحتفال باعياد الإله كوكولكان - (kukulcan) في يوكاتان .

القربان والتوبة : - لم تظهر الضحايا البشرية في دين المايا الا في عهد حديث ولم تكن كثيرة ويجوز ان تكون هذه العادة من أثر المكسيكيين الذين سكنوا في الهضبة العالية . وتتألف التقدّمات بالدرجة الاولى من الذرة بصورة حبوب

او عجينة ومن اللبان او الشراب كوبال . وتقدم أيضاً ضحايا الحيوانات . ولا تستعمل الضحايا البشرية الا في يوكاتان . وهي اما ان تكون بقلع قلوبها كما يفعل الازتيك او بربط الأسير وطعنه بالحرا ب . وهناك نوع من التضحية وذلك بالقاء الضحايا البشرية في هاوية مع جمع من الحيوانات ومواد ثينة وتقدمات اخرى . ويعتقد الناس بأن هذه الضحايا تبعث الى الحياة بعد ثلاثة ايام . والتوبة الفردية تجري على مقياس واسع وذلك باستنزاف الدم من الاذن واللسان .

الكهنوت : - ان كهنوت المايا كثير العدد وبالغ الخطورة في الحياة الاجتماعية وهو يمارس واجبات عديدة فيجري المراسم والطقوس ويحافظ على الكتب المقدسة ، ويطالع النجوم ويحسب الحسابات الفلكية ويقوم بالفأل والتنبؤ . ويبدو ان دوره كان عظيماً في تشييد المدن الكبيرة اوسوماسنتا - *usumacinta* ففي يوكاتان يوجد كاهن أعلى وكانت مهمته أرثية ويأتي من بعده كهنة يقومون بالمعجزات ويتنبأون عن المستقبل وهناك كهنة يقدمون القرابين ويلعبون دوراً عسكرياً أيضاً لأنهم كانوا يختارون رئيسهم من الجيش . وثمة كهنة آخرون يشتركون في بعض المراسم والكهنة موضع تقدير واحترام وينبغي ان يكون نفوذهم السياسي عظيماً وكان الاشراف يقومون بواجبات دينية وكان بعض الفتيات يعشن في الأديرة ولا يتزوجن الا بعد خروجهن^(١) .

- ٣ -

دين الانكا - Inca : - (٢) في امريكا الجنوبية : - حينما وصل الاسبان الى بلاد بيرو كانت امبراطورية آلانكا تسيطر على جميع البلاد الاندية (جبال

١ - تاريخ الاديان العام ، الجزء الاول .

٢ - اسم الملوك الذين كانوا يحكمون بلاد بيرو والذين اسسوا امبراطورية واسعة فيها .

الانديز) وكانت منظمة تنظيمياً متيناً وذات سلطة مركزية . وكان لها دين رسمي يمتاز بعبادة الشمس التي فرضتها سلطات الانكا على اهل البلاد الخاضعة لها وكان هذا الدين دين الدولة بكنهوته وطقوسه اداة بيد حكام الانكا يضمن لهم السيطرة على البلاد . ورغم هذه السلطة الدينية المركزية فلم يتدخل المحكومون عن دينهم بالكلية وقد تشرب الدين الرسمي الى حد ما بعبادات القبائل الداخلة في الامبراطورية ولم يسع حكام الانكا القضاء عليها ولا سيما بعد ان نقلت الالهة المغلوبة الى العاصمة (كوزكو - Cuzco) وبذلك اضاعت هذه الالهة استقلالها ولكنها لم تفقد وجودها .

الدين القديم قبل سيطرة الانكا : ليس لدينا سوى التخمين والفرضيات عن معتقدات الحضارات الساحلية في بيرو التي تدعي (نوزكا Nozca) اذ لا نعلم عنها شيئاً سوى ما بقى من الاثار القديمة والمصنوعات الخزفية بصورة خاصة . وبلاستطاعة الوصول الى معرفة مجمع الالهة النوزكي من الرسوم والنقوش المرسومة على الاصص (مزهريات) وهي بلا شك تمثل الالهة ، تظهر للرائي بهيئة غيلان مخيفة . ان الشيطان القط والشيطان الطير والاله بالف مخلب ومخلوقات بمظاهر غريبة تحمل السلاح والرؤوس المقطوعة وتلبس هذه الالهة بوجه عام قناعاً لا يخفي الا اطراف الفم مزيناً بشوارب كناية عن القط الذي يمثله .

كونوبا وهواكا Conopa Huaca ان الاوضاع الدينية الاكثر بدائية والتي ترى لدى الشعوب الاندية في عهد الانكا والتي ما تزال اثارها ظاهرة بمقياس واسع تتميز بعبادات هواكا وكونوبا ، ويطلق اسم هواكا على نوع من المواد التي يتصور ان له قوة سحرية (غيبية او سرية) كالروابي والانهار . الخ ان الارض والاض الام (كانتاهواكا) يتضرع الناس اليها لتمنحهم غلة طيبة ويسكبون شراب (شيشا - Chicha) المسكر والذره المدقوقة على التراب باسمها وقيل ان الانكا سعوا لادخال هواكا في مجمع الالهة الرسمي ورفع منزلتها غير المشخصة

الى الصور المشخصة وكان من امر ذلك ان اله النهر (ابوريماك - Apurimac) مثل باصنام كانت امرأة من الاسرة الامبراطورية تحرسها وبذلك انقلبت الهواكا من قوى الطبيعة الغامضة الى الهة مشخصة لها اسماء ولها مقامها في الدولة .

اما الكونوبا فهي الهة اسروية لا تعبد كالهواكا من قبل القبائل والاهلين المحليين بل تعبدها الاسرة الفلانية او الفرد الفلاني ان معنى (هواس كامايوك - Huasicamayc) اي حارس الاسرة ذات مغزى . ويطلق الكونوبا احيانا على الرقيات والتعزيمات او الطلاسم التي تحمل لتجلب السعادة لصاحبها .

الاله الخالق : تشاهد في شواطئ المحيط الهادىء او في الهضبات العليا الداخلية مخلقات اله ينبغي ان تكون قديمة جداً . وقد نسب اليه خلقه كافة المخلوقات ويسمى هذا الخالق بولراكوشا - Uiracocha) في الهضبات و (باشاماك - Pachmac) في السواحل . ويبدو ان هذا الاله الخلاق كان يدعى قبل الانكا (كون سيسي - Concici) ويورايا - Yoraya ويارما Yarma) ويطلق هذا الاسم الاخير على الإله الخلاق الذي يدعى باشا كاماك ايضاً وكان يعبد في مدينة الحج في سواحل بيرو . ويظهر ان هذه العبادات كانت شائعة حتى الزمن الحديث مشفوعة بعبادات الحيوانات . ويظن ان الامبراطور (باشكوتك - Pachacutec) امر باخراج هذه الاصنام الحيوانية من المعبد في القرن الثالث عشر . وفي زمن الفتح الاسباني كانت العبادة توجه الى باشا كاماك بصورة بشرية ويقدم اليه الذهب والفضة . ويستبان ان الاله يوبرا كوشا كان ذا علاقة وثيقة بمحضارة الانكا العظمى في تياهو انكا . ولعل هذا الإله المنحوت في المباني بخصائص شمسية لان الصلة بين الإله الخلاق وبين الشمس ليست بعيدة الاحتمال . ومهما يكن فان عبادة يوبرا كوشا تتقدم كثيراً على دين الانكا الرسمي في عبادة الشمس . ويعزى الى يوبرا كوشا الطوفان الذي يظن انه حدث ليحطم الجنس البشري الذي سبق الجيل الحالي باستثناء رجلين اتقدهما الاله وللاله خادمان (تراپاكا - Trapaca)

و (تونابا – Tonapa) يظهر انها انعكاس لشخصية يوبرا كوشا الالهية .

الاله الخلاق دين الانكا الرسمي . - ان هذا الإله القديم إله البحر المحيط الهادىء وسلسلة جبال الانديز كان يتمتع بمركز ظاهر في صميم الدين الامبراطوري . ويجوز ان عبادته لم يطرأ عليها تغيرات في عهدا وائل الاسرة الامبراطورية ولكن الانكا الثامن (هاتورن كوباك – Hatoncupac) يظن انه اتخذ ذلك الإله حامياً للأسرة الامبراطورية . وقد تولى هذا الانكا في زمن عصيب كانت فيه الفتوحات السابقة قد تهددها الخطر وزعم ان الإله يوبرا كوشا زاره بهيئة شيخ وقور وعرفه بالمسلك الذي ينبغي له ان يسلكه . وبعد حرب ظافرة ازيح بها الخطر عن البلاد . ولذلك سمى هاتورن كوباك نفسه باسم (يوبرا كوشا انكا) وقد عمل خلفه على تقوية عبادة ذلك الإله . ويروى عنه انه جمع الكهنة وسألهم فيما اذا كانوا يعرفون إلهاً اعظم من الشمس . ولما اجابوه بالنفي اعلن ان الإله يوبرا كوشا يجب فيما بعد ان يتقدم على الشمس ذاتها ويغدو رئيس الآلهة في مجمع الآلهة واخذ الانكا بعد ذلك يتوجهون الى الشمس بعبادتهم ويخاطبون يوبرا كوشا كأنه احد اصدقائهم لانه من الاسرة الامبراطورية التي نزلت من صلب الشمس . ولا يخاطبون الشمس الا بخشوع . ورغم هذه التبدلات يتقدم يوبرا كوشا على كل الالهة فلم تجر تعديلات في دين الدولة الرسمي الذي كانت الشمس فيه في المقام الاعلى . ويجوز ان التبدلات المذكورة لم تؤثر في اوساط الدولة العليا . اي الكهنوت والاشراف . وكان يوبرا كوشا بعيداً بصورة خاصة في مدينة كوزك وتوجه اليه العبادة بصيغة كانت حقاً ما وراثية . اذ يعلن بها تفوقه على جميع المخلوقات وانه حاضر في كل مكان وهو القادر على كل شيء .

الالهة الرسمية . - ان دين الدولة الذي كان قد ارتبك كثيراً بسبب الفتوحات التي تمت في كل الجهات حيث استقر الانكا فيها كانت الشمس (انتي – Inti) المحور الاساس فيه ولعل هذا الإله لم يكن قبلاً الا إلهيجمي الاسرة اي كونوبا . ويروى ان اول انكا (مانكوكباك) وخلفاءه الاقدمين كان لهم بمثابة نفس

حامية - طير يسمى انتي . ان استخدام الطير بمثابة رمز للشمس شائع في الاساطير الالهية في امريكا . وعلى كل حال اصبحت الشمس بتوسع حكم الانكا تدريجياً الاله الموزع للحياة والمنعم ذي الجلال . وقد اشترك معه القمر (كويلا - Quilla) فاختص به (كويا - Coya) الامبراطورة مثلما اختص الشمس بالانكا الامبراطور . ان الآراء مختلفة بصدد القرابة الموجودة بين الشمس والقمر وتزعم بعض المتقولات الموروثة انها زوج وزوجة واخ واخت كما شاع في عرف الانكا لانهم كانوا في آخر عهدهم يتزوجون باخوانهم والى جانب هذين الالهين توجد آلهة اخرى عديدة اكثرها ذات صبغة سماوية كالرعد (يولابا - Yullapa) . والهنود في جبال الانديز ما يزالون يعتبرون المحلات التي سقطت فيها الصاعقة مقدسة . وكانوا يعتبرونها خادمة الشمس وكذلك القوز قرح . اما القمر بوصفه انثى فلها خادما شرف (شويشو - Chuyechu) اي كوكب الزهرة و (شاسكا - Chasca) اي الثريا . وبما ان الدين الرسمي قد امتص للمعتاد والمعتقدات المنتشرة في الامبراطورية فلذلك انتشرت عبادة الارض الام (باش - ماما - Pachmama) .

المعبد الرئيسي (كوريكانشا - Coricancha) . - ان المعبد الرئيسي للامبراطورية هو كوريكانشا الواقع في مدينة كوزكو ويحوي الصور المعدنية للشمس والقمر . وفي المحراب الكبير تمثل البروج المختلفة ولا سيما الثريا والجدي . والرواة متفقون على فخامة هذا المعبد الذي كان مزينا بجميعه بالواح الذهب . وفي قاعة المعبد توجد موميات الاباطرة وضعت على قواعد من ذهب . وكانت الموميات سواء اكانت حقيقية ام رمزية تصف صفاً والوجوه موجهة نحو المحراب وكانت مومياء الامبراطور هو ياناكيان وحدها موجهة نحو صورة الشمس . وكذلك وضعت موميات الامبراطورات امام صورة القمر . وكان الرعد والقوس قرح والنجوم اماكن خاصة في المعبد . وفيه كثير من المشتعلات من محلات السكن للكهنه والحدم والطباخين وغير ذلك . ويذكر الرواة ان النباتات والحشائش والازهار والحيوانات في حديقة الشمس كانت مصنوعة من الذهب . وعلى رأس

الكهنوت الملحق بالمعبد شخصية دينية ذات شأن تأتي بعد الامبراطور ، الا وهو الكاهن الاعلى . وكان ينتخب من بين اقرباء الامبراطور الاقربين . العم او الاخ ومن بين الكهنة . اما الكهنة الاهلون في المعبد الذين يتولون مناصب عالية فينبغي ان يكونوا هم ايضاً من دم الانكا ، وينتمون بوجه عام الى الاسرات القديمة من الرؤساء في المقاطعات وما ان تخضع لحكم الامبراطور الا ويقوم فيها دين الشمس وتشييد فيها معابد للشمس في الاماكن المهمة . ويؤلف الكهنوت المحلي وكهنة عائلات الاشراف في المقاطعة وبهذه الطريقة يرتبط المغلوبون بالنظام الجديد . وكان الانكا بوصفه ابن الشمس والمثل لها في الارض يرى ان سلطته تتمكن من النفوس وكانت اراضي الامبراطورية مقسمة من حيث الادارة الى اقسام مختلفة وكان احدها خاص بالشمس ويستغل باسم المعبد ورجال الدين . وكانت الارض الخاصة بالمعبد يعلمها الاهلون ، كما كانت قسم من قطعان اللاما يخصص للمعبد ويسمى قطيع الشمس . وبذلك كانت العبادة الرسمية تتمتع بقوة اقتصادية قوية الاحكام ، فتلعب دوراً خطيراً في النظام الاجتماعي .

المرامم والطقوس . - تنطوي السنة المراسمية (هواتا Huata) على اثني عشر قرماً وكان مجراها ينظم الطقوس الرئيسية . ومن الطبيعي الا توجد مراسم في جهات اخرى تفوق في عظمتها وابتهتها الاعياد التي يحتفل فيها في كوزكو العاصمة حيث يشترك فيها الامبراطور بنفسه على الاكثر بوصفه الرئيس لدين الدولة . وفيما يلي اهم الاحتفالات السنوية . -

الشهر الاول - (انتيب رايمي - Intipraymi) . - الاحتفال بمعبد الشمس الكبير يحضر فيه الموظفون الكبار والاشراف في المقاطعات ويجري الامبراطور بنفسه الطقوس باسم جده الاسطورة (الشمس) ويساعده الكاهن الاعلى ويقدم مشروباً يتقاسمه الحاضرون من النسل الامبراطوري . ثم يقدم الى الاله الكؤوس الذهبية التي شربوا بها . ثم يضحى بلاما سوداء فيقتلع الكاهن امعاءها ورتيبتها وقلبها . ويتنبأ بالحوادث التي تحدث في السنة الجديدة بشؤم او سعد . ويعقب

نحر ضحايا كثيرة فيأكل لحومها الحاضرون باحتفال مهيب . ثم يبدأ طعام الافراح ولا سيما اذا كانت السنة سنة سعد . فيكثر الحاضرون من الشراب ثم يعود الموظفون والاشراف الى بلادهم بعد تسعة ايام ، حاملين معهم هدايا الانكا .

الشهر الثالث . - وهو شهر البذار . - يفتح الكهنة موسم الحرت بحرث طقسي من مزرعة الشمس ويضحى بعدد من اللاما وتسكب جعة الذرة على التربة بمثابة مقدمة للارض .

الشهر الرابع . - يحتفل في هذا الشهر بمراسم عيد القمر بويرا كوشا ، وبصورة خاصة تجري المراسم بابعاد الشر عن مدينة كوزكو ، وبهذه المناسبة ينفي الاجانب والمصابون بعاهات . ويدير الانكا والكاهن الاعلى الاحتفال ، ويخرج صورة بويرا كوشا من المعبد وينتظر طلوع القمر ويخصص الشهر السابع باسم الصبيان من طائفة الامبراطور . وفي هذه المراسم يعرض الصبيان الى سلسلة من الاختبارات الرياضية الشاقة تحت اشراف اناس ذوي تجارب ، ثم يصومون ستة ايام وبعد الصوم تجري تجربة السير على الاقدام الذي ينتهي في حضور الامبراطور . ثم يوزع الالبراطور الهدايا عليهم حسب نتيجة الاختبار ويضع في آذانهم الزينات بنفسه . وهكذا يصبح الصبيان من المحاربين بعد الاشتراك في مراسم ذات صبغة عسكرية تجري في الشهر الذي يليه .

اما الشهر الاخير فيخصص للذرة - وتجري مراسم عظيمة لحصاد الذرة في مزارع الشمس (ساناسيرا - Sanasera) بالقرب من كوزكو وتقدم كل اسرة العبادة باسم (ماماسارا - Mamasara) الام الذرة - بدفن كومة صغيرة من الحبوب في تربة كل مزرعة .

اسلا - Aclla) ومن الامور التي تلفت الانظار كثيراً في دين الشمس هي وجود اسلا ، اي نط من الراهبات اللاتي اوقفن انفسهن لخدمة الشمس . ويسمين ايضاً بنات شرف للشمس يسكنن الاديرة في كوزكو او في المقاطعات اما اللاتي يسكنن في كوزكو فيجب ان يكن من العرق الامبراطوري فيشتركن

ببعض الاحتفالات ويهيئ الشراب والطعام المخصص للتقدمات . وينسجن لباس الانكا والكويا . ومن المحتمل انهن لا يبقين مدة طويلة في الدير ويتزوجن بعد ذلك بالشخصيات العليا ، وبوسعهن ان يكن زوجات ثانويات للانكا . واخيراً يوجد السحرة الذين يراجعهم ابناء الشعب بمناسبات مختلفة فيتنبأون بالمستقبل ويعالجون المرض ويلعبون باليانصيب (١) .

وقد برز بين الانكا رجال عقلاء وقد لاحظ احد هؤلاء في القرن الخامس عشر ان الشمس تدور في فلك لا تحيد عنه ، فتبين ان الشمس ليست حرة في تصرفاتها وانما تسير بارادة اله اعلى منها يأمرها بان تسبح في الفلك نفسه .

دين الاسكيمو ودين الشامانية

- ١ -

دين الاسكيمو : ان شعب الاسكيمو مدين للحيوانات التي تعيش في المناطق الثلجية . ويعتمدون الى حد ما على هذه الحيوانات في معيشتهم . ويبدو ان الاسكيمو اخر ممثل العرق الذي عاش في اوربا في نهاية الدور الجليدي الاخير وقضى عليهم الانجباد . يسكن الاسكيمو في الوقت الحاضر في المناطق الشمالية الباردة في امريكا وفي اقصى الشمال الشرقي من آسيا . ويتميز شعب الاسكيمو بربع مجموعات سكنية تقطن في مناطق جغرافية خاصة وهي :

اسكيمو آسيا في اطراف مضيق بيرنج، واسكيمو الاسكا واسكيمو الوسط في ارض بافن وهدسون واسكيمو جرينلاند الذين ينقسمون في دورهم الى غربيين وشرقيين وقد انزل بعض تلك المجموعات (شرقي جرينلاند) عن بني جنسهم منذ زمن بعيد جداً . واستطاع شعب الاسكيمو ان يحافظ على حضارة متشابهة بعض التشابه ذات طابع خاص . وعلى الرغم من ظهور المسيحية بينهم فقد ظل الاسكيمو متمسكين ببعض الطقوس التي تدل على تمثلات دينية قديمة .

ان اكثرية الاسكيمو البحريين في جرينلاند وبافن يمارسون عبادة الالهة البحر اعظم اله معروف لديهم والالهة هذه بوصفها تجسداً للمبدأ النسوي وموزعة الخيرات وسيدة الحيوانات البحرية وحامية التقاليد الموروثة و (الامراة القديمة لبيت العالم) تعيش في اعماق البحر في مسكن مبني بالثلج والحجارة ، او من اضلاع حوت البالينا ومغطى بجلود الفقمة . ان الاسم الذي تمتاز به هذه الالهة

يكون بوجه عام ذا صبغة وصفية يتبدل تبعاً للجماعات التي تعيش في المناطق المختلفة فتكون تارة الامراة ذات الجلال وتارة نفس الاعماق البحرية وطوراً مسكن اللحم . وتسمى في جزيرة بافن (سدا - Sedna) وتكون بصورة عامة فتاة لا يرغب أي رجل ان يتزوجها ولعل هي نفسها ترفضهم وفي ذات يوم حينما كانت تمخر مع ابياها في البحر ثارت زوبعة هوجاء ولكي يخفف الاب حمل الزورق اراد ان يلقيها في البحر، ولما تمسكت سدا بقاع الزورق قطع ابوها اصابعها الواحد تلو الاخر ثم فقأ عينيا . ولما سقطت في الماء انقلبت اصابعها الى حوت البالينا وعجول البحر والفقمة وغطست هي في العالم السفلي واصبحت سيدته . ويظهر من بعض النصوص انها خلصت البشر من الكلب وسراج سدا . ويروى ايضاً انها تزوجت بكلب أو انها اتخذته حارساً لبيتها وانها تقبض بسراجها على الحيوانات الخاضعة لها مباحرة ويكفي ان تغير محل السراج لكي يفتح الطريق الى الصيد الذي يترقبه الصيادون وحينما يراعي الناس قواعد السلوك المتعددة رعاية تامة وبوسعهم ان يعتمدوا على الطاف ام الحيوانات البحرية ان ارواح الحيوانات التي تقتل في ظروف عادية تجمع اليها فتحميها مدة من الزمن ثم تعيد اليها هيئتها الحيوانية الحية وتطلقها من جديد ليصطادها الصيادون ولكنه على عكس ذلك اذا انتهك احد المحرمات واذا خرقت بصورة خاصة قاعدة من قواعد الصيد فان الحيوانات المقتولة تتألم اشدالام مما يؤثر في ايدي الالهة المخدوعة فيسبب لها الالم فتغضب على الناس وتمنع الحيوانات من الخروج الى سطح البحر ويحرم منها الصيادون والى جانب هذه الالهة الانثى لحمأ ودمأ يعرف الاسكيمو الها عظيماً اخر . يمثل قوة الرجولة الخصب والشديد والعنيف وسيد الصاعقة والثلوج رجل القمر . وهو الاله الرئيسي عند اسكيمو البر ولا سيما عند اسكيمو شبه جزيرة الاسكا الذين يجهلون وجود للإلهة البحرية وينسبون وظائفها الى نفس القمر . ليس لهذه الاله اية صلة بها . وهو يسكن في العالم الاعلى في بيت مجاور للقمر . ويهبط الى الارض عن زاحفة تجرها الكلاب . ان قرينته الانثى هي اخته الشمس . وقد عقبها ذات يوم ولكنه لم يستطع اللحاق بها لانها ارتفعت

عالياً جداً . ومنذ ذلك الوقت صارا يغاران على جنس الذكر والانثى ويسعيان لتسهيل او عرقلة نجاح الجنسين . وينبغي للرجال ان يكونوا حذرين في وقت الكسوف وكذلك النساء في وقت الخسوف لان افول الكوكب في السماء يتعارض مع وجوده في الارض . والقمر يتبنى الاولاد ويحفظهم من الامراض والنكسات . واذا مات احد الصبيان يحزن القمر . اما الشمس فعلى عكس ذلك اذ لا قدرة لها اذا قورنت بقدرة اخيها الذي يستطيع ان يحطم البشرية بتسليط الاوبئة عليها عقاباً على مخالفتها للاوامر المرعية . وهذا الاله رغم كثرة المظاهر التي يتمثل بها . يبدو انه من آلهة الارض مقابل الالهة البحر .

ومن بين النفوس العظمى في مجمع آلهة الاسكيمو الاله الذي يخافه الناس كثيراً وهو الاله « سيلانوا - Silainua » رجل الهواء الذي ينطوي سلطانه على الهواء والفضاء في العالم وعلى الذكاء والمقدرة أيضاً . ان بعض اعمال هذا الاله تختلط باعمال رجل القمر . ان سيلانوا يراقب سلوك البشر ويعاقبهم اذا انتهكوا المحرمات . ويقاصص الناس بطردهم من البلد الذي يسكنون فيه ويحرم عليهم الدخول في بعض البلاد التي يريدون ان يسكنوا فيها . ويعاقب المرأة بقلب الولد الى بنت ابان الحمل .

ويبدو ان عبادة هذا الاله تبرز عند اسكيمو الرنه « الوعل » في غربي خليج هدسون بينما الالهة المطر (اسيك - Asiq) هي التي تتصرف في الاجواء والرياح في بعض المناطق وفي جرينلاند الشرقية بصورة خاصة . وما عدا هذه الالهة العظمى التي اشرنا اليها فإن اساطير الاسكيمو تتضمن عدداً من الطقوس تتفاوت درجة قوتها . ويؤدي بعضها اعمالاً معينة سواء بصورة مستقلة او بوصفها خادمة لنفوس عليا .

ولا يتصل الناس بالارواح البتة الا بواسطة الكهنة السحرة الذين يسمون « انجاكو - Angakko » ان طابعهم السحري لا يختلف عن طابع الشامان الاسيوي نفسه . ينفذ الانجاكو - بمساعدة الارواح التي حالها او اخضعها في عالم الارواح لمساعدة البشر . ان النفس التي تقوده في هذه السياحة هي نفس تنتمي

الى طائفة « تورنارسوك » ويحتمل جداً ان تكون من أصل حيواني . وفي حالة الجماعة يرسل احد الانجاكو للتفتيش عن ارواح الحيوانات التي تفك عقالها سيدة البحر . او انه هو بنفسه يسوقها لتجهيز محلات الصيد بها . وقبل الشروع بسياسة شبيهة يجب على ساحر الاسكمو ان يشرح السبب الذي من اجله حلت المصيبة ببني قومه اي ايضاح طبيعة المخالفة التي ارتكبت ومعرفة المسؤول عنها وفي الحقيقة ان كل مصيبة تعتبر شذوذاً والمسؤولون الحقيقيون عنها هم الذين بخرقهم للاحكام المثبتة يعكرون صفوى مجرى الشؤون الاعتيادية في الطبيعة (١) .

- ٢ -

بعض مظاهر الحياة الدينية عند شعوب آسيا الوسطى والشالية

الشامانية . - ان اواسط آسيا وشمالها تؤلف بلاداً لا يمكن تقسيمها من الناحية التاريخية . ان الشعوب المنتشرة في تلك البلاد الواسعة قامت على مر القرون بالهجرات بنطاق وتعدد لا سبيل للشك في خطورتها . ان ارومة هذه الشعوب ومصاهرتها العرقية والظروف التاريخية التي كونتها ما زالت تنتظر الحل والشعوب هذه شعوب تركية ومغولية . كسعب الطاي وياقوت التركيبي . والطونجوز والبوريات وشوكش وجيلياك وآينو ... وغيرهم ولا ريب في ان اغلب تلك الشعوب تتشابه عرقياً او تتقارب بصلات تاريخية تتجلى في كثير من عناصر حضارتها ولا سيما في اديانها . وعلى الرغم من انتشار البوذية والاسلام والمسيحية بينها منذ زمن قديم فان الاهلين ما يزالون يحافظون على كثير من

١ - تاريخ الاديان العام - الجزء الاول - H. G. R. I

معتقداتهم وممارساتهم القديمة بحيث تشاهد حتى في القرن الأخير في بعض المناطق واضحة جلية . ان الذي يميز هذه الأديان هو الاعتقاد بالنفوس المسيطرة على الطبيعة ، والممارسات الشامانية . ان هاتين الظاهرتين تظهران لأول وهلة مختلفتين كل الاختلاف حتى لكأنهما متضادتين . ولا ريب في ان عبادة الأرواح المسيطرة تبدو أقدم عهداً وأكثر اتصالاً ببناء المجتمع من الشامانية التي تبجل القوة الشخصية . ومع ذلك فان عبادة الأرواح المسيطرة ترافق عادة الممارسات الشامانية . والشامان هو الكاهن . ان الأساطير الشامانية قائمة من حيث الأساس على هذه المعتقدات القديمة .

ان أساس الشامانية وسبب وجودها ينطويان على الفكرة القائلة بأنه لا بد من الاتصال بالعالم غير المرئي . والمفهوم العام في الشامانية يتلخص بأن العالم البشري ليس إلا أحد العناصر في منظومة واسعة متسندة من عوالم مترابطة يتبع أحدها الآخر . وتحدث تبدلات منتظمة أو عارضة . والكون في الشامانية يتكون من ثلاث مجموعات من العوالم الواحدة فوق الأخرى . وينقسم أعلاها وأدناها ، كما جاء في الأساطير الخاصة الى عدد مختلف من الطبقات أو المناطق . ان وحدة هذه العوالم تبدو جلية في مفهوم قبائل الشوكش القائلة ان العوالم منطبقة فوق بعضها بحيث ان أرض أحدها يشكل سماء الآخر . ويتم الاتصال بينهما بواسطة مدخنة فوهتها تحت كوكب الجدي . والبشر يعيش في العالم الأوسط . وليس البشر وحده يعمر هذا العالم ، بل يوجد فيه مخلوقات من أنواع أخرى غالباً ما تكون غير مرئية تقطن الجبال والأدغال والانهار والبحار . ان أكثر هذه المخلوقات عدداً هي الحيوانات التي يؤلف كل نوع منها عشيرة خاصة تخضع لروح مسيطرة . والعشائر هذه ليست متساوية القوة . فالدب هو المسيطر على شعوب الغابات ، ولحماكها من السلطة ما يستطيع ان يقود الأنواع السفلية الأخرى . حتى أسماك المياه العذبة والى جانب هذه المملكة الحيوانية فان الجبال والاحجار والاشجار ايضاً أهلة بنفوس من أرومة أسطورية وهي بوجه عام أرواح بشرية أو حيوانية انعزل بعضها عن البعض الآخر لأسباب

عارضية . وتأتي في الأخير النفوس الحائمة في الهواء ، عددها يفوق الحصر وهي ضرب من الخارجين على القانون أو المتشردين جاؤوا من كل أرجاء العالم ليعيشوا في الأرض فساداً وليحدثوا الخلل في مجرى حياة البشر الاعتيادية .

ان موقف البشر حيال الجماعات الأخرى من المخلوقات هو موقف الشريك من شريكه . والرابطة التي تربطه بها ذات طابع تعاقدي . فقبايل (الطونجوزناني Toungousnani) في حوض نهر امور مثلاً يعتبرون عشيرة الدب هي التي قدمت الذكر لأول عشيرة بشرية . ولهذا كان الدببة والبشر أقرباء بالتحالف .

ان الصلاة في العالم الاسفل معقدة كثيراً . والعالم هذا واقع تحت الارض ويتصل بسطح الارض بواسطة بعض الكهوف والمهاجر ، او ثقوب مخيفة في قعر المياه وتقيم ارواح الموتى في هذا العالم ، او على الاقل بعض مئات منها . وتعتقد قبائل الطونجوز في منطقة امور وقبايل شوكش و كوريك وجلياك ان بلد الموتى يشبه بلدهم تماماً . اذ يعيش الموتى فيه منقسمين الى عشائهم الخاصة ومنظمين تنظيماً قوياً ومطيعين طاعة عمياء لقانون الاجداد . والكل يذهب كالاحياء الى صيد البحر والبر ويشتغلون بالامور البيتية . ان الطابع الوحيد الذي يميز الموتى عن الاحياء هو طابع الخلود . وعالم الموتى هذا هو نوعاً ما الطرف المقابل لعالم الاحياء .

ويتصور الناس ان الحيوانات المقتولة في الارض تغدو اداة صيد للارواح في بلد الموتى بينما الحيوانات التي يقتلها الموتى تتجسد في الارض وما يحذف من الارض يشاهد من جديد في العالم الآخر . ومن كان قديماً وضعيفاً وفقيراً وميتاً في الارض يغدو جديداً وقوياً وغنياً وحيماً في العالم المقابل . والنهار في الارض يقابل الليل في بلد الموتى . وكذلك تنقلب المواسم . ان بلد الموتى يحتل في العالم الاسفل مكاناً يشبه مكان بلد الشر في العالم الاوسط . ان مناطق بعض ذلك العالم أهلة قديرة لا تحتلط بارواح البشر رغم انها تشترك في الحياة العامة . والاتصال بين سطح الارض وباطنها يجري بصورة دائمة ومباشرة بواسطة الاشجار وبعض

الحيوانات التي باستطاعتها الظهور والاختفاء فوراً . ويتضح من ذلك ان البشر الذي تتوقف حياته على المبادلة مع باطن الارض يحتاج الى مساعدة المخلوقات التي تعرف الطريق الذي يربطها بذلك العالم . ولهذا السبب تشاهد احياناً صور تلك المخلوقات مرسومة فوق المواد الطقسية المخصصة لضمان هذا الاتصال والسعي لتسهيله ومهما كانت اهمية العالم الاسفل ومهمة النفوس التي تقيم فيه فان القوى السماوية تحتل في الاساطير احياناً مكاناً اهم . ان تمثلات العالم الاعلى متغيرة ومعقدة كل التعقيد . وبعد ترك الاطايي سبعة عشر سماء الواحدة فوق الاخرى ، يضاف الى ذلك مناطق مستقلة واقعة على حافة المنظومة . اما قبلة البوريات فيعدون تسع سموات في الغرب يحكمها تسع الهة عظام (طنغري سماوي - Tangri) وهما ابناء السماء الرئيس الازلي . ويؤلف اولئك الالهة مع ازواجهم وابنائهم التسعة اسرة يبلغ عددها تسعة وتسعين طنغريا . اما المناطق الشرقية فانها خاضعة الى حكم الهة اخرى تعتبر الهة شريرة . ويقسم شعب الياقوت وهو شعب تركي في اقصى الشمال العالم السماوي الى تسع طبقات يدير كلا منها اله عظيم (توبون) اي السيد . اما قبائل (طونجوز امور) فيظهر انهم يقسمون السماء طبقات ثلاثاً .

والعالم العلوي هو ايضاً اهل بدد كبير من المخلوقات منظمين على مراتب لا تختلف بكثير او بقليل عن تنظيم البشر ، وتكون تلك المخلوقات في الاغلب من اصل بشري لأنه نظراً للمفهوم العام الشائع ان العالم المذكور يتقبل ارواح البشر فدمج المخلوقات بها . والشعوب المغولية التركية تجعل مقر الموتى في محيط السماء . وبذلك يرتبط العالم الاعلى مباشرة بعالم البشر . وهناك منافع مشتركة تحت الارواح باستمرار على التدخل في شؤون البشر والاشترك في حياتهم بصورة فعالة ، والاتصالات بالعالم العلوي حسبما يتبين اصعب من الاتصال بالعالم السفلي ، ومع ذلك فان الجبال والاشجار الباسقات وبعض الطيور (النسر مثلاً) يدلون على الطريق ويتصور الناس ان هناك واسطة ادعى الا وهي السهام .

الشامان : وفي مراتب القوة القديرة يمثل الشامان مقاماً متواضعاً بعض

التواضع . ومع ذلك فان بعض الناس ارواحاً اعلى من ارواح غيرهم ، تتمكن من منافسة النفوس وتتغلب على بعضها وهؤلاء الاشخاص ذوو النفوس العالية ، رجالاً ونساء يرتقون بطبيعة الحال الى مصاف النفوس ويكتسبون القوة للاحتكاك بها والنفوذ فعلاً الى العوالم الاخرى بمساعدتها . يسمى طونجوز المانشو هؤلاء الاشخاص باسم (شامان - Chaman) اما قبائل الياقوت فيسمون الرجل من الشان (اويون - Oyun) والامرأة (يوداجان - Udagan) واما اترك الاطاي فيسمونه (كان اوجان - Kanogan) وهكذا كل شعب من الشعوب الساكنة في اواسط آسيا وفي شمالها الاقصى يسميه باسم مختلف . وقد علمنا ان الاسكيمو يسمونه انجاكوك . وقد استعمل اسم شامان في الدراسات الاتوجرافية فالشامان اذن هو الرجل المهوب بملكة خاصة يستطيع ان يستميل اليه بوسائط خاصة بعض الارواح التي لها قدرة التأثير في الحياة البشرية . والشامانيون متفقون بالاجماع على ان الشرط الاول ، لكي يصبح المرء شامان ، هو حيازته روحاً قوية وشخصية لا مثيل لها ، مستعدة لاجتذاب النفوس لأن كل شامان هو شخص منتخب من نفس تتقدم اليه - بوجه عام في الحلم - وتعرض عليه حلقها معه وتشركه في العالم غير المرئي ان هذا الحلف ذو طابع خاص إلى حد ما ويظهر في الأغلب بمظهر المحبة الرفيعة الحقة . تبديها النفس لمن تختاره من الناس . وتوجد بعض الطقوس للانخراط في سلك الشامان تجري في احتفالات ليلية . وقد لاحظ كثير من العلماء ان النفس الحارسة الرئيسية للشامان لدى عدد كبير من شعوب سبريا تكون من جنس معاكس لهذا نرى الشامان في اللحظة الذي يظن فيها ان جنسه الوصي قد مسه يسعى الى الظهور بمظهر شخصية من الجنس الآخر . وذلك سواء بالتسكّر او بالصوت او بالحركة . وعندما تكون النفس الحارسة بخلاف ذلك من جنس الشامان ذاته وهذا ما يحدث نادراً . فليس للشامان الا ان يتظاهر بأنه غير جنسه وقد يغدو ذا شدوذ جنسي .

وعلى الرغم من الدور الخطير الذي تلعبه تلك المحبة الغريبة التي تربط الشامان بجنة الأوصياء فلا يبدو ان تكون المحبة العنصر الوحيد الذي يعين منشأ

الروابط التي تربطه بعالم النفوس. وفي كثير من الحالات تتأسس الروابط المذكورة بصورة رئيسية بالتعاطف والتساند العائلي إذ ان نفس أحد أجداد الشامان هي التي تختار احد أحفادها لتجعله خلفاً لها وهذا الشامان الجد يطلع حفيده الذي اختاره على أسرار العالم غير المرئي ويعلمه السبل التي يستعملها في إداء مهمته ويساعده في إداء اعماله. ومع ذلك فان مساعدة الشامان الجد لا تحول بالضرورة دون مساعدة احدى زوجات الحفيد الاسطورية بل بالعكس ان منشأى القوى الشامانية يوجدان معاً حتى انها يستطيعان ان يتساند بعض التساند وهكذا يحدث ان النفس التي تكشف عن محبتها لشامان مستقبل تعلن انها النفس الحامية والزوجة لأحد الأجداد الشامان . وانها تود ان تتحالف مع عضو من اعضاء العائلة نفسها . ان عدد الجن الأوصياء للشامان يتبدل نظراً للشعوب . ومرتبة الشامان والاحوال الخاصة فعند قبائل الياقوت مثلاً كل شامان يملك ما عدا الجن الحارس نوعاً من الطوطم الشخصي يدعى الحيوان الام الذي هو مبدأ الشامان الحيوي وقرينه الروحاني ومستودع قواه .

وتصف اكثر الاساطير الشامان بأوصاف العالقة الذين يدافعون من أجل المنافع البشرية حيال قدرة الالهة العظمى وتزعم اساطير البوريات ان الآلهة الخائفة من ازدياد قوة الشامان كادت تحوهم من الوجود بعد ان جهزتهم ببعض قوتها لولا ان الشامان وحدهم يستطيعون ان يقوموا بممارسة السلطة الالهية لان الشامان في الواقع يعيدون السهام التي ترسلها الآلهة الى الارض لكي يتم الاتصال الى حد ما بين الآلهة والبشر .

وعند قبائل البوريات والياقوت والالطاي الترك لا يعترف بالشامان الا بعد اجراء مراسم التلقين للاطلاع على الاسرار . وهي عملية معقدة جدا ويجب على الشامان اثناء المراسم ان يعرف كيف يعرج الى السماء . فيتعلم تعليماً خاصاً ويتجهز بالقوى المقدسة التي يعهد بها اليه اله عظيم الشأن أوعدة الهة عظام . وفي الطقوس يمثل اله السماء ابناءه التسعة بالشامان الشيين ومعاونيه التسعة تراقهم تسع فتيات يمثلن دون شك زوجات أبناء السماء . ويمثل العروج الى السماء بصورة رمزية

بوكب حافل يتسلق جبلاً. ويمثل البوريات العروج ~~بمتسلق تسعة~~ اشجار بالتعاقب حيث يهبط التلميذ ورأسه الى الاسفل - كناية عن الخلوقات السماوية - وبذلك ينفذ إلى السموات التسع الاسطورية وفي أثناء عملية الاطلاع على الاسرار . وفي المراسم التي تجري بهذا الشأن يرتدي الشامان رداءه الخاص وحماؤه الطقسية . ان شكل الرداء وطابع الحمايل يختلفان تبعاً للشعوب ومرتبة الشامان والطبل هو المحمول المتميز في الشامانية ويستعمل لدى كل الشعوب التي يتصدر فيها الشامان . اما المضراب فيحتوى دائماً صورة الجنى ناقل صوت الشامان ويستعمل الشامان ما عدا الطبل وسائط اخرى للتنقل في الهواء . وتعتقد قبائل الياقوت ان ارتداء الرداء الطقسي من قبل الشامان يسبغ عليه ملكة الطيران . وعندما يتسماً الشامان للسفر يجمع حماؤه المقدسة التي تستقر في كل منها قوة من القوى الحارسة . ويستعمل أدواته في العمليات السحرية يستطيع حينئذ ان يجابه عالم النفوس . ويتولى الشامان فعلاً كلامن وظيفه العراف والمطبيب للأمراض . وبوجه عام الحارس على جماعته من شر الخلوقات غير المرئية .

والروح مقامها في بلد الموتى واذا ظهرت في الارض فذلك ضرر يؤدي الى الاخلال بالتوازن الراهن . ولذلك يعتبر الناس وظيفه الشامان مهمة لانه يسوق الارواح . ومع ذلك لا يجوز تجاهل واجباته الاخرى . ولا سيما واجبه كمطبيب ويعتقد الناس فعلاً بأن الامراض تنشأ جميعها إما بسبب غياب الروح لمدة موقته باختطافها من قبل نفس طماعة وإما بتلبس نفس شريرة للجسد وتكون المعالجة باجراء عملية سحرية تستهدف البحث عن نفس المريض الضالة وارجاعها الى مكانها او طرد الدخيل الشرير من الجسد وفي كلتا الحالتين يسعى الشامان سواء بالخدعة أو بالاكراه إلى حمل النفوس المستأثرة الى الاستسلام . فيعدها بوعود خلافة ويسعى إلى اخماد يقظتها ولا يلجأ الى التهديد والتخويف إلا بعد ان يكون قد جرب جميع وسائط الاقناع . (١)

مراجع الكتاب

الكتب العربية

- ١ - نشأة الدين، النظريات التطورية تأليف علي سامي النشار
- ٢ - الديانات في أفريقيا السوداء » هيوبر ديشان ترجمة زكي حمدي
- ٣ - علم الاجتماع الديني » روجر باسند ترجمة الدكتور محمود قاسم
- ٤ - الشعوب البدائية » ليفي بريل ترجمة الدكتور محمد القصاص
- ٥ - العقلية البدائية » بريج ترجمة محمد أحمد موسى
- ٦ - الطوطمية » علي عبد الواحد
- ٧ - تايلور » الدكتور احمد أبو زيد
- ٨ - العقائد » احمد عنایت
- ٩ - الله » العقاد
- ١٠ - منبعنا الاخلاق والدين » برجسون
- ١١ - دينلر تاريخي (تاريخ الاديان) » محمد شمس الدين

الكتب الاجنبية

- 12 - Manuel D' histoire des religions Chaneie de la Saussaye.
- 13 - Histoire generale des religions.
- 14 - Storia de lle religioni Tacchi Venturi.
- 15 - Manuel D' histoire des religions Natha Söperblom.
- 61 - Histoire des religions Felicien Challayo.
- 71 - Introduction à l' histoire des religions.
- 81 - Les formes preliminaires de la vie religieuse Emil Durkheim.
- 91 - La civilization primitive Edaward B. Taylor.
- 20 - Essais sur mythologie comparée. Max Muller.
- 21 - Les origines de la famille. James G. Frazer.

الفهرس

٥	كلمة المؤلف
٩	المقدمة
١٥	تاريخ الاديان وفلسفتها
٥١	النظريات الشائعة عن الدين البدائي الأول
٥٨	عبادة مظاهر الروح
٧١	عبادة مظاهر الطبيعة
٨١	الطوطمية
٩٨	نظرية دركهايم في الطوطمية
١٠٦	النظريات في نشأة الدين
١٣٩	نظرية التآليه
١٥٣	اعتقاد الشعوب المتوحشة بوجود كائن أعلى
١٧٥	الوثنية
١٨٠	الدين وبشر ما قبل التاريخ
١٩٠	معلومات لا بد منها لدراسة الشعوب المتوحشة
٢٠٧	الاعمال التي تتميز بها أديان الشعوب المتوحشة
٢٢٥	التطورات البدائية
٢٣٧	أديان الشعوب المتوحشة

٢٣٧	دين الشعوب في قارة استراليا .
٢٤٨	دين الشعوب المقيمة في أوقيانيا
٢٦٦	الأساطير في اوستراليا وأوقيانيا
٢٧٥	دين الشعوب المتوحشة في أفريقيا
٣٠٠	أديان الشعوب المتوحشة
٣١٨	دين الشعوب الأهلية المتحضرة في أميركا
٣٣٦	دين الشعوب الاميركية الأهلية
٣٥٥	دين الأسكيمو ودين الشامانية
٣٦٥	مراجع الكتاب